

منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي

بسم الله الرحمن الرحيم



كتاب الاثنينية

(٢١)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدّة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٤هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

النقشبندي ، عبدالحق بن عبدالسلام

الأعمال الكاملة للأديب عبدالحق بن عبدالسلام النقشبندي

عبدالحق بن عبدالسلام النقشبندي .- جدة ١٤٢٤هـ

٦٠٠ ص ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الأثنينية ٢١)

ردمك ٨-٩٤٨-١٠-٩٩٦٠

١ - النقشبندي ، عبدالحق عبدالسلام - المؤلفات الكاملة أ- العنوان

ب-السلسلة

ديوي ٨١٠,٨ ١٤٢٤/٥٥٨٧

رقم الإيداع : ١٤٢٤/٥٥٨٧

ردمك : ٨-٩٤٨-١٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة



الأديب عبدالحق بن عبدالسلام النقشبندي

الإهداء

بمناسبة اختيار

مكة المكرّمة عاصمة للثقافة الإسلامية

لعام ١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م،

أهدي هذا العمل لمؤلفي

"وحي الصحراء":

والدي

محمد سعيد عبدالمقصود خوجه

و رفيق دربه

عبدالله عمر بلخير

–يرحمهما الله–

فهرس المحتويات

الرحلات والتاريخ

المقالات

التراجم

المقدمـــة

لقد ازدهرت «الاثنينية» وواصلت مسيرتها وهي تمتح من معين النور في مكة المكرمة مستلهمة فضائل أم القرى من موقع انعقاد فعالياتها بجدة «بوابة الحرمين الشريفين».. وكان لا بد لهذا القرب الجغرافي من إلقاء ظلاله على ما يمكن أن يقدمه هذا المنتدى في مناسبة تاريخية مثل اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية، وإن كانت مكة المكرمة دائماً وأبداً موئل العطاء وإشعاع الثقافة والفكر منذ نزول «اقرأ» بغار حراء على سيد الخلق وخاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ.

والحمد لله الذي ألهمني التوجه إلى بر والدي، وصديق عمره معالي الشيخ عبد الله بلخير «رحمهما الله»... ذاكراً فضل معاليه عليَّ بالتوجيه والرعاية في دروب الحياة المختلفة.. فقد غرسا في نفسي بطريقة مباشرة أو غير مباشرة حب الكتاب... وكانت البذرة التي أخرجت ما تيسر من السنابل والحبوب كتابهما القيم (وحي الصحراء) الذي صدرت طبعته الأولى عام ١٣٥٥هـ، بصفته أول عمل أدبي معاصر يرصد جانباً من نتاج أدباء الحجاز بتراجمهم ونماذج من أعمالهم.. وقد أعادت «تهامة» طباعته للمرة الثانية عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

وكان من فضل الله بما أفضلت به «تهامة» في قمة عطائها إصدار كتاب «محمد سعيد عبد المقصود خوجه حياته وآثاره» للأستاذ الدكتور محمد بن

سعد بن حسين، من سلسلة الكتاب العربي السعودي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.. ثم شرفت بإصدار سلسلة [كتاب الاثنينية] كرافد يوازي [سلسلة أمسيات الاثنينية] وتحت مظلته صدر كتاب «عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية» للأستاذ محمود رداوي، في طبعاته: الأولى عام ١٤١١هـ/١٩٩١م، والثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، والثالثة ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م.. وأردف بكتاب «عبد الله بلخير يتذكر» للدكتور خالد باطرفي (ط١ ـ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ثم كتاب «الغربال» للأستاذ حسين الغريبي (ط١ ـ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).. ثم كتاب «الأعمال الكاملة للشاعر أحمد إبراهيم الغزاوي» الذي صدرت طبعته الأولى في ستة أجزاء (١٤٢١هـ/٢٠٠٠م).. وكتاب «المجموعة الكاملة لآثار الأديب السعودي محمد سعيد عبد المقصود خوجه» للأستاذ حسين الغريبي (ط١ ـ ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) ـ وبين هذه الإصدارات وبعدها ـ أصدر [كتاب الاثنينية] مجموعة أخرى، إلا أن التي نوهت عنها ذات ارتباط مباشر بكتاب «وحي الصحراء» الذي استلهمت منه فكرة الأعمال الكاملة لكل أديب أسهم فيه بأنموذج من أعماله.

وبدأت مرحلة شاقة من البحث، وحصر الأعمال، التي كان معظمها متناثراً أو لدى الورثة الأفاضل الذين حافظوا عليها مشكورين، واستجابوا للإعلانات التي نشرتها في مختلف الصحف، إلى أن تجمعت حصيلة طيبة خضعت لمعايير صارمة من المراجعة والتدقيق أثناء مراحل الطباعة المختلفة... وقد أكرمنا الله عز وجل بطباعة هذه الكتب التي تقدمها «الاثنينية» بكل اعتزاز بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية ما بين عامين وعام من المناسبة المذكورة، وظلت في المستودعات لترى النور وتتلازم مع هذه الفعاليات.. ويسعدنا تقديم:

ـ الأعمال الكاملة للأستاذ حسين سراج (١٠ أجزاء).

ـ أخبار مكة للأزرقي (جزءان في مجلد واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحميد عنبر (جزء واحد).

ـ الأعمال الشعرية والنثرية للأديب الشاعر الأستاذ أحمد العربي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء (٥ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان (٧ أجزاء).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأديب الأستاذ محمد صالح باخطمة (جزء واحد).

ـ الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للأستاذ محمد إسماعيل جوهرجي (٥ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي (٤ أجزاء).

ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأستاذ مصطفى زقزوق (جزء واحد).

ـ الأعمال الكاملة للأستاذ إبراهيم أمين فودة (٤ أجزاء).

ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد عمر عرب (جزء واحد).

ويلاحظ القارىء الكريم أن هناك أعمالاً لم تكن ضمن كتاب «وحي الصحراء» إلا أن أصحابها الأفاضل لهم ريادة وعلاقة وثيقة بهذا التوجه... أي إنها تنصهر كلها في بوتقة حب مكة المكرمة زادها الله تشريفاً وتعظيماً.

سائلاً الله سبحانه وتعالى أن ينفع بها المسلمين ويجعلها خيراً يسهم في إثراء مكتبتنا العربية والإسلامية.

والله الموفق وهو من وراء القصد،،

عبد المقصود محمد سعيد خوجه

كلمة الناشر

بقلم: عبد المقصود محمد سعيد خوجه

هنالك رجال قضوا زهرة حياتهم في خدمة العلم والثقافة والأدب، وبذات القدر تدثروا بالتواضع والابتعاد عن الأضواء ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.. ومن هؤلاء الأديب والشاعر المدني الشيخ عبد الحق بن عبد السلام بن الحكيم عبد العزيز، المعروف بعبد الحق النقشبندي.. وقد أحب المدينة المنورة التي ولد وعاش فيها، وبها تلقى تعليمه الابتدائي، وتنقل بين مسقط رأسه، والشام، ومصر، والهند، ثم استقر بالمدينة المنورة مساهماً في نهضتها الأدبية، وهو من مؤسسي ناديها الأدبي، وقد حظي بتكريم النادي له ضمن كوكبة الأساتذة الأفاضل الذين تم تكريمهم بتاريخ ١٤٢١/١١/٦هـ، تقديراً من النادي لجميع الجهود المبذولة لتطوير الحركة الأدبية والثقافية بمدينة رسول الله ﷺ.

وتأتي طباعة الأعمال الكاملة للشيخ عبد الحق النقشبندي تكريماً له (رحمه الله) وحفظاً لنتاجه الذي أسهم بقصيدتين منه في كتاب (وحي الصحراء) الذي جمعه والدي وصديقه معالي الشيخ عبد الله بلخير (رحمهما الله) عام ١٣٥٥هـ وأعادت تهامة طبعه عام ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م..

وقد سعيت جاهداً لجمع ما أمكن من تراث الأساتذة الأفاضل الذين كتبوا في (وحي الصحراء)، ونشر أعمالهم الكاملة بمناسبة اختيار مكة المكرمة عاصمة للثقافة الإسلامية عام ٢٠٠٥م.

والجدير بالذكر أن الشيخ عبد الحق النقشبندي قد اشتغل بالتدريس في مدرسة العلوم الشرعية، كما افتتح مطبعة مع صديقه السيد أحمد الفيض آبادي.. وهو بذلك قد شرُف بالدخول في زمرة الوراقين.. وهؤلاء لهم فضل كبير ذكره بكل إعزاز فضيلة العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان في كتابه القيم (العلماء والأدباء والورّاقون في الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري (من إصدارات نادي الطائف الأدبي (الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).. وقد ورد فيه تحت عنوان (الوراقة في الحجاز حديثاً منذ ظهور الطباعة عام ١٣٠٠هـ): (في عام ١٣٤٦هـ أسس السيد أحمد الفيض آبادي مؤسس ومدير مدرسة العلوم الشرعية بالاشتراك مع الشيخ عبد الحق النقشبندي في المدينة المنورة مطبعة (طيبة الفيحاء)، وجعلا مقرها مدرسة العلوم الشرعية..) ثم أكمل قائلاً: (في عام ١٣٥٥هـ قام الشيخ عثمان حافظ بشراء مطبعة طيبة الفيحاء لتكون نواة لمطبعة المدينة المنورة التي أسسها علي وعثمان حافظ).

بالإضافة إلى ذلك حصل الشيخ عبد الحق النقشبندي على إجازة رسمية تخوله مزاولة مهنة المحاماة بالمحاكم الشرعية بالمملكة العربية السعودية عام ١٣٥٦هـ، وبهذا فهو من الرعيل الأول الذين دخلوا هذا المجال المهم في كل مجتمع، وقد انتسب إلى سلك المحاماة بطريقة نظامية، ووفق القرارات والأوامر السامية التي تنظم ذلك العمل، وقد أثبتنا صورة زنكوغرافية عن تلك الإجازة في هذا الكتاب.

لقد عطَّر الشيخ عبد الحق النقشبندي أجواء المدينة المنورة بشعره العذب الرصين، فله قصائد في كثير من أغراض الشعر كالرثاء، والمدح، والوصف،.. وله قصائد مميزة في مدح رسول الله ﷺ، وليس ذلك بغريب عن محب تجذّر حب رسول الله، وآل بيته، وصحابته، ومدينته الطيبة في نفسه الزكية.. وكتب أيضاً في مواضيع شتى بمجلة (المنهل).. وقد عرف عنه أنه متنوع الثقافات، وله دراسات قيّمة عن تاريخ المدينة المنورة.. وجاشت نفسه بكثير من المشاعر الصادقة عند تناوله موضوع الأندلس المفقود.. وحفظ لنا وللأجيال القادمة مجموعة من الأمثال الدارجة الاستعمال.. كما ساهم في النهضة التعليمية والثقافية، وتناول سيرة عمر بن عبد العزيز بالدراسة والتحليل، وكتب حول رمضان، والزكاة، والأخلاق الإسلامية.. وترجم لعدد من أبناء جيله، وبطبيعة الحال يميل أسلوبه إلى البساطة والرقة والمباشرة وتوخي الجانب التربوي في كثير من الأحيان.

الشيخ عبد الحق النقشبندي لا يميل إلى التخصص في كتاباته، فقد منحه الله سبحانه وتعالى مقدرة فائقة على تسجيل الأحداث التي تمر به، كما يمتاز بالاستطراد وتلقائية الطرح، فيتناول كثيراً من المواضيع ببراعة متناهية، وهذا دليل على واسع ثقافته واطلاعه، وأحسب أن احتكاكه بثقافات الشرق والغرب التي اكتسبها من خلال رحلاته العديدة قد أمدته بمخزون كبير في هذا الجانب.

آملاً أن يشكل هذا الإصدار إضافة للمكتبة السعودية والعربية، والله الموفق.

**جده ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م		عبد المقصود محمد سعيد خوجه**

إصدارات كتاب الاثنينية

١ ـ ديوان (الأعمال الكاملة).

لمعالي الأستاذ أحمد بن محمد الشامي، (رقم ١) الطبعة الثانية ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢ ـ كتاب (عبد الله بلخير شاعر الأصالة والملاحم العربية والإسلامية).

لمؤلفه الأستاذ محمود رداوي، (رقم ١/١) الطبعة الرابعة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٣ ـ ديوان (عاصفة الصحراء).

للشاعر الأستاذ محمود عارف، (رقم ١/ ٢) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤ ـ ديوان (الأربعون).

للأستاذ عبد السلام هاشم حافظ، (رقم ١/ ٣) الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٥ ـ ديوان (قلبي على وطني)

للشاعر العراقي الأستاذ يحيى السماوي، (رقم ١/ ٤) الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٦ ـ كتاب (جرح باتساع الوطن).

للشاعر الأستاذ يحيى السماوي، (رقم ١/ ٥) الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٧ ـ ديوان (حصاد الغربة)

للشاعر العراقي الدكتور زاهد محمد زهدي، (رقم ٦/١) الطبعة الثالثة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٨ ـ ديوان (الأعمال الكاملة)

للأستاذ الراحل زكي قنصل، (رقم ٢) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٩ ـ كتاب (البهاء زهير)

للأستاذ المرحوم محمد إبراهيم جدع، (رقم ٣) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٠ ـ كتاب (التوازن معيار جمالي)

للأستاذة غادة بنت عبد العزيز الحوطي، (رقم ٤) الطبعة الثانية ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١١ ـ كتاب (سوانح وآراء)

للأستاذ الدكتور بدوي طبانه، (رقم ٥) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٢ ـ كتاب (ترجمة حياة)

لمعالي الأستاذ محمد حسن فقي، (رقم ٦) الطبعة الأولى ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٣ ـ ديوان (قوس قزح)

لفضيلة معالي الدكتور الشيخ أحمد الزرقاء، (رقم ٧) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤ ـ كتاب عبد العزيز الرفاعي من المهد إلى اللحد (الجزء الأول).

للأستاذ الشاعر أحمد سالم باعطب، (رقم ٨) الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ـ ١٩٦٦م.

١٥ ـ كتاب عبد العزيز الرفاعي من المهد إلى اللحد (الجزء الثاني)

للأستاذ الشاعر أحمد سالم باعطب، (رقم ٨) الطبعة الأولى ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٦ ـ ديوان الأعمال الكاملة (الجزء التاسع)

لمعالي الأستاذ محمد حسن فقي، (رقم ٩) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٧ ـ ديوان (أوراق من هذا العصر)

للشاعر الدكتور خالد محي الدين البرادعي، (رقم ١٠) الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

١٨ ـ ديوان (زمن لصباح القلب)

للشاعر فاروق بنجر، (رقم ١١) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٩ ـ الشعراء في إخوانياتهم

للأستاذ خالد القشطيني، (رقم ١٢) الطبعة الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٢٠ ـ عبد الله بلخير يتذكر

للأستاذ خالد باطرفي، (رقم ١٣) الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢١ ـ كتاب (الغربال)

للأستاذ حسين عاتق الغريبي، (رقم ١٤) الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٢٢ ـ ديوان (حلم طفولي)

للأستاذ سعد البواردي، (رقم ١٥) الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٣ ـ كتاب (الأعمال الشعرية الكاملة وأعمال نثرية)

للشاعر أحمد بن إبراهيم الغزاوي، (رقم ١٦) الطبعة الأولى ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٢٤ ـ المجموعة الكاملة لآثار الأديب السعودي الراحل محمد سعيد عبد المقصود خوجه

إعداد وتقديم الأستاذ حسين عاتق الغريبي (رقم ١٧) الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م.

٢٥ ـ الأعمال الكاملة للشاعر والأديب الكبير حسين عبد الله سراج رقم (١٨)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٦ ـ أخبار مكة للأزرقي رقم (١٩)، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م

٢٧ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحميد عنبر رقم (٢٠)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٨ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي رقم (٢١)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٢٩ ـ الأعمال الشعرية والنثرية للأديب الشاعر الأستاذ أحمد العربي رقم (٢٢)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٠ ـ الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للأستاذ محمد إسماعيل جوهرجي رقم (٢٣)،
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣١ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد حسين زيدان رقم (٢٤)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٢ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عبد الوهاب إبراهيم آشي رقم (٢٥)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٣ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء رقم (٢٦)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٤ ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأديب الأستاذ محمد صالح باخطمة رقم (٢٧)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٥ ـ الأعمال الكاملة للأديب الدكتور عاصم حمدان علي رقم (٢٨)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٦ ـ الأعمال الشعرية الكاملة للأستاذ مصطفى زقزوق رقم (٢٩)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٧ ـ الأعمال الكاملة للأستاذ إبراهيم أمين فودة رقم (٣٠)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٣٨ ـ الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ محمد عمر عرب رقم (٣١)
الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

السيرة الذاتية

ولدت بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٢هـ ووالدي عبد السلام بن الحكيم عبد العزيز ينتمي إلى عرب قريش، سافر أحد أجدادي للهند للجهاد والتجارة، اشتغل جدي بالطب في بلده أجره القريبة من دلهي، وفي حرب السبعين هاجر جدي مع ذويه لمكة المكرمة فكانت جدتي حاملاً بوالدي فولد بمكة المكرمة سنة ١٢٨٠هـ وتوفيت جدتي بعد ولادته، وبعدها سُرِقَ ما كان مع جدي من نقود فاضطر للرجوع للهند واتخذ مقاماً له في بلده بومباي وتزوج جدي بأخرى، وتعلم والدي إصلاح الساعات ومبيعها فزوجه جدي بإحدى كريمات الهنود وولد منها أولاداً، ثلاث بنات وولداً واحداً وفي سنة ١٣٢٠هـ عزم على أداء فريضة الحج، وبعد الحج جاء للمدينة المنورة وحبب له المقام فتزوج بوالدتي التي تمت بنسبها إلى سيدنا جعفر الطيار، وبعد سنتين رجع لبومباي ليأتي بأولاده فجاء للمدينة وكانت والدتي حاملاً بولد آخر وتوفيت بعد ولادته، وكان والدي يملك داراً ودكاناً في بومباي فباعها، وحيث إن أم أولاده كانت قد كبرت فتزوج والدي بإحدى كرائم التونسيات وهي عمة الأستاذ الربيع مدير التعليم بالمدينة وبعد وفاة والدتي كفلتني جدتي لأميّ، ولما أتممت السابعة أخذني والدي لتربيتي وتعليمي وأدخلني الكتاب فحفظت القرآن الكريم وعمري لا يتجاوز الثانية عشرة سنة ١٣٣٢هـ ولما وقعت الحرب العظمى

وأُخلي سكان المدينة للشام لتأمين معيشتهم خوفاً من ثورة الحسين بن علي وتوجس الترك بهذه الثورة، وكان الترك قد تحالفوا مع الألمان، وكان همهم الإبقاء على الحرمين فبعثوا بأحد قوادهم المشهورين (فخري باشا) وهو الذي كان يأمر بسفر أهل المدينة المنورة، ووقع ما توقعه الترك، فقام الشريف الحسين بالثورة سنة ١٣٣٥هـ واتحد مع الحلفاء وبعث جنوده بقيادة الضابط (لورنس) لتخريب سكة حديد الحجاز بوضع الألغام على قضبانها حتى تنفجر حال مرور القطار عليها، وأبى والدي السفر إلى الشام وبقي مختفياً بالبيت مع زوجته، وبدوري هربت أنا للشام لألتحق بجدتي لأميّ التي سافرت من قبل، وبعد شهور مرضت بالتيفود الذي انتشر في المهاجرين من أهل المدينة المنورة وغيرهم ومكثت أربعين يوماً قمت بعدها شافياً من ذلك المرض الوبائي، وبعد انكسار الجيش العثماني بفلسطين وتعقب الجنرال اللنبي له إلى دمشق أذن لنا بالسفر للمدينة المنورة بعد استيلاء الشريف الحسين للمدينة فسافر من بقي منا من وباء التيفود للمدينة بطريق السويس ومنها ركبنا لينبع فالمدينة المنورة فكانت حقائبنا سُرِقَ ما فيها من الملابس، فوصلنا المدينة بالملابس التي كانت على أجسامنا فقط فأدخلني والدي إحدى المدارس التي أنشأها الشريف بالمدينة تيمناً بأسماء أولاده الأمراء علي وعبد الله وفيصل وزيد، وكنت بالمدرسة الفيصلية فدرست سنتين حتى نلت الشهادة التحضيرية. وبعدها دخلت المدرسة الراقية ومكثت فيها ثلاث سنوات ثم سافرت لمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة ١٣٤١هـ وبعدها سافرت للهند سنة ١٣٤٢هـ لطلب العلم بمساعدة مربينا وأستاذنا السيد أحمد الفيض أبادي بمدرسة العلوم الشرعية، وسافرت من جدة في زي حاجي هندي حيث كان محظوراً على أهل المدينة المنورة السفر للهند بأمر الشريف، وبعد أن درست ثلاث سنوات ونلت الشهادة العالمية رجعت للمدينة عام ١٣٤٤هـ

وبعد الحج سافرت لمصر لآتي بمطبعة صغيرة أعمل عليها، فرجعت بتلك المطبعة مع أدواتها وحروفها وأتيت بكتب علمية لبيعها لحساب ناشرها المرحوم عبده آغا الدمشقي، ولما وصلت المدينة طلبت من السيد أحمد الفيض أبادي أن يجعلها عنده حتى أجد لها مكاناً فأعطاني غرفة بالمدرسة لأعمل عليها، وتوظفت بالمدرسة معلماً للعلوم العربية وكنت أعمل في المطبعة بعد العصر مع بعض تلامذة المدرسة الذين يحبون التعليم، وأول ما طبعت عليها نتيجة اختبار تلامذة المدرسة لذلك العام فطبعتها بجهد ومشقة صفحة صفحة لأن المطبعة كانت بمقاس ٢٠ x ٣٠ فقط وبعد طبع الرسالة احتجت لأدوات وحروف أخرى، فاستدنت من السيد أحمد المذكور لأجلب تلك الأدوات، واقترح أن نكون شركاء في المطبعة فرضيت، وأصبحت المطبعة بيني وبينه ثم إنه احتاج إلى الغرفة التي كنت أعمل فيها وفي تلك الأثناء أواخر سنة ١٣٤٥هـ زوجني والدي من إحدى بنات المدينة التي تمت بنسبها للعارف بالله إبراهيم الكوراني، ثم أن السيد أحمد أراد أن يبيعني قسمه في المطبعة ولم يكن لدي ما اشتري به حيث أن راتب المدرسة ووارد الطبع لم يكن شيئاً ذا بال بل كنت أصرفه في المعيشة.

وولد لي ابنتان إذ ذاك وكنت ساكناً مع الوالد فطلب مني أن أنتقل لبيت آخر، فأعطاني السيد أحمد دوراً في رباط التونك فانتقلت إليه وقد كنت استقلت من مدرسة العلوم الشرعية لقلة الراتب وتوظفت معلماً أولاً بالمدرسة الابتدائية الأميرية سنة ١٣٤٨هـ ومكثت أدرس فيها حتى سنة ١٣٥٠هـ وكانت الأزمة الاقتصادية قد بدأت، وقد فاتني أن أذكر أنني حسّنت شراء نصف المطبعة للسيد عثمان حافظ فاشترى قسم السيد أحمد، وطفقت أعمل معه شريكاً في المطبعة وفتحنا معها مكتبة لبيع الكتب والمصاحف وأداوت مدرسية وجلبنا الصحف والمجلات المصرية تنويراً

للشباب والطلاب النابهين منهم، وفي تلك السنة أسست مع بعض الزملاء النادي الأدبي وهم السيد محمد زيدان عثمان، والمرحوم ضياء الدين رجب، والمرحوم عبد الحميد عنبر، والمرحوم عبد الله حجار، والمرحوم سامي حفظي، والأستاذ أحمد بشناق وكنا نلقي المحاضرات كل ليلة جمعة في صالون المدرسة الابتدائية بإذن من مديرها لأن النادي غير مرخص رسمياً، وفي بعض المناسبات أقمنا حفلات تكريم لبعض الشخصيات المرموقة، وكان الأمير يومئذ عبد العزيز بن إبراهيم فعلم بهذا النادي الأدبي، فأوعز إلينا رئيس الديوان المرحوم إسماعيل حفظي بإيقاف النادي فتوقف، وكنت كما ذكرت معلماً بالمدرسة وبدأت الأزمة الاقتصادية في المملكة فاستجزت شهراً للسفر للخارج وتوجهت لمكة المكرمة وبعد الحج أردت أن يكون سفري بطريق الرياض والأحساء ولم يكن السفر ميسوراً إلا بإذن خاص، وفي تلك السنة أنشأت جريدة صوت الحجاز فحببت إلى السيد أحمد صديقي أن أكون منتدباً عنها لجلب الاشتراكات وموافاة الجريدة بالرحلة فقصدني المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان وكانت بيني وبينه صداقة وثيقة لما جاء للمدينة من الرياض وأفرج عنه فكتب لي توصية لمحمد السليمان فقابلته فقال لي تذهب مع هيئة اللاسلكي الذاهبة للرياض والأحساء وكلم رئيس الهيئة المرحوم إبراهيم زارع وكنت دعوته لحفلة شاي في داري بالرومية وعرفته بزملائي شباب المدينة، فذهبت إليه فسر بي وفي اليوم الثاني سافرت معه إلى الرياض وقابلنا جلالة الملك عبد العزيز ولما علم أني مندوب جريدة صوت الحجاز أكرمني بمنحة مائة ريال وكنت نظمت قصيدة في مدحه أذكر مطلعها:

مليك العرب دم وأنعم صباحا فسعدك في سما الإقبال لاحا

ثم سافرت مع باقي هيئة اللاسلكي للحسا ونزلت ضيفاً على المرحوم الشيخ محمد الطويل مدير الجمارك، وسافرت معه للبحرين ومنها للكويت وكنت عدلت عن السفر للهند، ومن الكويت سافرت للبصرة فبغداد ونزلت لدى المرحوم الشيخ يوسف خشيرم صديق الملك فيصل ملك العراق فعلم الملك منه بقدومي وأحب أن يراني ورتب لي الشيخ يوسف مقابلته في اليوم الثاني فسلمت عليه وكان سألني عن المدينة وبعض من يعرفهم فيها فأجبته بما أعلم عنهم، وفي اليوم الثاني علمت من الشيخ يوسف خشيرم أنه سافر لمصيفه في بلده بنجوين وقال له عني إنه يخشى علي كشاب جريء وما سمعت هذه المقالة حتى سافرت لدمشق ومكثت باقي أيام الصيف ثم رجعت بطريق مصر للمدينة المنورة فينبع ونزلت لدى أميرها، وصدف أن نزل عنده القائد ابن سلطان قامع فتنة ابن رفادة فطلب منه أن يصحبني للمدينة معه حيث كان يريد الذهاب للمدينة المنورة وزرت مع أمير المدينة المنورة يومئذ عبد العزيز ابن إبراهيم ولم يعلم أن عبد الحق كاتب المقالات في جريدة صوت الحجاز (ما بين بغداد ودمشق) وخاصة المقال الذي كتبته عن الملك فيصل وبعدها أحجمت عن الكتابة مدة طويلة وكنت رجعت خاوي الوفاض، فاتخذت دكاناً لبيع المصاحف وأدوات الكتابة حيث إن وظيفتي قد انحلت وتوظف فيها زميلي عثمان، ثم بعد أيام استقال منها السيد عثمان، ورجعت إليها، بيد أن الأزمة الاقتصادية ما زالت قائمة فجعلت أبحث عن وظيفة أهليه فتعينت مديراً لدار الأيتام أعمل كمحاسب ثم مديراً له، وفي تلك الأثناء قدمت لطلب إجازة محام بالمحكمة فحصلت على الإجازة ثم تعينت محامياً لمالية المدينة المنورة على شرط أن لا أداوم بالمالية بل ابلغ عن الجلسة التي ينبغي أن أحضر فيها كمندوب للمالية، ولما استقلّت الهند وباكستان

توقفت المساعدات التي كانت ترد للمعمل فاستقلت منه بعد عمل دام خمس عشرة سنة وأحلت للتقاعد من وظيفة المالية فذهبت بالأولاد لمصر لتعليمهم لحسابي، وان عبد العزيز الأكبر يدرس هناك في البعثة السعودية فأدخلتهم المدرسة التي كان السيد ولي الدين أنشأها ورجعت بابني الصغير عبد السلام ووالدته وانحلت وظيفة المحامي بوزارة المالية فانتدبت لها وتوظفت براتب طيب وبقيت ثلاث سنوات فيها وكنت أتردد لمصر في اشهر الصيف لزيارة الأولاد حتى أحلت للمعاش ثانياً فذهبت للإقامة بمصر ومراقبة الأولاد.

ولما قام عبد الناصر بنصرة الاشتراكية توقف راتب الموظفين السعوديين فاضطررت للرجوع للمدينة لانقطاع الراتب ومكثت بالمدينة واعتراني مرض الاكتئاب وظللت أتعالج منه، وكان الأولاد قد أتموا دراستهم فتخرج عبد العزيز في كلية سلاح المهندسين وفي كلية الاقتصاد السياسي من جامعة القاهرة وتخرج محمد في كلية الهندسة من جامعة القاهرة، وتخرجت البنتان في جامعة عين شمس من الإدارة والمحاسبة، ورجعت بهم وزوجت البنتين الأولى على المهندس طلال بكر والثانية على الصيدلي أحمد جادو وبعد زواجهما سافرا إلى أمريكا ليدرسا الماجستير والدكتوراه وبقيا هناك أربع سنوات نالا الدكتوراه ورجعا للمملكة بعد أن أنجبت البنتان كل منهما بولدين وتوظف عبد العزيز بالدفاع وجرى زواجه، وتوظف محمد ببلدية الرياض وجرى زواجه، وسافر بعدها مع زوجته لنيل الماجستير في العمارة من جامعة كنساس، وعبد السلام نال التوجيهي من المدينة وبعث لأمريكا ونال دبلوم التربية ورجع وتوظف مدرساً بجامعة الرياض وجرى زواجه من ابنة المرحوم عبد الحميد عنبر وانتدب لأمريكا لدراسة الماجستير فذهب مع زوجته وتحصل على الماجستير في التربية

ورجع أستاذاً بكلية التربية بجامعة الرياض، ومكثت أنا بالمدينة مع والدتهم وقد بلغت من العمر ستاً وسبعين سنة وأطلب من المولى حسن الختام والدفن بالبقيع الغردق إنه سميع الدعاء.

* وقد توفي الأستاذ (عبد الحق بن عبد السلام النقشبندي) رحمه الله في شعبان عام ١٤٠٢هـ.

بسم الله الرحمن الرحيم

عدد ٨

حيث ان هذه الشهادة جارية علي اصولها الموضوعة جرى التصديق عليها
ولذا تحرر في ١١ رمضان ٣٥٦ هـ

رئيس القضاة	عضو	عضو	عضو	عضو
	غائب			


(رسم صاحب الشهادة)

بسم الله الرحمن الرحيم

(شهادة)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على النبي الكريم (صلى الله عليه وسلم) اما بعد فقد اجتمعت الهيئة العلمية في يوم الخميس الموافق ١٤/١/...
المشكلة من قبل فضيلة قاضي المدينة المنورة وتحت رئاسته والموافقة من فضيلة نائب القاضي الشيخ عبد الحفيظ كردي وفضيلة
الشيخ عبد الرؤوف محمد الباقي احد العلماء المدرسين بالمسجد الشريف النبوي وفضيلة الشيخ صالح الزغيبي احد المدرسين بالحرم
الشريف النبوي وإمامه ورئيس كتاب المحكمة الشرعية لأجل درس الشهادات العلمية التي يحملها الشيخ «عبد الحق
النقشبندي» في حضوره وأعطائه شهادة تمنحه حق تعاطي مهنة المحاماة بالمحاكم الشرعية في المملكة العربية
السعودية حسب طلبه في عريضته التي قدمها للمحكمة الشرعية بتاريخ ٦ جمادى الأولى ٣٥٦ والمقيدة لديها عدد ٨٨٤ وبعد حضور طالب الشهادة
المحاماة أبرز للهيئة المذكورة شهادة علمية صادرة من مدرسة مظاهر العلوم من بلدة سهارنبور بالهند تجيزه بالاشتغال بتعليم علوم
الدين كما انه أبرز لها شهادات دراسته التحضيرية والابتدائية ووثائق رسمية تدل على مزاولته مهنة التعليم في مدرسة
العلوم الشرعية والمدرسة الأميرية الابتدائية وجواز سفره الذي تبين أنه تابع الحكومة السنية وشهادة مصدقة من البلدية تدل على حسن سلوكه.
كل ذلك فحصناه فظهر لنا ان المذكور هو من أتباع الحكومة السنية وأنه حسن السلوك ومستقيم الأحوال ولم يصدر منه ما يخل بالشرف
وظهر لنا ايضاً سلامة وثائقه العلمية من العبث والتزوير وانها توازي الشهادة التي تعطى من مدرسة الفلاح او المعهد
السعودي وأن عمره تجاوز خمساً وعشرين سنة فعليه تقرر لدينا بالاتفاق منحه هذه الشهادة تخوله مزاولة مهنة المحاماة بالمحاكم
الشرعية في المملكة العربية السعودية وذلك حسبما جاء في قرار مجلس الشورى الموقر رقم ١٧٠ في ٢٩/٢/١٣٥٢ وقرار
سماحة رئيس القضاة رقم ١٢٠٦ في ٢١/٩/١٣٥٢ والإرادة السنية الملوكية رقم ٤٠٢ - ٦٢٢ في ٢١/٧/١٣٥٣ والأمر السامي
رقم ١٠٧ في ٢٩/٢/٣٥٣ وأمرناه بتقوى الله ومراقبته في سره وعلنه وبالله الاعتماد. تحريراً في الرابع عشر من جمادى الأولى ١٣٥٦

«الهيئة العلمية»

أعضاء

رئيس كتاب المحكمة	أحد العلماء المدرسين	أحد العلماء المدرسين	نائب القاضي	الرئيس قاضي المدينة المنورة

علي

بسم الله الرحمن الرحيم

(شهادة)

حيث أن هذه الشهادة جارية على أصولها الموضوعة جرى التصديق عليها ولذا تحرر في ١١ رمضان ١٣٥٦هـ.

عضو　　عضو　　عضو　　عضو　　رئيس القضاة

الحمد لله رب العالمين والصّلاة والسّلام على النبي الكريم ﷺ أمّا بعد فقد اجتمعت الهيئة العلمية في يوم الخميس الموافق ١٤ الجاري المشكلة من قبل فضيلة قاضي المدينة المنورة وتحت رئاسته والمؤلفة من فضيلة نائب القاضي الشيخ عبد الحفيظ كردي وفضيلة الشيخ عبد الرؤوف عبد الباقي أحد العلماء المدرسين بالمسجد الشريف النبوي وفضيلة الشيخ صالح الزغيبي أحد المدرسين بالحرم الشريف النبوي وإمامه ورئيس كتاب المحكمة الشرعية لأجل درس الشهادات العلمية التي يحملها الشيخ «عبْد الحقّ» النقشبندي في حضوره وإعطائه شهادة تمنحه حق تعاطي مهنة المحامات بالمحاكم الشرعية في المملكة العربية السعودية حسب طلبه في عريضته التي قدمها للمحكمة الشرعية بتاريخ ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٥٦هـ والمقيدة لديها عدد ٨٨٤ وبعد حضور طالب شهادة المحاماة أبرز للهيئة المذكورة شهادة علمية صادرة من مدرسة مظاهر العلوم من بلدة شهرانبور بالهند تجيزه بالاشتغال بتعليم علوم الدين كما أنه أبرز لها شهادات دراسته التحضيرية والابتدائية ووثائق رسمية تدل على مزاولته مهنة التعليم في مدرسة العلوم الشرعية والمدرسة الأميرية الابتدائية وجواز سفره بدا أنه تابع للحكومة السنية وشهادة مصدقة من البلدية تدل على حسن سُلوكه. كل ذلك فحصناه فظهر لنا أن المذكور هو من أتباع الحكومة السنية وأنّه حسن السلوك ومستقيم الأحوال ولم يصدر منه ما يخل بالشرف وظهر لنا أيضاً سلامة وثائقه العلمية من العبث والتزوير وأنها توازي الشهادة التي تعطى من مدرسة الفلاح أو المعهد السعودي وأن عمره تجاوز خمساً وعشرين سنة فعليه تقرر لدينا بالاتفاق منحه هذه الشهادة لتخوله مزاولة مهنة المحامات بالمحاكم الشرعية في المملكة العربية السعودية وذلك حسبما جاء في قرار مجلس الشورى الموقر رقم ١٧٠، ١٣٥٢/٢/٢٩ وقرار سماحة رئيس القضاة رقم ١٣٠٦، ١٣٥٢/٩/٢١ والإرادة السنية الملوكية رقم ٩٠٣ ـ ٦٣٣، ١٣٥٣/٣/٢١ والأمر السامي رقم ١٠٧، ٣٥٣/٣/٢٩ وأمرناه بتقوى الله ومراقبته في سره وعلنه وبالله الاعتماد. تحريراً في الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ١٣٥٦.

الهيئة العلمية،،　　أعضاء

رئيس كتاب المحكمة　　أحد العلماء المدرسين　　نائب القاضي　　الرئيس قاضي المدينة المنورة

علي حافظ　　صالح الزغبي　　الشيخ عبد الحفيظ كردي

الشعر

رثاء عالم

نظمت هذه القصيدة راثياً أستاذنا السيد أحمد الفيض أبادي باني مدرسة العلوم الشرعية سنة ١٣٤١هـ.

قد قضى أحمد لدار خلود   فافتقدنا به العليم الذكيا
وذرفنا الدموع حزناً عليه   وأقمنا الصلاة عنه مليا
وحرمنا من فيض علمه وتقىً   كان عوناً على الجميع أبيا
إيه يا أحمد الخصال فإنا   قد عهدناك زاهداً وتقيا
إيه يا أحمد الفعال ستلقى   في رحاب العلا مكاناً عليا
قد أقمت للعلوم بناءً   شامخاً عالياً يطول الثريا
إن مهد العلوم في ركن طه   سوف يبقى على الزمان نديا
إي وربي ففضله لم يزل بي   باقياً دائماً على عاتقيا
فسندعو الإله يرحمه دوماً   أنه لم يمت فذكره حيا

شوق

أول قصيدة نظمتها حينما كنت أدرس بالهند سنة ١٣٤٣هـ أشتاق لموطني المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

تذكرت ذاك الأهيف المائس القد ففاضت لآلي الدمع منّي على خد
خليليَّ عرجا نحو طيبة إن لي بها شادنا يُسبي عقول أولي الرّشد
وقولا له إن المتيم لم يزل على ذلك العهد القديم من الود
لقد برح الشوق الملم بجسمه فأضحى خيالاً لا يعيد ولا يبدي
فهمٌّ وغمٌّ والتياعٌ وغربة فتباً لهذا الدهر كيف بنا يُردي
رعى الله أياماً تقضت بطيبة وليلات أنس في نعيم وفي سعد
يخيل لي أني خيال من الجوى فطوراً إلى جزْرٍ وطوراً إلى مد
ألا قاتل الله الهوى ما أمرّه وأحلى اللقا بعد التفرق والبعد
وكيف وصولي نحوكم سادة الحمى وشتان ما بين المدينة والهند
ألا ليت شعري هل لطيبة عودة أقبّل أعتاب الحبيب وأستجدي
إلى أحمد المختار زاد تولعي وهاجت تباريح الصبابة والوجد
لعلي إذا ما نلت منه شفاعة أنال المنى في القرب منه وفي البعد
فطوبى لمن قد بات بالجذع هانئاً وواحسرتا للواله الصب في الهند

تحية (التمدن الإسلامي)

نظمت هذه القصيدة لما رجعت من دمشق سنة ١٣٥١هـ تحية لمجلة (التمدن الإسلامي) التي كانت تصدر بدمشق وكنت مصطافاً بدمشق:

ذكرت صحباً بجيرون وجيرانا فأجج الشوق في الأحشاء نيرانا
يا نائح الطلح قد جددت من شجني فالذكريات تثير الوجد ألوانا
يا ويح نفسي مما قد ألم بها فالقلب مبتئس والفكر حيرانا
يا ليت شعري هل وصل أفوز به أم ينقضي العمر تلويعاً وأحزانا
ما أحسبن بأن الدهر يسعدني يوماً فأروي غليل النفس صديانا
أين الليالي التي أمضيتها فرحاً كالطير أقطع جناتٍ ووديانا
يوم بنجد ويوم بالعراق إلى معالم الشام حتى جبت لبنانا
تلك المغاني وما تحويه من متع من جنة الخلد أرواحاً وريحانا
ظل ظليل وأزهار مضوّعة والماء بينهما ينساب تحنانا
وبلبل الروض في الأغصان من فرح يشفي الصبابة تغريداً وألحانا
وفتية من كرام القوم تحسبهم من حسن طلعتهم حوراً وولدانا
إن كنت أنسى فلا أنسى جهابذة هم صفوة القوم أخلاقاً ووجدانا
قاموا بنصرة دين الله تعرفهم غراً أماثل أشياخاً وشبانا

وأنشأوا صفحة بالحق ناشرةً   محاسن الدين إسراراً وإعلانا
هذا التمدن في الإسلام ويحكمو   صور الهداية تبليغاً وتبيانا
كم بين أصدائه نوراً يضيء سناً   يزداد منه أولو الأبصار إيمانا

تكريم صديق

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمده وأصلي على رسوله

سادتي الأماثل

إن من أجل دواعي السرور والابتهاج أن يجتمع اليوم نخبة من أعيان المدينة المنورة وأفاضلها لتكريم الأستاذ الجليل السيد أحمد العربي. ولا غرو فإن التقدير والثناء ببناء الأمة لمن أعظم أسباب رقي الأمة وتمدنها وسيرها حثيثاً إلى ذروة الحضارة والمجد لأن النفوس البشرية جبلت على الإعجاب بها والثناء عليها، وهذا لا يكون إلا لذوي الهمم العالية والأعمال المجيدة ليشجعها ويغري غيرها لاقتحام المصاعب في سبل الفضيلة والكمال، وإن المحتفل به لمن أولئك العلماء الأفذاذ الذين قدر الله أن نراهم في هذا العصر السعودي وفي عهد مدير معارفنا هذا المقدام. ولقد تمثل شعورنا بهذا الابتهاج الباهر في بضع أبيات من

(*) نظمت هذه القصيدة في حفلة تكريم صديقي السيد أحمد العربي لنيله دبلوم دار العلوم العليا من القاهرة سنة ١٣٥٢هـ.

الشعر فاضت من نفس ملؤها الود الخالص والثناء الجميل.

آب الخليل المفدى يسمو جلالاً ومجدا
أهلاً به من نبيل له المحامد تُهدى
قد حاز عزاً وفخراً وبالمعالي (تردى)
حيّيه زهر الروابي وفوح عطراً وندّا
وتيه يا غصن بان وميس عطفاً وقدا
ورحبي يا ربوع البـ ـلاد غوراً ونجدا
بعبقري كريم ساد انتهاءاً ومبدا
سليل آل رسولٍ قد اكتسى العز بردى
وزانه تاج فضل من المهيمن مُهْدَى

❊ ❊ ❊

لله درك شهماً بذلت بالعلم جُهداً
فنلت فضلاً عظيماً وحزت حظاً وسعدا
وكل شهم أديب يوليك شكراً وحمدا
سريت مثل هلال وابتَ بدراً تبدى
فمن أراد المعالي سعى إليها وجدا
بالجد نيل الأماني ومن يرم نال جدّا

❊ ❊ ❊

هيا رجال بلادي نشمر اليوم زندا
نشيّد للعلم صرحاً نشيّد ركناً تندّا

بالعلم ندرك شأواً	بالعلم ندرك قصدّا
الجهل قد عم فينا	حتى طغى وتعدى
فيم البقاء بذُلٍّ	من دونه الموت أجدى

* * *

حيّا الإله مليكي	عبد العزيز المفدّى
من ساد نبلاً ورأباً	والجود منه استمدى
فكم له من أيادٍ	جلت عن الحصر عدّا
وكم له من جميل	على الحجاز تبدى
يا رب وفقه دوماً	وأولِهِ منك أيدّا

في حفل استقبال الكشافة العراقية(*)

أحمده وأصلي على رسوله العظيم.

سادتي أخواني:

باسم أهالي البلدة الطاهرة وفي مقدمتهم سمو أميرنا المحبوب أرحب بكم أيها السادة. ثم باسم شباب المدينة خاصة أعبر عن أعظم السرور والابتهاج بقدومكم الميمون وأشكركم بالنيابة على تلبيتكم لهذه الحفلة الزاهرة.

سادتي..

تقديراً للعلم وإعجاباً بالبطولة وتقوية لأواصر المودة والقربى نحتفل بكم أيها السادة في هذه الليلة السعيدة التي طالما تمنينا أن يسعدنا الزمان بمثلها، وإن الزمان بمثلها لبخيل، ولا بدع فأنتم عنوان للمعارف ومثال للبطولة ورمز للوطنية الصحيحة ونموذج للحرية، فأهلاً ومرحباً بكم بارك الله فيكم.

حدثنا التاريخ عن العصر الذهبي العباسي عصر الرشيد والمأمون وعن دار الحكمة والجامعة النظامية وعن مبلغ الحضارة والرقي في ذلك

(*) ذكرى الكشافة العراقية سنة ١٣٥٣هـ. مطبعة أم القرى.

العصر فأمنا بكل ما رواه لنا التاريخ، إلا أننا نصدق يقينا بما شاهدناه من تقدمكم الحثيث وجدكم المتواصل. رأينا نهوضاً علمياً وأدبياً ومادياً وسياسياً وبالجملة نهوضاً في كل ناحية من نواحي الحياة فهناك المدارس العليا والبعوث العلمية والمدارس الحربية ومعامل الذخيرة، ومعامل الصناعات المتنوعة، ومعادن الإسمنت والبترول وغير ذلك مما يطول شرحه وهناك تجدد ظاهر حتى في أسماء المسميات فبدلاً من أسماء الشوارع العتيقة أسماء عربية تدل على عظمة الجدود وتعيد ذكر السلف فهذا شارع الرشيد، وذلك شارع المأمون، إلى شارع الرازي، والمتنبي وأبي نواس، وبدلاً من تسمية النقود بأسماء أعجمية شاع اسم الفلس والدرهم والدينار. عرضت هذا كمثال لما حدث أخيراً من الإنقلاب الإصلاحي ولو سردنا غيره لطال بنا المجال، كل ذلك آية بينة وبرهان قاطع على الحياة الحقيقية والسعادة الموجودة والاستقلال المجيد. ولقد أصبحتم حقاً أيها السادة كما قال فيكم المرحوم شوقي:

أمة تنشيء الحياة وتبني   كبناء الأبوة الأمجاد

أخواني:

أنتم أخواننا في العروبة وشركاؤنا في الآلآم لا فرق بين العراقي والحجازي واليمني والسوري إن هي إلا تجزئات أريد بها تضليل بسطاء العقول وضعاف الأحلام، فالجزيرة بلادنا، والإسلام ديننا، والكرم شعارنا، والعمل دأبنا لنجاح القضية العربية ما دام فينا رمق من الحياة كنتم وكنا بالأمس في سبات عميق من الجهل والخمول منسيين في زوايا الإهمال لا ذكر لنا بين الأمم الحية ولا حسبان. وقعت الحرب الكبرى وقضت على الأخضر واليابس وانتهت بهضم حقوق العرب

فنفختم في صور النهضة فقامت كل أمة تدافع عن نفسها ففاز البعض وكتب الرق على البعض ولا يزال البعض في الطريق وشاء الله الخير لهذه البلاد المقدسة فقيض لها بطل الجزيرة المغوار (عبد العزيز آل سعود) وفقه الله. ومذ أن تبوأ جلالته على أريكة المملكة العربية السعودية أخذ في الإصلاح الديني والدنيوي بأكثر مما تسمح له الظروف، أمن شامل وعدل سائد وحركة علمية إلى جانبها حركة صناعية وحركة اقتصادية تبشركم بمستقبل حافل لهذه البلاد، وإن ما قام به جلالته أخيراً من حقن دماء العرب وحبه للمسالمة ومد يده الكريمة لكل من خطب وده من الممالك المجاورة ليسجلها له التاريخ بكل إجلال وإعظام. ولا ننسى في المقام ما قام به صفوة ساكن الجنان فيصل الأول من الأعمال الخالدة والجهود الجبارة لضم شمل العرب عامة وخير العراق خاصة ولنا في جلالة غازيه نعم البدل وعليه معقود كل أمل. وفقهما الله لكل خير آمين.

تحية الكشافة العراقية

نظمت هذه القصيدة سنة ١٣٥٣هـ لما زارت الكشافة العراقية المملكة في المدينة استقبلهم أميرها يومئذ عبد العزيز بن إبراهيم استقبالاً حافلاً وألقى الكشافة النشيد القومي (بلاد العرب أوطاني ـ من الشام لبغدان) (ومن نجد إلى يمن ـ إلى مصر فتطوان) وأقمت لهم حينما كنت وكيل معهد المعارف حفلة في بهو المدرسة الناصرية وأنشدت لهم هذه القصيدة الترحيبية.

مرحباً كشافة العرب الكرام   جيرة الزوراء من دار السلام
فزتموا بالحج والبيت الحرام   طاب مسراكم وعدتم بالسلام

* * *

نحن أو أنتم كلانا يعربي   نسل عدنان وقحطان الأبي
الحجازي والعراقي والشآمي   والمصري صنو المغربي
جامعات بينات في القوى   أحكمت ما بيننا في النسب

* * *

ما لأخواني وإن شط المزار   قد تناسوا بينهم ذاك الوئام

كـل شـعـب حـائـر فـي أمـره نـاشـداً فـي داره طـيـب الـمـقـام

❊ ❊ ❊

يا لقومي حسبكم من ذا الشقاق فـتـعـالـوا لاتـحـاد واتـفـاق
وأزيـلـوا كـل خِـلـفٍ بـيـنـنـا حسبنا كم نصطلي نار الفراق
كـونـوهـا وحـدة عـربـيـة من ربى صنعا إلي أقصى العراق
كـم صـبـرنـا وانـتـظـرنـا فـرجـاً بـيـد أن الـصـبـر مُـر فـي الـمـذاق
كـونـوهـا (وحـدة عـربـيـة) مـن عـمـان لأقـاصـي الـعـراق

❊ ❊ ❊

قـد سـئـمـنـاهـا حـيـاة مـرة وارتـضـيـنا الـقـهـر والـموت الـزؤام
فـمـمـات لـخـلاص ونـجـاة أو حـيـاة فـي انـتـظـام والـتـئـام

❊ ❊ ❊

يـا شـبـاب الـيـوم زهـر الأمـل جـد فـي الـسـيـر لـدرك الـعـلـل
فـمـصـاب الـعـرب أضـحـى بـيـنـا كـل يـوم والـمـنـا فـي جـلـل
فـيـكـم قـد عـقـدت آمـالـنـا تـرتـجـي عـزا ورتـق الـخـلـل
أنـتـم الـذخـر الـمـرجـي وغـدا سـنـراكـم أمـة الـمـسـتـقـبـل

❊ ❊ ❊

أقـرؤوا عـنـا تـحـيـات وشـوقـاً مـن بـغـداد إلـى أقـصـى الـشـآم
وابـلـغـوهـم أن فـي كـعـبـتـهـم أخـوة تـرنـو إلـيـهـم بـاحـتـرام
واهـتـفـوا فـي كـل يـوم وارفـعـوا رايـة الـعـرب وآيـات الـسـلام

إلى وفود بيت الله الحرام

نظمت هذه القصيدة في حفل النادي الأدبي احتفاء بزائرين من أعيان الحجاج في مقدمتهم الحاج الحسيني وغيرهم فنالت استحسانهم.

سائل الربع والعصور الخوالي ... ما على الربع لو يجيب سؤالي
هذه طيبة وتلك رباها ... رمز آي الخلود والإجلال
(منزل الوحي) مأرز الدين مثوى ... (سيد العالمين) بدر الكمال
أذكروها بعهده يوم كانت ... قبلة الهدي مطمح الآمال
يوم قام الرسول يدعو بعزم ... لهدي الخلق من مهاوي الضلال
وأتى بعده أئمة صدق ... واصلوا السعي في بلوغ الكمال
كالصديق الوفي في الغار من سلّ ... سيوفاً لردع أهل الضلال
والإمام الفاروق من قد تناهت ... نظم أحكامه لخير مثال
نشر العدل في البلاد وأردى ... عرش كسرى وقيصر للزوال
والشهيد الحيّي عثمان ذي ... النورين والنجدين والأفضال
وعلي ومن لنا بعلي ... التقي النقي قطب المعالي
هاهنا دورهم وفيها ثواهم ... فقضوا بعدهم عن الأطلال
أذرفوا الدمع عندها بسخاء ... وخشوع ورهبة وجلال

قد ضللنا عن هديهم وأضعنا　　فرصاً للرقي بالإهمال

* * *

آه يا مهجر النبي فإنّا　　ما رعينا حق الجوار الغالي
يا وفود الإخاء من كل مصر　　وسراة العباقرة الأبطال
نكبر العزم والعقيدة فيكم　　ونحيي جلائل الأعمال
حبذا المقدم المحب في العهد　　السعودي المبارك الإقبال
تحت ظل الإمام فخر ملوك　　العرب «فيصل» الأبطال
جامع الشمل في سلام وأمن　　داعياً «للتضامن» الفعال

* * *

يا رعى الله «فيصلا» ووقاه　　شر باغ وحاسد أو قالي
صانه الله ملجأ ونصيرا　　لحمي يعرب وغيث نوال

* * *

إيه يا أخوتي الأعزة ماذا　　قد شعرتم حيال هذي الظلال
مهد أسلافكم وأرض جدودٍ　　أدركوا المجد بالظبى والعوال
فاستعيدوا تراثهم بكفاح　　وجهاد يدني عزيز المنال
في «فلسطين» عبرة وعظات　　حسبنا جمعنا بدون قتال
ها هم اللاجئون في كل قطر　　كم يتيهون عرضة للزوال
أُخرِجوا من ديارهم فظلوا حيارى　　في رسيف القيود والأغلال

* * *

والباكستان تلك ما قد دعاها غالها المشركون كالأغوال
صمد المسلمون صبرا لهلك وتنادوا بندبة للنضال
فبكينا بكاء عجز وأنى يدرك الظالع الضليع بحال
فعسى الله يأتي بنصر كي تعاد الأمور في البنغال[1]

* * *

أيها الوافدون جهد محب شاعر بالقصور والإقلال
لم أكن شاعراً بحق لأروي غرر الشعر في بديع الخيال
غير أني متيم ببلادي من ذرى مأربٍ لأقصى الشمالِ
أرقب اليوم لاتحاد وحلف ونجاة من فرقة وانحلال
تحت تاج من السعود[2] تلألأ باسطاً عدله عزيز المنال
أنا من معشر وشعب أبي جاهدوا في سبيل نيل المعالي
«عربي» دم العروبة جارٍ في خلايا دمي وفي أوصالي
تلك آمال بنفسي جاشت فنشدت السلو بالأمال

(١) المراد بهم من في شرق باكستان منهم.
(٢) أي من آل السعود.

تحية المنهل

نظمت هذه القصيدة في عيد اليوبيل الفضي لمجلة المنهل لمنشئها الصديق عبد القدوس الأنصاري وكنت غائباً بمصر فبعثتها له ونشرت بالمجلة سنة ١٣٥٥هـ.

حيِّ في منهل الزلال رحيقاً ... في جنى وردة رحيق المعاني
وتفيأ ظلاله وتلمس ... في زواياه من قطوف دواني
واسمع العندليب فيه يغني ... ببديع النشيد والألحان
أدب زاخر وفن رفيع ... وحديث وحكمة وقرآن
روضة للعلوم ماءت فأوعت ... فتعالت في قدرها والمكان
يا رعى الله فتية وشيوخاً ... قد تماروا في ذلك المهرجان
فكأني بطرفة ولبيد ... وكأني أصغي إلى حسان
وكأني بمعبد حين يشدو ... وكأني أرى بديع الزمان
يا له محفل عظيم فكبر ... وتجاهر بالقول في إيمان
يا عكاظاً تألق الشرق فيه ... من أغاديره إلى بغدان
آن للعرب أن يفيقوا ويبنوا ... مجد أسلافهم بحد اليمانى
إنما المجد وثبة وطموح ... واقتناص الفنون والعرفان

إيه عبد القدوس عمرك الله   ووقيت فتنة الحدثان
ربع قرن قضيته في كفاح   وجهاد فنلت خير الأمان
أنت شيخ الصحافة في العهد   السعودي مفرداً في البيان
هاك رمز الفخار في يوبيلك الفضي   تزهو به على الأقران
فلتعش رائداً لكل أديب   كاتباً باحثاً رفيع المكان
وليدم منهل العلوم يروي   كل صاد على ممر الزمان
فتقبل تحية من صديق   حافظ الود واحد الأخدان
خانه الحظ أن يفوز بقربٍ   وطوته الأيام بالحرمان
هذه مهجتي إليك ترامى   بين حر النوى ومن أشجاني

مدح المصطفى ﷺ

نظمت هذه القصيدة في مديح المصطفى ﷺ في شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٦ هـ ونشرت بمجلة المنهل الغراء.

مرحى ربيع وأنت أكرم أشهر ... الإسلام في غبطة ومن أفراح
بوركت من شهر وبورك من أتى ... للعالمين بهديهِ الوضاحِ
بوركت من شهر سرت نسماته ... بين العوالم بالشذى الفواح
الله أكبر ما أجل بمولد المبعوث ... للثقلين بالإصلاح
ولد ابن آمنة نعم البشر في ... كل العوالم من ربى وبطاح
ولد ابن آمنة النبي المرتضى ... لهداية الثقلين بالإفصاح
ولد ابن عبد الله طه المصطفى ... فبدا الصباح مقلداً بوشاح
سلم وتوحيد وخلق طاهر ... وشجاعة وندى وجود سماح
لا ربَّ إلا الله يُعبد في الورى ... وانهد ركن الشرك في ضحضاح
الكل إخوان فلا من فارق ... من أسود أو أبيض مسماح
لله من نفر أقاموا شرعه الـ ... هادي ففازوا من رضى وصلاح
إيه بني وطني انهجوا سبل الأولى ... وتقلدوا بالدين خير سلاح
ثم استعدوا للجهاد بقوةٍ ... فإذا عملتم فابشروا بنجاح

بنى وطني

في عام ١٣٨٥هـ أقامت وزارة الإعلام بجدة مسابقة شعرية محدودة، وأَهابت بالشعراء للاشتراك فيها على أَن لا تتجاوز أَبيات القصيدة عشرين بيتاً، كما خططت لأَفكارها في المذكرات الخاصة التي أَرسلت بها لأُولئك الشعراء، وهو في رأْينا تقييد عنيف للشعر، يتنافى مع الحرية المطلوبة للإنتاج الفني الأَصيل، ومع ذلك فقد اشترك جملة من شعرائنا في هذه المسابقة بدوافع مختلفة، وكنت من هؤلاء المشتركين وكانت قصيدتي ضمن القصائد الفائزة، وهي قصيدة صيغت في أُسلوب النشيد الذي يصلح للترداد في المناسبات أقول فيها:

بني موطني! يا بني موطني   هلمّوا هلموا لمجد سَنِي
فمن يطلبِ المجد لا ينْثني   إِلى أَن ينال رغابَ المُنَى

***

فهيا بنا يا زهور الشبابْ   نذلِّلُ بالعلم كلَّ الصَّعابْ
فبالعلم نُدرك أَقصى الرغاب   وبالفن ترتاح أَرواحنا

***

كـفـانـا سُـبـاتـاً زمـانٌ مـضـى وذا الـغـرْبُ مـاضٍ لـغـزْو الـفـضـا
فـجـدُّوا بـعـزم كـسَـيْـرِ الـقـضـا فمن جدَّ في القصد شهداً جَنى

دمعة على فقيد

نظمت هذه القصيدة أرثي بها ابن خالتي وأخي من الرضاع عبد الحميد عنبر عضو مجلس الشورى، فلقد كنت وإياه نشأنا في بيت واحد من الصغر، وإبان الحرب العظمى كنت معه في دمشق وذقنا حلو الحياة ومرها من مرض وعوز حتى رجعنا للمدينة بعد استيلاء الشريف الحسين ودخلنا المدرسة ثم افترقنا بعد أن نلت الشهادة العالمية من الهند ونال هو شهادة مدرسة العلوم الشرعية، وتعين مدرساً بها ثم توظف مديراً لمدرسة ابتدائية ثم استقال وسافر لمكة حتى وصل لمجلس الشورى عضواً بارزاً فيه، وأخيراً أصيب بمرض في صدره فسافر من جدة بقصد علاجه في لندن واختار طريق البر بالسيارة وفي فيينا عاصمة النمسا بينما كان يقطع الشارع دهمته سيارة كبيرة فأسعف للمستشفى وهناك لفظ أنفاسه وجيء به لجدة ودفن بها رحمه الله تعالى وذلك سنة ١٣٩٠هـ.

أبكيك يا عبد الحميد يا أيها الخل الوحيد
قد كنت لي نعم الرفيق وأخاً وفياً لا يحيد
عاشرتني زمناً طويلاً في شقا عمر مديد
قاسمتني السراء والضراء في بؤس وعيد[1]

(١) أي في يوم بؤس ويوم عيد.

دالت بنا الأيام في يسر | وفي عسر شديد
ولقد صرفنا الجهد في | طلب العلوم كما نريد
حتى بلغنا غاية | ما كان فيها من مزيد
وغدوت أنت محرراً | أو ناظم العقد الفريد
كنت «المصلى» دائماً | وأنا «المجلي» من بعيد
حتى وصلت لمجلس الـ | ـشورى إلى الركن العتيد
كافحت في دنياك حتى | حزت من خير زهيد

* * *

قد كنت أؤثر أن أراك | تعيش في عمر مديد
لتزف نعشي أولاً | وأكون قبل أنا الفقيد
لكن سبقت لدار فردوس | فيا لك من سعيد

* * *

أأخيَّ مثلك لم يمت | ذكراك تحيا من جديد
خلفت أربع أنجم | ما منهمو إلا رشيد[١]
ولقد أراد الله أن | تلقى حمامك كالشهيد
حييت في المحيا وفي الـ | ـمثوى بنعمى من «حميد»
فاهنا برحمات وغفران | من «الرب المجيد»

---

(١) يشير لابنائه الأربعة.

رثاء السيد محمود أحمد

القلبُ يفزعُ والدموعُ تجودُ … لَمّا نَعَى الناعي قضَى محمودُ
حتى سمعت من المجامعِ ضجةً … دار السعادة ركنها مهدودُ
ما كنت آملُ بالفضائل تنطوي … حتى توارى في الثري محمود
ما كنت أعلم قبل ذلك أن أرى … ركن المكارم والحجى موءود
خرجوا به ولكل قلبٍ حسرةٌ … ولكلِّ عينٍ دمعةٌ وشهود
زاروا به الحرم الشريف وحوله … أمم تحوط النعش وهو يميد
حتى أتوا لقبور آل المصطفى … دفنوه وهو بفضله مشهود
ليفوز بالشرف الذي قد حازه … آباؤه من قبله وجدود
هذا مصير الحي مهما قد علا … وكُلٌّ تساوى سيد ومسود
يا سيدي ما زال ذكرك باقيا … ولو أن جسمك في الثرى ملحود
قابلت عمرك بالكفاح مصابراً … وعملت ما يجدي الورى ويفيد
ولكم عملت الخير خيراً خافيا … لا أن يقال المحسن المودود
من قد أتى بالكهرباء بمسجد … الحرم الشريف ثوابه المقصود
ولكم لمدرسة العلوم فضائل … قد أنجبت من أبلج صنديد

(*) المنهل ـ جمادي الثاني ١٣٩١هـ.

ولسوف ينشأ للشريعة معهد   أدب وعلم طارف وتليد
أنفقت لله الكريم وبره   لا شاهد يدري ولا مشهود
ما جاء بابك سائلاً أو قاصداً   حتى قضى ما يرتجي ويزيد
كم من يد بيضاء لك في يدي   أسديتها لي بالفخار تسود
هذي فضائلك التي لا تمحى   ولسوف تبقى ما أقام جديد
ما مات خلف (كالحبيب) شبيهه   حاز الفضائل والحجى والجود
رضوان نادى بالسلام مهنئاً   هذا مقام الخلد يا محمود

تهنئـــة

أنتخب جلالة مليكنا المعظم فضيلة الشيخ عبد المجيد حسن عضواً في هيئة كبار العلماء تقديراً لعلمه وتقديراً للعلم، ويشغل الشيخ في الوقت نفسه منصب عضو في هيئة محكمة التمييز العليا بالرياض. وكان قبل رئيساً مساعداً لرئيس المحكمة وتوابعها بالمدينة، وحينما ولي قاضياً بالمدينة منذ ٢٠ سنة تقريباً. ربطتني بفضيلته روابط المحبة والصداقة حيث كنت سابقاً محامياً لوزارة المالية فكنت اجتمع به تقريباً كل يوم ثم تجاورنا في السكن وسافرنا معاً مصطافين لمصر وسورية ولبنان، وحججنا آخر مرة معاً عام ١٣٨٤هـ، وقد عرفت فيه سجايا وأخلاقاً فاضلة كما وجد مني أخاً وصديقاً مخلصاً بعد أن تعاملنا أيضاً فكنا أمناء لها. وفي مستهل المحرم في هذه السنة رقي الشيخ عضواً بمحكمة التمييز العليا وغادر المدينة كارهاً ثائراً أكثر أهل المدينة لأنه كان عادلاً في أحكامه آتاه الله سعة في الفقه وعلماً بالإحكام الشرعية، وبعد حين عن لي أن أسافر للرياض للعلاج من علة نفسية كنت بها قعيد الدار عاماً كاملاً. فذهبت للرياض فعولجت بها فتحسنت صحتي واسترجعت قواي وقد أشار علي، الشيخ وأكثر أولادي الموجودين بالرياض أن أقيم لديهم وفي المقدمة فضيلة الشيخ، ويبلغ الشيخ اليوم الستين من العمر وله خمسة أولاد أكبرهم الأستاذ أنور، معيد في جامعة الرياض، ثم

اشتد بي الشوق إلى الرجوع إلى المدينة فرجعت إليها مع أم الأولاد متذكراً الحديثين: (المدينة خير لهم لو كانوا يعلمون. ومن صبر على لأوائها وجبت له الجنة. وصلاة في المسجد النبوي تعادل خمسين ألف صلاة)، أو كما قال: فكيف بي أن أهاجر منها ولم يبق من العمر إلا القليل بعد بلوغي السبعين ولا أعلم متى يفاجئني هادم اللذات ومفرق الجماعات، فلأستعد له من قبل ويطربني التمثل بهذين البيتين:

إلٰهي نجني من كل ضيق   فأنت الهَنا مولى الجميع
هب لي في المدينة مستقراً   ورزقاً ثم دفنا في البقيع

أسأل الله أن يستجيب دعائي ويبلغني مناي إنه سميع مجيب..

تحيتي وتهنئتي لفضيلته

أبا سعود قد بعثت تحيتي   مقرونة بالشوق ملء فؤادي
أرسلتها لك من رحاب المصطفى   تسري كنسمات الربيع الهادي
أصبحت مكلوم الفؤاد متيماً   لفراق من أهوى وطول بعادي
لم تلهني قيثارة وربابة   حتى ولا نغم الهزار الشادي
بل راحتي لتلاوة وعبادة   كيما أنال الأجر يوم معاد
ما كنت أدري أن نفارق بعضنا   بعد اجتماع طال من آماد
لولا محبة مسكني في طيبة   ألقيت في بلد الرياض عتادي
لا سيما وكما علمت بأن في   هذي الربوع استوطنت أولادي[١]

(١) هم عبد العزيز (وكيل قائد). محمد (مهندس) رضية وأمال جامعيتان الأولى قرينة الدكتور أحمد جادو والثانية قرينة المهندس طلال بكر.

فعسى الإله يعود يجمع شملنا ... في طيبة بلد الرسول الهادي

***

صافيتني وجعلت مني صاحباً ... وبذلت جهداً كي أفوز بزاد
لكنه حظ وقسم قدراً ... لا يُقتنى بالكسب أو بجهاد
هيهات أن أنسى صنائعك التي ... جادت علي بوافر الإمداد
قابلتها بالشكر لما لم أجد ... رد الجميل بمثله وزياد
فلنحمد المولى على نعمائه ... ولنسألنه نوال خير الزاد
عبد المجيد حباك ربك رتبة ... مرموقة من أعين الحساد
كافحت في دنياك في طلب العلا ... حتى بلغت نهاية الأمجاد
علمت جمعاً من شباب أصبحوا ... من كاتب أو شاعر نقاد[1]
وعدلت في الأحكام لما كنت في ... دار القضاء بحكمة وسداد
ذكراك في الأفواه مسك عاطر ... ما أن ذكرت بمجلس أو نادي
ولقد بلغت الغاية القصوى من ... التقدير والتكريم والإسعاد
فاهنأ بمنصبك الرفيع كجهبذ ... متبحر في العلم والإرشاد

(١) بدأ الشيخ حياته العلمية مدرساً بدار الأيتام بالمدينة ثم مديراً لمدرسة شقرا قبل ربع قرن.

أشرقت شمس طيبة

نظمت هذه القصيدة لما شرف الملك فيصل للمدينة واحتفلت به البلدية ولم يتسنَ لي إلقاؤها في ذلك الحفل لعدم مكان لها في برنامج الحفل فبعثتها لجلالته بالرياض فنالت استحسان جلالته وأجازني بثلاثة آلاف ريال تسلمتها من أمين ماله الخاص بالمدينة سنة ١٣٩٣هـ.

أشرقت شمس طيبة بالتهاني والأماني لفيصل ابن السعود
ولمن ضم حوله من وجوه والأباة المكرمين الصّيدِ
وغدا أهلها في سرور يهزجون القصيد تلو نشيد
طلع الفيصل المبارك أهلاً بقدوم العميد وابن العميد
يا لها فرحة لجيرة طيبة أبشروا أخوتي لخبر أكيد
يا وفود الإخاء جاءت تلبي داعي الله في حماه العتيد
هاهنا مهجر الرسول المفدى هاهنا مضجع النبي السعيد
هاهنا مسجد لأول يوم بنيت أركانه على التوحيد
يا هنيئاً لمن أتاه بقلب خاشع يبتغي ثواب سجود
إيه يا سادتي الأجلة ماذا قد شعرتم من بعد تلك العهود
أين ما سرتموا وجدتم رسوماً ناطقات لخير عهد مجيد
فاستعيدوا تراثهم بكفاح وجهاد لطرد شر يهود

ففلسطين عقدة ذنب الضب ... لا تنال أخوتي بالوعيد
بل نضال وقتال بالأبيض ... البتار بالنار والحديد
كم دعا الفيصل الأبيّ ونادى ... بجهاد يعيد حق الطريد
ولقد قال مخلصاً يا إلهي أمتني ... غازياً كي أنال أجر شهيد
ثم جاب البلاد شرقاً وغرباً ... داعياً للتضامن المنشود
فصحت من سباتها أمم الإسلام ... من كل صقع وبيد
واستجاب الأمين في افريقيا ... وتنادى بقطع حبل اليهود
كلل الله سعيه بنجاح ... وحماس بفضله والجهود
يا وحيد الملوك في الأرض طرا ... بالتقى بالحجا بعدل وجود
أنت حامي الإسلام في كل قطر ... أنت رمز العلاء والتجديد
أنت قد لذت يا إمام بحبل الله ... والشرع والكتاب المجيد
يا ابن عبد العزيز جددت عهداً ... كابن عبد العزيز وابن الرشيد
يا رعى الله فيصلاً ووقاه ... شر باغ وكائد وحسود
يا مليكي تجنَّبتك العوادي ... أنت شاعر بلحن قصيدي
لم أكن شاعراً بحق فأروي ... غرر الشعر كالجمان الفريد
أنني شاعر بحب بلادي ... من ذرى مأرب لأقصى الحدود
أرقب اليوم لاتحاد وحلف ... ونجاة من فرقة وقيود
تحت ظل الإمام فخر ملوك ... العرب فيصل الصنديد
صانه الله ملجأ ونصيراً ... لحمى يعرب وغوث المريد
وتولاه خادم الحرمين ... الشريفين ناصراً لتوحيد
ربِّ بلغه ما يروم الخير ... وأنله رضاك بالتأييد
فارفعوا أيدي الضراعة وادعوا ... أدام في رفعة وعمر مديد

كنت تاجاً بقمة لاهور

نظمت هذه القصيدة لدى عودة الملك فيصل من مؤتمر قمة لاهور فسرّ منها وأجازني رحمه الله.

برّح الوجد مهجتي وكياني فقصدت الرياض أزجي عناني
أجتلي طلعة المليك المفدى شبل عبد العزيز عالي المكان
من بنى دولة وملكاً كبيراً من فلسطين إلى نجران
إن ذكراه بالثناء ليحيى وسيبقى على مدى الدوران
يا مليكي وأنت خير مليك بالتقى بالحجا وبالعرفان
وفريد في حكمه قد تسامى وقمين بالملك والسلطان
وملاذ الإسلام في كل قطر داعياً للتضامن الإنساني
يا له موكب وحفل عظيم يوم حط الركاب باكستان
هلل القوم بالدعاء ونادوا فليعش فيصل العظيم الشان
وتعالى الهتاف من كل فج مرحباً يا خليفة الرحمن
ذكروا طلعة النبي بمرأى وجهك المستنير بالإيمان
كنت تاجاً بقمة لاهور ومن قبل كنت الباني
والغطاريف من رئيس وقيل وعزيز وقائد معوان

كنت كالبدر فيهم تلألأ بادي البشر باسماً جذلان
أجمعوا أمرهم على كل بندٍ لانسحاب اليهود دون توان
وارتجاع لمسجد القدس مهما طال عهد اليهود في الطغيان
وفلسطين سوف ترجع قهراً لبنيها مشردي الأوطان
عدت باليمن واثقاً بسلامٍ أو جهاد مقدس للعوان
يا رعى الله فيصلاً ووقاه شر باغ وكائد أو شاني
أنت شيدت للعلوم قصوراً جامعات وللفنون مبان
وسلاح مجهز للأعادي ونسور الجو كالعقبان
ومسحت السهول غوراً ونجداً وأقمت السدود في الوديان
وربطت البلاد شرقاً وغرباً ومنحت العلاج بالمجان
ووصلت الفقير بالبر حتى لا يرى اليوم بائس أو عاني
أصبح اليوم شعبك يحيا في رخاء وعيشة اطمئنان
ليت شعري أمن بمدحك شعراً أن شعري لعاجز وبيانى
رب يبقيك للبرية ذخراً وتوقاك من عوادي الزمان
وتولاك بالعناية حامي لحمى المسلمين في كل آنٍ

نشيد مدرسي لرياض الأطفال

مـــــــنـــــــهـــــــل الأدب   أنـــت يـــا مـــكـــتـــبـــي
مـــن نـــشـــا أو رَبَـــى   فـــيـــك نـــال الـــســعــود
أنـــت عـــلـــمـــتـــنـــا   كـــل مـــا هـــمـــنـــا
دمـــت دومـــاً لـــنـــا   مـــنـــهـــلاً لـــلـــورود
دمـــت يـــا مـــكـــتـــبـــي   مـــنـــهـــلاً لـــطـــلـــبـــي

اليوم الوطني

نظمت هذه القصيدة كنشيد لليوم الوطني للمملكة العربية السعودية ونشرت في مجلة «المنهل» وأذيعت من الراديو مراراً وعلق عليها الأستاذ عبد القدوس من «المنهل» بقوله: جادت قريحة شاعرنا الكبير الأستاذ عبد الحق النقشبندي بهذا النشيد المتين الفوّاح كمناسبة قومية جليلة نفخر بها ونعتز بها جميعاً، وما هذا النشيد إلا صنيعة هذه المشاعر والأحاسيس الممزوجة بالحب والولاء والوفاء لقائد هذه الأمة ورائدها الفيصل العظيم.

أن هـــذا الـــيـــوم عـــيـــد　　　مـــالـــه قـــط مـــثـــيـــل
حـــبـــذا يـــوم ســـعـــيـــد　　　لـــن يـــضـــاهـــيـــه بـــديـــل
جـــاءنـــا بـــالـــيـــمـــن يـــزهـــو　　　بـــيـــن أيـــام الـــفـــصـــول
فـــلـــنـــهـــن ونـــضـــحـــي　　　بـــكـــثـــيـــر أو قـــلـــيـــل
وطـــنـــي تـــفـــديـــه روحـــي　　　دام فـــي ظـــل ظـــلـــيـــل
هـــو ريـــحـــانـــي وروحـــي　　　كـــل مـــا فـــيـــه جـــمـــيـــل
ومـــلـــيـــكـــي أفـــتـــديـــه　　　فـــيـــصـــل الـــشـــهـــم الـــنـــبـــيـــل
مـــن مـــلـــوك الأرض طـــرا　　　مـــا لـــه قـــط مـــثـــيـــل

إنــمــا بــالــعــلــم نــرقــى فــاطــلــبــوا الــعــلــم الــجــلــيــل
وبــلــيــل الــجــهــل نــشــقــى فــاطــردوا الــجــهــل الــوبــيــل
كــعــبــة الإســلام فــيــنــا وحــمــى الــهــادي الــرســول
نــزل الــتــنــزيــل فــيــه مــوطــن الــصــحــب الــفــحــول

تحية جريدة المدينة المنورة

نظمت هذه القصيدة بمناسبة اليوبيل الفضي لجريدة المدينة وبعثتها من القاهرة حيث كنت سافرت إليها للعلاج للصديقين السيدين علي وعثمان حافظ منشيء جريدة المدينة المنورة.

لمن الزهور تنسقت في النادي ... والبدر يرسل بالشعاع الهادي
والقطر يهمي سلسلاً من سلسل ... والقطر يهمي في ظلال الوادي
وحمائم الحرم الشريف ترنمت ... فوق الحدائق بالهديل الشادي
وبدا العقيق خميلة في ظله ... تجتاز فيه ركائب الوراد
ما زلت مشغوفاً بذا متشوقاً ... حتى سمعت بهاتف وتنادي
هذي المدينة في سماء أديمها ... تُتلى صحيفتها مدى الأمادِ
الله أكبر قد تكامل حسنها ... يوبيلها الفضي في الأعياد
عيد العروبة يوم نصلح شأننا ... ويزول ما قد ران من أحقاد
ونطهر البيت المقدس من بني ... صهيون عصبة فتنة وفساد
ويرفرف التوحيد في جنباتها ... والبشر يغمر كل قلب صادي
مرحى على أبي سعود وصنوه ... عثمان ما قد نلتما بجهاد
قد حزتما الشرف الرفيع وحسبكم ... فخراً ليوم كريهة وطراد

قد كنت أوثر أن أكون خطيبكم   في محفل التقدير والأشهاد
لكنني وكما علمتم مدنف   جسمي بمصر وفي العيون فؤادي
فتقبلوا مني تحية مخلص   مملوءة شوقاً وحسن وداد
هذي تحية مخلص أرسلتها   لتنوب عن حبي وصدق ودادي

امرأة وشاعر

أتقولُ تهواني بحقٍ من فؤادك
وتخصني وحدي بفيض من ودادك
أتظن أني لست أدري عن مرادك
أتظنني قلماً لأغمس في مدادك
أتظنني ورقاً لأملأ من سوادك
أتظنني شعراً لأصبح بعض زادك
لله لم حطمت قلبي باعتدادك
لا لست تهواني فدعني من عنادك

❊ ❊ ❊

دعني فإني قد هتكت اليوم سترك
وعلمت أنك قد وهبت الحب شعرك
فاكتب كما تبغي لتشبع منه سحرك
أرجوك لا تشغل بذكر الحب فكرك
والحب شيء آخر ما مس صدرك
أنا لست لك فقد عزمت اليوم هجرك
ما عدت استهوي طوال العمر أسرك

الرحلات والتاريخ

تاريخنا القريب

ـــ ١ ـــ

لم تكد الدولة العثمانية تلعق جراحها من حرب طرابلس الغرب وإذعانها لمطالب إيطاليا وانسحابها نهائياً من شمال إفريقيا سنة ١٩١٣م تحت ضغط دول الحلفاء تاركة عرب طرابلس لمصيرهم المشؤوم، حتى نشبت الحرب العالمية سنة ١٣٣٤هـ منذرة بالويل والثبور للبشرية جمعاء واضطرت الدولة أخيراً أن تنضم لدول الائتلاف (ألمانيا والنمسا وإيطاليا) ضد الحلفاء (انكلترا وفرنسا وروسيا) فدق ناقوس الحرب في جميع ولاياتها بما فيها ولاية الحجاز وكان الحلفاء قد اتفقوا قبلاً على قسم تركة الرجل المريض (تركيا) وبموجب معاهدة (سايكس بيكو) كانت البلاد العربية نهباً بين فرنسا وإنكلترا، وبعد دخول الدولة في الحرب رأت إنكلترا أن تضرب الترك من الخلف ببلاد العروبة فأخذ عميدها بمصر (السير هنري مكماهون) بمفاوضة الأمير حسين بواسطة وكيله (شريف العمري) وتم الاتفاق بعد مخابرات طويلة على المؤازرة في القيام بالثورة العربية.. وفي الوقت نفسه كان الحسين يطلب المدد من الدولة للقيام بهجوم على ضفة قناة السويس الشرقية بعد أن أعلن الإنكليز حمايتهم على مصر وخلعهم لعباس حلمي الثاني لالتحاقه بالسلطان في الآستانة..

وفي السنة التالية زار المدينة المنورة أقطاب الاتحاديين في الحكومة التركية (أنور وجمال وطلعت) لتفقد حالة الحجاز، وجاء معهم الأمير فيصل ابن الشريف حسين لتشكيل جيش بقيادته للحملة على القناة مساعدة للدولة. وبعد سفر الأقطاب المذكورين تجمع لدى الأمير فيصل جيش من البدو والعقيل[١] وتسلم الأمير الذخيرة والسلاح اللازم وتهيأ للسفر بجيشه فأقيم لذلك احتفال كبير يوم سفره حضره قائد الحملة الحجازية فخري باشا ومحافظ المدينة بصري باشا وتليت الخطب بالدعاء بالتوفيق والنصر للأمير وصدحت له موسيقى الجيش.

وتوجه الأمير[٢] من المدينة تاركاً وراءه الأمير علي أخاه الأكبر[٣] وكانت الأنباء قد وردت بقيام الشريف الحسين بالثورة في ٩ شعبان ١٣٣٤ بإطلاق رصاصة من مخلوانه بالقصر[٤] في يوم سفر الأمير فيصل ارتحل الأمير علي في الليل وعسكر بالفريش (بئر علي) لتلقي الأوامر من والده كما توجه الأمير فيصل إلى والده لتلقي أوامره لتشكيل جيش الشمال الذي قاده الأمير.. واتخذ مقره بالعقبة.

وبعد أن تلقى الترك الطعنة من العرب صدر الأمر الهمايوني بتعيين الشريف علي حيدر باشا أميراً لمكة فوصل الشريف حيدر إلى المدينة واستقبل استقبالاً حافلاً ومكث أياماً للتوجه مع الحملة إلى مكة ولكن هيهات له ذلك ومن وراء ابن عمه الشريف الحسين بوارج الإنكليز والجيوش الجرارة فرجع كما جاء بخفي حنين.

---

(١) يطلق العقيل على جيش الهجانة أي راكبي الإبل..

(٢) فيصل الأول ملك العراق فيما بعد.

(٣) أمير المدينة.. فيما بعد وملك الحجاز.

(٤) قصره بالغزة بمكة..

وفي هذه الأثناء قفل طريق جدة وينبع إلى المدينة واتصل بعلم فخري باشا أن بعض أشراف بني حسين وكبار بني علي وبني عمرو متصلون بالشريف بمكة للقيام بضرب المدينة فأنذر سكان العالية (قباء وقربان والعوالي) بالنزول إلى المدينة، وكان كبار الأشراف كالشريف شحاد والشريف ناصر قد هربوا في الليل مع الكثيرين من رجال القرية وبقي المقعدون من النساء ومن لا قدرة له على الفرار كما بقي من وجوه أهل المدينة الشيخ أبو البركات الأنصاري وأهله في بستانه (الناعمة) وبعض كبار بني علي وبعض أشراف بني حسين. وبعد صدور الإنذار المذكور خرج طابور من الجنود تتقدمهم فرقة من سلاح المهندسين لضرب القرى المذكورة وسلطت المدافع على تلك القرى وكانت هذه بداية المأساة فقتل أشخاص كثيرون ونهب الجند بيوت القرية. ودافع الشيخ أبو البركات عن نفسه وأولاده وقتل رحمه الله. ثم شرع فخري باشا بالقبض على كل من وقع عليه الظن باتصاله بالشريف.

وكنا قد قدمنا أن الأهالي كانوا شبه أحزاب ـ فأخذ بعضهم يرمي البعض الآخر لدى الباشا فقبض على الكثيرين منهم جماعات جماعات وسيقوا للسجن ومنه أرسلوا في القطار إلى دمشق ليمثلوا أمام جمال باشا السفاح وأذكر ممن قبض عليهم (السيد زين صافي الشيخ مأمون بري، السيد عبد المحسن أسعد، الشيخ طاهر سنبل، الشيخ زين بري، الشيخ عمر كردي، محمد حمدوه، إبراهيم حمدوه، سعد الحري، السيد حبيب الله، السيد محمود أحمد، والسيد أحمد الفيض آبادي، والسيد عبد الله كندواني، وداود عرب، وحسين عرب، وعلي كابلي، وصادق كابلي، ومحمود كعكي، وعبد القادر كردي وغيرهم ممن لا أحصي عدهم. وقد

ذهب أغلبهم إلى رحمة الله. ولما وصلوا إلى دمشق ومثلوا أمام جمال السفاح أراد الفتك بهم لولا أن تلقى أمراً من أنور باشا بإجلائهم متفرقين إلى الأناضول والروملي فأحيلوا من دمشق إلى استانبول وكوتاهية وأدرنة وغيرها من البلاد وأفرج عنهم بعد انتهاء الحرب، ولما قل ورود المؤن إلى المدينة استصدر فخري باشا أمراً بإجلاء أهل المدينة إلى الشام وأطرافها فصدرت الأوامر إلى أهالي المدينة بالسفر جماعات جماعات لدى قيام كل قطار إلى الشام أفواجاً افواجاً والبعض منهم يتسلل خفية بالليل إلى معسكر الأمير علي بالفريش ومنها إلى مكة أو جدة أو ينبع البحر واستمر الإجلاء ما يقرب من سنة.

هذا، وإن بعض سكان الأربطة والمدارس سيقوا ليلاً ولم يأخذوا غير ما يلزم من ألبستهم ومتاعهم، والبعض منهم كان يقبض عليه من الأسواق ويساق إلى المحطة، وكم فرق بين الوالد وولده وذويه في الوقت الذي شحت فيه وسائل المعيشة واختفت الأقوات من الأسواق.

وفي تلك الآونة خطر للباشا أن يهدم حوالى المسجد النبوي ويقوم بتوسعة أطرافه مسافة خمسمائة متر، فشرع في الهدم واشتغل في الهدميات كثير من الجنود والسكان من النساء والرجال والعلماء الأجلة، ووصل القطار حتى باب السلام لحمل الأتربة والأحجار، قد عرض أصحاب الأملاك بقيمة بخسة من الورق التركي[١] فقبض بعضهم تلك القيمة وبعضهم لم يقبض[٢] وفي آخر سنة ١٣٣٥هـ لم يبق بالمدينة غير

(١) كانت الليرة التركية المساوية للجنيه العثماني تباع بمجيدي واحد فقط، ولذا كان الغبن الفاحش.

(٢) ومن لم يقبضها استولت الدولة على أرض بعضهم ولكنه استرجعها في العهد السعودي.

زهاء مائة شخص منهم القاضي وكاتبه ومأمور بيت المال وإمام المسجد والمؤذن وأغوات الحرم وبعض الفلاحين وبعض المقربين من الباشا[١] وبعض المختفين في البيوت.

وكان والدي عبد السلام وشيخنا عبد القادر الشلبي والشيخ أعظم حسين العالم والملا صفر البخاري والشيخ مسعود المجددي وغيرهم من الذين بقوا مختفين في بيوتهم يشربون من البئر ويأكلون بعض الخضراوات والسويق وبعض التمرات وقد يتحصلون على خبز الجنود بمجيدي[٢] للرغيف الذي لا يتجاوز خمسين درهماً مخلوطاً بالشعير والكرسنة، وقد أكل الناس ما بقي من الماشية الهزيلة وجلود الحيوانات حتى القطط الميتة وقيل إنها أكلت لحوم الأموات من البشر أيضاً وقد هربت أنا[٣] وأخي لأبي إلى الشام والتحقت أنا بأهل أمي هناك لأن والدي أصر على بقائه بالمدينة معاهداً الله أن لا يخرج بعد أن نوى الهجرة إليها.

أما من سافر إلى مكة من الأهالي فكان حظه أوفر ممن سافر إلى الشام فقد كانت الأرزاق والأقوات متوافرة هناك عدا أن الشريف الحسين أجرى عليهم مرتبات وإعاشة خاصة مدة بقائهم هناك. وإن كانت الدولة في سورية والأناضول أجرت إعاشة للمهاجرين أيضاً هناك..

كان فخري باشا قائداً مهيباً ومحباً للبقاء بالمدينة مهما كلفه الأمر

(١) ومن الباقين بالمدينة السادة آل المدني: السيد عبد الجليل مدني والسيد عبد العزيز والسيد عبيد مدني وذويهم.
(٢) كان المجيدي يساوي خمس جنيه ذهباً، أو ليرة واحدة تركية..
(٣) لم يتجاوز عمر المحرر ١٣ سنة.

فجعل يرتب جنوده ويقوي من حاميات المدينة وقلاعها المحيطة بها وكان يخرج بسيارته في جولات مع فرقة من الجنود المسلحين.

وفي ذات مرة ذهب إلى ينبع النخل ولكنه لم يجسر أن يصل إلى البندر (ينبع البحر) وقد استخدم الجنود في جميع مرافق الحياة، فكان منهم النجارون والخياطون والميكانيكيون والممرضون والغسالون، وكان لديه من الذخيرة ما يكفي لحرب طويلة، كما جمع من الأقوات ما يكفي الجند سنة واحدة وكانت رغبة الاتحاديين أولاً بإخلاء المدينة والانكماش بقوتهم في ميادين سورية وفلسطين، بيد أن قرارهم الأخير كان الإبقاء على المدينة كحامية للدولة في مؤخرة جيشهم الرابع بقيادة جمال باشا، وكان اسم فخري باشا في ذلك الوقت يلقي الرعب في قلب الحضري والبدوي، معاً وكان مركز قيادته بالتكية المصرية مكتوباً على بابها في لوح كبير (حجاز قوة سفرية سي قومندا نلغي قرار كاهي) وترجمتها (مركز قيادة الحملة البرية الحجازية) وكان المار أمام التكية ينكمش خوفاً حتى يمر بسلام، وقد كان برفقة الباشا نخبة من الضباط العرب كغالب بك ومهدي بك وعاهد بك وحسني بك وكانوا غير مرتاحين لتصرفات الباشا ولكن ماذا يفعلون والباشا عنيد في آرائه مستبد بأوامره وكثيراً ما قتل من الأهالي والجنود ممن لا ذنب لهم يوجب القتل.

قدمنا أن الأمير علي بن الحسين عسكر بالفريش (بئر علي)، وأخذ مخيمه يكبر يوماً فيوماً حيث كان ملجأ للفارين من الأهالي وسنداً للبدو ومشايخ العربان فكان بدوره ينظم حملات صغيرة على جنود الترك المحيطين بقلاع المدينة وكانت أشبه بحرب عصابات.

أما الأمير فيصل قائد جيش الشمال فكان مقره بالعقبة ووكيل قيادته الشيخ يوسف خشيرم فكان يتلقى الذخيرة والسلاح والأموال من البواخر الإنكليزية وكان مخيمه يسمى (بالعرضي)[١]، وكان الشيخ يوسف هذا يوزع صناديق الذهب على البدو ومشايخ العربان وكان العرضي عرضة لضرب الطائرات الألمانية فكثيراً ما كانت تلقي بقنابلها على تجمعات البدو في العقبة وغيرها من مخيمات البادية هناك.

ولننتقل بك أيها القارىء لوصف أحوال من أجلي من الأهالي إلى الشام فقد كان القطار يحمل فوجاً فوجاً يرمي بهم مرة في دمشق ومرة في حمص وحماة وقطنا ومرش والبعض إلى ولايات الأناضول مشتتين في كل مكان من جهة ولعدم التأثير والضغط على أهل المدن من جهة أخرى وأجرت لهم الدولة جرايات خفيفة: رغيفاً لكل شخص وليرتين ورقاً (مجيديين) في كل شهر: (قوت لا يموت) وهأنا أصف ما شاهدته في دمشق حيث كنت من ضمنهم.

قدمت أني فررت من المدينة بناء على عدم سفر والدي وإزماعه البقاء بالمدينة حيث سمع الحديث الشريف: (من صبر على لأوائها وجبت له الجنة) وهكذا كان الصابرون. هربت في أواخر عام ١٣٣٥ في شهر ذي القعدة وانحشرت في القطار مع المسافرين إلى دمشق ولم يتنبه لي أحد منهم حتى تحرك القطار، وكان بعضهم من معارف الوالد فأرادوا إرجاعي للمدينة حيث كنت صغيراً لم أتجاوز الثالثة عشرة غير أن ضابط القطار التركي أصر على بقائي معهم وكنت لا أملك إلا قرشاً

(١) العرضي: مأخوذة من كلمة (أردو) التركية ومعناها الجيش. فكل تجمع للجيش يسمى (عرضي).

واحداً وثوبي الذي على جسدي فكان الركاب يطعمونني معهم من الخبز الجاف و(البقسماط) وبعض الثمرات، وكان القطار يمشي بالحطب بطيء الحركة فوصلنا مدائن صالح بعد ثلاثة أيام وهناك علمنا بانقطاع السكة لنسف جزء كبير منها، وكان في القطار السابق مهاجرون من المدينة ومنهم الشريفة عائشة جمال الليل غير أنهم لم يصابوا بسوء، وقد وجدنا بالمدائن طابوراً من الجيش التركي وفريقاً من جنود ابن الرشيد الذي كان موالياً للأتراك فبعث بقسم من جنوده لمعاونة الدولة وفي الوقت نفسه بعث الإنكليز بالكولونيل لورنس لتخريب السكة وحض البادية على الثورة فكان البدو يضعون الديناميت تحت قضبان السكة فإذا مشى القطار على السكة انفجر بما فيه، وكان القصد من التخريب قطع خط الرجعة عن حامية المدينة وحصر جنود الترك هناك.

مكثنا في المدائن ما يقرب من نصف شهر حتى تم إصلاح الخط وتحرك القطار بنا قاصداً تبوك، وبعد وصولنا لتبوك علمنا بخراب آخر لحق بالخط فجلسنا مقدار أسبوع وأدركنا عيد الأضحى هناك وأخيراً قمنا من تبوك إلى عمان. ولتضجر بعض المسافرين نزل قسم منهم خفية فنزلت معهم في عمان بيد أني اشتقت إلى أهلي بدمشق فيممت المحطة في اليوم الثاني وسألت عن موعد القطار الذاهب إلى دمشق فلم يكن هناك غير قطار محمل بالجنود فانزويت في أحد أركان العربات، فالتقيت بزميلي الأخ عبد الكريم ومحمد أركوبي ومعهما والدهما الشيخ حمزة رحمه الله فسألني عن أحوالي فزعمت له بأن والدي قد توفي وأصبحت مشرداً قاصداً أهلي بالشام فرق لحالي وصحبني معه في العربة مع الجنود وكان غير مصرح للأهالي بالاختلاط مع الجند، فكان

المفتش يهددنا بالنزول فكان يردد لهم هذه العبارة (بن مهاجر) أي نحن مهاجرون. ولما وصل القطار لمحطة القدم أشاروا علينا بالنزول وكان الوقت ليلاً فنزلنا نحن الأربعة وأخذنا في طريق الميدان فذهبوا لبعض معارفهم هناك ومشيت وحدي قاصداً الصالحية حيث سكن أهلي لحفظي لعنوانهم: (الصالحية جوار ضريح محيي الدين العربي) فطفقت أمشي حتى كلت قدماي ووصلت في مسيري إلى المرجة (ساحة الشهداء) وهناك ارتميت بلا وعي أمام أحد الدكاكين المغلقة وأصبت بالأنفلونزا بسبب البرد والتعب ولم أفق إلا بعد شروق الشمس، فقمت اسأل عن طريق الصالحية وبدأت أمشي ما يقرب من ساعة حتى وصلت إلى الجسر أول طريق الصالحية وهناك رأيت أمام باب حانوت العم عبد القدير والد أخي عبد الحميد عنبر فتلقاني بالسلام، وسألني عن الوالد فانفجرت باكياً وحكيت قصتي باختصار مسبباً له هروبي بسبب زوجة الوالد وشجاري معها وجمع الله شملي بجدتي وخالاتي وخالي هناك، وكان دليلي وصديقي أخي عبد الحميد عنبر فكان يستضيفني بقروشه ويذهب بي إلى الأسواق حتى مصادفة أن التقيت بوالد عبد الحميد رحمه الله فقد انتقل أهل والدتي من جوار ضريح ابن عربي إلى حارة الأكراد بالزينبية في عمارة جميلة عبارة عن دارة تابعة لأحد زعماء الأكراد كان منفياً من السلطات التركية غير أنهم أخرجونا منها بعد شهرين..

تاريخنا القريب

ــ ٢ ــ

(المهاجرون بدمشق)

تلقى فخري باشا محافظ المدينة وحاكمها العسكري بعد إلقاء القبض على المشتبه في أمرهم وإجلائهم لدمشق ليمثلوا أمام جمال باشا السفاح (قائد الفيلق الرابع الهمايوني) وبعد تلقي أمر أنور باشا السلطان بإجلائهم متفرقين إلى ولايات الأناضول والروملي شرع في تسفير الأهالي إلى دمشق وحمص وحماة وحلب وأضنة ومرسين وبعض ولايات الأناضول، وكان المهاجرون بدمشق خليطاً من الأهالي الأفندية وبعض المجاورين من القزانية والمغاربة والهنود وكان عددهم بدمشق يربو على خمسة آلاف ما بين رجل وامرأة وطفل وكانت أحوالهم المادية من حيث الفقر والغنى متفاوتة، فمنهم الموسر والتاجر وصاحب مهنة، فعمل البعض في مهنهم وعمل البعض في وظائف الحكومة وهؤلاء لم يتجاوزوا الألف والباقون عاشوا في خبز الجراية والراتب القليل وباعوا ما لديهم من حلى، ومتاع، وقد شكلت الدولة لهم قمسيوناً (لجنة) رأسها السيد زين العابدين مدني وأمين صندوقها السيد عبد القادر حافظ وبعضوية حسين جباد وعرفة شطبي ويوسف دويدار

وغيرهم رحم الله الجميع، وكان منظر الأهالي وهم يتجمعون أول كل شهر وفي فصل الشتاء أمام مركز اللجنة (ساحة الشهداء) يدعو للشفقة والرثاء فهذا السيد فلان متزملاً بلحاف وذاك الأفندي يخفي ذاته في جبة مهلهلة وهذا الشيخ ينتفض من البرد وبعض الأولاد يلبسون أثواب الديسكو. وقد لا يصل أحدنا إلى بيته ليلاً حتى تدهمه البرداء وقد تفشت حمى (التيفوس) وأخذت تحصد المهاجرين من أهل المدينة بالعشرات والمئات حتى الألفين أو يزيد.

ولم يقتصر فتك حمى (التيفوس) على المهاجرين من أهل المدينة بل تعدى فتكها بأهل دمشق ومهاجري الأرمن الذين أوقع الترك فيهم السيف وشردهم في أنحاء تركية وأصبحنا نحن وهم مصداقاً لقول الشاعر:

وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جارمه العقاب

وإني ما زلت أذكر منظراً للأطفال المشردين وهم ينشدون هذه الأغنية الشعبية:

يا خالتي حني على من جودك والحنية
قضينا سنة سوده جوع وعرى وبرديه
خبيزه تشكي وتقول ما خلوا، لي عرق يطول
عملوني غدا وفطور كله من الجوع يا خيا

وقد اشتدت الأزمة وشحت الأقوات بسبب تسلط الجيش الألماني على موارد الدولة وتسلمهم لزمام القيادة في ميادين القتال ورأيت بعيني في حي الصالحية الناس يتخطفون الخبز من حامليه كما كان الكثير من المهاجرين يتدافعون أمام تكية ابن عربي لمغرفة من حساء الأرز وهم

في أسمالهم البالية والقمل يتمشى عليهم من جراء القذارة والبؤس ولم يكن لدى المرضى ما يدفعونه للأطباء، ولم يكن هناك طبيب يتفقد المرضى من قبل الحكومة أو مستشفى يعالج بالمجان، وفي تلك الآونة كان جمال السفاح يشنق أحرار دمشق رعيلاً بعد رعيل في ساحة الشهداء وكانوا الضحايا الأول للثورة العربية التي قام ينادي بها الشريف حسين وكانت دمشق تعلوها سحابة من الكآبة والحزن وقد فر كثير منهم إلى مصر وعملوا لإشعال الثورة العربية والأماني العربية حتى نالوا الاستقلال.

وفي منتصف عام ١٣٣٧هـ وردت الأخبار بانهزام الألمان أمام قوات الحلفاء بقيادة المرشال فوش قائد قوات الحلفاء، كما وردت أخبار اندحار الجيش التركي في ميدان فلسطين ودخول الجنرال اللنبي إلى بيت المقدس وتفوهه بكلمته الجارحة: (هنا انتهت الحروب الصليبية) ولقد تعقب الإنكليز فلول الألمان والترك إلى دمشق، وفي ليلة دخول الجيش دمر الألمان مخازن الذخيرة في القدم وكان انفجار القنابل يصم الآذان حينما اللهيب يتصاعد لعنان السماء وكانت ليلة رهيبة قضيناها في خوف ووجل، وفي الصباح دخل الجيش البريطاني بفصائل من خيالة السيخ ومسلمي البنجاب قاطعين ميادين دمشق إظهاراً لقوتهم بينما دخل الجيش الفرنسي إلى لبنان بطريق بيروت، وبعث الجيش البريطاني كوكبة من الخيالة العرب كرمز للقوة العربية الموالية للأحلاف، وقد زلزلت دمشق بهزات خفيفة، وأخذ الرعاع في نهب دور الحكومة ومصالحها، واستقبل أهل دمشق الجيش المحتل بالبشر والترحاب وبعد أيام قدم الأمير فيصل بن الحسين ومن تبعه من الأشراف ومن رجالات سورية والعراق وأخذ في تأليف أولى حكومة عربية تحت تاجه وأخذ السوريون يتباشرون

بالمملكة الفتية بعد نضال وجهاد دام عشرات السنين وأقيمت الحفلات والزينات وقد انتعش المهاجرون من أهل المدينة بدمشق الذين سلموا من الوباء والبلاء وأصبحت أسرتنا سبعة فقط من عشرين شخصاً آخرهم عميد الأسرة جدي لأم عبد القادر عنبر خان والباقون كنا ثلاث نسوة وأربعة أولاد فهم أخي عبد الحميد عنبر وأخوه محمد عبد القدير ورتبت لنا رواتب شهرية ومنح طيبة وصدر الأمر بترحيل أهل المدينة إلى المدينة ومن أراد من المجاورين السفر لبلاده أجيب إلى طلبه من لدن المعتمد البريطاني والمعتمد الفرنسي، وقد سافر الكثيرون إلى بلادهم بالهند والمغرب وأصبح المهاجرون بحلب وحمص وحماة وأضنة والأناضول يتدفقون إلى دمشق للسفر منها إلى القنطرة فالسويس فينبع فالمدينة ورغب في البقاء بعضهم في مهاجرهم. وكان ترتيبنا في الفوج الرابع ففي شوال ١٣٣٧هـ ركبنا وجماعة من أهل المدينة من دمشق إلى حيفا فالعريش وأنزلونا في القنطرة في مخيمات المحجر الصحي وبقينا بالمحجر أسبوعين تقريباً انتظاراً للباخرة التي تقلنا وكانت باخرة نمسوية أسيرة سميت (بالعباسي) وقبيل تحركنا من القنطرة أخذت أمتعتنا وحقائبنا إلى القطار وفتشنا عنها في السويس فقيل لنا إنها حملت في الوابور الذي كان بانتظارنا هناك، فركبنا الوابور وكان وابور بضاعة فأنزلونا في العنابر كالحيوانات مختلطاً بعضنا ببعض وفي اليوم الثالث وصلنا ينبع وبحثنا عن أمتعتنا فلم نجدها وأخيراً بعد البحث والتنقيب وجدنا الصناديق مفتوحة بباطنها حجارة وأحذية بالية للجنود فعلمنا أننا سرقنا من الحمالين المصريين في طريق القنطرة إلى القطار وكانت حتى نقودنا بالصناديق لأننا استبدلنا بنقودنا الريال المجيدي الذي ابتعناه في القنطرة بسعر سبعة قروش للمجيدي الواحد ولثقلها وضعناها بالصناديق ولم نكن نحن المسروقين فقط فكل جماعتنا سرقوا ما عدا بعض الفرش

والأمتعة الزهيدة ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهكذا وصلنا ينبع وليس لدينا غير الألبسة التي على أجسادنا وكان معنا كتاب توصية للشيخ ابن جبر وكيل الشيخ يوسف خشيرم فقد زودنا المذكور بذلك الكتاب إلى المدينة على حساب حكومة الملك حسين بعد أن اشترى لنا بعض ما نحتاجه من الزاد واللباس وكنا مائة شخص ما بين رجل وامرأة فوصلنا المدينة المنورة بعد غياب طويل بخير وسلام وأول ما نزلنا في ضيافة الخال صديق عنبر خان ثم ذهبنا لدار الجد فوجدنا الدار مفتوحة والمتاع مسلوباً فقد كان جدي، رحمه الله، وضع جميع الأثاث والفراش في غرفة وبنى عليه غير أن اللصوص من الجنود وغيرهم اهتدوا لتلك الغرفة وأخرجوا كل ما فيها، وهو ما حصل في أكثر البيوت حال غياب أهلها، وقد أخبرنا الوالد رحمه الله أنه لم ينج من السلب حتى المقيمين في دورهم فقد سلبه أعوان الشريف عبد الله لدى دخولهم للمدينة فراشه ومتاعه وهو في بيته يستلطف الله، لقد وجدنا الوالد بخير وحكى لنا بأن فخري باشا عين له أخيراً طعاماً كأحد الضباط وسبب ذلك أن ساعة الباشا اليدوية الثمينة خربت فأرشدوه للوالد لإصلاحها ولما أصلحها أنعم الباشا عليه بأجرة طيبة فقال الوالد: يا باشا هذا لا يؤكل وأنا في حاجة للطعام، فضحك الباشا وعين له غداء كل يوم يأتي به إليه أحد الجنود. وفي أثناء الحصار كانت توفيت زوجة الوالد الكبرى وأختي لأبي وبقي هو وخالتي الصغرى بعد أن باع أثناء الحصار بيتاً ودكاناً بأبخس الأثمان، لقد بقيت أنا لدى جدتي وخالاتي ومعي أخي عبد الحميد وأخوه محمد وكنا في ضنك من العيش لا عائل لنا ولا معين فقد انتقلنا إلى دار الجد وليس لدينا من الأثاث والفراش إلا الشيء القليل وكنا في نكبتنا هذه بعد رجوعنا إلى

الوطن اشد من نكبتنا بدمشق وشاء الله أن يلازمنا سوء الحظ عدة سنين ولم يكن لنا ثمة عائل أو مرتب شهري لأن المرتبات السابقة ذهبت مع ذهاب الدولة الغابرة.. وهكذا كان حال أكثر العائدين في الوقت الذي لم يرجع من الثمانين ألفاً أكثر من عشرة آلاف.

تاريخنا القريب

ـ ٣ ـ

رجعنا إلى المدينة من دمشق كما سبق بعد نهاية الحرب الأولى في أواخر سنة ١٣٣٧هـ بعد اغتراب عامين قاسينا فيهما الأمرين: (المرض والفقر) وذلك باستثناء المئات الذين كانوا ينعمون في بحبوحة من العيش الرغيد ثم توالى وصول الأهالي تباعاً من أنحاء سورية: (حماة وحمص وحلب) ومن بلاد الأناضول: (استانبول وقونيه وكوتاهية وأضنة ومرسين) ومن الروملي: أدرنة وغيرها وقد سبقنا من اغترب إلى مكة وجدة وينبع وقرى البادية ومجموع ما ورد لما يكمل العشرة آلاف نسمة ما بين رجل وامرأة وطفل وكان عدد الذين خرجوا قبل سنتين وثلاث لا يقل عن خمسين ألفاً غير أن الكثير بقي في مغتربه ومئات منهم رجع إلى موطنهم الأول كالمهاجرين من الهنود والمغاربة والبخارية والأتراك وكان هذا النقص الهائل من جراء ما تعرض له أكثر المهاجرين من الأمراض والفقر وعدم العلاج، وقد ذكرنا أن الكثير منا فقد أمتعته وأثاثه في طريق القنطرة إلى السويس فوصلنا ينبع بألبستنا على أجسامنا فقط ولما وصلنا المدينة زاد الطين بلة إذ وجدنا بيوتنا منهوبة من قبل جنود الأمير عبد الله بن الحسين فقد قدم المدينة زائراً، ثم قفل بأمر والده إلى

الطائف لتأديب العصاة من البدو (المتدينة) والزحف إلى نجد لتأديب الإخوان وإيقاف سلطان نجد (الملك عبد العزيز) عند حده ولما وصل إلى بلدة (تربة) خيم بجنوده وعتاده وكان من معه من الجيش النظامي والهجانة لا يقلون عن أربعة آلاف جندي مع كمية وافرة من السلاح والذخيرة والمدافع الجبلية ومدافع الميدان، وبعد أن استقر به المقام بعث رسله إلى رؤساء البادية يحذرهم وينذرهم وكتاباً[١] خاصاً لسلطان نجد يأمره بالرجوع إلى نجد والتخلي عن العصاة والمتمردين (انحر إلى ديرتك) هكذا والختم الأميري (قال إني عبد الله) ويظهر أن الملك عبد العزيز لم يكلف نفسه بالرد على كتاب الأمير وكان الرد الشافي هو هجوم الإخوان[٢] ليلاً على جيش الأمير وتمزيقه شر ممزق وذبح ما بقي منهم ذبح الشاة ولم يسع سمو الأمير إلا النجاة بنفسه على فرس عارية ووصوله سالماً لجلالة والده المنقذ ولسان حاله يقول: «لقد ظفرنا يا مولاي من الغنيمة بالإياب» فتحسر الوالد الحزين قائلاً: إنا لله وإنا إليه راجعون «ليت لي فيصلين»[٣] وقد كانت المنهوبات التي نهبها جنود الأمير بالمدينة غنيمة باردة لجيش الإخوان في تربة ولولا إنذار بريطانيا للملك عبد العزيز بن سعود لزحف الإخوان للطائف ومنها إلى مكة وعجلوا بيوم الطائف والقضاء الأخير على العرش الهاشمي المتزعزع.

لكن الحسين لم يعتبر من انكساره وكان يعتمد على حليفته بريطانيا

---

(١) لقد أثبت هذا الكتاب أمين الريحاني في كتابه تاريخ نجد والكتاب مضحك مبك.

(٢) كان يطلق على البدو الذين يلتحقون بالإخوان ويدخلون دين التوحيد وينبذون الشرك.

(٣) يشير الحسين إلى ابنه الأمير فيصل ملك العراق فيما بعد وقد كان موفقاً في سياسته ونيل رضاه.

غير أن بريطانيا يومئذ كانت تأمل أن يوقع جلالته على المعاهدة المشئومة التي كان سبب امتناعه من توقيعها عدم الاعتراف بالصهيونية في فلسطين عدم الاعتراف به ملكاً على البلاد العربية وكان عليه أن يقوي من جيشه وتسوية حسابه مع حلفائه والاعتراف بزعماء العرب وكيف للحسين رحمه الله أن يعتبر وهو يعتبر الملك ابن سعود في الدرجة الرابعة أو الخامسة من شيوخ العرب.

ولنعد إلى ذكر بعض الأحداث التي مرت بالمدينة في خلال الأعوام ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١:

حركة التعليم

بعد رجوع المغتربين بالمدينة أنشئت أربع مدارس تحضيرية (ابتدائية) بإدارة المرحوم عبد القادر شلبي الطرابلسي (المدرسة العلوية) و «العبدلية» و«الفيصلية» و «الزيدية» تيمناً بأسماء الأمراء الأربعة وانتظمت في المدرسة الفيصلية في الصف الثاني[1] وكنت وزملائي نلتهم الدروس التهاماً برغبة وشوق وأقسم بالله غير حانث أن المواد التي تلقيناها كانت تفوق مقرر الشهادة الابتدائية اليوم وكان ما يزيدنا حماساً ونشاطاً تلك الأناشيد التي جاءتنا من سورية ولبنان ومكة ننشدها صباحاً ومساءً، في

(١) أذكر من زملائي السيد عبيد مدني. هاشم السمان، عارف أسعد، أحمد المحضار، حسن رفاعي، كاظم رفاعي، محمود عبد الكريم أركوبي، والتحق بنا متخرجو تلك المدارس أذكر منهم زميلي السيد أحمد العربي والسيدين علي وعثمان حافظ، وحسين ابو الفرج وأحمد سلطان والسيد اسعد طرابزوني وصالح طاهر وعباس زاهد وعبد الجليل رياضي ثم تسلل أكثرهم لمزاولة الأعمال، وكان من أساتذتنا المرحومون: (حسين طه. محمد علي طه) أحمد صقر، محمد صقر، محمد سالم، محمد الكتامي، محمد سعيد مدرس رحمهم الله.

فناء المدرسة وإن كان أكثرها يشيد بالثناء على الحسين والبيت الهاشمي ولا بأس بذكر نماذج منها:

ـ ١ ـ

أيـهـا الـمـولـى الـعـظـيـم فـخـر كـل الـعـرب
مـلـك الـمـلـك الـفـخـيـم مـلـك جـدك الـنـبـي
نـحـو هـذا الـمـلـك سـيـروا لـخـلاص الـوطـن
وعـلـى الأعـداء أغـيـروا لـنـجـاة الـوطـن

ـ ٢ ـ

عـلـى أم الـقـرى مـنـا سـلام على من في ضواحيها أقاموا
على من ضم جمعهم الخيام على من شب بينهم وشابا
على حامي الحمى في القبلتين إمام العرب قرة كل عين
خليفتنا ومولانا الحسين سلام نشره كالمسك طابا

ـ ٣ ـ

سيروا للمجد طراً سيروا للحرب واستعدوا بالمواضي دولة العرب
إيه دولة العرب في سما العليا كـنـا أنـجـمـاً زهـرا
قد عدلنا إذ ملكنا البر والبحرا إيـه أمـة الـعـرب

وبعد إتمامنا للمنهج التحضيري (الإبتدائي) نلنا الشهادة في احتفال فخم حضره وكيل أمير المدينة وكبار الموظفين والأعيان، وفي مستهل عام ١٣٣٩هـ افتتح أول صف تأهيلي (إعدادي) كانت أكثر مواده من تأليف شيخنا مدير المعارف عبد القادر الطرابلسي ما عدا ما كان منها مطبوعاً من التفسير والحديث والفقه والتوحيد. وفي هذه الفترة وما

بعدها لم تصرف رواتب المعلمين بنظام حيث إن أمير المدينة (الأمير علي بن الحسين) كان يستنزف أكثر رواتب موظفي دوائر المدينة على نفسه وأتباعه أو ينثره على شيوخ البادية في حله وترحاله فاضطر شيخنا الشلبي إلى جمع المدارس الأربع في مدرسة واحدة فاجتمع متخرجو المدارس الأربع في الصف التأهيلي المشار إليه، رغم الجهود التي كان يبذلها مدير المعارف لاكتساب ود الأمير واستعطافه لترقية التعليم لم يجد أذناً صاغية. هذا رغم ما كان يصوغه من القصائد الطنانة في مدحه واستعطافه.

أذكر يوماً خرجنا نحن طلاب المدرسة لمقابلة سمو الأمير خارج ميدان الباب الشامي وكان الجيش والشرطة وأعيان البلاد قد خرجوا لاستقباله ومكثنا في الشمس ساعتين أو ثلاثاً حتى شرف موكب سموه يتهادى على فرس شهباء يحيط به كبار مرافقيه وكان خطيب مدرستنا «مربي الجيل» أحمد العربي يحفظ قصيدة من نظم شيخنا الشلبي فألقاها أمام الأمير في حماس ولباقة، وكان الأمير يهز رأسه استحساناً وكنا نظن أنه سيأمر لنا بمنحة سخية، ولرقة وعذوبة تلك القصيدة اذكر منها:

أشموس يمن أم سنا أنوار ... أم ضوع مسك أم شذا أزهار
أم بدر تم لاح في فلك الصفا ... بحلاه قرت أعين النظار
أم ذا (ولي العهد) وافى مقبلاً ... تحتاط فيه من الأسود ضواري
في موكب حار اللبيب بوصفه ... يسري بأمر باهر الأسرار
والناس مطرقة الرؤوس مهابة ... والصافنات تجول في المضمار
والورق تفصح بالغناء كأنها ... خطباء فوق منابر الأشجار
حتى سمعت منادي العلياء قد ... نادى بكل مسرة وفخار

هذا «ولي العهد» هذا المرتضى   هــذا «عــلــي» ســيــد الأبــرار

إلى آخر تلك القصيدة التي هزت أعطاف الأمير فجاءت مكارمه السخية بصرف راتب واحد «مجايدة» ممسوحة «جمع مجيدي» من ثمانية عشر راتباً منكسرة لمعلمي المدرسة.

فأعجب معي أيها القارىء لما كان يجري بالمدينة، وجلالة الحسين في قصره بالمخلوان غافل عن أعمال ابنه الكبير الأمير.

تصور معي أيها القارىء في بلد بلغ عدد سكانه سنة ١٣٤٠هـ عشرين ألفاً لا يحوي إلا مدرسة ابتدائية واحدة وصفين إعداديين (أول وثان)(١) في محلة واحدة بالباب المجيدي «مكان المدرسة المهدومة لتوسيع الحرم النبوي» وموظفوها لا يتناولون رواتبهم إلا ثلاثة أو أربعة أشهر من السنة، وكذلك بقية الموظفين تصرف رواتبهم شهراً بعد شهر حتى الجنود والشرطة حماة الأمن والنظام وكثيراً ما خرج الجنود جماعات في شكل مظاهرة فسلبوا ونهبوا ولا من رادع لهم فسيدنا الأمير إما يكون مصطافاً بالطائف أو حاجاً مع جلالة والده المنقذ، أو لاهياً في قصره بالعنبرية، يلعب الشطرنج مع بعض المقربين والعبد رزيق يوالي مناولة الشاي والقهوة لسيده الأمير. ومن ينعم بالمدينة يومئذ هم أتباع الأمير وأشياعه وكبار الموظفين من الضباط وبعض التجار، وكل من له مساس بمواسم الحجاج كالأدلاء وأعوانهم.

أما الأفندية والأعيان فكانت البطالة متفشية بينهم بعد أن تقطعت

---

(١) على أنه هناك كانت كتاتيب متفرقة لتعليم القرآن الكريم ودروس تلقى في المسجد النبوي على أيدي كبار العلماء أمثال الشيخ محمد الطيب الأنصاري والشيخ عمر حمدان والشيخ عبد القادر الطرابلس والشيخ محمد الخضر الشنقيطي وغيرهم.

أسباب معيشتهم بتوقف رواتبهم التي كانوا يتناولونها من خزانة الدولة التركية، ولذا فقد تسلل كثير منهم إلى الهند ومصر والسودان وجاوة لاكتساب الرزق والعمل هناك، أو الرجوع بما يقسم الله من المنح والبدلات[١]. والصناعات كانت راكدة لعدم وجود مجال للأعمال، والأحكام كانت شبه فوضى ومشاعة بين وكيل إمارة المدينة والقائمقام الشريف حسين شحاد ومدير الشرطة عاهد بك. فكان الحكم للأقوى منهم، وكان القضاء يولاه المرحوم أحمد كماخي. وأخيراً المرحوم عمر كلادي المقرب من الأمير، أما الأمن فقد كان مختلاً بسبب السلب والنهب إعلاناً وجهاراً في رابعة النهار، ويا ويل من يخرج عن سور المدينة بلا سلاح، فكثيراً ما نهب السكان والحجاج، وكثيراً ما قتلت النفس البريئة في ميدان المناخة، وأخذت بجريرة غيرها فسمع كلمة «سدَّاد»[٢] وطالما سلب الحجاج في طريق المزارات في طريق سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه وفي طريق قباء «المسجد الذي أسس على التقوى» أو في طريق القبلتين. كل ذلك سببه الجهل، والحكم المائع، مع قلة الموارد وعدم الأعمال وكم من حادثة مؤلمة من سلب ونهب حدثت فعكرت أمن البلاد.

---

(١) المراد بالبدلات حجبات البدل.

(٢) سداد ـ بتشديد الدال الأول ـ معناها أن القاتل أخذ ثأره من أحد أفراد قبيلة القاتل.

تاريخنا القريب
ـــ ٤ ـــ

المدينة المنورّة[١]

من ذاكرتي قبل نصف قرن

ازدهرت المدينة وكثر عدد سكانها، واتسعت تجارتها، وكثر عمرانها بعد وصول سكة حديد الحجاز من دمشق إلى المدينة، وكان ذلك من أكبر أعمال السلطان عبد الحميد العثماني، كما ساهم فيه الكثير من المسلمين. وأعظم أعمال التمديد قامت على سواعد عشرة آلاف جندي وبفضل هذا الاتصال بين الأقطار العربية والإسلامية كثر المهاجرون من كل قطر وجلهم كان من روسيا والتركستان والمغرب. وبديهي أن يرتفع ثمن العقار[٢] وكان القطار يأتي محملاً من دمشق بأنواع البضائع من أدوات البناء ومكائن سحب الماء والخردوات المختلفة والأقمشة النفيسة إلى لذيذ الفواكه حتى الخضروات، وأصبحت المدينة موسماً طول أيام السنة تبدأ من شهر ربيع الأول ولا تهدأ إلا في شهر جمادى الأولى والثانية وكانت حركة مستمرة من سنة ١٣٢٧ حتى آخر ١٣٣٣هـ.

---

(١) المصدر المنهل: عدد (٧) رجب سنة ١٣٨٦هـ.

(٢) بلغت قيمة المخزن من الأرض (٤٢ متراً) مائة جنيه عثماني وفي العهد السعودي ارتفع ثمن مثل تلك الأرض إلى ألف جنيه افرنجي.

(حالة السكان)

كان أكثر أهل المدينة من الأفندية والأعيان لهم مرتبات من خزينة الدولة وجرايات[١] وترب سنوية[٢] تفي بلوازم معايشهم، وحسبك أنه كان للحرم النبوي أكثر من ثلاثمائة إمام وخطيب ومثلهم من المؤذنين وخدام الحرم والحجرة المطهرة والبعض الآخر له تقرير الحجاج الوافدين من الأقطار الإسلامية، ففلان له تقرير الترك وعلان له تقرير الهند، وهكذا لهم رزق يفيض عليهم بلا حساب[٣] ويطلق على أصحاب التقارير (الأدلاء). لذا لم يلتفت أحد منهم لبعث أبنائه إلى الأزهر أو الجامعات لتلقي العلوم والفنون كالطب والهندسة والحقوق والزراعة ومختلف الصنائع الحرة، وكان المهاجرون هم الذين يزاولون مهنة البناء والتجارة والخياطة وغيرها. أما الزراعة فكانت وقفاً على النخاولة[٤] وبعض البدو من القرافة والسرانية، وأما العلماء من المجاورين فكانوا يلقون الدروس بالمسجد النبوي أذكر ممن أدركت منهم العلامة السيد حسن أحمد المدني الزعيم الإسلامي المشهور[٥] والشيخ محمد إسحاق الكشميري والشيخ عبد الباقي اللكنوي وشيخنا

---

(١) الجراية هي حنطة كانت تأتي من مصر لسكان الحرمين وقد يصيب الفرد أردباً والعائلة عشرة أرادب تكفي لسنة وتزيد.

(٢) الترب جمع تربة عبارة عن أمانات كانت تأتي مع المحمل الشامي بأسماء كثير من أهل المدينة كهدايا ونذور سنوية.

(٣) نسأل الله أن يرزق أصحاب التقرير برزق غير الدلالة فقد أصبحت مهنة مهينة لا يعتمد عليها في المستقبل.

(٤) النخاولة هم تلك الطائفة الشيعية الذين يمتهنون الزراعة من قديم الزمان إلى اليوم.

(٥) هو أخو السيد أحمد الفيض آبادي مؤسس مدرسة العلوم الشرعية وأخو مولانا السيد محمود أحمد وهم أعمام السيد حبيب أحمد.

الشيخ عبد الحليم الهندي والسيد جعفر الكتاني المغربي وشيخنا الشريف محمد الحرير الشيخ حمدان الريسي والشيخ عمر حمدان التونسي والشيخ محمد الحبيب التونسي والشيخ محمد الطيب الأنصاري والشيخ محمد الأخميمي والسيد مصطفى صقر القناوي والسيد يس أحمد الخياري وشيخنا السيد أحمد صقر والسيد محمد صقر والملا صقر البخاري والملا محمد يولداش البخاري والشيخ الفاهاشم والشيخ سعيد التكروري وشيخنا الشيخ عبد القادر الشلبي الطرابلس والشيخ محمد علي التركي والشيخ محمد الخضر الشنقيطي وشيخنا ومربينا السيد أحمد الفيض آبادي مؤسس مدرسة العلوم الشرعية.

ومن أهل المدينة العلامة السيد أحمد البرزنجي والسيد عبد المحسن أسعد والسيد جعفر هاشم والشيخ مأمون البري والشيخ إبراهيم البري والشيخ حسن أزميرلي والأديب الشيخ إبراهيم أسكوبي والأديب الشيخ عبد الجليل برادة والسيد عباس رضوان وشيخنا الشيخ ماجد البري وغيرهم ممن لا أحصي عددهم غفر الله لهم ورحمهم.

وهؤلاء العلماء الأجلة كانوا يلقون الدروس المختلفة من التفسير والقراءات والحديث والفقه والأصول والصرف والنحو والبلاغة، غير أنها كانت بغير نظام مدون أو إدارة مسؤولة أو مراقبة أو اختبارات منظمة، وكان الكثير من العامة يشترك في الدروس للاستماع والتبرك فقط، لذا لم تأت بالثمار المرجوة حيث كان الطلاب يعدون بالألوف وأكثرهم من المجاورين سكان الأربطة[1] والمدارس. ومدارس الحكومة لم تتجاوز

(١) الأربطة جمع رباط أكثرها بناها أصحابها للطلبة وأجروا عليها النفقات من عقارات ثابتة كانت تصرف من الأوقاف كالمدرسة الحميدية والمحمودية ومدرسة بشير آغا وبعضها من الخارج كرباط مظهر ومدرسة الكشميري ومدرسة الجوهري ومدرسة القزانلي.

ابتدائية وواحدة إعدادية وواحدة دار معلمين أولية مع العلم بأن عدد سكان المدينة تجاوز الثمانية آلاف بموجب إحصاء ١٣٣٤هـ. أما الكتاتيب[١] فكانت منتشرة منها أربعة بالمسجد النبوي وعشرات بالمحلات وهذه الكتاتيب كانت مقصورة على تعليم الهجاء وسور من القرآن والقليل من حفظة القرآن الكريم ولا غرو أن السبب في تأخر التعليم عدم اهتمام الحكومة العثمانية من جهة وعدم تقدير قيمة التعليم من جانب أهل المدينة، فكثيراً ما كانت الحكومة تطلب بعثة من الطلاب لتعليمها على نفقتها في سورية أو استانبول فلم يتقدم أحد إلا النزر القليل، أذكر على سبيل المثال الدكتور رفاقت علي الهندي الذي تعلم بالآستانة والسيد جميل أحمد الأخ الأصغر للسيد محمود أحمد وتوفي وهو طالب وأذكر أستاذنا السيد حسين طه وأخاه السيد محمد علي طه اللذين بعثهما والدهما لسورية للتعليم في المدرسة الثانوية السلطانية، وعلى كل فقد كان أهل المدينة يتخوفون من التعليم العالي خوفاً من الجندية وحمل السلاح، وكانت الحكومة أعفت سكان الحرمين من الجندية بما فيهم البادية، فكانت البادية أشد جهلاً وتمرداً فلم تشأ الدولة تربيتهم والضغط عليهم حتى أصبحوا يقطعون طريق الحاج ويقتلون الحاج لسلب ماله في وضح النهار وأصبح الحاج في تلك الأيام كراكب البحر (الذاهب للحج مفقود والسالم مولود).

ولم يقتصر تمرد البدو على الحجاج والزوار بل تعدى إلى سكان المدينة فلو ابتعد أحد خارج السور كان عرضة للسلب (التشليح) وربما للقتل أيضاً، وإذا اعتصم أحد من المجرمين لدى أحد مشايخ البدو لم يكن للدولة سبيل للقبض عليه. وهكذا لم يكن الأمن مستتباً بالمدينة

(١) الكتاتيب جمع كتاب لتعليم القرآن.

وأكثر الحجاج مرحمة كان فريق السودان (التكارنة) فكان البدوي إذا ظفر بأحدهم لا يقتله لأنه لا مال عنده وإنما يبيعه بخمسين ريالاً ولا يزال بعض هؤلاء المستعبدين[١] باقياً منهم اليوم بعد أن شاخوا بالمدينة.

وبالرغم من كل ذلك فقد كان الرخاء سائداً في جميع وسائل العيش والغذاء وكان (المجيدي) الريال التركي والريال الفرنسي والروبية الهندية تقضي لوازم أسرة كبيرة من جميع الحاجات حتى الفاكهة، ولو سألت أحد المعمرين لقال لك: (رحم الله أيام زمان كان (الطلي) الخروف المتوسط بريالين وكوز السمن (١٢ أقَّـة) بريالين وكيس الأرز المزة بخمس روبيات وكيس الحنطة الجراية المصرية بمجيدين وراس السكر أبو لمعتين (٥ أقات) بنصف مجيدي ومجلاد التمر الحلوة (٢٠ أقَّـة) بريال ورأس الجبن (٢ أقَّـة) بقرشين صاغ. ورحم الله أسعد عباس مطرب مشهور) والبناني والدسوقي والنعمان (كلهم مطربون) القيل والأفراح والأيام الملاح الله يساعدكم على زمانكم).

صح ما يقوله هؤلاء المعمرون فلقد فتحت عيني وأقَّة اللحم بقرشين وأقة السمن بقرشين ومثله أو اقل منه السكر والجبن والفاكهة مثل العنب والتين والخوخ، وأذكر أن والدي كان يعطيني قرشاً للفطور والغداء، فأفطر لدى (أبوي الماس) فول وسمن ونصف رغيف بهللة ونصف (القرش أربع هللات) وأتغدى بمثله شريك وحلاوة أو جبنة وتبقى هللة للحلاوة ونأخذ بها ست قطع كبيرة أو ست حبات (مقلي) وبالجملة فقد كانت سنو الوابور (القطار) سني خير وبركة ورخاء على أهل المدينة،

---

(١) وذلك بعد عتقهم من مواليهم أعرف جارية (مبروكة) معتوقة الشريف ناصر.

ولذا كانوا منهمكين في لذائذ الحياة فهناك (القيلات)[1] والأسفار إلى الآستانة والأناضول ومصر وسورية والهند والصين والتركستان، يسافر الفرد إلى إحدى هذه الجهات فيأتي محملاً بالتحف والهدايا وحج البدل[2] فيكفيه للصرف بقية أيام السنة بدون جهد وعناء، فإذا جاء شهر الحج خرج الألوف بقصد الحج في جماعات على ركاب وخيل وحمير كل جماعة تنسب لشيخ يسمى (شيخ) الركب كركب الشيخ زاهد وركب الشيخ العينوسة وركب الداغستاني وركب البناني، ومع كل ركب الحادي (المنشد) يحدو لهم في المسير لدى خروج الركب من المدينة، ولدى وصوله إلى مكة ولدى عودته ويصحب هذا الركب كثير من الشباب (السرارة) وهم ممن يحجون لأول مرة ويحتفل بهم لدى خروجهم وغيابهم، وكثيراً ما كان حجاج الركب من أهل المدينة يحملون السلاح خوفاً من البدو، وقد لا يتورع بعضهم من إصابة البدوي إذا حصلت مناوشات بينهم في الطريق. وكان الحج لا يخلو من متعة، ثم يأتي شهر رجب شهر الزيارة إلى المدينة فيأتي من أطراف الحجاز ومن الطائف ومكة خلق كثير وخاصة ركب المكيين الذي يشبه ركب المدينة يأتون جماعات على ركاب وخيل وحمير أيضاً ومع كل جماعة الحادي (المنشد)، ويجتمع هؤلاء الزوار مع الأهلين في الصعود إلى ضريح سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، وكانت الحكومة التركية تحتفل به رسمياً فيخرج فوج من الجنود بموسيقاه وأفراد الشرطة وينصب سرادق لمحافظ المدينة (الباشا) وغيره من مديري المصالح ويخرج أهل المدينة إلى

---

(١) القيل: جمع قيلة وهو يوم الخروج إلى النزهة.

(٢) حج البدل وهو الحج عن الغير إذا توفي ولم يحج أو كان كبيراً لا يستطيع السفر.

بيوت خاصة بهم هناك وتنصب الخيام كخيام يوم عرفة أو أيام منى، وتقام الزينات وتطلق الصواريخ وتقام الولائم والموالد والإذكار[١] والسمر بالليل وقد يجري من الموبقات من بعض من لا خلاق لهم وتوفى النذور من بعض فاسدي العقيدة[٢] ويمتلىء قبر الشهيد (الضريح) بالشموع والدراهم من ذهب وفضة يأخذها سادن التربة كائناً من كان.

وهناك أضرحة كثيرة كضريح آل البيت النبوي الذي يمتلىء في الموسم من الذهب والفضة والعطور والنذور وغيره من أضرحة آل البيت والصحابة.

وفي شهر رمضان المبارك يحتفل أهل المدينة بهذا الشهر ويصبح الحرم النبوي كخلية النحل من كثرة الدروس وتلاوة القرآن وتعدد جماعات التراويح، فهذا أمام الباشا وذاك أمام شيخ الحرم وذاك أمام الأغوات وجماعة الصبيان من حفظة القرآن ولدى غروب الشمس تأتي موائد الإفطار إلى الحرم، فيصبح المسجد عبارة عن صالات طعام وشراب[٣] وكانت المجالس (الأندية) كمجلس آل المدني وآل أسعد وآل الصافي والداغستاني والدوريات الليلية فيجتمع في تلك المجالس وجوه البلد والأعيان للسمر وللخوض في شؤون البلد وأخبار الحكام، كما كان مجالس مشايخ الْعُرْبَان والأشراف من بني حسين وفي هذه المجالس تتكون الشيع والأحزاب للسيد فلان والشيخ فلان وكثيراً ما يعترض

---

(١) لقد بطلت عادة الإذكار واحتفال الرجبية في ميدان سيد الشهداء وغيرها من البدع في العهد السعودي.

(٢) من الدعاء والاستغاثة والنوح حول الأضرحة وقد اختفت هذه المناظر المؤذية.

(٣) لقد أبطل تعدد جماعات التراويح وعادة الموائد وإن كانت الموائد الصغيرة لا تزال باقية.

هؤلاء على الحكام من المحافظين (الباشاوات) إذا رأوا منكراً، وقد يكون الاعتراض تأبط شراً على أمور تافهة أو معاكسة لأمر فيه خير البلد ولكنه بدعة في نظرهم، وقد تستجيب الحكومة إلى عزل بعض الحكام تلبية لرغبة أهل المدينة. فقد أراد بعض المحافظين، وأظنه رضا باشا الركابي، فَرْض ضريبة (قرش) للبلدية لأجل التنظيفات وأبى الأهالي دفعها ورفعوا شكوى للسلطان حتى عزل الباشا المذكور.

كل ذلك ما كان يستبعد من بيئة لم تبلغ درجة النضج الثقافي والتقدم الفكري وكان هناك أيضاً بعض الخرافات السائدة كالاستشفاء بحفل الزار والزير والحضرة وما يؤتى فيه من الحركات الشيطانية التي يأباها الذوق السليم والشرع الحنيف[١] ولا تزال بعض رواسب هذه العادة باقية لدى بعض الناس الجاهلين ومصيرها للزوال إن شاء الله.

والمدينة مشهورة برقة ذوق أهلها وكرمهم ولطفهم وميلهم لمجالس الإنس والطرب والاستكانة للراحة والنزهة، وكان هم المترفين التبسط في لذائذ الحياة. ووصول القطار ـ وإن كان جالباً للخيرات ـ فقد جر الكثير من البلاء أيضاً بما كان يحمله من كماليات ومتع اللذات، وزاد الطين بلة بعد خلع السلطان عبد الحميد[٢] وقيام دولة الاتحاديين الذين بنوا شعاراتهم على: (حريت ـ عدالت ـ مساوات) فقد منهم الكثير من مدلول هذه الكلمات على غير ما وضعت لها: (كلمة حق أريد بها

(١) إن بعض مرض الأعصاب قد يشفى منه بالرقص فاستغل هذه الظاهرة بعض المشعوذين فزعموا أنه لمس من الجن لا يخرج إلا بأعمال شركية وحركات جنونية.

(٢) رغم أن هذا السلطان ظالم فقد كان ظهيراً للإسلام محباً للعلماء تجلى ذلك فيه آخر الخلافة العثمانية.

باطل) فظهر الفسق والفجور وخاصة في بعض الطبقات من الضباط والجنود والموظفين من الشباب، وبعض الجهلة الرعاع، فكنت أرى وأنا صغير ذاهباً للكتاب جلد السكران أمام باب المحكمة وكانت محلة المجزرة والقليعة بؤرة للفساد يعرف ذلك المعمرون من أهل المدينة المنورة.

هذا وقد استكملت المدينة رونقها من فتح الشوارع الجديدة والعمارات الضخمة خارج الباب المجيدي وفيه أنشىء أكبر فندق بالحجاز (فندق السيد عبد الله مدني) وعمارات بالسيح وزقاق جعفر والجديدة وزقاق الطيار وكثر الموردون من التجار السوريين واتخذوا المدينة دار إقامة لهم وبلغ العقار منتهاه من ارتفاع القيمة[١] وتأسست أول كلية إسلامية[٢] في ميدان العنبرية وفتحت بعض المعاهد الليلية.

(١) لقد بلغ العقار في العهد السعودي أضعاف قيمته في العهد التركي فقد بلغ قيمة المخزن اليوم ألف جنيه ذهباً مما كان قيمته إذ ذاك مائة جنيه عثماني.

(٢) أصبحت اليوم مدرسة ثانوية.

تاريخنا القريب

ـ ٥ ـ

مأساة المدينة صفحات مطوية

في عام ١٣٣٩هـ وقعت بالمدينة حادثة ألا وهي «حادث انفجار بالقلعة» وهي قلعة الباب الشامي «التي تهدمت وأدخل في التوسعة بعضها ومنح بعضها» وخلاصة الحادث أنه كان يوجد بمخازن القلعة ذخيرة من السلاح والذخيرة «بنادق ورصاص وقنابل» اختزنها «فخري باشا» لقتال الشريف حسين ولما لم يجر أي قتال بين الترك والعرب في الحجاز فقد بقيت الذخيرة كما هي في مخازنها، وقدمنا بأن رواتب الجنود والضباط لم تكن لتصرف شهراً بشهر مما أدى لاختلاس قسم من البنادق والذخيرة من تلك المخازن وخوفاً من افتضاح الأمر أخيراً عمد أحد الآثمين إلى حرق المخزن المختلس فما كان إلا انفجار القنابل المجاورة فكان انفجاراً مروعاً زلزلت له المدينة وانخلعت قلوب السكان وخرج الناس من بيوتهم حفايا عرايا لا يدرون عن ذلك الحادث المروع المرهب وقد تهدمت أكثر البيوت المجاورة للقلعة ومات كثير من السكان تحت الأنقاض وأخرج شيخ السادة علوي بافقيه من تحت الردم وبه رمق من الحياة، وكان الانفجار في قوته بأن تطايرت قطع الحديد الثقيلة إلى مسافات بعيدة وكان

لهب الدخان يعلو إلى مئات الأمتار وحصل اللطف من الله سبحانه بأن لم يمتد الانفجار إلى باقي المخازن المليئة بالقنابل وقد جاءت لجنة من مكة للتحقيق في الحادث فلم يعلم الفاعل الحقيقي لانعدام وسائل المباحث وكانت النتيجة إبدال جنود الحرس بغيرهم مما أدى إلى جرأة جناة آخرين بتفجيرهم مخزناً بالمحطة فيما بعد غير أن الانفجار كان بعيداً عن السكان.. وهكذا كان أهل المدينة لا يخرجون من مأساة إلا إلى مأساة.

سبق أن ذكرت أننا انتقلنا بالمدرسة إلى الصف الراقي (الإعدادي) بعد نجاحنا في القسم التحضيري وتدرجنا من الصف الأول إلى الثاني فالثالث وكنت أنا وزملائي (السيد أحمد العربي والسيد عثمان حافظ والسيد محمد صقر نتلقى دروساً في العطلة لدى شيخنا (مدير المعارف) عبد القادر الشلبي في داره بمدرسة الجواهري بحارة الأغوات.

وفي عام ١٣٤١هـ كان السيد أحمد الفيض آبادي يشجعنا على تلقي العلوم ويعطف علي وعلى أخي عبد الحميد عنبر وعطفه على عبد الحميد أكثر، وفي رمضان من ذلك العام صليت بفضيلة السيد صلاة التهجد بالحرم النبوي في العشر الأواخر وكنت أختم القرآن كل ثلاثة أيام مما حببه إلي كثيراً فرجوته أن يساعدني على السفر إلى الهند لتلقي العلوم هناك فوعدني خيراً كما أني اشتقت لأداء فريضة الحج في تلك السنة فبعثني رحمه الله أنا وأخي عبد الحميد مع أحد الإخوان إلى جدة بطريق ينبع البحر فخرجنا من المدينة في أوائل شوال ووجهتنا ينبع وفي اليوم الثاني وصلنا لمحطة بئر الراحة (الروحاء) فعلمنا بأن الطريق مسدود (مقعود) بقبيلة الأحامدة التي شكلت منها «الدولة الأحمدية» وفرضت أتاوات (ضرائب) على قوافل الحجاج والزوار غير النهب والسلب في

رابعة النهار فمكثنا أسبوعاً في مخابرات بين مقوم القافلة وبينهم، وأخيراً دفعنا عن كل رأس (خمسة ريالات مجيدية) فأذن لنا بالمسير وما إن وصلنا قرب المسيجيد حتى انهال الرصاص على القافلة من الجبل فجفلت الجمال وطاحت الشقادف من ظهورها وساد الهرج والمرج بين المسافرين ولما استعلمنا عن الخبر؟.. قيل لنا إن أحد أفراد القبيلة شذ عنها فأرضيناه بنفحة خاصة. وفي اليوم الثاني مررنا بسلام حتى وصلنا لبلدة ينبع بعد اثني عشر يوماً وكانت الباخرة الذاهبة إلى جدة قد فاتتنا فانتظرنا أياماً في ينبع ثم ركبنا في الوابور الخديوي إلى جدة ومنها إلى مكة المكرمة وكان الجو في مكة يختلف عن المدينة من حيث الحكم. ففي جدة ومكة أحكام (الملك الحسين) الصارمة والرهبة الشاملة والطريق من جدة إلى مكة آمن مطمئن ليس فيه أي اثر للنهب أو القتل.. والملك ساهر على مصالح الحجاج يتخفى ليلاً في برنس حاج ويدور على الحارات والمحلات، فيرى بنفسه ما يدور في البلد ويقف على نظافة البلد ويلبي شكوى الحجاج، وبالرغم من حرارة الجو وشدة القيظ فلم يفكر قط في إدخال الكهرباء والسيارات. ففي الكهرباء إسراف وتبذير وخطر على العيون وفي السيارات نكبة على الجمال وتعطيل مائة صنعة يتعيش منها الألوف من الناس. كما لم يفكر جلالته أن يصطاف بالطائف لئلا ينزح أهل مكة إليها ودوائر الحكومة وفي ذلك ما فيه من الإسراف وبالرغم أنه عاش السنين الطويلة في دار الخلافة (استانبول) فهو يجلس في مخلوانه (المقصورة الملكية) بالقصر في الغزة يتروح بمروحة من جريد النخل يدير أمور مملكة من صغيرها إلى كبيرها وإن كان هناك مجلس نظار (مجلس الوزراء) غير أنه هو الكل في الكل حتى أنه كان يحرر مقالات جريدة (القبلة) الافتتاحية وكثيراً ما كان يغمز الحليفة (بريطانيا

العظمى) لأنها لم تفِ بعهودها معه وكثيراً ما تصدى لنصرة فلسطين، وكان كريماً مع زعماء العرب وأعيانها في مصر وسورية وفلسطين ولبنان فكنت ترى منح الوسامات والنياشين على مشائخ العربان والعلماء والزعماء الموالين. وإليك مثالاً:

وجه وسام الاستقلال العالي الشأن من الدرجة الأولى إلى سماحة السيد توفيق البكري شيخ مشايخ الصوفية ونقيب الأشراف بمصر وفي عدد آخر وجه وسام النهضة من الدرجة الأولى إلى الأمير نوري الشعلان شيخ مشايخ الدولة بالشمال وهكذا.

وسمع جلالته مرة بأن أحد المدنيين خطب في أحد جوامع الهند فغمز في خطبته الشريف الحسين إرضاء لنظار المسجد لأن مسلمي الهند يكرهون الحسين وأولاده ويعدونهم بغاة على دولة الخلافة فما كان إلا أن رأينا افتتاحية (القبلة) بالحروف الثلث: «ومن أهل المدينة مردوا على النفاق» وفي المقال سب وتشنيع ثم صدور الأمر بمنع سفر أهل المدينة إلا بإذن خاص من جلالته، وقد كان لهذا المنع أثر سيىء في قلوب أهل المدينة الذين كانوا يسافرون بالمئات بعد الموسم كما ذكرنا وكان أثره الخاص في أنا حيث كنت أزمعت على السفر إلى الهند فبعد أن حججت في هذه السنة رجعت إلى مكة ومكثت لدى بيت المرحوم زوج الخالة «المنشى إحسان الله» مأمور ترحيل الحجاج بدار الاعتماد البريطاني (وقنصل الهند فيما بعد) وهي دعوى تحتاج إلى إثبات كبير ولله در من قال:

والدعاوى ما لم يقيموا عليها ... بينات أبناؤها أدعياء

وما كنت بمدع لمعرفة نظرية النسبية لا فيما مضى ولا فيما حضر..

ويسرد أسماء يحفظها حفظ المسيحيين لها.. كاهن الغابة؟ شماس

الكنيسة؟ . . الخ . . ليدلل لنا على عمق وسعة محيط اطلاعه العالمي . . ويسمي نفسه عبقرياً . . ولئن فعل ذلك فقد سمى شيخه أبا خلدون من قبل عبقرياً في النثر والنظم والخطابة.

وكان فضيلة السيد أحمد الفيض آبادي زودني بكتاب لشركة بواخر الهند باعتماد ترحيل على إحدى بواخرها ولكن المنع المذكور لسفر الأهالي حجزني بجدة أنا وغيري من المدنيين. أذكر من رفاقي الأخ عبد الرحمن بخاري المدني والمرحوم الشاعر الشيخ عبد الحق رفاقت علي والأخ عبد الكريم بخاري وكلنا وجهتنا للهند فمكثنا مقدار شهر بجدة رجاء أن يفسح لنا ولكن بدون جدوى، لقد كانت سياسة الحسين معقدة بين بريطانيا وبينه فقد كان ممتنعاً من توقيع المعاهدة غير أنه لم يقطع الأمل منها وكان الأمير عبد الله توجه إلى الأردن ونصب أميراً فيها كما ذهب الأمير فيصل إلى العراق ونصب ملكاً بعد فقده عرش سورية.

وكان الملك حسين تروقه تلك القصائد الرنانة التي يمتدح بها من شعراء سورية ولبنان ويمنونه بالخلافة وأنه أحق بها بعدما تقوضت في تركيا على يد كمال أتاتورك وكان البريد يحمل إليه مئات الرسائل من العلماء والأعيان وبعض الزعماء بدعوتهم لجلالته لمبايعته خليفة للمسلمين أذكر مطلع قصيدة:

اللـه أكبر يا صمصامة العرب   بما لقيت وما تلقاه من تعب[1]

كل تلك المدائح والدعوات أثرت في نفس (الملك) ولامست شغاف

(١) المنهل: القصيدة للشاعر الغلاييني على ما أذكر.

قلبه المتعطش إلى دولة عربية كبيرة تمتد من البحر الأحمر غرباً والخليج شرقاً وجبال طوروس شمالاً واليمن جنوباً.

غير أن جلالته لم يسلك مسالك الحصول على أمنيته الغالية، والحقيقة أنه كان كبير النفس طموحاً عفيفاً شريفاً لا يثق إلا بنفسه ومن كان يمالئه في آرائه ومعتقداته تعباً بقيامه بشئون مملكته:

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت في مرادها الأجسام

أعلن الثورة على الترك وسار في ركاب الحلفاء على أمل الحصول لأمنيته ومبتغاه، وكان الزمن ملائماً لهذه الثورة بعد أن شنق جمال السفاح أحرار العرب في سورية ولبنان فتنفس العرب بثورته المجيدة وتسلل إليه الكثير من ألمع رجالاتهم وقادتهم ولكنه لم يقدرهم حق قدرهم أو ينط بهم إدارة أي عمل كبير.

لنرجع إلى موضوع سفرنا من جدة فقد علمنا بأن الكثير من المطوفين يسافرون بصفة حجاج بتذاكر الأموات منهم فتحصلنا على تذاكر من هذا النوع واضطررنا أنا والشيخ عبد الحق، والشيخ عبد الكريم والشيخ عبد الرحمن بخاري أن نلبس ثياب الحجاج وهذا لم يكن خافياً على مأمور جوازات جدة الذي كان من أهل المدينة «السيد منتظر طربزوني» عافاه الله، وركبنا مع الحجاج إلى كراتشي ومنها بالقطار إلى مدينة سهارنبور التي فيها مدرسة مظاهر العلوم العالية وانتظمت أنا في سلك طلابها بالقسم العالي بعد أن أجري لي اختبار بسيط فتوجهت لدروسي فيها ولم تنقض سنة واحدة حتى سمعنا بدخول الإخوان لبلدة الطائف ثم دخولهم لمكة المكرمة بقيادة خالد بن لؤي ثم وصول جلالة الملك

الراحل (عبد العزيز آل سعود رحمه الله) من الرياض وتنازل الحسين لابنه (الملك علي) وبقائه بجدة لاسترداد مكة ودحر الإخوان عنها، ولكن الملك عبد العزيز كان آت بقوة كبيرة من نجد وخيم في الرغامة ومنها بدأت المناوشات بدون جدوى وأبعد الشريف الحسين إلى قبرص حتى وافته المنية ودفن بالقدس الشريف وبعد أن يئس الملك علي من استرداد أي شبر سلم ووقع الصلح المعلوم وغادر جدة بأهله ورجاله وما بقي لديه من مال إلى بغداد ضيفاً على أخيه الملك فيصل ملك العراق وبتسليم جدة تم للملك عبد العزيز الاستيلاء على أنحاء الحجاز فسلمت المدينة في آخر جمادى الأولى سنة ١٣٤٤هـ بعد حصار طويل استمر أكثر من سنة ذاق فيه أهل المدينة مرارة الجوع والهلع والخوف طيلة مدة الحرب.

وفي آخر هذه السنة كنت انتهيت من دراستي فأزمعت العودة إلى الوطن الغالي فتوجهت من بومباي إلى جدة في أواخر ذي القعدة سنة ١٣٤٤ واشتركت في حج تلك السنة مع عمي الدكتور عبد الرزاق النقشبندي مدير مستشفى كمران الصحي رحمه الله، وشاهدت حادثة المحمل يوم عيد الأضحى بمنى وقد لطف الله بالحجاج عما لا تحمد عقباه بفضل سياسة المليك.

وبعد انقضاء ذي الحجة رجعنا إلى المدينة لم يمض على تسليمها ستة أشهر. وسمعنا بقصة الحصار واختفاء الأرزاق من الأسواق لانقطاع الطرق وعدم التسليم بناء على أوامر الملك علي وكيف قاسى أهل المدينة أنواع العذاب والمجاعة.

جولة في الولايات المتحدة

(الدنيا الجديدة)

ـ ١ ـ

لم يخطر ببالي يوماً أن أرى الولايات المتحدة برغم وجود أكثر أولادي في مختلف مقاطعاتها[١] وكان ذهابي للقاهرة لإجراء عملية جراحية لأم الأولاد، غير أن الطبيب المعاين أشار بإجرائها في الخارج وفضل أن تكون في أمريكا لوجود الإمكانات الكبيرة. عزمت على السفر مكرهاً فراجعت القنصلية السويسرية القائمة بأعمال حكومة الولايات المتحدة فطلب مني إثبات ما يدعو للسفر فذهبت للقنصلية السعودية وأتيت بشهادة تثبت وجود أحد أولادي للدراسة هناك، وبعد الحصول على «السمة» قطعت تذكرتين من القاهرة إلى نيويورك مرجعاً بما يبلغ ستة آلاف ريال مع تخفيض ٢٥٪ بسبب ذهاب زوجتي معي وذلك على طائرات الشركة العالمية (TWA). وفي صباح ١٧ مايو عام ١٩٦٩م طرنا

(١) فإن ابني الأكبر عبد العزيز يدرس في مقاطعة انديانا وابني الأصغر عبد السلام يدرس فيها أيضاً وبنتاي آمال تدرس مع زوجها المهندس طلال بكر في مقاطعة بنسلفانيا ورضية تدرس مع زوجها أحمد صادق في مقاطعة اريزونا وأولاد أختي يدرسون في مقاطعة نيوجرسي بالولايات المتحدة.

من القاهرة قاصدين نيويورك بطريق أثينا فروما فمدريد فلشبونة، وفي كل بلد ينزل ركاب ويركب آخرون، ومن لشبونة ركب أكثرهم من الأمريكان وجلهم شيخات وشيوخ آيبين من سياحة في إسبانيا والبرتغال لقد انتفعت برصيدي القليل من اللغة أيام كنت أدرس مع أخي معالي الأستاذ عمر توفيق في مدارس (فكس) بالقاهرة، وعلمت من هؤلاء الركاب أنهم قضوا شباب عمرهم في الكد والعمل وهم اليوم يتمتعون بمدخرهم من المال في السياحة والمتع النفسية.

قضينا في الطائرة سبع عشرة ساعة. كانت أول مسافة من لشبونة إلى نيويورك سبع ساعات فوصلنا نيويورك قبيل العصر وذلك لاختلاف الزمن من الشرق للغرب ولما حلقنا في سماء نيويورك مكثنا نصف ساعة في الفضاء لنجد لنا مكاناً ننزل فيه وبعد نزولنا بالسلامة وجدنا بباب الجمرك من ينتظرنا الأولاد والأرحام وفي مقدمتهم زوج أختي الأستاذ عبيد ترجمان ممثل وزارة الاعلام حيث إنه كان يحمل بطاقة سياسية فقد وعدنا بسرعة الاجراءات وعدم تفتيش الحقائب. ومطار نيويورك (مطار كندي) هو أهم مطار في العالم يعج بالطائرات المتنوعة وبألوف المسافرين. وبلدة نيويورك أكبر ميناء المحيط الأطلسي وكان العرب يسمونه (بحر الظلمات) وفي نيويورك يجتمع أكثر ناس العالم ويبلغ عدد نفوسها سبعة ملايين نسمة ولا يفوقها في هذا العدد غير طوكيو عاصمة اليابان. ومن القصص الطريفة أن الهولندي (بيتر مينوث) اشترى جزيرة مانهاتن بأربعة وعشرين سنتاً وعشرة دولارات من الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين، وأول ما رأينا في البحر تمثال الحرية التي نادى بها (واشنطن) محرر أمريكا ولكن الحرية للبيض لا للسود ولو بطل الرق من مائتي سنة أو يزيد.

قطعنا شوارع نيويورك الكبيرة ومررنا على جسور، فوق جسور،

وأنفاق تحت الأرض، ولا تسل عن زحام السيارات وحركات المرور، وشاهدنا لأول مرة ناطحات السحاب وبيوت المال والأعمال وتركنا نيويورك ميمّمين (نيو جرسي) إلى سكن مضيفنا الأستاذ عبيد، ومسكنه دارة أنيقة في بلدة (إيست أورنج) استضافنا ثلاثة أيام تجولنا خلالها ببلدة نيويورك فشاهدنا كبريات ناطحات السحاب (امباير استيت) ويبلغ ارتفاعها (٣٨٠) متراً وعدد أدوارها (١٠٢) دور، وعدد المصاعد (٦٣) مصعداً وعدد من يعمل في العمارة يزيد عن ٢٥,٠٠٠ خمسة وعشرين ألفاً وباقي الناطحات لا تزيد على (٤٠٠) متر. وفي نيويورك مبنى الأمم المتحدة وأحياء المال والأعمال وحديقة الحيوان والنبات وبقربها جزيرة (جرينتش) قرية الفنانين، وفي نيويورك معظم يهود الولايات المتحدة وبيدهم تجارة المال والبنوك وكبريات الصحف الأمريكية، وبالجملة بيدهم حركة أمريكا الاقتصادية والسياسية.

وفي نيويورك (حي هارلم) حي الزنوج ويمتاز بضعته وبؤس سكانه، ففي نيويورك مئات الألوف من الزنوج يعيشون عمالاً وموظفين في الدرجة الثالثة وهكذا قضت العنصرية أن يعيشوا عبيد الأعمال وإن تحرروا في النفوس.

عرضنا مريضتنا على أحد كبار الجراحين فأشار بإجراء العملية (بعيادة كليفلاند) بمقاطعة أوهايو الشهيرة بعيادتها ومستشفاها الشهير وقال: إياكم أن تجروها في نيويورك فأنا أحق بإجرائها ولكنني أشير عليكم بعد أن علمت الداء، بعد سماعنا لأقوال هذا الطبيب المستشار سافرنا بالطائرة مع الابن عبد العزيز إلى شيكاغو ومنها إلى بلد سكناه: (بلومنجتن) بلد جامعة انديانا الشهيرة.

وشيكاغو ثاني بلد في أمريكا بعد نيويورك وسكانها أربعة ملايين

نصفهم من الملونين، وهي مشهورة بنشاطها السياسي والإجرامي وأنديتها الليلية ومتحفها التاريخي والطبعي ومتحف العلوم والصناعات، وفي بلدة (بلومنجتن) استقر عصا الرحلة لدى مسكن الابن عبد العزيز مع أهله وعياله في شقة من عمارة كبيرة، ذات سبعة أدوار مخصوصة للطلاب المتزوجين، وتطل هذه العمارة على ميادين خضراء منسقة بالزهور الملونة والأشجار الظليلة.

وجامعة أنديانا من جامعات أمريكا التي تبلغ ألفاً وخمسمائة جامعة و٦٤٤ كلية تحضيرية وتشمل الجامعة كليات الطب وطب العيون وطب الأسنان والعلوم والصحة والآداب والرياضة والموسيقى والتمريض والخدمات الاجتماعية وشهرتها في الموسيقى والقانون، وتكاليف الدراسة للطالب الواحد ألف دولار حيث إن التعليم العالي في أمريكا بالأجر وهناك تخفيض لسكان الولاية التي بها الجامعة وعدد طلاب الجامعة ما بين أربعين وخمسين ألف طالب وطالبة؛ وللجامعة مبانٍ رفيعة ضخمة وحدائق وأحواض للسباحة وأستاذ للألعاب وبها مكتبة شيدت بمبلغ أربعين مليون دولار وبها ما يقرب من مليون كتاب وبها مبان كبيرة لسكن اثني عشر ألف طالبة وطالب منها ما هو خاص للشباب الأعزب ومنها ما هو خاص بالإناث ومنها ما هو خاص بالمتزوجين. وفي الجامعة ٦٣ أجنبياً و ٦٤ طالباً عربياً أكثرهم سعوديون منهم خمسة عشر ذوو عوائل والسعوديون يتصلون ببعضهم تعرفنا إلى أكثرهم ومن طلاب الكويت أيضاً. ومن السعوديين السيد إبراهيم عبيد ابن صديقنا السيد محمد عبيد الذي يحضّر للدكتوراه، والشيخ حسين بندقجي يحضّر للدكتوراه، ومحمد الغي ويوسف بخارى ومحمد الكويتي وعيسى

الكويتي ونذير العظم السوري وشيخه علي شيخ وغيرهم.

مكثنا في (بلومنجتن) ثلاثة أسابيع سألنا: هل تقام صلاة الجمعة في مكان فعلمنا أن هناك رابطة للعرب يجتمعون نهار كل جمعة في قاعة في مبنى قاعات النشاط يقيمون فيها الصلاة فذهبنا إليها غير أنه لم يجتمع بالقاعة سوى نفر قليل صلينا بهم الجمعة وسبب تخلفهم في هذه الأيام اشتغالهم بالمذاكرة ولكنه لم يكن بالعذر المبرر لترك صلاة الجمعة وفي كل يوم أحد نذهب لبحيرة (الليمون) ونجتمع هناك أكثر الطلبة السعوديين والكويتيين مع أهلهم وأولادهم نجلس على ضفاف البحيرة فراقة مع كثير من الطلاب والطالبات الأمريكيات ويفرحون باليوم المشمس فيأخذون حمامات شمسية ويتطلبون السمرة من أشعة الشمس ويتمرغون في البساط السندسي وهم أقرب ما يكون للعري. وبعضهم يسبح في البحيرة وبعضهم يلعب بالكرة وغيرها من الألعاب. وعلى ضفاف البحيرة أرائك منصوبة ثابتة وكراسي متنقلة وصنابير للمياه العذبة وحمامات نظيفة لقضاء الحاجة ودكان لمبيع المشروبات المثلجة وفي كل ركن (شواية) لشي اللحم وأشهر الأكلات الشعبية الكفتة المعروفة لديهم (هامبركر) و (هات دوك): السجك. وهناك اجتمعنا بأكثر النساء العربيات وهن كاسيات عاريات فقد غلبتهن الموضة (ميني جوب) قلتُ لواحدة منهن: ألك والدان؟ قالت: نعم. قلت: كيف لو رآك والدك بهذا الزي؟ قالت: لو رآني هكذا لقتلني. قلت: ولم لا تلبسين الثوب الساتر لما تحت الركبة؟ قالت: أما ترى بقية زميلاتي من النساء؟.. قلت: ألا ترين أولئك الهنديات المسلمات كيف هن متسترات بملابس (الساري) أو السروال للقدم والقميص والخمار؟ قالت: إنهن لا يتركن هذا الزي حتى في الشتاء ولكن نحن نساء العرب قلدنا الأجانب على

طول ولو تسترت أكثر من هذا لأصبحت سخرية بينهن.. قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وإذا سكتنا عن هذه الموضة فهناك الاختلاط بالرجال بهذا الزي الفاضح وكأنهم أعضاء أسرة واحدة. أما عن حال الطلبة الأمريكيين في التصرف الجنسي والخلقي فاسمع بعض ما قاله الدكتور كنزي سنة ١٩٤٨.

(دلت الاحصائيات على أن موانع الحمل بين طلاب الجامعات منتشر جداً ولكن حوادث الحمل والأمراض الجنسية قليلة وحوالى ٣٧ بالمئة من السكان لديهم تجارب جنسية في سن المراهقة وترتكز العوامل الجنسية على عدة عوامل: أ ـ مستوى التعليم، ب ـ المستوى الاقتصادي، ج ـ المستوى الاجتماعي).

ومن المهم جداً قبل دراسة هذه الاحصائيات التي شهد شاهد من أهلها أننا ندرس حضارة أجنبية وأناساً لهم قيم ومثل تختلف عنا؛ وعلى كل فإن أي علاقة غير شرعية في نظر القانون والأخلاق غير معترف بها وكثير من الناس يحاربونها ولكنهم لا يستطيعون عمل شيء أمام التيار الجارف، ومما يؤسف له أن بعض طلاب العرب اتخذوا صديقات وكثيراً ما ينتهي الأمر بالزواج وهذا ما يعوق الطالب عن دراسته وما تغرب لأجله عن وطنه، ولقد أحسنت وزارة المعارف السعودية بشأن من يتخلف عن النجاح سنتين بإعطائه نصف المخصص ثم الربع ثم لا شيء، ولقد رأينا بعض طلابنا الذين رجعوا بزوجاتهم الأجنبيات من أوروبا وأمريكا بعد أن دخلن في دين الإسلام. ولقد رأيت فتاة لبنانية متزوجة بطالب مصري فسألتها ابنتي عن مذهبها فقالت إنها كانت مسيحية (مارونية) وتحببت لهذا الطالب فأسلمت لتقترن به. وهذا مثال

للأخت العربية فكيف بالأجنبية أذكر بيتاً من قصيدة للشاعر أحمد محرم رحمه الله يقول في هذا المعنى:

ما كفاكم في الشرق جيش احتلال   فجلبتم في الدور جيش احتلال

وقد أعجبنا بالطالبة (شيخة علي) من إمارة أبي ظبي بالخليج العربي تعد للدكتوراه في الأدب الأمريكي بعد أن حازت (ماجستير) في الأدب الإنكليزي قلت لها: هناك فرق بين الأدبين؟

قالت نعم.

قلت: أما كان يكفيك درجة ماجستير في الأدب الإنكليزي؟

قالت: إني أحب أن أستزيد في الدراسة .

قلت: إن بلادك في حاجة للابتدائي أكثر من دكتوراه وماجستير في الأدب؟

قالت: هذه هوايتي وهي لا تتجاوز خمساً وعشرين سنة، وكانت مهذبة كريمة الأخلاق علمت أن بها عقدة نفسية فقد توفي ابن عمها وخطيبها في حادث اصطدام فهي تتسلى بالدرس والتحصيل.

اجتمعت بلفيف من الشباب العربي المتعلم ومنهم كما ذكرت من يعد للماجستير والدكتوراه في بحوث مختلفة قلت لهم.

لقد رأيت من بعضكم قصوراً في إقامة الصلوات الخمس... قالوا: صح إنه لا يمكننا إقامة الصلوات في أوقاتها. قلت ويمكنكم أن تتغدوا في أوقات الجامعة المحددة. هذا غريب يا إخواني. قالوا: نجمع الصلوات؟ قلت: هذا مخصوص بالمسافر فقط. قال بعضهم: لا أصلي غير الصبح فقط.. وقال آخر إني لا أصلي ولا أصوم ولكني لا أؤذي أحداً. قلت: هذا لا يغني عن الصلاة: وقال آخر أليست الصلاة لمعنى

الدعاء فإننا ندعو الله دائماً؟ قلت: سبحان الله كأنك تنكر الأعمال الحركية الثابتة من زمن الرسول وتواترت عن الآباء والأجداد طيلة أربعة عشر قرناً. قال آخر: يا أستاذ قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ (البقرة: ٢٨٦) قلت يا هذا إن ذلك في غير ما هو معلوم في الدين بالضرورة، والصلاة هي ركن في الإسلام وإقامتها مفروضة وأخيراً لم أتمكن من إقناعهم فهم يرون أنهم أكبر مني علماً ومعرفة.

في نهاية الأسبوع الثالث من إقامتي في (بلومنجتن) أقامت الجامعة حفلاً كبيراً بمناسبة تخرج قسم كبير من طلبتها، دعينا لذلك الاحتفال باعتبار أننا أهل لأبننا الطالب عبد العزيز الذي نال (ماجستير) العلوم السياسية. وفي صباح الاثنين من يونيه ذهبنا لمكان الحفل وهو الأستاد الجامعي الذي يتسع لعشرات الألوف من الحاضرين بترتيب منظم ما أحوجنا إليه لأداء مناسك الحج وخاصة يوم عرفة وأيام العمرة والطواف. جلس المتخرجون متكتلين جماعة فجماعة على الأرائك الممدودة الثابتة في جلبابهم العلمي (الروب) وجلس منهم المتفرجون المدعوون ما يقرب من عشرة، وأمام هذه الجموع الغفيرة حلقة موسيقى وعلى المنصة رئيس الجامعة وعلى يمينه وشماله عمداء الكليات. أول ما عزفت الموسيقى بالنشيد الأمريكي الجمهوري فقام الجميع لأداء التحية ثم قام الرئيس بإلقاء خطابه الجامع بدور الجامعة في نشر العلوم وتخرج أربعة آلاف طالب في مختلف الكليات، وبعد خطاب الرئيس وزعت شهادة الدكتوراه الفخرية لبعض الأساتذة الكبار ثم قام عمداء الجامعة عميداً فعميداً ذاكراً للرئيس عدد طلبته المتخرجين هذه السنة، ومن جملة تقاليدهم يقول العميد في الوقت الذي يكون فيه طلبته واقفين مشرئبين لكلامه.

يا سيادة الرئيس

إن هؤلاء الطلبة قد أتموا ما هو مطلوب منهم من درس المواد اللازمة لنجاحهم فهل تأمر بتخرجهم؟ فيجيب الرئيس بالإيجاب وعندئذ تصدح الموسيقى بإعلان الفرحة والسرور. ومما لفت أنظارنا أن تكون متخرجات كلية التمريض كلهن من الفتيات مع أن متخرجي باقي الكليات من الشباب والشابات، على أن متخرجي كلية الموسيقى كان أكثرهم من الرجال.. بعد ساعتين من الزمن انتهى الحفل بالنشيد القومي والعزف الموسيقي وذهب الطلاب لتناول شهاداتهم وخرج المدعوون بسلام.

جولة في الولايات المتحدة

(الدنيا الجديدة)

ـ ٢ ـ

«عـود علـى بـدء»

بين الإقامة والتنقلات

أقمت في بلومنجتن بولاية إنديانا لدى الابن العزيز الذي كان يدرس لتحضير الماجستير في الاقتصاد السياسي ما يقرب من شهر عرضنا فيها مريضتنا بمستشفى (كليفلاند) بولاية أوهايو وبعد الفحص الدقيق أمهلونا مدة أسبوع لعرض التقرير اللازم فيما إذا كان من الممكن إجراء العملية لداء مستعص في البطن. وبعد أسبوع جاء الجواب بإمكان ذلك. طلبنا من المستشفى حجز غرفة فيها فقالوا بعد شهر وبعد المراجعة ولأننا أغراب سعوديون أجابوا بأنه يمكن إخلاء سرير بعد أسبوعين فلم نجد بداً من انتقالنا إلى بلدة كليفلاند البعيدة عن بلومنجتن ألفا وخمسمائة كيلومتر تقريباً سافرنا جميعاً إليها لنأخذ شقة قريبة من المستشفى لنكون قريبين من مريضتنا وفي هذه الفترة سافرت مع ابني الصغير عبد السلام الذي يدرس علم الآثار في جامعة إنديانا إلى أخته آمال المقيمة مع

زوجها المهندس طلال بكر في بلدة آسيت كولج بولاية بنسلفانيا. وآمال تخرجت من جامعة عين شمس بالقاهرة في الإدارة والمحاسبة في كلية التجارة وتزوجت بالمهندس المذكور الذي بعثته جامعة الرياض لنيل الدكتوراه في الهندسة وهذه آخر سنة له ولم تشأ آمال أن تمكث بدون دراسة فدرست اللغة الإنكليزية وفن التفصيل والخياطة ونالت فيهما الشهادة وبعد وصولنا لبلدة آسيت كولج وبها جامعتها الشهيرة نزلنا لدى صهرنا المهندس بشقته الأنيقة التي لا تبعد كثيراً عن الجامعة وهذه الجامعة لا تقل عن جامعة إنديانا في عمارتها الكبيرة وقاعاتها الفسيحة وكلياتها العديدة وحدائقها ومكتبتها ومتنزهاتها وملاعبها وحماماتها وقاعات النشاطات وميادين الألعاب وأول ما سألت عنه المهندس هل تصلي الجمعة؟.

فأجاب نعم في كنيسة مخصوصة أذن في قاعتها بالصلاة للطلاب المسلمين وبالفعل ذهبنا للصلاة هناك فرأينا أكثر المصلين من الطلبة الباكستانيين والهنود وقليلاً من العرب فكلفوني بالخطبة والإمامة فاعتذرت عن الخطبة بالإنكليزية فطولبت أن أخطب بالعربية وأترجم بعضها للغة الأردية التي أتقنها فخطبت وصليت بهم والمهندس رئيس لجماعة الطلاب السعوديين وغيرهم فسألته عن أعضاء الجمعية لم لم يحضر أكثرهم للصلاة؟ فاعتذر عنهم بأنهم يذاكرون للاختبارات وبعضهم ينوي السفر وبعضهم سافر بالفعل. وكنا مدعوين عند أحد طلاب الكويت عباس علي خان فاجتمعنا عنده بعشرات من طلاب العرب من السعودية والكويت ومصر ولبنان. ومع ضيق الشقة فإن الطعام وضع على مائدة وأحسنه اللحم المشوي على الفحم فكان كل واحد يحمل في صحنه ما شاء ويخرج في ساحة الشقة وقد أعجبني زيارة بعضهم

لبعض ولم يعجبني اختلاط النساء بالرجال في وضع غير محتشم (بالميني جوب) ولكنه التيار الجارف اليوم في جميع البلاد. ولم أشأ أن أسألهم عن غيابهم عن صلاة الجمعة لئلا أسمع أعذاراً واهية كما سمعتها من زملائهم من قبل من طلاب جامعة إنديانا كما ذكرته في مقالي الأول وقلت في نفسي: «من يهد الله فلا مُضِلَّ له ومن يضلل فما له من هاد». ولقد أحسنت وزارة المعارف بعدم ابتعاث الطلاب إلى خارج المملكة بعد اليوم إلا لنيل الماجستير أو الدكتوراه، حيث وجد لدينا العديد من الكليات بجامعة الرياض حتى الهندسة والطب والجيولوجيا وكلية البترول والمعادن ولعله العلاج الشافي لعدم تهاوي بعض شبابنا إلى مهاوي الضلال.

العرب أذكى من اليهود

تجولت مع صهري المهندس على كليات الجامعة وخاصة كلية الهندسة فرأيت العجيب من الآلات والاختراعات. سألت المهندس عن بحثه الجديد في الهندسة أجابني: هو سر ولكن لا أخفيه عنكم يا عم هو البحث عن مسام «الزلط» وكيف أنها تكبر وتصغر من الرشح وأراني بالفعل بعض تلك الحجارة وهي في مكان التحليل يقول المهندس إن أستاذه المشرف عليه مسرور من أبحاثه وقال له مرة: لا تظن يا بني أن اليهود يفوقونكم في الذكاء أنتم العرب أذكى منهم، ولكنكم كسالى فقد رأيت بعضكم يفر من بعض الكليات إلى دراسات أخف ولكن طلبة اليهود يبذلون جهداً عظيماً في الطلب حتى ينالوا أسمى الدرجات. وهذه شهادة من عالم أجنبي تستأهل العبرة والتقدير.

شؤون وحوادث فردية

جرت لي حادثة صغيرة لا بأس من سردها وهي أن إحدى ضروسي ثارت علي، فأبى إلا خلعها فذهبت مع ابني إلى طبيب مشهور بعد أخذ ميعاد من قبل وبعد وصولنا لديه سألنا بضعة أسئلة وملأ ورقة من الأجوبة عن مقدار السن وعن الأمراض التي اعتورتني من قبل أو العمليات التي أجريت لي وعن داء السكر والضغط ومكثنا ساعة زمنية ثم كشف عن الضرس المتآكلة بالأشعة وكان الكشف يقضي بخلع ضرسين متجاورتين فقلت: يكفي خلع الموجعة الآن فخلعها الطبيب بعد إعطائي البنج اللازم ولكنه لم ينتظر سريانه حول الضرس فتألمت لخلعها أشد التألم، ومن قبل خلعت نصف ضروسي فلم أتألم قط فهل يصدق أن يكون هكذا في أمريكا على يد نطس الأطباء ولعل الطبيب ظنني من الملونين فلم يحفل بي وواجب المهنة يقضي أن يترفع عن تلك المعرة وكلف خلع الضرس خمسة وعشرين دولاراً على أن الدولار في الولايات المتحدة يساوي الريال السعودي في قوة شراء كثير من الحاجيات ولقد تعجب أن تكون حزمة البقدونس بعشرين سنتاً أي بريال تقريباً فكيف باقي الأشياء. وهناك المعارض الكبيرة من الإبرة إلى أنواع السيارات والفلائك حتى المصاغ والمجوهرات كل شيء سعره عليه فإذا أعجبك شيء فما عليك إلا أن تأخذه بيدك إذا كان صغيراً وتشير للعامل إن كان كبيراً وتنقد ثمنه لدى الخروج وما أشبه تلك المعارض في أبنيتها في كل بلد وهي كلها شركات عالمية كبيرة قوامها من كبار اليهود وويل لمن يسرق حاجة ولو تافهة لا يؤدي ثمنها فيجازى بأشد الجزاء. ويوجد هناك أسواق بلدية حاجياتها أرخص من المعارض لكنها غير مضمونة إلا المأكولات من اللحم والفواكه والخضراوات والغريب أنك

تجد في المعارض كل ما تريده من القارات الخمس من البهارات والحبوب والفواكه والمعلبات.

تعرفت بجيران ابنتي بالعمارة فعرفتني بجارتها «ميمي» التي جاءت لتسلم علي فأثنت عليها وقالت إنهما تتناوبان إبقاء ولديهما الصغيرين إذا ذهبتا للدراسة فكلتاهما كانت تدرس بإحدى الكليات. ولولا تلك الجارة الطيبة لما أمكنهما أن تتحصلا على التعليم وخاصة أن الخادمات أو العاملات لا تقل أجرة إحداهن في الساعة عن خمسة دولارات لقد رأت هذه الجارة مسبحة في يدي فقالت أنها رأتها في بعض أيدي العرب في المحلات فلم يحملونها؟ قلت إن هذه المسبحة لا يساوي ثمنها أكثر من دولار قالت كيف؟ قلت إنها تذكر بالله GOD في كل تسبيحة. قالت ألا تهديها لي؟ قلت هي لك فلم يكن منها إلا أن قبلتني على رأسي ويدي شاكرة وتناولتها بكل احترام وأخبرتني ابنتي فيما بعد أنها وضعتها بأعلى مكان ببهو الاستقبال. قلت في نفسي لو كان لنا مبشرون في هذه البلاد لأسلم الكثير منهم ودخل في الإسلام عنصر جديد طيب القلب قوي الإيمان.

وحادثة أخرى تدل على تعاون الزوجين في الحياة: احتجت لضرب حقنة في العضل فلم نهتد إلى ممرض أو ممرضة. فتذكرت ابنتي جارة ممرضة اسمها ماري فذهبنا إليها في شقتها فوجدناها بالشقة تلاعب طفلها البكر وعلمنا أنها تركت مهنتها بعد إنجاب الطفل وكانت من قبل موظفة لمساعدة زوجها في الدراسة حتى تخرج وتوظف وجاء دورها للإنجاب وتربية الأطفال ولم تشأ أخذ أجرة منا فشكرناها وعجبنا لهذا التعاون الذي لا مثيل له عندنا ونأمل الخير بعد تعليم البنات.

مناظر أمريكية . . . ثم إلى كليفلاند

كنا نخرج أمسية كل يوم إلى ريف البلد والمتنزهات لنرى هناك مراعي البقر ومداجن الفراخ ومزارع الحبوب وبساتين الفواكه ومشاتل الزهور وما أشبه بلاد الله بعضها ببعض فهذا السفح من الجبل المخضوضر وهذا الوهد الهادي ما أشبههما بجبل لبنان. وبعض البقاع تشبه الهند والسند ففي ولايات أمريكا تجمعت المدنيات الأوروبية والآسيوية والإفريقية والإسترالية كما أن بها جميع أجناس العالم.

بعد أسبوع من إقامتنا بآسيت كولج عزمنا على الرجوع إلى كليفلاند فركبت مع ابني عبد السلام حافلة لشركة (جري هاوند) (السلوقي الأرمد) وهي شركة كبرى تجوب الولايات المتحدة وكندا ولها فروع في كل بلد وحافلاتها ذات دورين ومكيفة مع وجود حمام في مؤخرها وشراب مثلج. والمسافة خمس عشرة ساعة كما ذكرنا. مررنا فيها على دساكر ومدن أهمها مدينة بتسبرغ الشهيرة بصنع الحديد والصلب والكيماويات وبها جامعة كبيرة بها بعض طلابنا السعوديين وبعد أن استرحنا بها ما يقرب من ساعة يممنا كليفلاند ووصلنا لشقتنا قرب المستشفى لنكون قرب مريضتنا هناك وحضرت فيما بعد آمال مع زوجها المهندس والثانية رضية من (توسك) بولاية أريزونا وتبعد ست ساعات بالطائرة وبتكامل هذا العدد اضطررنا لاستئجار سرر إضافية غير أن أصحاب الشقة تضايقوا منا وأنذرونا بعدم تأجيرها لنا في الشهر القادم.

أصف لك قارئي العزيز مستشفى كليفلاند للأمراض المستعصية فهو يقع في ثلاث عمارات شاهقة بثمانية أدوار وفي كل دور أجنحة متعددة لمختلف الأمراض وفيه ستمائة سرير وستمائة ممرضة ومائة وخمسون

طبيباً مختصاً. ويتبع المستشفى حدائق فواحة بالأزاهير والرياحين وميدان فسيح لوقوف السيارات.

وفي اليوم المقرر للعملية ذهبنا بمريضتنا للمستشفى وبعد أن أدخلناها في غرفتها علمنا بسفر الدكتور الجراح (وكلي) إلى لندن وقيل لنا إنه ذهب إلى اجتماع لكبار الجراحين هناك وسيعود بعد ثلاثة أيام وبعد مجيئه أجريت العملية في أمعاء المريضة واستغرقت ثلاث ساعات بشرنا الدكتور بنجاحها فدعونا له بالهداية للإسلام: فهم (يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون). وطفقت حالة المريضة تتحسن يوماً بعد يوم حتى ثلاثة أسابيع كنا خلالها نجتمع كثيراً بنزلاء المستشفى من المرضى سواء أكانوا من النساء أم الرجال ولم نر فيه عربية وكلهم أمريكيون إلا واحداً من أصل لبناني مصاباً بداء القلب كان مشتركاً في حرب فيتنام وأصيب بهذا الداء وهو يعالج على حساب وزارة الدفاع وهذه امرأة أصيبت بالسرطان وقيل لها إنها ستموت بعد شهر فعولجت وشفيت من مرضها الخطير. وهذا رجل انكسرت عظامه بصدمة في سيارة فجبرت عظامه فقام سليماً معافى بإذن الله. سألت إحدى الممرضات من الملونين والممرضات من البيض والسود وكلهن يقمن بأعمالهن خير قيام سألتها هل تشعر بنقص مع زميلاتها من البيضاوات؟ قالت لا فرق بينهما في القانون ومقدار الراتب والساعات الزائدة من العمل. قلت لها: نحن منكم وكثيراً ما سمعنا في الجرائد بالتفرقة العنصرية؟ قالت: ذلك في الولايات الجنوبية وذلك لأنها تشعر بالنقص.

سابعة مدينة كبرى

أقمت في كليفلاند ما يقرب من شهر وتكمن أهمية هذه البلد بمشتاها

الشهير كما أنها مدينة صناعية بالإضافة إلى كونها ميناء بحرياً على بحيرة (ايرى) وعدد سكانها يربو على مليون نسمة وهي سابعة مدينة كبرى وبها حديقة روكفلر وحديقة الحيوانات وبرج كليفلاند ثامن برج في العالم وفيها متحف الفنون ومتحف الآثار الفريد في نوعه وفيها رأينا هيكل الديناصور من الحيوانات المنقرضة آلاف السنين وطوله يبلغ ثمانية أمتار وارتفاعه خمسة وقد وجد في ولاية كلورادو وفيها مدينة للملاهي فريدة في نوعها وأنواع ملاهيها وبها جامعة كبيرة ومراكز للرابطة العربية الإسلامية وأكثرهم من الموظفين والطلبة يجتمعون كل يوم أحد في قاعة بأحد المباني ويخطبون ويتناقشون في المشاكل الإسلامية. واجتمعنا بأعضائها وفي مقدمتهم المهندس لطفي عمرة الفلسطيني ودعانا بدارته في ضواحي المدينة وهو متزوج من امرأة سورية وله أولاد فقال إنه مهندس معاون ولم يتحصل على عمل في فلسطين فأقام في أمريكا وهو يتناول ألفي دولار شهرياً وقد اشترى هذه الدارة بمساعدة الشركة التي يعمل بها.

قلت: لم لا تصلون في يوم الجمعة بتلك القاعة؟ قال: أكثرنا موظف أو طالب أو صاحب متجر ولا يتسنى لنا الحضور يوم الجمعة غير أن قسماً منا يصلي يوم الجمعة في بناء آخر أو لدى بيوت أحد الطلبة ومعنا كثير من مسلمي الهند والباكستان وقد اشترت الرابطة عمارة كبيرة لجعلها مركزاً للصلاة والاجتماعات بمبلغ كبير جمع من أعضاء الرابطة وأخبرنا أنه يوجد في البلد مائة وخمسون أسرة تركية ومثلها يوغوسلافية ولكنهم لا يجتمعون بهم كما يوجد كثير من الملونين، مسلمون بالاسم، فقط وأشار إلى مسلمي الهند والباكستان قائلاً: إنهم يجتمعون بهم باسم الرابطة الإسلامية لا العربية. قلت له: هذا هو

الصواب فلم يتأخر المسلمون إلا بانقسامهم وتفرقهم ونبذهم تعاليم دينهم و(المسلمون في تعاضدهم وتآلفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى). كنت اجتمع بكثير من العرب والمسلمين بمركز الرابطة للصلاة يوم الأحد وأعجبني منظر المسلمات من الهنود والباكستانيات، وهن في تمام حجابهن ما عدا الوجه واليدين، تكلمت مع واحدة منهن قائلاً إني مسرور منكن بتستركن وخاصة في الصلاة فلم لا ترشدن نساء العرب وهن كما ترين كاسيات عاريات؟ قالت: حسبهن أن يأتين للتعاليم الدينية وإقامة الصلوات فلعل الله أن يهديهن يوماً ما. الغريب من أفراد مسلمي الهند والباكستان أن كثيراً منهم لا يأكلون لحم الأسواق بل يشترون شاة حية ويذبحونها على اسم الله ويقتسمون اللحم ويأكلونه عدة أيام ونحن نأكل من تلك اللحوم المعروضة والدجاج المسلوخ بناء على فتوى العلماء لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾ (المائدة: الآية ٥) ولكن كيف بنا من قوله سبحانه ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ﴾ (الأنعام: الآية ١٢١). عفا الله عن الجميع.

صليت إحدى الجمع بمنزل أحد الطلبة الطرابلسيين القريب من شقتنا واجتمع لفيف من إخواننا العرب. خطبت لهم وصليت بهم وكان في جملة المصلين الأستاذ عبد الرؤوف المصري مدير المركز الإسلامي بنيويورك وله أولاد يتعلمون في الجامعة. كنا نخرج في أماسي كل يوم إلى بعض الأماكن تارة على ضفاف بحيرة (أيرى) أو المنتزه العمومي أو لمدينة الملاهي مع الأولاد وسرني أن رأيت الملونين هم أحسن حالاً من زملائهم بنيويورك فمنهم كبار العمال في مصانع الصلب والحديد ويتقاضون أجوراً عالية ويركبون أفخم السيارات ويسكنون دارات جميلة

على ضفاف البحيرة ولهم شارع خاص كما أن عمدة البلد منهم وحاكم المدينة يحسب لهم ألف حساب. ما أدهشني في كليفلاند أن السيد عمر مهنى الطرابلسي الذي يدرس الماجستير في الاقتصاد وأرانا قطعة أرض خالية بجانب الجامعة وقال إنه كان بمكانها عمارة عالية ونقلت تلك العمارة من أساساتها إلى مكان آخر وارانا تلك العمارة المنقولة وأن نقل مثل تلك العمارة لمدهش حقاً ولكن العلم قام بالمذهلات[١].

صليت آخر يوم أحد بقاعة مركز الرابطة فأعجبت بخطيب شاب إيراني خطب بعد الصلاة باللغة الإنكليزية ندد فيها بالحكومات الإسلامية قائلاً بصراحة إن الشريعة المحمدية غير قائمة إلا في المملكة العربية السعودية فقط وفي محاكمها تجري أحكام الإسلام رأيت بالقاعة رجلاً هرماً لبنانياً شارف المائة سنة لم يصل معنا فسألت عنه فقيل لي إنه لا يحسن قراءة القرآن وقد جاء صغيراً من لبنان ونشأ بأمريكا وهو يأتي بحكم عاطفته الإسلامية ويتبرع من ماله لمركز الجامعة والتقيت هناك بأحد الأساتذة الكبار من المسلمين قال كيف نرقى ونحن لا نزال نعتقد بخرافة وجود الجن والشياطين والسحر والحسد وأنواع البدع والدجل والاستعانة بالأولياء وتصديق الدجالين؟.

قلت له: على رسلك يا أستاذ فيما تقول... إن وجود الجن

---

(١) المنهل: قال الله تعالى في كتابه المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد:

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل: ٤٠) صدق الله العظيم. أقمت في بلومنجتن بولاية انديانا لدى الابن العزيز الذي كان يدرس بجامعتها لتحضير الماجستير في الاقتصاد السياسي ما يقرب من شهر عرضنا فيها مريضتنا بمستشفى (كليفلاند) بولاية أوهايو.

والشياطين والسحر والحسد ثابت بالقرآن الكريم وحسبك أن تقرأ سورتي المعوذتين أما ما ذكرته عن البدع والاستعانة بغير الله فهو شرك محض، ولا يجوز بحال. اندهش الرجل ولكن أنى له أن يقرأ القرآن بتبصر أو هو من القارئين الذين لا يتجاوز حناجرهم كما قال الرسول الكريم «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» أو كما قال... وسألني بعض السذج: ألا يجوز يا أستاذ أن نقدم صلاة الجمعة عن وقتها حيث لا يؤذن لنا بالخروج من أعمالنا في وقتنا قلت لهم: لا يجوز أبداً... إلا بعد وقت الزوال.

عيد الجمهورية

وصادف يوم الرابع من يوليه عيد الجمهورية وأردنا أن نشترك في الحفلات التي تقام في أنحاء الولايات المتحدة ثلاثة أيام ولكن في تلك الليلة هبت عاصفة هوجاء ومطر غزير قلعا الأشجار الكبيرة بالمئات وهدما بعض البيوت وابتلعت بحيرة «ايرى» بعض الفلائك وسقطت بعض الطائرات الصغيرة وكان يوم شؤم على الولاية ومات كثير من الناس وفي اليوم الثاني خرج الحرس الوطني بعماله ومهندسيه وسياراته الضخمة لإصلاح خطوط الكهرباء ولفتح الشوارع التي تراكمت عليها الأشجار كما أخرجت جثث الموتى من البيوت لدفنها.

والغريب أن مركز الأنواء الجوية لم يخبر عن حدوث تلك العاصفة الجبارة وصح المثل إذا نزل القضاء عمى البصر ولا حول ولا قوة إلا بالله وبعد أن أبلت مريضتنا وتماثلت للشفاء وددت أن أرى شلالات «نياغرا».

فإلى الشلالات في المقال القادم إن شاء الله.

شلالات نياغرا:

شلالات نياغرا من أهم معالم الولايات المتحدة، فبعد أن اطمأننا إلى مريضتنا وتماثلها للشفاء، قصدت مع ابني: القائد عبد العزيز وعبد السلام السفر إلى هذه الشلالات على سيارتنا (الفولكس واجن) فوصلنا بعد ثلاث ساعات إلى بلدة (بفالو) التي تبعد عن الشلالات بثلاثة وعشرين ميلاً وفيها يتقاطع القسم الأمريكي عن القسم الكندي، فدخلنا القسم الكندي غلطاً فطلبت منا جوازات السفر لوضع السمات اللازمة عليها فعلمنا أننا دخلنا كندا. وكان مأمور الجوازات لطيفاً معنا فأفهمنا أن نأخذ الطريق الأمريكي، فطفقنا نسير بدون علم حتى اهتدينا للطريق المقصود فأشار علينا بعض المارة أن نراجع مكتب السياحة، فقيل لنا أن نترك سيارتنا ونمتطي من سياراتهم مع الدليل الذي هو السائق نفسه، وبعد نصف ساعة وصلنا إلى الشلالات، ولقد دهشت لمنظر تلك الشلالات التي ينحدر الماء منها من علو ١٨٢ قدماً فيحدث هديراً رتيباً. وحول تلك الشلالات حدائق ذات بهجة وعشرات الألوف من الزوار.. ومن تلك الشلالات شلالات حدوة الحصان، واندفاع المياه منها على علو ١٦٧ قدماً.

ويقول العلماء: إن مكان الشلالات الأول كان على بعد سبعة أميال عن الموقع الحالي منذ خمسين ألف عام، وقال لنا الدليل: إنه يجيء هذه الشلالات يومياً ما بين عشرين وثلاثين ألف رجل وامرأة وطفل.

ومقابل هذه الشلالات أي على الضفة المقابلة الجانب الكندي، وعلى كلتا ضفتيه نصبت الملاهي المختلفة كالأبراج الشاهقة وطائرات الهيلوكبتر والزوارق الجميلة. وأهم ما في هذه الشلالات محطة الكهرباء

العظيمة البالغ قوتها ألوف الكيلوات، ومبناها العجيب ذو الدورين وفيه صورة مصغرة لمحطة الكهرباء من البداية للنهاية.

ومصمم بناء الشلالات مهندس يهودي وما أكثر ما لليهود من الأعمال في أمريكا.

وبعد أن تجولنا مقدار ساعتين جلسنا في أحد أركان الحدائق ذات الأزاهير الفواحة والأشجار الباسقة. جلسنا نتغدى بشطائر أتينا بها معنا، مع أن المآكل موجودة بالثمن الغالي هناك واكتفينا بتناول قوارير من البيبسي كولا. وأمام تلك المناظر تذكرنا قول الشاعر:

يا صاحبيَّ تقصيا نظريكما   تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهاراً مشمساً قد زانه   زهر الربى فكأنما هو مقمر

إلى واشنطن العاصمة:

ولما آذنت الشمس بالمغيب رجعنا لبلدة (بفالو) ومنها رجع الابن عبد العزيز إلى بلدة كليفلاند، ليكون بجانب والدته، وقطعنا أنا وابني عبد السلام تذكرتين إلى العاصمة (واشنطن) بسيارات (السلوقي الأرمد)، وقضينا أكثر الليل في الحافلة، ووصلنا العاصمة في الصباح. وبعد أن فطرنا فطوراً خفيفاً سألنا عن مكتب السياحة لنزور معالمها المشهورة. وكان الدليل هنا أيضاً السائق ويسمونه (كاند) وأظنها كلمة عربية لأنهم لا ينطقون القاف إلا كافاً فارسية، فشاهدنا مباني الوزارات المختلفة ومبنى مجلس الشيوخ والمكتبة العامة والمتحف ومباني مقابر رؤساء أمريكا السابقين وتمثال إبراهام لنكولن محرر العبيد، وتمثال واشنطن محرر أمريكا. ولم نر تمثالاً لبنيامين الذي حذر أمريكا من تغلب اليهود

وسلطتهم بعد خمسين سنة وقد مضت الخمسون سنة وصدقت فراسته.. وقد حاول اليهود إخفاء هذا البند من مذكراته. هذا وقد عجبنا من تلك المقابر الشاسعة وأهم ما فيها وبقربها مبنى الجندي المجهول الذي تحرسه دورية ليل نهار، وزرنا البيت الأبيض ـ القسم الخاص بالزائرين ولم نجد به أبهة قصور الملك مثل قصر بكنكهام في لندن، واللوفر في باريس، وقصر الحمراء في غرناطة، وقصور الملوك في دلهي عاصمة الهند. ورجعنا من تجوالنا وتعشينا في بعض مطاعم البلد في (مطعم: اخدم نفسك بنفسك) حيث هي أرخص من المطاعم التي فيها الخدم (الجرسونات) لأن أجور العمال مرتفعة. فأجرة العامل يومياً لا تقل عن عشرين دولاراً، وبعض الأعمال يكون الأجر فيه لساعة واحدة خمسة دولارات.

وبعد أن طفنا ساعتين في أسواق واشنطون يممنا وجهتنا لنيويورك لنتوجه منها للقاهرة، وأمضينا باقي الليل أيضاً في الحافلة وعليه لم ننزل في فندق.

في نيويورك:

ولما وصلنا نيويورك، كلمنا صهرنا السيد عبيد ترجمان ليأتي إلينا في المحطة ويأخذنا لدارته في (ايست أورنج بولاية نيوجرسي) فبعث لنا ابنته الكبرى بسيارته فأخذتنا لدارتهم وسرنا مقدار ساعة أو أكثر وطلبنا من الصهر أن يحجز لنا في طائرة شركة تي دبليو (TWA) العالمية، فجاءنا الرد بأن لا مكان لنا إلا بعد أسبوع، فراجعنا شركة أخرى فأفادتنا بأن ذلك غير ممكن إلا في طائرة دبليو المذكورة بسبب التخفيض الحاصل، وبعد مراجعات ورجاء حجزوا لي مكاناً واحداً بعد

يومين، وفي خلال ذينك اليومين تجولنا في نيويورك فصعدنا لعمارة (استيت امباير) أعلى عمارة بأمريكا وتمتلكها شركة يهودية، وارتفاعها ١٤٧٢ قدماً وتضم ٢٦ ألف شخص يعملون بها، ومائتي خادم وعشرات المصاعد. والبناء من داخله مبنى من المرمر الملون، ويزورها كل يوم ٢٥ ألف شخص في المتوسط، وزرنا مبنى الأمم المتحدة وجزيرة الفنانين.

ونيويورك أكبر بلدة في العالم بعد طوكيو عاصمة اليابان، وبها أكبر ميناء بحري وأكبر مطار جوي.

من نتائج الرحلة:

وأخيراً خرجنا من جولتنا في خمس ولايات من إحدى وخمسين ولاية بما يلي:

١ ـ إن الطب في أمريكا متفوق على الطب في أوروبا كما شاهدناه في مستشفى (كليفلاند) للأمراض المستعصية.

٢ ـ إن الحالات الجنسية متهورة في شباب وفتيات الجامعات والسكان ٣٥٪ و٥٠٪ بموجب تقرير كنزي سنة ١٩٤٨ مع العلم بأن أي علاقة غير شرعية غير معترف بها قانوناً وتحارب من جانب الحكومة وكثير من الناس يحاربونها، بيد أنهم لا يستطيعون الوقوف دونها.

٣ ـ إن المنظمات اليهودية لا تقف في نشاطها ضد القضية العربية عند حد، فهي تستخدم الطرق الدبلوماسية والاجتماعات الجماهيرية والإذاعة والصحافة، وحسبنا أن نعلم أن في أمريكا ٤٠٠ منظمة سياسية ودينية واجتماعية وثقافية يهودية.

٤ ـ إن التعليم الحديث في أوروبا وأمريكا اعتنى بتثقيف عقل الطالب وتقويم أخلاقه وإشعال وطنيته، ولكنه جر على كثير من طلاب الدول العربية إماتة شعورهم الديني، فكان هذا التعليم وبالاً عليهم والعياذ بالله.

رحلة الأندلس أو الخلد المفقود

ـ ١ ـ

كم كنت أتمنى وأنا في ريعان شبابي عندما كنت أقرأ تاريخ الأندلس أن أرى تلك البلاد النضرة التي حكمها العرب حقبة طويلة من الزمن، وإذا بالحلم يتحقق بعدما أصبحت كهلاً أتخطى للعقد السابع من العمر فبعد جولتنا أنا ورفيقي الشريف زيد بن شحاذ في شمال افريقيا غادرنا طنجة إلى الأندلس (إسبانيا) في باخرة صغيرة تقطع مسافة خمسمائة وخمسين ميلاً في ساعتين من الزمن، وكان ركاب الباخرة لفيفاً من أجناس مختلفة وصادف مجلسنا في الدرجة الثانية بجوار يهودي هرم بشع المنظر ينكت مع امرأة مسيحية في مثل سنه فيجلب الضحك والمرح للمسافرين، وما إن تراءى لنا جبل طارق الذي سمي باسم فاتح الأندلس حتى هرعنا نجيل النظر فيه ونستعيد خطبة ذلك القائد العظيم والبطل المغوار فبعد أن أحرق السفن التي أقلته هو وجنوده ليقطع عليهم خط الرجعة إلى الوراء قال:

(أيها الناس، أين المفر العدو أمامكم والبحر من ورائكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة

وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم إلى أن قال: وإني عند ملتقى الجمعين حامل بنفسي على طاغية القوم لذريق، فقاتله، إن شاء الله).

وبالفعل قتل لذريق وتم للمجاهدين الفتح والنصر وخفقت راية الإسلام قرابة ستمائة عام.

افتقدت بعد هذه الذكرى المثيرة عندما رست الباخرة على بر الأندلس (الجزيرة الخضراء) فتناولنا حقائبنا ونزلنا للبر مع النازلين وفتشت حقائبنا بفتحها وغلقها فقط بعد سؤالنا عن الأشياء الممنوعة أو القابلة للرسم وخرجنا من الجمرك لا ندري أين نمضي وإذا بامرأة مع زوجها تنشد عن راكبين لإكمال عدد السيارة يقصدون بلدة (مالقه) وهي تبعد مائة وثمانين كيلومتراً وكان الطريق مسفلتاً يمر على دساكر وقرى ومزارع، وبعد ثلاث ساعات وصلنا لمالقه ونزلنا في أحد الفنادق ونمنا نوماً هادئاً للصباح، وبعد تناولنا فطوراً خفيفاً خرجنا نتجول في البلد والتقينا بيهودي تعرف إلينا وأرشدنا إلى سيارة نقوم عليها بزيارة الأماكن الأثرية التي خلفها العرب فسار بنا السواق إلى هضبة مرتفعة عليها قلعة قديمة وبجوارها مقهى والقلعة تكشف البلد ثم هبطنا منها إلى شاطىء البحر ذكرتنا بذلك العهد الذي كان في هذا الشاطىء ترسانة للسفن الغازية. رجعنا للفندق تناولنا طعام الغداء وارتحنا قليلاً ثم عرجنا نسأل عن السيارات الذاهبة إلى (غرناطة) فعلمنا أنها تسافر قبيل العصر قطعنا تذكرتين وأتينا بحقائبنا وسرنا على بركة الله مصعدين تارة ومنحدرين أخرى جبال ووهاد ومزارع خضراء فوصلنا الغروب إلى غرناطة واتخذنا طريقنا إلى أحد الفنادق المتوسطة، وبتنا تلك الليلة وطلبنا من مدير

الفندق أن يضعنا مع الزوار في اليوم الثاني لقصر الحمراء.

* * *

لمحة من تاريخ غرناطة

ومن المناسب أن نذكر لمحة من تاريخ غرناطة وهي مدينة أنشأها المسلمون بعد الفتح الإسلامي على أنقاض قرية صغيرة وكان لموقعها على الضفة اليمنى لنهر «شنيل» أثر كبير في إحاطتها بالجنائن والبساتين ويطل عليها من الشرق والغرب جبل (شلير) الذي يغطيه الثلج صيفاً وشتاءً واتخذها (المرابطون) عاصمة لملكهم، وبعد الزحف الإسباني انكمشت رقعتها وكانت الأحوال السياسية تقضي بتأليف جبهة قومية تقف أمام الزحف المسيحي فقامت مملكة غرناطة وعقد عليها المسلمون آمالهم لإنقاذ ما بقي من دولتهم، ودامت هذه المملكة قرنين ونصف قرن من الزمان بالرغم من الصراع غير المتكافىء وبالرغم مما عانته غرناطة من حروب داخلية وكان توسل ملوك بني الأحمر بملوك بني مرين حيناً وعقدهم محالفات مع ملوك قشتاله حيناً آخر عاملاً قوياً في إطالة أمد الصراع وبقاء هذه المملكة حقبة طويلة من الزمان كما كان لخروج كبريات المدن الأندلسية سبب لهجرة المسلمين إلى غرناطة وبين هؤلاء اللاجئين عدد كبير من الفنانين والصنّاع وأقام السلطان محمد بن يوسف قصبة الحمراء وبني بها برج الطليعة وأن العصر الذهبي لدولة بني نصر يبدأ بعهد أبي الحجاج يوسف الأول لقد كان حامياً للآداب والفنون فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيه (برج قمارش) وظل يوسف هذا يحكم سنين كلها رخاء حتى قتل وهو يصلي في جامع الحمراء وخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله الذي أكمل قصر الحمراء

ثم تولى بعده ملوك ضعاف وكانت تلك الفترة فترة نزاع وانقسام بين أفراد بني نصر وفي هذه الفترة اتحدت أهداف سياسة العدو من ملوك قشتالة للقضاء على الإسلام في الأندلس فأخذت حصون الإسلام تسقط تباعاً في أيدي العدو وبنو نصر لاهون في منازعاتهم التي فتتت وحدتهم وقامت بينهم الثورات تأييداً لبعضهم على الآخر وكان آخر الصراع بين أبي عبد الله محمد بن سعد وابن أخيه أبي عبد الله محمد بن الحسن المعروف لدى الإسبان بـ (بوايديل) والملك الصغير وفي عهده اكتسحت جيوش (فرناند الرابع) (وايزابيلا) جميع المدن الإسلامية وضيقا الحصار على غرناطة وفي سنة ١٤٩٢م الموافق سنة ٨٩٧هـ دخلت جيوشها مدينة غرناطة وخرج أبو عبد الله المقهور في كوكبة من رجاله وأهل بيته في صمت حزين وألقى النظرة الأخيرة على قصره وترقرقت الدموع في عينيه وأسلم مفاتيح غرناطة ليد (فرناند وايزابيلا) وأطلق الإسبان على ذلك «زفرة العربي الأخيرة» وصدق عليه قول الشاعر:

أوتيت ملكاً ولم تحسن سياسته　　وكل من لا يسوس الملك يخلعه

عود على بدء

ولنعد إلى وصف ما رأينا وشاهدنا في قصر الحمراء.

يقع القصر على ربوة عالية يوصلنا إليها منحدر من الأرض تحف بجانبيه تلال تكسوها أشجار باسقة وينبت على حواشيها أزهار مختلفة لها أريج عطري وتتخذ الأطيار من تلك الأشجار مساكن تعشش عليها وترسل أغاريدها عذبة شجية تهز أوتار القلوب، وما كدنا ننتهي من هذا الممر الجميل حتى يواجهنا باب عظيم يسمى (باب الشريعة) استوقفنا الدليل أمامه وأخذ يرطن بالإنكليزية لا نفهم منها إلا كلمات ويتوج مدخل الباب نص عربي يقول: (أمر ببناء هذا الباب المسمى باب

الشريعة اسعد الله به شريعة الإسلام كما جعله فخراً باقياً على الأيام مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف ابن مولانا السلطان المجاهد المقدس أبو الوليد بن نصر كافاه الله في الإسلام على صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية فشيد ذلك في شهر المولد العظيم من عام ٧٤٩ جعله الله عزة وافية وكتبه في الأعمال الصالحة الباقية).

ومن اسم هذا الباب نستطيع أن نتصور أن قضاة المسلمين أيام حكم الإسلام كانوا يجلسون للمتقاضين عند هذا الباب يفصلون في قضاياهم على كتاب الله وسنة رسوله.

ونواصل السير صعداً فيعترضنا باب آخر يسمى باب الحمراء ووراءه ساقية الجب وعليه تقع قصبة الحمراء وفي الجهة المقابلة يقع قصر شارع الخامس ومن ورائه قصر الحمراء وأول أقسام القصر هو (المشور) وهو المكان المخصص للموظفين الذين يعاونون السلطان في إدارة شئون مملكته وإلى اليمين منه أبنية حديثة يشغلها متحف الحمراء وعلى اليسار توجد مكاتب الحراس ونجد في هذه القاعة بعض الأشعار هي:

يا منصب الملك الرفيع   ومحرز الشكل البديع
فتحت للفتح المبين   وحسن صنع أو صنيع
إثر الإمام محمد   ظل الإله على الجميع

ووراء هذه القاعة يوجد المصلى الذي يحتفظ بمحرابه وتتوجه عبارة بالخط الكوفي: (اقبل على صلاتك ولا تكن من الغافلين) وإلى اليمين منها ساحة المشورة تتوسطها نافورة وإلى الشمال منها سقيفة جميلة يقول لك الدليل إنها (الغرفة الذهبية) نسبة للزخارف الذهبية التي كانت تزدان

بها، وإلى الجنوب من هذه الساحة سقيفة أخرى تحتها بابان الأيسر منها يفضي إلى قاعة صغيرة تقود الزائر إلى (ساحة الريحان) والباب الأيمن يفضي إلى المدخل الأصلي للقصر وقد سدت معالمه وفوق هذين البابين طراز من الخشب حفرت فوقه هذه الأشعار:

منصبي تاج وبابي مفرق   يحسد المغرب فيه المشرق
والغني بالله أوصاني أن   أشرع الفتح لفتح يطرق
فأنا منتظر طلعته   قبل ما يبدي الصباح الأفق
أحسن الله له الصنع كما   حسن الخلق له والخلق

وينفذ المشور إلى القسم الثاني من القصر وكان يعرف بالديوان وهو يشمل «ساحة البركة» و «قاعة البركة» ثم «قاعة العرش» أو قاعة السفراء وتمتد أمام هذا المدخل ساحة كبيرة تتوسطها بركة ماء تحف بها أشجار الريحان وفي طرفها الشمالي والجنوبي نافورتان صغيرتان ويزين هذه الساحة شعر للشاعر أبن زمرك الذي يقرأ على الجدُر:

تبارك من ولاك أمر عباده   فأولى بك الإسلام فضلاً وأنعما
فكم بلدة للكفر صبَّحت أهلها   وأمسيت في أعمارهم متحكما
وطوقتهم طوق الإسار فأصبحوا   ببابك يبنون القصور تخدما
فلو خير الإسلام فيما يريده   لما اختار إلا أن تعيش وتسلما

وبالتأمل في الزخارف التي تزدان بها الجُدران تتجلى لك عبقرية الفنان العربي أروع ما تجلت في الزخرفة الكتابية إذ استطاع أن يخلق بحذقه ومهارته من الحروف العربية طرازاً خزفياً ينطق بنضجه الفني.

قاعة البركة

ونترك هذه الساحة إلى «قاعة البركة» التي تقع على الشمال منها وتتقدمها سقيفة شبيهة بالسقيفة التي رأيناها إلى الجنوب وتتكون من سبعة عقود تتكىء على ثمانية أعمدة رشيقة ومدخلها عقد كبير في كل من ساقية حنية ذات عقد صغير من الرخام بها أبيات من الشعر:

أنــــا مـــجـــلاة عـــروس　　ذات حـــســـن وكـــمـــال
فــانــظــر الإبــريــق تــعــرف　　فــضــل صــدقــي ومــقــالــي
واعــتــبــر تــاجــي تــجــده　　مــشــبــهــاً تــاج الــهــلال
وابــن نــصــر شــمــس مــلــك　　فــي ضــيــاء وجــلال
دام فــي رفــعــة شــأن　　آمــنــاً وقــت الــزوال

وفي الحنية اليسرى تقرأ هذا الأبيات:

أنــا فــخــر لــصــلاة　　ســمــتــه ســمــت الــســعــادة
تــحــســب الإبــريــق فــيــهــا　　قــائــمــاً يــقــضــي عــبــادة
كــلــمــا يــفــرغ مــنــهــا　　وجــبــت فــيــه الإعــادة

ويقوم وراء قاعة البركة برج عظيم يعرف ببرج «قسارش» تقع بداخله (قاعة العرش) والقاعة مربعة الشكل تزدان جُدُرها بزخارف شتى، وحنايا مختلفة وكان فيها عرش السلطان بدليل الأبيات المكتوبة:

تحييك مني حين تصبح أو تمسى　　ثغور المنى واليمن والسعد والإنس
هي القبة العليا ونحن بناتها　　ولكنني لي الفضل والعز في جنسي
جوارح كنت القلب لا شك بينها　　وفي القلب تبدو قوى الروح والنفس
كساني مولاي المؤيد يوسف　　ملابس فخر واصطناع بلا لبس
وصيرني كرسي ملك فأيدت　　علاه بحق النور والعرش والكرسي

* * *

ساحة الريحان وقاعة بني سراج

ونعود أدراجنا إلى ساحة الريحان وننفذ منها إلى «قاعة المقرنص» والمقرنص نوع من الزخرف ابتدعه العرب وله صور شتى بعضها يشبه الرواسب الكلسية المخروطة الشكل وبعضها يشبه خلايا النحل، ونخرج من قاعة المقرنص إلى «ساحة الأسود» وما إن تتوسطها حتى يدهشك منظرها وهي مستطيلة الشكل طولها ضعف عرضها زينت أرضها بالرخام في وسطها نافورة تتكون من قطعتين من الرخام: العليا صغيرة والسفلى كبيرة محمولة على اثني عشر عموداً قصيراً تتكيء على ظهور اثني عشر أسداً نحتت من الحجر يندفع الماء من أفواهها فيزيد منظرها بهاء وجمالاً. ومن (ساحة الأسود) تدخل إلى «قاعة بني سراج» وهي مربعة الشكل وتخترق هذه القاعة ست عشرة نافذة وتتوسط أرضها نافورة من الرخام الأبيض تتخلله عروق حمر. وتنسب القاعة لبني سراج لوقوع مذبحتهم فيها على يد السلطان علي أبي الحسن الملقب بـ «الغالب بالله» وكانوا قد حقدوا عليه وانحازوا إلى زوجته عائشة الحرة ضده فانتقم منهم.

قاعة العدل

ونخرج من ساحة الأسود إلى «قاعة العدل أو قاعة المشور» حيث نرى في وسط سقفها صوراً ملونة مذهبة تمثل مجلساً لعشرة رجال يظن أنهم قضاة أو يمثلون السلاطين العشرة السابقين على السلطان أبي عبد الله آخر سلاطين بني الأحمر؛ وفي مواجهة قاعة بني سراج (قاعة الأختين) ونسبتها للأختين لعلَّها كان يسكنها أختان من بنات السلاطين وهي من أجمل قاعات القصر، وتنسيق الفسيفساء فيها أجمل من أي قاعة أخرى وزخارفها

غاية في الروعة والجمال وتتملكنا الحيرة ونحن نشاهد هذه القاعة وعلى جُدُرها قصيدة عصماء من نظم الشاعر ابن زمرك:

مطلعها:

أنا الروض قد أصبحت بالحسن حاليا   تأمل جمالي تستفد شرح حاليا

ومنها:

أباهي من المولى الإمام محمد   بأكرم من يأتي ومن كان ماضيا
ولم نر قصراً منه أعلى مظاهراً   وأوضح آفاقاً وأفسح ناديا
مصارفة النقدين فيها بمثلها   أجاز بها قاضي الجمال التقاضيا

قاعة ستائر الخشب المخروطة

ومن قاعة الأختين ننفذ إلى قاعة تسمى بقاعة ستائر الخشب المخروطة استطاع النجارون أن يحدثوا فيها زخارف مختلفة من كلمات عربية وأشكال نباتية أو صور أوان.

ومن هذه الغرف ننفذ لدار عائشة الملقبة بالحرة زوجة السلطان أبي الحسن الملقب بالغالب بالله ومنها نخرج لحديقة البرتقال ومن الحديقة إلى «برج أبي الحجاج» وله باب فخم نقش عليه (الباسل أبو عبد الله الغني بالله ابن مولانا أمير المسلمين السلطان الجليل الملك الأصيل ذو المحامد والمناقب والعطايا الجزية والمواهب الحامي الديار القامع أعداء الكفار أبو الحجاج ابن مولانا السلطان الأعظم).. وآخر بناء في قصر الحمراء هو الحمام الملكي ويعتبر من أقدم أجزاء القصر التي احتفظت بشكلها وتخطيطها وظل محتفظاً بمراجله النحاسية التي يسخن فيها الماء ويتكون الحمام من ثلاث غرف: غرفة الاستراحة والغرفة الدافئة والغرفة الساخنة، وبعد الحمام انتهت جولتنا في قصر الحمراء جولة كشفت لنا

عن براعة مهندسي العرب الذين صمموا بناء هذا القصر الشامخ البنيان وسطروا في سجل الخلود صفحة رائعة تجلى فيها جمال الفن العرب. ووقفة لدى النصوص المكتوبة تكشف لنا عن ذوق فني وحسن دقيق هذا عدا النصوص المقتبسة من القرآن مثل: (وما النصر إلا من عند الله) أو: «والله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين» أو ما كان متخذاً من الحكم (كالسعد والتوفيق نعم الرفيق) أو ذلك الشعار الذي اتخذه بنو الأحمر لأنفسهم وتراه منقوشاً على معظم ساحات القصر وأبهائه وهو «ولا غالب إلا الله». ومهما يكن فوقفة على هذا القصر توجب لنا الحسرة على مجد الإسلام الضائع لاختلاف الملوك والأمراء وركونهم إلى الدعة وتركهم الجهاد في سبيل الله، كما أن تلك الآثار تدل على أن أجدادنا كانوا سادة العالم يسعى الناس ليتلقوا على أيديهم دروس الحضارة والتمدن وكأني بلسان حالها يقول:

تلك آثارنا تدل علينا ... فانظروا بعدنا عن الآثار

رحلة في الأندلس الخُلد المفقود
ـ ٢ ـ

قرطبة والزهراء

تقع (قرطبة) على سفوح جبال متفرعة من سلسلة جبال (سيرامونيا) الممتدة من شمال المدينة، وتمتد قرطبة على الضفة اليمنى لنهر (الوادي الكبير) وتشتهر بالزيتون والمعادن، وبجبالها نوع من الحجر يسمى الشادنة يستعمل في التذهيب ويبدأ تاريخها الإسلامي في عهد (السمح ابن مالك الخولاني الذي ولي الأندلس سنة ١٠٠ وهو الذي رفعها إلى مصاف المدن الكبيرة). ومن آثارها القديمة (القنطرة) وكانت تعد من أعاجيب الدنيا وهي من بناء الرومان ورممها السمح بن مالك المذكور لسقوط عقودها، وطولها ثمانمائة ذراع وعرضها عشرون وعقودها ثمانية عشر وعدد أبراجها تسعة عشر وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل الأموي قاعدة لملكه فأصبحت يومئذ مهد الحياة الرفيعة ومصدر الحياة الإسلامية. وأهم عماراتها الجامع الأموي الكبير الذي ما زال يحتفظ بصورته الإسلامية ومصدراً يستوحي منه النصارى فن كنائسهم ودورهم، وقيل كان بها ٣٨٧٧ جامعاً و ٩١١ حماماً وكانت قرطبة زمن الدولة

الأموية في الأندلس موطناً لفلاسفة العرب وكعبة العلماء والأدباء إلى أن سقطت الخلافة الأموية وفتحها البربر سنة ١٠١٠ وهدموا آثارها وسلبوا محاسنها وبعد سقوطها في أيدي المسيحيين حولوا جامعها الكبير الذي بناه الداخل كنيسة كبرى.

جولة في قرطبة

بعد فراغنا من زيارة قصر الحمراء بغرناطة وتجولنا في البلد بين معالمها ومتنزهاتها ذهبت أنا ورفيقي الشريف زيد صباحاً لمحطة القطارات وقطعنا تذكرتين في الدرجة الثانية فوصلنا ظهراً إلى قرطبة ونزلنا في نزل (بانسيون) وبعد أن تغدينا في مطعم مجاور نمنا حتى العصر ثم خرجنا نتجول في البلد، فتمثلناها في زمن عزها الغابر حينما كانت ترفرف عليها الراية الإسلامية وهنا ذكرت أبياتاً لشوقي نضر الله ثراه:

لم يرعني سوى ثرى قرطبى ... لمست فيه عبرة الدهر خمسي
قرية لا تعد في الأرض كانت ... تمسك الأرض أن تميد وترسي
غشيت ساحل المحيط وغطت ... لجة الروم من شراع وقلس
سنة من كرى وطيف خيال ... وصحا القلب من ضلال وهجس
وإذا الدار ما بها من أنيس ... وإذا القوم ما لهم من محس
أين (مروان) في المشارق عرش ... أموي وفي المغارب كرسي؟
سقمت شمسهم فرد عليها ... نورها كل ثاقب الرأي نطس
وعظ البحتري إيوان كسرى ... وشفتني القصور من عبد شمس

رجعنا للمنزل بعد أن شربنا الشاي في أحد مقاهيها وتعشينا في مطعم

قرطبي أنيق ونمنا نوماً متقطعاً وبعد أن أصبحنا عزمنا أولاً على زيارة الجامع الذي أصبح كنيسة وبعد وصولنا ماذا رأينا؟ رأينا جامعاً كبيراً على غرار جامع أمية بدمشق يقوم على سوار من المرمر، وعقود بديعة وأروقة واسعة وفناء كبير ويسع الجامع ألوفاً من المصلين بمحاريب مزخرفة وآيات أو نقوش زينت جدرها وحناياها كما قال فيها شوقي:

مرمر تسبح النواظر فيه ... ويطول المدى عليها فترسي
وسوار كأنها في استواء ... الفات الوزير من عرض طرس
فترة الدهر قد كست سطريها ... ما اكتسى الهدب من فتور ونعس
ويحها كم تزينت لعليم ... واحد الدهر واستعدت لخمس
وكان الرفيف في مسرح العين ... ملاء مدنرات الدمقس
منبر تحت منذر من جلال ... لم يزل يكتسيه أو تحت قس
ومكان الكتاب يغريك ريا ... ورده غائباً فتدنو للمس
صنعة الداخل المبارك في الغر ... ب وآل له ميامن شمس

ومما يؤسف له أن أصبح هذا الجامع كنيسة يأتيه النصارى لمزاولة شعائرهم وإقامة صلواتهم وبدلت المحاريب إلى (أيقونات) تماثيل للعذراء وشعارات الكنائس كما قال الشريف الرندي:

حيث المساجد قد صارت كنائسها ... فيهن إلا نواقيس وصلبان
حتى المنابر تبكي وهي جامدة ... حتى المنابر ترثي وهي عيدان
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

في القنطرة الكبرى

خرجنا من هذه المناظر المؤثرة دامعي العين قاصدين القنطرة الكبرى على نهر (الوادي الكبير) ذات القصور الثمانية عشرة، والتي تضاهي بناء الأهرامات في قدمها ومحكم بنائها، وعلى طرفها الأيسر برج كبير ذو ثلاث طباق فقطعنا تذكرتي دخول وتجولنا من أسفله لأعلاه مع الدليل فرأينا فيه عجباً من محكم بناء ونظام هندسة بحيث لو تكلمت في ركنه تتبع صوتك في الركن الثاني. ومن أعلاه أرانا الدليل مكان قصور بني أمية فذكرت أبياتاً لشوقي رحمه الله يخاطب عبد الرحمن الداخل بقوله:

قصرك المنية في قرطبة	فيه واروك ولله المصير
صدف خط على جوهرة	بيد أن الدهر فياض بصير
لم يدع ظلاً لقصر المنية	وكذا عمر الأماني قصير
كنت صقراً قرشياً علماً	ما على الصقر إذا لم يرمس
إن تَسل أين قبور العظما	فعلى الأفواه أو في الأنفس

نعم لم يدع الدهر ظلاً لقصر (المنية) ولا لقبر بانيه الداخل وقبور العظماء وهو ما خلفوه من الذكر الحسن والثناء العاطر.

إلى قصر الزهراء

وبعد أن نزلنا من البرج قصدنا (قصر الزهراء) وهو على خمسة أميال من قرطبة بناها عبد الرحمن الناصر سنة ٣٢٥ واتخذها مقراً للخلافة وأسكنها محظيته (الزهراء) ورجال خاصته ونصب تمثالاً على بابها الرئيسي، وكذلك ابتنى مسجداً فيها، وظلت الزهراء في ازدهار حتى سقوط الدولة الأموية. دخلنا قصر الزهراء وعجبنا مما شاهدناه من أبنيته

الجميلة وأبهائه الواسعة وغرفه وعقوده المزخرفة (الديكور) ودخلنا بستانه الأفيح من زهوره العطرة والبلابل الشادية، بيد أنه داخلنا الألم لمجد الإسلام الضائع وعز العرب الزائل وذكرت قول الشاعر:

وقفت بالزهراء مستعبراً معتبراً أندب أشتاتا
وقلت يا زهراء هل رجعة؟ قالت: وهل يرجع من ماتا؟
فلم أزل أبكي وأبكي بها هيهات يغني الدمع هيهاتا

رجعنا من قصر الزهراء منكسي الرؤوس آسفين على ضياع المملكة الإسلامية بعد أن حكم الإسلام ما يقرب من ثمانمائة عام وإن هو إلا عدم التمسك بالتعاليم الدينية والأخوة الإسلامية والركون إلى الترف وملاذ الدنيا وتعدد الأمراء والحكّام كما قال حافظ إبراهيم لدى رجوع شوقي من الأندلس إلى مصر:

واذكر لنا (الحمراء) كيف رأيتها والقصر ماذا كان من بنيانه
ماذا تحطم من ذراه وما الذي أبقت صروف الدهر من أركانه
ولعلّ نكبته هناك تفرق وتشرد قد كان في تيجانه
عبر رأيناها على أيامنا قد خففت ما نابه من آنه
وحوادث في الكون إثر حوادث جاءت مبكرة لهدم كيانه

فهل نتنبه اليوم بعد تلك المحن الأليمة ما أصابنا من كارثة ضياع فلسطين وثالث الحرمين الشريفين؟ وهل بقي عذر لمسلم بعدم حمل السلاح للجهاد في سبيل الله بعد أن أعلنها مدوية في أرجاء العالم جلالة الفيصل في قوله «اللَّهم أمتني مجاهداً في سبيل فلسطين».

العودة[1]

أقمت بالقاهرة عاماً كاملاً لضرورة علاج الأهل ومراقبة الأولاد بالجامعات وذلك بعد إحالتي للتقاعد من (وظيفة محامي وزارة المالية والاقتصاد) وكان عاماً طويلاً عليّ لأني لم أغادر المدينة إلا لشهور فقط (منذ خمس وثلاثين سنة) وقد أمضيتها في المطالعة وتحرير بعض المقالات التي نشرت بالمنهل في العام المنصرم سنة ١٣٨١هـ كما اشتركت مع صديقي الأديب اللامع عمر توفيق في تعلم الإنكليزية بمدارس (فكس) يوماً بعد يوم لمدة أربعة أشهر تحصلنا خلالها على قسط وافر من هذه اللغة وإن كان حظ زميلي أحسن مني لمذاكرته وتمرينه، فهو شاب وأنا على أبواب الستين وكان جل قصدي قطع أوقات الفراغ في تحصيل شيء مفيد عملاً بالقول المأثور: «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد». صمنا شهر رمضان سنة ٨١ بالقاهرة ولم نحس بوطأة الصوم أبداً لأنه جاء في أواخر الشتاء مع قصر النهار وقد وفقنا الله بصيامه وقيامه مع الأولاد ومن المؤسف أن لا يهتم به كثير من

(١) للمحرر ثلاثة أولاد عبد العزيز المتخرج في كلية الاقتصاد السياسي والموظف بوزارة الدفاع) في غير محله، والولد الثاني محمد رؤوف وهو في كلية الهندسة (العمارة)، وعبد السلام في الإعدادي، وبنتان بكلية التجارة قسم الإدارة والمحاسبة.

إخواننا المصريين قدر ما يهتمون بالياميش وكعك العيد، أما الصلاة فيكفي أن تكتظ المساجد يوم الجمعة والاكتفاء بالجماعة باقي الأيام؛ وهذا خلاف ما عليه الحال بالوجه البحري والصعيد «الوجه القبلي» ـ والعجيب أن يقضي بعض المصريين عيد الفطر بين المقابر «القرافة» ويقضون سحابة نهارهم هناك. غير أن الكثيرين يقضونه في الجنائن والمتنزهات وما انقضت أيام العيد حتى هاج بي الشوق والحنين إلى المدينة الحبيبة فتذكرت الأبيات التي نظمتها في يوبيل «جريدة المدينة» التي لما يصدر عددها الممتاز:

أمسيت منسياً أداري غربتي — أعتز في نفسي وفي أولادي
وغدوت نهباً للحوادث موثقاً — من لي بحل مشاكلي وقيادي
أرجو وآمل أن أعود لكي أرى — شأن المدينة فاق كل بلاد

ذللت بعض مشاكلي وحللت وثاقي وعزمت على العودة بطريق الظهران فالرياض لزيارة بعض أقاربي وتعقيب بعض المعاملات. ركبت من القاهرة طائرة «كوميت نفاثة» فوصلت الظهران بعد ساعتين ونصف وكان في استقبالي صهرنا الأستاذ عبد العزيز التركي مدير التعليم بالمنطقة الشرقية وأخي محمد عبد القدير مدير التعليم بمدارس السكة الحديدية فحللت ضيفاً لدى الأخوين وشاهدت ما طرأ على الظهران والدمام والخبر وبقيق من آثار التمدن بفضل البترول، ولقد طاف بي الإخوان على مراكز شركة أرامكو في هذه المدن فكان فرقاً كبيراً بينما شاهدته قبل عشر سنوات وما شاهدته اليوم. وبعد ثلاثة أيام قصدت الرياض عاصمة المملكة بطريق القطار وكانت رحلة ممتعة في صالون مكيف به بوفيه يحتوي أصناف الثريات. قطعنا الرحلة في سبع ساعات

فوصلت الرياض بعد الظهر فوصل لاستقبالي بالمحطة ابني عبد العزيز (الملازم الأول في الدفاع) وهو متخرج في جامعة القاهرة كلية التجارة قسم الاقتصاد السياسي وكان لا بد له أن يعمل بهذه الوزارة حيث كان يدرس على حسابها وكان تخرج من قبل في سلاح المهندسين لذلك فهو يحمل رتبة عسكرية (ملازم أول) ورتبة فنية (في الاقتصاد السياسي) ولكنه الآن في السلك العسكري (مدير موازنة أفراد الجيش)، شكا لي الابن ما يعانيه من إرهاق في هذه الوظيفة وتبخر معلوماته في التجارة والاقتصاد السياسي فنصحته بالصبر حتى نهاية عقد الأربع سنوات..
كنت مررت بالرياض منذ عشر سنوات خلت فإذا هنا اليوم بلد كأجمل بلدان الشرق الأوسط، فهذه الشوارع الجميلة بعرض ستين متراً أو يزيد، وهذه العمارات الضخمة والحدائق الزاهرة بوسط البلدة والنافورات المكهربة والأسواق العامرة بمختلف البضائع الأمريكية والإنكليزية واليابانية مصفوفة في خزائن من البلور، وهذه المعارض الكبيرة لمختلف أصناف السيارات حتى الروسية (مسكوفتش) موجودة بأرخص الأثمان لأنه لا بد أن يعود حاصل البترول للمملكة في جميع أصناف الخردوات والمكيفات والثلاجات وأنواع السيارات ومواد البناء، وأحسن بدل هو ما ذقناه في بلادنا من العمارات. أما باقي الأصناف فمصيره للخراب..
ماذا أحدثك أيها القارىء عن عاصمة المملكة وما طرأ عليها من الرقي والعمران، لقد دخلت البلاط الملكي (قصر الناصرية) وبها من تنسيق الحدائق والقصور الضخمة والمسجد الجميل وإيوان الملك المسجى بأبهى الرياش والأثاث الفاخر ما يسر فؤاد كل عربي مخلص وحسبك أنه قصر فخر ملوك العرب سعود بن عبد العزيز أعزه الله ونصره. زرت أكثر الوزارات للزوم مراجعة بعض المعاملات ومنها معاملة إحالتي

للتقاعد، فقد كانت نائمة في أحد الدواوين فأيقظناها بالتعقيب للنهاية وكانت هناك معاملة ثانية بوزارة المعارف لم نعثر على رقمها وتاريخها فقد قيل لنا إن تلك المعاملة قدمت لمعالي الوزير ليبدي عليها مشافهة رأيه الكريم، وثالث معاملة وجدناها مفقودة الصلة بسابقتها حيث إن رئيس[1] المصلحة أقيل مع موظفيه فبقيت المعاملات في مكتبه السابق بدون موظف أو معقب مسئول، ولما لم أجد فائدة من التعقيب قلت: رب رحماك من هذا الروتين العجيب! وحاشا أن يرضى رئيس الوزراء عن ضياع حقوق الأفراد وإهمال الموظفين، وهنا لا بد من معقب لكل معاملات الأفراد في الوزارات. مكثت عشرين يوماً اجتمعت فيها مصادفة بالأخ فضيلة محمد القبوري عضو محكمة جدة، وكان لقاءً غير منتظر فأنسنا ببعضنا وزرنا أكثر معالم الرياض ودوائرها، والشيخ القبوري لطيف المعشر لا يعرفه إلا من اختلط به لأنه كان مشهوراً بحكمه القاسي على الجناة والفاسقين (حينما كان قاضياً للمحكمة المستعجلة بالمدينة ثم رفع إلى محكمة جدة وفقه الله).

وهناك بالرياض كانت لي معاملة خاصة لدى المعلم ابن لادن فتوسلت إليه بأخوي الشيخ عبد العزيز دغستاني والشيخ محمد سنبل فلم يبخلا علي بجاههما وذهبا معي لدار معاليه فقابلنا بكل لطف ووعد بمساعدتي فيما حضرنا من أجله وقد وعدني الأخوان النبيلان بتعقيب المعاملة وها أنا في الانتظار.. في تلك الآونة انعقد مجلس الجامعة وجاء وزراء خارجية الدول العربية وكان أول اجتماع من نوعه بعاصمة

(١) هو الشيخ عبد الله لنجاوي الذي أقيل مع موظفيه وكانت لديه معاملتنا حول صرف راتب صهرنا المتوفى حسين بدوي.

الملك وكان مندوبو الصحف المحلية يزودون صحفهم بما يجري في المجلس من قرارات وما يتلقفونه من أحاديث الوزراء وانطباعاتهم نحو البلاد، فكان أكثر تلك الأحاديث ينطوي على شكر صاحب الجلالة على كرم الضيافة وما لاقوه ولمسوه من رقي وتقدم في جميع نواحي الحياة، وأخيراً انتهى المجلس بالدعاء الحار لخير العروبة والثناء العاطر على عاهل المملكة العربية السعودية المضياف الكريم.

مكثت عشرين يوماً بالرياض لم أهنأ فيها بالماء الزلال، فقد كان الماء الآتي في (فيلا) ابني عزيز من بئر محفورة هناك وكانت بها ملوحة لا تروي الظامىء ولا تنتظم بالشاي..

غادرت الرياض إلى المدينة فوصلتها بخير وسلام ونزلت ضيفاً مكرماً بدار صديقي وجاري الشيخ عبد المجيد حسن معاون رئيس المحكمة، فخصص لي غرفة بداره جامعة لمرافق الراحة ومكيف ممتاز، كنت سعيداً بأوبتي إلى مسقط رأسي ووطني العزيز وأنست بالاجتماع بالأقارب والأحباب ثم الصلاة بالمسجد النبوي والسلام على صاحب القبر الأعظم ﷺ والصحابة وتمثلت بقول الشاعر:

يا سعد رفقاً لقد فزنا بكل منى   هذا حماهم وهذا الربع والدار
هذي الديار التي يحمي النزيل بها   نعم الديار ونعم الأهل والدار

لقد سرني ما شاهدته من الاصلاحات بالمدينة والمشروعات التي تمت والتي بدأ بها من جانب البلدية التي يرأسها صديقي السيد علي حافظ، وكنت قد تكهنت له بهذه الرئاسة لعلمي أنه خير من يقوم بخدمة البلدة الطاهرة، وإن المشروعات التي قامت بها البلدية لا شك في أنها كلها من صالح البلد، إلا أن هناك شيئاً أهم من المهم، فمثلاً

مما يلفت نظر الزائر والحاج لا سيما لو كان ملكاً أو رئيس وزارة أو زعيماً ذلك المنظر الكئيب الذي يقابلك وأنت خارج من باب السلام، وأبشعه منظر قهوة وقف مديني ومنظر الهدميات الممتدة إلى درب الجنائز، فهذه القهوة يجب أن تزال إما من جانب البلدية أو الأوقاف أو مكتب المشروع، وهناك سوق كومة حشيفة الضيق الذي لا يتجاوز عرضه متراً وبعض المتر في أوله يجب أن تنزع ملكية البيوت الممتدة من بيت وقف كلي، إلى فرن أبي الجود بسقيفة الشيخي وبذلك يتنفس السوق من الضيق الذي كثيراً ما أطاح بالمارة من زوار وحجاج من الزحام. وسوق المناخة وما أدراك ما سوق المناخة بشكله المزري وضيق ممراته كسوق التمارة وسوق الطباخة وسوق الفلتية؟ فكلها يجب إزالتها وبناؤها من جديد على شكل هندسي لطيف بحيث تحتوي على دكاكين ومعارض وشقق علوية تصلح مأوى للمسافرين ومكاتب للتجارة والدكاترة والمهندسين أما كيف؟ ومن أين يأتي المبلغ؟ فأظن السيد علي يذكر بحثنا للموضوع إبان وجوده بالقاهرة في العام المنصرم حينما أبلى من مرضه، واقترحنا أن تقوم بالمشروع بلدية المدينة ليعود عليها بالنفع والكسب الوفير والكلام في الفضاء غيره لما يتسلم الرجل كرسي الرئاسة فهناك كثرة الأعمال والمسؤوليات والمشروعات ويصبح كما قال الشاعر:

تكاثرت الظباء على خراش ... وما يدري خراش ما يصيد

زرت السيد علي بعد أن زارني وذلك بمكتبه برئاسة البلدية مرتين وكان لدي كلام كثير أفضي به إليه، غير أنه لكثرة أعماله اقتصرنا على السلام والترحيب وجمل المجاملات، على أنه لم يتفضل علي لأتشرف إلى داره برغم أنه كان بيننا عتاب سابق ومناقشة ودية لم تنته بعد..

على أني أدعو الله أن يوفقه لما فيه صالح البلدة الطاهرة لتأخذ بعض رونقها ليعود لها ماضيها المجيد.. أمضيت عشرين يوماً بالمدينة ضيفاً كما ذكرت لدى الشيخ عبد المجيد الذي كنا نأنس بالسمر معه وجارنا الشريف زيد والشريف فيصل وبعض الإخوان وكانت حديقة الشريف زيد في بضاعة مجمع الإخوان والخلان نسمر عنده حتى بعد العشاء الأخيرة ثم يذهب كل منا إلى المنام.

اشتدت الحرارة قليلاً وكان آخر ذي القعدة فتاقت نفسي لحج بيت الله الحرام فتوجهت من المدينة إلى جدة وحللت ضيفاً بدار أخي عبد الحميد عنبر (عضو مجلس الشورى) وأخي عبد الحميد وأخوه محمد عبد القدير أخواني من الرضاع وأبناء الخالة وكانت والدتهما بمثابة والدتي التي توفيت وأنا صغير فكانت رحمها الله بمثابة والدتي الحنون، وأخي عبد الحميد وعبد القدير شقا لنفسهما طريقاً في الحياة فلقد نشأ يتيمين من الأب ونشأت يسيراً من الأم وربينا في بيت واحد وكنا أشد تعاطفاً ومحبة من الإخوان وعبد القدير سافر منذ ربع قرن حتى استقر أخيراً بالدمام وأخي عبد الحميد من الذين لا يقيمون للحياة وزناً يعيش مع أولاده الكبار منهم والصغار بدون تكلف ولا نظام.

وكثيراً ما اعترضت على تصرفاته فأبدى لي عذره من هذه التصرفات هداني الله وإياه إلى سواء السبيل، وفي جدة تلاقيت بصديقي الأستاذ عبد القدوس الأنصاري الذي كان يترقب أوبتي بطريق جدة فقد أكرم وفادتي ودعاني لحفلة فاخرة أكرمه الله، والأستاذ الأنصاري من الذين لا يهتمون بالمادة بعد أن أنعم الله برزق الكفاف وولد صالح وإني أجل الأستاذ الأنصاري وأحله في طليعة العلماء والأدباء المفكرين في هذه البلاد.

وحسبي ما قلت فيه في يوبيل مجلة المنهل أذكر منها هذه الأبيات:

إيه عبد القدوس عمرك الله ... ووقيت فتنة الحدثان
أنت شيخ الصحافة في العهـ ... ـد السعودي مفرداً في البيان
هاك تاج الفخار في يوبيلك الفضي ... تزهو به على الأقران
هذه مهجتي إليك ترامى ... بين حر النوى ومن أشجاني
فليدم (منهل العلوم) يروي ... كل صاد على ممر الزمان

توجهت أول ذي الحجة سنة ١٣٨١هـ إلى مكة معتمراً ونزلت ضيفاً لدى أخي وزميلي السيد أحمد العربي مدير الأوقاف العام وإن الصداقة والمودة التي بيني وبين هذا السيد الكريم صداقة متينة تأصلت جذورها من الصغر حينما كنا معاً في الكتاب إلى المدرسة إلى دروس الحرم النبوي وكنا لا نفترق إلا بعد العشاء كل يوم ثم شاء القدر أن أسافر للهند سنة ١٣٤١هـ ويسافر هو إلى مصر سنة ١٣٤٢هـ وانتظمت في مدارس الهند العالمية وانتظم هو بالأزهر ثم بدار العلوم حتى نال دبلومها العالي ثم رجعت أنا عام ١٣٤٤هـ ورجع هو بعدي بسنين بعدما نال كل منا من التحصيل ثم سافر إلى مكة بحكم وظيفته وبقيت أنا بالمدينة أنتقل من مدرسة إلى مدرسة إلى مصنع ثم إلى المالية وبقي هو في مكة منتقلاً من المعارف إلى الشورى إلى مديرية الأوقاف. آنست بصديقي السيد وآنس بي وتذاكرنا في شتى الشئون، ومن عادة السيد أن يعمل في وظيفته لا يتحشر لدى أحد ولا يسمر عند أحد محتفظاً بمكانته ومقامه المرموق، وبهذه المناسبة أذكر أن للسيد وزملائه يوم كان بالمعارف الفضل في إضاءة المشعل الأول في ميدان التعليم وقد اضطلع السيد بمهمة مدير مدرسة البعثات وكان الساعد الأيمن لمدير

المعارف يومئذ السيد طاهر الدباغ رحمه الله، ومهما نسي الناس فضل السيد العربي فلن ينسى الشباب أنه (أستاذ الجيل) أسبغ الله عليه ثوب العافية وأطال بقاءه..

لقد حججت مع السيد ورافقته في جميع المشاعر وكنت هانئاً مرتاحاً معه بدائرة الأوقاف وكانت حجتي هذه العاشرة أرجو الله أن يتقبل منا بمحض رحمته وغفرانه.

ولقد شاهدت ولمست هذه المرة الإصلاحات الجبارة التي قامت بها البلدية من توسيع الشوارع وتعبيد الطرق وتحسين بلد الله، كما رأيت الطرق المعبدة إلى المشاعر وإحداث طريق للمشاة ثم إيجاد الماء الكافي في جميع المشاعر ووفرة الثلج أمام الحج ووجود المراكز الصحية والإسعافات وتنظيم التنظيفات في منى وعرفات كما قامت الأوقاف بتعمير مسجد الخيف ومسجد نمرة وإيجاد مراحيض بجانب المسجدين.

ولا ننسى نشاط أمير مكة الشاب ونزوله الأسواق واتصاله دائماً بالإدارات المختصة لراحة الحجاج.

وفكرة تشجير طريق منى وعرفات عمل جليل نرجو أن يتم في هذه السنة ويلاحظ سقي الشجيرات حتى لا تموت، ولا بد من إيجاد مراحيض أكثر في كل من عرفات ومنى على بعد خمسمائة متر وتوظيف خدم لها وإيصال الماء الكافي إليها للغسل والتنظيف، وهناك في منى السلخانة (المذبح) يعين له حراس شداد حتى لا يفلت أحد بذبيحته، فلقد رأينا الكثيرين يسوقون ذبائحهم لمحل إقامتهم ليذبحوها هناك. كما شاهدنا سخالاً ضعيفة وأباعر هزيلة ذبحت ورميت أشلاؤها على الطرق والشوارع، فيجب والحالة هذه مراقبة هذه الحيوانات من جانب وزارة

الصحة قبل ذبحها (لأن الله طيب ولا يقبل إلا طيباً) ولحوم الذبائح هذه التي لم نجد لها حلاً سوى دفنها في الحفر أو حرقها مع الزبالة يجب النظر فيها وجلب ماكنة تعليب لها ثم تقسم هذه المعلبات على دور الأيتام والسجون أو يؤتى لها بثلاجة كبيرة تحفظ فيها اللحوم ثم تقسم على الفقراء والمساكين وحبذا لو تبرع أحد المحسنين بثلاجة أو بماكينة تعليب وأظنه قادراً على ذلك المحسن الكبير(١) وإلى أن يهيىء الله بالثلاجة أو ماكنة التعليب فهناك طريقة بدائية لا تحتاج إلا إلى بضع عشرات الموظفين لأيام معدودة يقومون بتقديد هذه اللحوم كما يفعل التكارنة واليمنيّون، وهذا اللحم المقدد يأكله الكثير من الضعفاء والفقراء والمساكين.

ولدي اقتراح آخر أزجيه لوزير الحج والأوقاف وهو أن يخصص مكاناً في عرفات لكل جنس من العالم الإسلامي فيكون هناك مخيم للعربية المتحدة ومخيم لسورية وللبنان ومخيم للهند والأفغان ومخيم لتركية وإيران حتى لو فقد أو تاه أحد منهم رجع بسهولة بدون كثير مشقة ولا عناء، ولقد زرت مخيم وزارة الحج والأوقاف وفي نظري أنه ينقصه موظفون عالمون باللغات وينقصه صالون كبير ليضم عدداً كبيراً من أعيان وكبار الحجاج، وحبذا لو خصصت الوزارة ليلة ثالث منى ودعت أكابر وأعيان وعلماء حجاج العالم العربي والإسلامي ليتعرف بعضهم إلى بعض وليتباحثوا في مشاكل العرب والمسلمين وليبدوا اقتراحاتهم في الإصلاحات، هذا عدا المؤتمر الإسلامي الذي عقد هذه السنة والذي سيعقد إن شاء الله في كل عام. وأقترح على قلم المرور بالشرطة أن

(١) السيد حسن الشربتلي.

ينظموا طريقة رمي الجمرات بحيث يرمي الحاج من جهة اليمين ويخرج من الشمال، أما أن يدخل ويخرج من مكان واحد ففيه تعب ومشقة على كل المرمى.. كما أن موضوع الطواف حول الكعبة يجب أن ينظم بحيث يكون هناك وقت للرجال ووقت للنساء ووقت للعجزة المحملين على أعناق الرجال الذين لا يبالون بغير محمولهم مهما دعسوا الطائفين.

هذه ملاحظاتي أحببت أن أبديها لعلّها تأخذ حظاً من الالتفات لدى أولي الأمر والمسؤولين..

نزلنا من منى في اليوم الثالث مساءً فاستأذنت من أخي السيد أحمد للعودة إلى المدينة فأصر أن نجلس أياماً ولكني زهقت من الحرارة وحل بي التعب فأذن لي رعاه الله، فتوجهت إلى جدة ومنها للمدينة وكان الحر قد اشتد أيضاً فيها حتى بلغت درجة الحرارة ٤٧ درجة ففكرت في السفر وكانت لي رغبة شديدة لرؤية (استانبول) حيث إني من المخضرمين الذين أدركوا الحكم التركي في آخر ايامه وكنت دخلت المكتب الابتدائي إلى الصف الثالث وحفظت الكثير من الألفاظ التركية وكنا نأخذ التاريخ والجغرافيا باللسان التركي فكنت مشتاقاً لرؤية دار الخلافة وقصور السلاطين؛ ولا بد للمسافر إلى تركيا أن يمر ببيروت أو دمشق فآثرت السفر إلى دمشق ومنها إلى تركية بطريق حلب فغادرت المدينة في ٧ المحرم سنة ١٣٨٢ في طريقي إلى الآستانة (استانبول).

في طريقي إلى تركية

كنت في طفولتي وما بعدها مشتاقاً لرؤية دار الخلافة يومئذ (استانبول) عاصمة ملك سلاطين آل عثمان وكنت أرى رسوم بعضهم بهيئاتهم المهيبة وأقبيتهم المزركشة وقلانسهم المتوجة بالعمائم الجميلة سمات مسلمة ووجوه مشرقة مليئة بالنور والإيمان، هذا إلى ما كنت أسمعه من خطباء الحرم النبوي في يوم الجمعة بالدعاء لهم في قولهم (ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين السلطان ابن السلطان الملك المظفر المنصور المعان عبدك مولانا السلطان الغازي عبد المجيد خان ابن سلاطين آل عثمان من تباهى بهم الزمان وافتخر)..

حقاً لقد افتخر بأكثرهم الزمان.. من مؤسس دولتهم عثمان الأول وبا يزيد والفاتح وسليم وسليمان، وهذا الأخير وصل إلى أسوار (ويانة) عاصمة النمسا وكاد أن يصل إلى غرب أوروبا ولا غرو فقد سجل لهم التاريخ أسمى آيات الشرف لما قدموه من خدمات وما كابدوه في الغزوات والجهاد.. قدمت أني توجهت من المدينة في السابع من المحرم ١٣٨٢هـ قاصداً دمشق على طائرتنا السعودية فوصلنا دمشق بعد مرورنا على تبوك وعمان، وبمجرد وصولنا داعبتنا نسائم الشام العليلة وأنعشتنا بجوها المنعش اللطيف، ركبنا التاكسي في طريقنا داخل البلدة

نستنشق عبير الأزاهير الفواحة ذات اليمين والشمال حتى وصلنا لمجرى بردى الجميل ورحم الله شوقي إذ يقول، حينما دخلها لأول مرة:

دخلتها وحواشيها زمردة ... وللعيون كما للطير ألحان
جرى وصفق يلقانا بها بردى ... كما تلقاك نحو الخلد رضوان
آمنت بالله واستثنيت جنته ... دمشق دار لها الفيحاء بستان

اجتمعت في دمشق بأحباب لنا وأصدقاء دعوني لزيارتهم وولائمهم وتجولنا في مصائف دمشق من الربوة إلى دمر والهامة وعين الخضرة وعين الفيجة وبقين وبلودان والزبداني والغوطة، وبعد أسبوع قصدت إلى حلب فمررت على حمص وزرنا بطلها المجاهد العظيم خالد بن الوليد رضي الله عنه، وفي حماة استمتعنا بالجلوس على نهر العاصي فذكرت بيتي الشعر القديم:

يا سادة سكنوا حماة وحقكم ... ما حلت عن عهدي وعن إخلاصي
والشوق بعدكم إذا ذكر اللقا ... يجري المدامع طائعاً كالعاصي

لله ما أرقه من شعر على ما فيه من الإيهام والتورية البديعة، كما مررنا على معرة النعمان بلد فيلسوف المعرة أبي العلاء القائل:

تعب كلها الحياة وما أعـ ... ـجب إلا من راغب في ازدياد
إن حزناً في ساعة الموت ... أضعاف سرور في ساعة الميلاد
خلق الناس للبقاء فضلت ... أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعما ... ل إلى دار شقوة أو رشاد
واللبيب من ليس يغتر ... بكون مصيره للفساد

وهذه الأبيات تدل على إيمان المعري بالبعث والوحدانية وتدفع عنه وصمة التشكيك.

وصلت حلب الشهباء وفيها صديقنا القديم الأستاذ أمين الله عيروض فقد وجدته معتصماً ببرجه العاجي في أحد عمارات (السبيل) والأستاذ مؤلف كبير له ما ينوف عن مائة رسالة مليئة بالنقد والإصلاح والعقيدة الصحيحة، وقد أحيل الأستاذ إلى المعاش بعد أن أوجد جيلاً من الشباب العلماء.. توجهت من حلب في قطار الشرق السريع وكان يرافقني شابان فلسطيني وطالب سوري يرغب في الدخول بكلية الطب بألمانيا فسألت الشاب حسين لم اختار ألمانيا وترك جامعة دمشق؟ أجاب أن الطب هناك أرقى منه في سورية ومعترف به لدى الدول وقد فهمت منه أنه سيداوم خمس سنوات لا يرجع إلى سورية إلا بعد نيله الدبلوم، عجبت من أمر هذا الشاب وغيره من الشباب المغترب لتحملهم مشاق الاغتراب وتحملهم للآلام.. لدى دخولنا إلى حدود تركية بدأت الاجراءات الجمركية في القطار وفتشنا تفتيشاً خفيفاً وكان لكل فرد أن يحمل (٥٠٠) ليرة تركية ما عدا ما يحمله من العملات الصعبة كما يشاء. وبعد ساعتين من هذه الاجراءات تحرك بنا القطار إلى أضنه ومنها بدأنا ندخل في أنفاق جبال طوروس وقد بلغت خمسين نفقاً تقريباً يطول بعضها ويقصر حتى وصلنا إلى أنقره بعد أربع وعشرين ساعة بسلام. نزلت في فندق متوسط بمحلة الوس بميدان الغازي في فندق (يني شهر) غرفة باطنها حمام ساخن وبارد باجرة قدرها عشرون ليرة لليوم الواحد أي عبارة عن سبع ريالات سعودية، وكان الفندق يطل على مبنى المالية ذي الحديقة الغناء. خرجت بعد العصر وكان اليوم يوم خميس وأول ما رأيت تمثال الغازي (أتاتورك) على صهوة جواد أسحم يشير إلى إحدى المعارك

التي خاضها في بداية هجومه على جنود الحلفاء وعن يمينه وشماله اثنان من جنود الكماندوز، سألت عن الحديقة العامة (جنشلك) فإذا هي قريبة من الميدان والدخول فيها بنصف ليرة وإذا هي بستان كبير به أنواع الأشجار العتيقة وأنواع الزهور الملونة يتوسطه نهر رقراق صفت على جانبه المقاعد والمقاهي وأنواع المرطبات، والترك يتناولون الشاي في المقاهي في سمارات معدنية جميلة يعملون الشاي بيدهم ويجدون في ذلك متعة كما كنا عليه سابقاً وهم مشغوفون بشرب البيرة أيضاً إلى حد كبير، لقد جمع هذا البستان من الملاهي بأنواعه فهناك المسارح والسينما والمراقص و «لونابارك» وملعب للأطفال. جلست ما يقرب من ساعة أتفرج على الغادين والرائحين والجالسين ثم عرجت إلى لوكندة للعشاء وتعشيت بخمس ليرات أي ما يعادل ريالاً ونصف، وهذا الرخاء ناجم عن انخفاض سعر الليرة وهي في قوة الشراء بتركية كما هو الريال بالسعودية والليرة في سورية ولبنان. نمت نوماً هادئاً بالفندق وأصبح اليوم يوم جمعة فسألت عن المسجد الجامع فقيل لي إنه قريب مني ويسمى (جامع بيرم) ذهبت لصلاة الجمعة فإذا هو حافل بالمصلين حتى الشارع ولم أجد فيه مكاناً إلا بشق الأنفس وسمعت القارىء يتلو القرآن وبعد ساعة أذن المؤذن بلسان عربي فصيح وتلاه الخطيب فوق المنبر بخطبة عربية بليغة يتخللها مواعظ تركية لا بأس بها؛ سرني هذا المشهد الحافل بأنواع المصلين من تجار وعمال وعسكريين. والتركي يأتي للصلاة في الجامع برغبة ويصلي بخشوع وخضوع، غير أن المؤسف بأن هذه الطبقات سائرة للزوال.

أما الشباب المتعلم فيكفيه أنه مسلم بالعقيدة فقط ولا حول قوة إلا بالله. طلبت من مدير الفندق أن يصحبني بدليل لأرى معالم أنقرة فرافقني أحد الموظفين وخرجنا قبل العصر فأراني مباني الوزارات ومقر

رئاسة الجمهورية ثم عرج بي إلى ضريح الغازي ويقع على تل مرتفع بوسط المدينة يشرف على جميع مبانيها، ويقع قبر الغازي في مبنى كبير أظنه كان من القلاع القديمة وبنيانها لا تقل مساحته عن ٤٠٠ x ٤٠٠ متر يحيط بجوانبه أروقة مشتملة على غرف كثيرة في كل غرفة قسم من مخلفات الغازي، فهذه الغرفة لملابسه وسلاحه الخاص وأوانيه ومجوهراته وأوسمته وتلك لمدفعه الخاص وسياراته إلى غير ذلك، وفي صدر المبنى وفي قاعة يقع الضريح مكللاً بالزهور والرياحين وعلى جوانب ذلك المبنى جنود شاكو السلاح يقطعون الردهات جيئة وذهاباً. وقف دليلي خاشعاً أمام القبر فوقفت معه وقلت في نفسي (اللَّهم اغفر له إن كان من المسلمين الناجحين) أخبرني الدليل أنه يأتي في أيام الآحاد ألوف الأتراك لزيارة ضريح الغازي ويبكون عليه ويترحمون عجبت لهذه المنزلة الرفيعة التي اكتسبها الغازي في حياته وبعد مماته وتحقق لدي قول أبي الحسن الأنباري في الوزير ابن بقية:

علو في الحياة وفي الممات   لحق تلك إحدى المعجزات

لا غرو أن الغازي أنقذ الشعب التركي بجهاده الجبار من الاحتلال والاستعمار بعد أن دخل أسطولهم في بحر مرمرة وأزمير، والحلفاء يذكرون بطولته في أزمير يوم قذف بجيش اليونان إلى البحر ومزقهم شر ممزق ثم عمل على ضم الشعب التركي في جمهورية واحدة وتخلى عن بلاد العرب لمصيرها المحتوم، بيد أنه أساء إلى الإسلام والمسلمين بعد ذلك الانتصار فنكب العلماء وكل من يمت للدين وأبطل الحكم بالشريعة الإسلامية وأبدلها بقوانين الغرب المضادة للشريعة في كثير من موادها، وأخيراً أبطل الكتابة باللغة العربية مع أن الترك كان لهم القدح المعلى في تحسين الخطوط العربية وتبوئتها المكانة السامية في العصور

الأخيرة، وبذلك قطع أصول الدين من جذوره فبطلت المكاتب الإسلامية المحررة بالعربية وضاعت كنوز اللغة العربية في مختلف العلوم والفنون وأصبح المسلم التركي لا يعرف من الإسلام إلا ما يلقنه إياه أبوه وجده من التعاليم العملية فقط وإنا لله وإنا إليه راجعون. . سألت في اليوم الثاني عن سفارتنا السعودية في أنقرة لاجتمع بإخواننا فيها فإذا بي أجد أخي وتلميذي السابق سعادة السيد ناصر غوث هو القائم بأعمال السفارة كما وجدت السيد عبد القادر هاشم والسيد عبد العزيز أوليا والسيد عبد الله نمنقاني أيضاً. رحب بي السيد ناصر وعتب علي لأني لم أقصد السفارة من أول يوم وعلمت منه أنه كان متتبعاً لمقالاتي في المنهل وعتب علي بأني لم أذكر اسمه ضمن إخواننا التلاميذ فأفهمته بلطف بأن ذلك لم يكن على سبيل الحصر لجميع من كان لي شرف تلمذتهم ثم طلبوا مني جميعاً أن أوالي تحرير المقالات لأنهم يجدون فيها بعض اللذة في النقدات واللذعات، لقد أقام لي السيد ناصر حفلة غداء وطلب مني الإقامة عنده في دار السفارة فاعتذرت له بالسفر إلى استانبول في طريقي إلى بورسة العاصمة الأولى للسلاطين، وفي مساء اليوم خرجت مع الإخوان السيد عبد العزيز والسيد عبد الله نمنقاني إلى السد العظيم فوجدناه آية في المعمار والبناء وجمال الهندسة تحيط به الحدائق الغناء وتتخلله مياه السد العظيم، جلسنا في مقهاة على السد ثم رجعنا للبلدة ودعوني للعشاء في الحديقة العامة فأجبت طلبهم شاكراً الإخوان كرمهم وصنيعهم وودعتهم للسفر إلى بورسة في اليوم الثاني.

وإلى اللقاء من بورسة إن شاء الله.

في طريقي إلى استانبول

توجهت من انقره قاصداً «بروسه» العاصمة الأولى لسلاطين آل عثمان، فركبت الأتوبيس قبيل الظهر، وما أرخص أجور الأتوبيسات في تركية، فقد قدرت أجرة الخمسين كيلومتراً بليرة تركية (سبعة قروش دارجة) فمررنا في طريقنا على عشرات من القرى والدساكر والمدن على طريق معبد وتلال مخضوضرة وجداول منسابة وزهور فواحة ووهاد مزروعة.

والفلاح التركي يعمل طول نهاره في حرث أرضه وزرعها، والمرأة التركية، الفلاحة، تعمل بجانب زوجها في الحقل مع إدارة منزلها وشؤون أولادها، ورأيتها في الحقل تلبس السراويل الطويلة والثوب الضافي وشالاً على رأسها ومريولة على صدرها.

والفلاحون يعملون جاهدين في شمس الصيف وزمهرير الشتاء ليتلقوا قوتهم مع عيالهم، ولكساد المحاصيل وهبوط قيمة النقد التركي قل أن يتبقى لهم شيء من قيمة المحاصيل.

قطعنا المسافة من أنقره إلى بروسة في سبع ساعات فوصلناها بعد العصر فنزلت في فندق بمحطة الأتوبيسات، وقد أصبح في كل بلد في تركية محطة كبيرة للسيارات، وتشتمل على مبانٍ ومكاتب للشركات

وكراجات وفنادق ولوكندات، ارتحت تلك الليلة، وفي الصباح استأجرت سيارة تاكسي للطواف على معالم بروسة، وأول ما قصدت حماماتها المعدنية الشهيرة فدخلت حماماً. وجميع حمامات تركية على الطراز التركي، وبعد أن وصلت إلى بركة الماء المعدنية، وكانت المياه ساخنة لم أطق النزول فيها، وخاصة وكنا في شهر يونيه، فآثرت الخروج بعد أن دفعت الأجرة مضاعفة لصاحب الحمام وهي ليرتان تركيتان، ثم قصدت الجامع الشهير (يشيل جامعي) وأضرحة السلاطين وقصر السلطان مراد، وهو قصر متواضع ما زالت به بعض أواني السلطان وفرشه. وزرت ضريح مؤسس الدولة العثمانية السلطان عثمان الأول والمتحف الذي بجانبه، ومكتوب على شاهد قبره: «هذا ضريح أبو المغازي والفتوحات السلطان عثمان بلارطغل» الأول نور الله مرقده فسبحان الله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء».

وما زال الشعب التركي يحتفظ بوفائه فيزور هذه الأضرحة ويقرؤون عليها الفاتحة.

رجعت إلى الفندق متعباً، وفي اليوم التالي سألت عن أحسن طريق أسلكه إلى استانبول فقيل لي أن أركب وابوراً من بحر مرمرة، والبحر قريب من بروسة فترافقت مع مهندس تركي كان مسافراً مع زوجته فركبنا تاكسياً إلى الفرضة ومنها ركبنا وابوراً صغيراً في الدرجة الأولى بخمس ليرات إلى استانبول، وكانت نزهة في البحر، وكان رفيقي المهندس يشير لي كلما قاربنا إلى بعض الجزر بأسمائها ومنها الجزيرة التي كان مسجوناً بها مندريس وبايار ورفاقهما، حتى وصلنا بعد أربع ساعات إلى

مضيق البوسفور وتراءت لنا استانبول بمساجدها الضخمة وقبابها الجميلة ومآذنها الهضيمة، وليس في العالم الإسلامي والعربي أجمل وأفخم من مساجدها.

نزلنا بجانب الكوبري المشهور وأخذت طريقي إلى «السركه جي» بالجانب الأوروبي بجوار محطة «حيدر باشا»، ونزلت في فندق متوسط «دوروبالاس» يطل على كوبري البوسفور والمحطة وكنت أرى من غرفتي البواخر غادية رائحة وذلك ما كنت أتطلبه، فارتحت في الفندق تلك الليلة، وفي الصباح رافقني أحد خدم الفندق لأتجول في المدينة التي طالما كنت أتصورها في خيالي فقدر الله أن أراها حقيقة ماثلة أمام عيني عروساً أتجلى طلعتها وأتنسم عبيرها فقصدت إلى دار الآثار ومتحف الغازي، وشاهدت التماثيل المجسمة ونفائس المخطوطات والرسومات البديعة والمصوغات وعدد السلاح ما يرجع تاريخه لمئات خلت من السنين، ورتبت تجوالي كل يوم إلى مكان جديد فقصدت في اليوم الثاني إلى «توب كبي» قصور السلاطين القديمة ومخلفاتهم وآثارهم، وهذه القصور عبارة عن قلعة كبيرة يحيط بها سور وباطنها قصور وأكشاك تطل على البوسفور، وبدأنا بالطواف على معارض الأواني الصيني التي كان يستعملها السلاطين متدرجة من الصيني القديم إلى الصيني الممتاز إلى معرض الألبسة ومعرض المجوهرات والمصوغات ومعرض الأسلحة من السيوف الأثرية والخناجر والمسدسات والبنادق إلى المدافع القديمة إلى معرض رسوم السلاطين والباشوات والأغوات، وهناك أفواج من السياح يفدون أفواجاً مع مترجم دليل يشرح لهم تاريخ الأماكن الثرية وما بها من معروضات، فيدون بعضهم ما يراه قابلاً

ويرسم بعضهم ما يراه جميلاً أو أثرياً قديماً، وقد طفقت أتفرج ما يقرب من ثلاث ساعات حتى كلت قدماي فجلست في إيوان أحد القصور المطل على البوسفور كان للسلطان مصطفى خان على ما أذكر، وبجانب القصر مسجد جميل آية في البناء والهندسة مزين بالآيات القرآنية بخط الثلث والنسخ محلى بقطع من الفسيفساء الملون الباهر الألوان، والحقيقة أن منظر هذه القصور وما تحويه من آثار وتحف آية في الجمال والبهاء وعبرة للمعتبرين. ولقد شاهدت جامع (سلطان أحمد) ذا المآذن الست والرحاب الفسيحة، ثم عرجت إلى جامع (آيا صوفيا) وقد أصبح كمتحف اثري يقصده آلاف الزوّار والسياح وهو يذكر كل مسلم بالفتح الإسلامي الذي قضى على آخر حصون بيزنطة وختم على نهاية الأمبراطورية الرومانية الشرقية في القرن الحادي عشر الميلادي، وقد دخل سلطان الغازي محمد الفاتح آيا صوفيا وكانت كنيسة فأمر بها فتحولت من الكنيسة المتروبوليتانية إلى جامع كبير تقام فيه الصلوات الخمس ويدوي فيها الآذان، وتحولت القسطنطينة عاصمة الدولة الرومانية إلى دار الخلافة الإسلامية بعد غزو السلطان سليم لمصر واصطحابه لآخر خلفاء العباسيين إليها ومن ثم أضحت معقلاً للإسلام وملجأ للمسلمين، وقد أخذ السلاطين الذين تولوا الخلافة يشيدون الجوامع والسبل والمدارس والخانات والمقابر وما أكثر الجوامع والسبل (جشمه) والمقابر في كل ناحية وكل حارة عدا الأوقاف الخيرية التي وقفوها عليها وخاصة ما كان منها للحرمين الشريفين، ولقد زرت أكثر الجوامع (يني جامع): الجامع الجديد وجامع السليمانية وجامع الفاتح وغيرها من الجوامع والمكاتب.

ومما يحز في النفس أن أصبحت كنوز المكتبة العربية أثراً من الآثار، فالشاب لا يعلم ما تحويه تلك الكتب من ذخائر العلوم والفنون وما كان لمؤلفيها من الخدمات الجليلة للعرب والإسلام، ولقد رأيت في بعض الجوامع دروساً تلقى من جانب أئمة المساجد للعامة بعد الصلوات، كما رأيت تعليم القرآن للأولاد الصغار وما زال في المعمرين من الأتراك روح إسلامية وجذوة كامنة في نفوسهم لا تجد مجالاً للثورة والبركان.

سألت عن قبر أبي أيوب الأنصاري، فعلمت أنه في جوار جامع مشهور باسم (سلطان أيوب). وفي صباح يوم الجمعة ركبت تاكسياً إلى ناحية ذلك الجامع فرأيته غاصاً بالمصلين. وفي أروقته وفنائه كثير من النساء والأطفال، فسألت عن سر وجود هؤلاء النسوة بكثرة فقيل لي: إنهن يأتين لزيارة قبر أبي أيوب رضي الله عنه. دخلت الضريح، وكان بجوار المسجد وفي فنائه كان يعقد بالخلافة للسلطان المتولي، ويقلد السيف والبردة الشريفة التي جاءت مع آخر الخلفاء العباسيين، وقد أبصرت في أحد جُدُر (جدران) الفناء مكتوباً بالخط الثلث الجميل: «أبو أيوب الأنصاري واسمه خالد بن يزيد كليب بن جعفر بن غنم بن مالك بن النجار شهد العقبة وبدرا والمشاهد كلها مع الرسول ﷺ توفي سنة ٥٢ وكان في جيش يزيد بن معاوية في حصار القسطنطينية فمرض فعاده يزيد فقال له: ما حاجتك؟ فقال أبو أيوب: إذا مت فاركب ثم اسع في أرض العدو وما وجدت مساغاً فادفني. ثم رجع يزيد فتوفي أبو أيوب ففعل الجيش ذلك ودفنوه بالقرب من القسطنطينية»[١].

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة.

يحيط بجامع أبي أيوب كثير من المقابر لبعض السلاطين والباشوات والبكوات ويظهر أن تلك المقابر أنشئت بالقرب من الضريح لاجتذاب بركة الجوار، والغريب أن تبقى هذه المقابر في كل محلة وناحية تشغل حيزاً كبيراً من الميادين والشوارع، في الوقت الذي لم تفكر فيه الحكومة لنقل رفات تلك المقابر توسيعاً وتنظيماً للبلاد كما فكرت في غلق المدارس الدينية وزوايا الطرق الصوفية والضرب على علماء الدين.

وبعد أداء صلاة الجمعة في جامع أبي أيوب رجعت إلى مقري بالفندق وقصدت في اليوم التالي لمشاهدة قصر يلدز (سراي عبد الحميد) وسراي (ضولمه بغجة) فتوجهت لناحية الجانب الآسيوي بعد أن قطعت الجسر حتى وصلت إلى السراي والبستان وكان بالقصر إذ ذاك ترميمات وإصلاحات فلم أقف على جميع جوانبه إلا ما كان منه على البوسفور، وأمام هذا القصر التاريخي عاودتني ذكرى تاريخ ذلك السلطان الجائر المستبد وأمام البوسفور ذكرت بيت شاعر النيل:

مشبع الحوت من لحوم البرايا ومجيع الجنود تحت البنود

حقاً لقد أشبع حيتان البوسفور بما كان يلقيه من جثث خصومه وأعدائه طيلة ايام حكمه ورحم الله شوقي إذ يقول:

سل يلدزا[1] ذات القصور هل جاءها نبأ البدور
لو تستطيع إجابة لبكتك بالدمع الغزير
عبد الحميد حساب مثلك في يد الملك الغفور
شدت الثلاثين الطوال ولسن بالحكم القصير

(١) يلدز بالتركية بمعنى النجمة وبه تظهر مناسبة نبأ البدور.

تنهي وتأمر ما بدا لك في الكبير وفي الصغير
لا تستشير وفي الحمى عدد الكواكب من مشير

ومن إحدى شرفات هذه السراي كانت تشرق طلعة السلطان في يوم عيد جلوسه، فتصفق له الأكف وتزعق الغوغاء والرعاع (بادشاهم جوق يشا) أي: يعيش الملك، ويتسابق الوزراء والباشوات والأعيان للثم «الأتك» ـ ذيل روب السلطان نفاقاً ورياءً.

والسلطان يحكم فيطاع، ويأمر بما يستطاع وما لا يستطاع. فسبحان المتصرف في ملكه كما يشاء.

و «ضولمه بفجة» والبستان المتصل بالسراي والذي كان آية في الإبداع والإنشاء ما زال منسقاً بأنواع الزهور ومختلف الأشجار وأنواع الأطيار، غير أني لاحظت سحابة من البؤس والكآبة تخيم على القصور والجنان وصدق العوام: «جنة بلا ناس ما تنداس».

خرجت وأنا أتلو قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ. وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ . كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا .فَٰكِهِينَ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ. فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ (الدخان: ٢٥ ـ ٢٩).

ومن أشهر جنائن استانبول «كهنة بارك» أي: جنينة الزهور وهي جنينة كبيرة كانت للسلاطين يحيط بها سور وبها بعض القصور وتطل على البوسفور ويرتادها الشعب صباح مساء، ومن أجمل أماكن النزهات بلاج «أميركن» وهو بلاج طويل ممتد على شاطىء البوسفور وعلى ضفته الكازيونات والمقاهي واللوكندات وبعض الفنادق وبعض هذه الكازيونات على تلال تطل على البحر والماء في هذه الناحية أزرق رقراق وعلى

جانبي المضيق (مضيق البوسفور) تقع قلعة (روملي حصاري) و(أناضول حصادي). وقد دخلت قلعة الروملي وهي واقعة على تل مرتفع تحيط بها جنينة بهيجة، وقد صعدتُ إلى أعلاها بالمصعد الكهربائي، ومن كانت بيده هاتان القلعتان فهو المتحكم على أستانبول لأن أي وابور أو باخرة حربية تمر من المضيق تكون عرضة للضرب من القلعتين المذكورتين ومكتوب على باب القلعة ما نصه: (أنشأ هذه القلعة المنيفة وأمر ببنائها السلطان الأعظم والخاقان الأفخم السلطان محمد خان ابن السلطان مراد خان لعبده المكرم دغنوس باشا بن عبد الله سنة ٨٥٦) ويظهر أن دغنوس باشا كان أحد القواد العظام لدى السلطان محمد الفاتح ولعلّه هو الذي قاد المعركة مع السلطان لدى استيلاء الجيش العثماني على القسطنطينية.

وهناك بعض الجزر (بيوك أضه) و(يالوه) وهما بمثابة مصايف للأغنياء والمصطافين من الأجانب وفيهما من الدارات (الفيلات) البديعة والشوارع المنظمة والجنائن المزهرة والغابات المخضوضرة ما تفوق مصايف لبنان وسورية.

ومن أشهر أسواق استانبول (كابالي جارشو) السوق المفضلة، وهذه السوق تحتوي على أسواق متفرعة منها لجميع أصناف التجارة، ومن أسواقها سوق الصاغة التي تبهر العيون بتنسيقها وتنظيمها ومجوهراتها ومصوغاتها المسلطة عليها الأضواء الكهربائية وبالقرب منها (مصر جارشو) سوق مصر، وبها أصناف الأقمشة والخردوات.

ولقد تجولت في أكثر المحلات والأماكن وأبصرت الجامعة والمعاهد وأماكن اللهو والسينما ووجدت لي رفيقاً عراقياً في سني وكان ضابطاً

متقاعداً برتبة قائد، فكنا نذهب معاً كل يوم، فيوماً يكون في ضيافتي ويوماً أكون في ضيافته، وكان قد عمل في جيش العراق الذي اشترك في معارك فلسطين وحكى لي ما شاهده ولمسه في الجيوش العربية من التفكك وانعدام القيادة و «ماكو أوامر» التي باتت حديث أفراد الجيش العراقي يومئذ، وأكثر ما كنا نجلس في مقهى بالتقسيم بيباي أو غلو أو الحديقة العامة هناك، ومما يلفت نظر السائح في تركية كثرة تماثيل (أتاتورك) في الميادين العامة حتى القرى والدساكر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تعلق الجيل الحاضر بزعيمه الذي وجد الاستعمار في شخصه أكبر معوّل لهدم كيان الدين الإسلامي. كذلك لاحظت كثرة البنوك، فأينما سرت أو تجولت تجد بنكاً أو فرع بنك.

وفي تركية اليوم أزمة شديدة، فالتجار والموردون والمصدرون يشكون من الكساد وركود الأسواق، والموظفون يشكون قلة رواتبهم، وخريج الجامعة لا ينال أكثر من ثلاثمائة ليرة أي (مائة ريال سعودي)، والفقير هو المغبون سواء في بلاد الديمقراطية أو الاشتراكية، والفقراء هم العمال والفلاحون الذين لا يجدون قوت يومهم إلا بشق الأنفس، والأغنياء مهما يشكوا فلديهم ما يجبر كسرهم. وبالرغم من هاته الأزمة والكساد الحاصل فلم أجد تسولاً في الأسواق إلا ما كان من بعض العمي والمقعدين على أطراف الجوامع. والتركي بطبعه قانع برزقه طيع لرؤسائه مشهور ببطولته في ميدان الحرب والجهاد.

لقد ضمني مجلس مع بعض التجار والمحامين، فكان بعضهم يتذمر من الحالة الحاضرة ويذكر بخير أيام مندريس وجلال بايار والبعض ينقم على أيامهما. وقد جرنا الحديث فانتقدت موالاتهم لإسرائيل وتعاملهم معها، فأجاب البعض بأنهم مستعدون لمقاطعتها لو

قبلت الدول العربية التعامل مع تركية وقبول صادراتها. وللأسف الشديد أن اقتصاد تركية اليوم بيد اليهود الذين توطدت أقدامهم يوم آواهم السلطان سليمان من الأندلس بعد أن طردوا منها، كما لا ينسى العرب عدم نصرتهم بينما كانت جيوش السلطان تتوغل في قلب أوروبا والتاريخ يحدثنا بأن السلطان ألّف جيشاً من اليهود واللقطاء أسماه بجيش (دوننمه) وكان هذا الجيش من العوامل لتمزيق الدولة العثمانية فيما بعد حتى قيام دولة الاتحاد بقيادة نيازي باشا وأنور باشا وخلع السلطان عبد الحميد وتولية محمد رشاد الذي لم يكن له من الأمر شيء، ثم جاء مصطفى كمال وقضى على آخر سلاطين آل عثمان بإجلاء السلطان عبد الحميد خان.

مكثت في استانبول أسبوعين فعزمت على الرجوع فقصدت بلدة أزمير فسافرت براً بطريق السيارات وجلست ثلاثة أيام في أزمير، جبت معالمها وآثارها وكدت أقفز منها إلى اليونان القريبة منها لولا أن عز الرفيق، والرفيق قبل الطريق، وإيجاد الرفيق قبل الطريق أمر لا بد منه لكل من أراد السفر إلى بلاد يجهل لغتها وبضاعتي في اللغة الإنكليزية مثلها بالتركية تفي باللازم ولا تعبر عن جميع المقاصد والحاجات.

بعد ثلاثة أيام توجهت إلى أضنه ومرسين وأنطاكية وجلست أياماً في أضنة أنتظر قطار الشرق السريع إلى حلب، وفي أضنة اجتمعت بمفتي حلب الشيخ محمد بلنقو، وسافرنا بالقطار معاً إلى حلب ونزلت في ضيافته فأكرم مثواي.

وهنا تنتهي رحلتي إلى استانبول.. وإنني أدعو إخواني السعوديين أن يجعلوا لتركية نصيباً في سفراتهم إلى خارج المملكة فهي جديرة

بمشاهدة آثارها ومعالمها ومكاتبها ومتنزهاتها ورخاؤها اليوم بسبب خفض عملتها، كما أنني أدعو التجار والموردين إلى التعامل معها وجلب ما يمكن استيراده منها وخاصة الفواكه المجففة والحبوب.. والله ولي التوفيق.

أيام من عمري
جولة في أوروبا
(١)

الحياة التي تمضي على وتيرة واحدة قد تكون مملة لبعض الناس حيث لا تجديد ولا تغيير، والإنسان وإن كان مدنياً بالطبع فهو بطبيعته ميال لاكتشاف كل جديد والاستزادة من المعرفة والتطلع إلى آفاق جديدة غير سمائه التي يعيش تحتها. والسفر من بلد إلى بلد من أعظم وسائل التعليم إذا قصد منه الاستفادة والنفع، فهناك فرق كبير بين أن تقرأ عن تاريخ أمة أو وصف بلد وبين أن تراها بعيني رأسك واحتكاكك بأناس مختلفي الأشكال والألوان والأخلاق والطباع، ولكنهم مثلك في الجنس والصفات فتشعر في نفسك بأنك لست غريباً عن هذا العالم المترامي الأصقاع والأطراف؛ وخاصة إذا كنت ملماً ببعض اللغات التي تتفاهم بها الأمم وبها يتم التعارف والكلام.

منذ أمد بعيد وأنا مشتاق لرؤية أوروبا بعد طوافي بأكثر بلاد العرب وتركية والهند، وفي رحلتي في العام المنصرم لتركية كنت مزمعاً السفر منها لأوروبا بطريق اليونان، غير أن عوائق اعترضتني فاضطررت للرجوع

للمدينة وحمدت الإياب. وفي صيف هذا العام وبينما كنت بالقاهرة لعلاج الأهل ومراقبة الأولاد بالجامعة بحثت عن رفيق أسافر معه فلم أجده وإذا بابني الأوسط محمد (الطالب بكلية الهندسة عمارة) يلح علي أن يكون معي بدلاً من الرفيق، فهو يود أن يرى هندسة العمارات الغربية وما طرأ عليها من تجديد. صادف ذلك هوى في نفسي لأنه ملم باللغة الإنكليزية أكثر مني بمراحل ويقوم مقام ترجمان ورفيق. فكرنا أي بلد نبدأ رحلتنا إليه، واليونان أقرب بلد أوروبي للقاهرة وهناك رحلة ـ لأثينا بثلثي الأجرة ذهاباً وإياباً، فقطعنا تذكرتين في شركة KLM امتطينا إحدى طائراتها ذات أربع محركات فكنا بعد ساعتين بالضبط على مطار أثينا الجميل.. هذه بلاد اليونان التليدة في حضارتها الشهيرة بحكمتها، ومررنا على البنايات الحكومية ـ كدار البرلمان ومجلس الوزراء وبعض الوزارات والقصور الملكية والكلية الحربية. ومما يلفت السائح لدى الحدائق الملكية رؤية الحرس الملكي وهم في ثيابهم الوطنية وهي عبارة عن سروال أبيض ضيق الساقين وقميص عليه صدرية من الجوخ الأزرق وعلى رأسه طربوش أحمر ذو زر طويل أزرق يتدلى لنصف الظهر متمنطقين ـ بمسدسات كبيرة حاملي البنادق بحرابها البراقة وهم يمشون جيئة وذهاباً ـ رجعنا بعد الظهر إلى الفندق وبعد الغداء والاستراحة خرجنا مشاة داخل البلدة بعد أن أخذنا خريطة لها فيها جميع المعالم والأماكن بما فيها موقع الفندق الذي نزلنا فيه، فكان الابن محمد هو الذي يترسم أشهر الأمكنة التي نرغب في الذهاب إليها فتجولنا إلى المساء وبعد الغروب دلفنا إلى مسرح شعبي شاهدنا فيه بعض الألعاب والرقص والغناء اليوناني، واليونان أقرب للشرق منها إلى الغرب فمطاعمها ومقاهيها ـ وملاهيها يكسوها الطابع الشرقي والكثيرون من

اليونانيين يتكلمون العربية وإذا سألناهم أجابونا أنهم مكثوا في اسكندرية أو القاهرة زمناً طويلاً ثم رجعوا لبلادهم وخاصة بعد الاشتراكية وتحديد الملكية ولكن ما زال أكثرهم منتشراً في أنحاء القطر المصري من السويس إلى الإسكندرية وعملة اليونان هي الدراخمة ـ والدولار الأمريكي يساوي ثلاثين دراخمة. ولا أعلم أصل هذه النسبة هل هي مأخوذة من الدراهم أو لها أصل لاتيني، والأسعار في اليونان أغلى من القاهرة وأرخص من داخل أوروبا ومثلها يوغوسلافيا. ولقد لفت نظري فوائد هذه الرحلات التي تنظمها الشركات في كل بلد وحبذا لو كان لدينا شركة أو لجنة تنظم مثل هذه الرحلات للحجاج والزوار الوافدين إلينا كل عام، والمهم في الأمر أن يكون لدينا العدد المطلوب من الملمين باللغات الإسلامية والملمين بلغة إنكليزية وفرنسية أيضاً وليس المراد أن يكون الواحد ملماً بجميع هذه اللغات لا بل لكل لغة أو لغتين ـ شخص واحد، فمن المؤسف أن نرى جماعات الحجاج من الجاويين أو الهنود أو السودان أو الأتراك يزورون الأماكن المقدسة والأثرية وجلهم لا يعلم شيئاً عن تاريخ تلك الأماكن وقدسيتها إلا ما يتلقفه من صبي المطوّف أو الدليل من تلك الأدعية المرتلة والمعرفة فيهمهم بها ولا يعرف معناها. وكم يكون سعيداً ومبتهجاً لو وجد دليلاً يشرح له بإيجاز مثلاً حينما يقف على جبل النور (غار حراء) ويسمع شيئاً عن تاريخ الغار وكيف كان الرسول يتبتل فيه ويقضي الليالي منفرداً معتكفاً لعبادة الواحد الأحد حتى نزل عليه الوحي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ (العلق: ١) وهكذا على غار الثور حينما آوى إليه مع خليله الصديق (ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) وحينما مر الحاج أو الزائر على بدر ويلم بموقعة بدر الكبرى

وكيف أعز الله المسلمين وخذل المشركين وكيف أبلى المسلمون بلاء حسناً وكتب لهم النصر والفتح، وهكذا في باقي المآثر على سفح أحد والخندق وآثار حصون اليهود بأطراف المدينة وخيبر وكيف أذلهم الله بعد أن أظهروا العداء للنبي ﷺ وأصحابه، وفي هذا دعاية طيبة للحرمين وربح وفير. فإلى وزير الحج والأوقاف أزجي بمقترحي راجياً أن ينال قبولاً منه فيعيره جانباً من اهتمامه ويكون من ضمن أعماله الطيبة التي لا ينساها له التاريخ والأجيال المقبلة وحجاج بيت الله وزوار حرم رسوله الأمين صلاة الله عليه وسلامه.

في اليوم الثالث من رحلتنا ركبنا القطار ووجهتنا (يوغوسلافيا) إلى عاصمتها (بلغراد) المدينة البيضاء وكانت المسافة طويلة تعمدنا أن نستمتع برؤية ما يمر عليه القطار من غابات وحراجات ومزارع ودساكر ومدن؛ وبالفعل تمتعنا برؤية السباسب الخضراء والأشجار اليانعة والأنهار الجارية بعد أن قطعنا عشرات الأنفاق في الجبال حتى انتهينا لبلدة سلانيك (سالونيك) في الشمال وهو أقصى بلد في اليونان ثم انحرفنا إلى غرب فدخلنا يوغوسلافيا وأبرزنا جوازات سفرنا بالحدود وفتشنا بالكلام فقط وحقائبنا لم تمس أبداً اللَّهم إلا أنه حال رجوعنا لليونان آخر مرة فتحنا حقيبة واحدة أمام المفتش بالجمرك فأشار بطيها، وأذكر في العام الماضي حينما سافرت من دمشق إلى المدينة بطريق البر وبعد الدخول للمملكة فتشت حقائبنا في بئر هرماس أول الحدود ثم لدى دخولنا تيماء وفي تبوك وخيبر والمدينة، ومع ذلك فالتهريب لا ينقطع من المهربين. وصلنا في اليوم الثاني لبلغراد عاصمة يوغوسلافيا ونزلنا بفندق بهذا الاسم يطل على أكبر ميدان في البلدة وكان من الدرجة الأولى جميع غرفه مجهزة بحمام وصالة صغيرة وماء حار وبارد وتقع

البلد على كل مرتفع بين نهر السان والدانوب مبانيها فخمة وشوارعها منسقة نظيفة بها جامع للمسلمين وفيها قلعة «كلمجدن» التي بناها الأتراك وتركوها بعد أن حكموها عدة قرون وقد حولت الحكومة هاته القلعة إلى حديقة عامة يرى من أعلاها نهرا السان والدانوب. التقينا هناك ببعض الطلاب المصريين وغيرهم وحكومة يوغوسلافيا تمنح الطلبة الغرباء (١٥) ألف دينار والدينار يساوي ثمن قرش سعودي أي مائتي ريال تقريباً. بعد يومين من تجولنا ورؤية معالم البلد قصدنا بوسنة سراي (سراييفو) البلاد التي بها مئات الألوف من المسلمين، قطعنا تذكرة في حافلة (أتوبيس) تؤم البوسنة، وكانت المسافة عشر ساعات مررنا على جبال وقطعنا أودية وأنهاراً وقرى عديدة فكنا نقف كل ساعة تقريباً على قرية أو بلدة في الوقت الذي كنا نقطع فيه أودية يانعة وغابات كثيفة وجبالاً شاهقة وأنهاراً رقراقة حتى وصلنا سراي أو (سرايفو) بسلام وقد قطعنا ما يقرب من أربعمائة كيلومتر في عشر ساعات تقريباً ومرت خفيفة لطيفة بدون مشقة وإرهاق؛ نزلنا من المحطة وسألنا في مكتب الاستعلامات عن فندق قريب، والغريب أن لم يكن في البلد سيارات أجرة فركبنا الترام الذي كان بقرب المحطة ومعنا حقائبنا وكان الفندق من الدرجة الثانية بشارع تيتو أكبر شارع بالمدينة. لقد كنت جد مشتاق للسفر إلى البوسنة لما كنت أسمع من المسافرين إليها من أهل المدينة لتناول بدلات الحج من المسلمين هناك وقد انقطعوا عنها أخيراً بعد الاشتراكية وعدم خروج النقد إلا في حدود معلومة. وبلاد البوسنة والهرسك افتتحها السلطان محمد الفاتح سنة ٨٦٧ وأسلم الكثير من أهلها وتخرج منهم القادة والعلماء الذين سجلوا بطولتهم في الحروب التركية والعلماء الأعلام الذين تتزين بمؤلفاتهم

المكاتب الإسلامية؛ ويقرب عدد المسلمين في يوغوسلافيا مليونين ونصف مليون مسلم نصفهم تقريباً بالبوسنة وأطرافها. يممنا إلى جامع خسرو بك لنتصل ببعض إخواننا المسلمين هناك فالتقينا هناك بالأستاذ كمال الدين المدرس بجامعة سرايفو ويعرف اللغة العربية بالعافية (بتكلف) فأدخلنا إلى مركز جمعية العلماء ولما هممنا بالدخول قال لنا (اخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى) ولما دخلنا الصالة صالة الجلوس قال (أدخلوها بسلام آمنين) وقدم لنا حافظ المكتبة كتيباً صغيراً فيه كل ما يحتاجه المسلم من أمور صلاته وصومه ثم تطوع الأستاذ المذكور فصحبنا داخل البلد وذهب بنا لجامع (أمير سلطان) وفي طريقنا وعلى ناحية شارعين أشار لنا إلى آثار قدمين محفورتين قائلاً إنه مكان الشاب الصربي الذي أطلق مسدسه على الأرشيدوق فرديناند النمسوي وزوجته سنة ١٩١٤) فكانت الشرارة للحرب العالمية الأولى وبالشارع متحف صغير يضم رسوماً للشاب الثائر والعربة الملكية التي كان يركبها الأمير النمسوي والصحف التي نشرت خبر الكارثة بجميع اللغات.

خرجنا من المتحف إلى جامع مير سلطان وهناك تعرفنا بالأستاذ قاسم الموظف بمكتبة خسرو بك وقد تلطف الأستاذ فأمر لنا بقهوة تركية والقهوة التركية سائدة في يوغوسلافيا ويعبرون عنها بالجذوة ويشربونها بنهم ولذة، وأرانا الأستاذ بعض المخطوطات العربية التي تحويها المكتبة كما طاف بنا بالمكتبة وهي تحتوي على كثير من كتب التفسير والحديث والفقه وتحتوي على كثير من الكتب الإفرنجية أيضاً؛ والأستاذ السيد قاسم متعلم بالأزهر عشرين سنة ويتكلم العربية بطلاقة وقد خرج معنا وتجولنا بالبلد معه والتقينا ببعض المسلمين هناك، ويظهر أن المسلمين لم يتمتعوا بحقوقهم كاملة كإخوانهم السلافيين وأكثرهم متوسط الحال

موظف عامل صانع فلاح أما الأثرياء والملاك منهم فقد تأممت أموالهم بموجب النظام الاشتراكي القائم اليوم غير أن الفقير فقير سواء في الدولة الملكية كاليونان أو الاشتراكية كيوغوسلافيا وهي سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً قال تعالى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ (الزخرف: ٣٢) وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ (النحل: ٧١). تقدمنا من أحد باعة الفاكهة فعرفنا مسلمين فقال لنا إنه مسلم واسمه جمعة وتعرض لنا جاره فقال اسمه عمر ومرة كنا نسأل عن بعض الأماكن فتعرض لنا عامل يمشي مع أولاده وأرشدنا إلى المكان قائلاً إنه مسلم واسمه حامد وهؤلاء أولاده وكان رقيق الحال. قال لنا بعضهم في تأثر وانفعال: إننا نعيش في عزلة عن العالم الإسلامي والعربي في الوقت الذي نحن في أمس الحاجة للتعاطف والتواد وكما يأمر به الدين الإسلامي ولكن لم يفكر أحد فينا اليوم حتى أصبحنا أقلية محكومة لا تتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها مواطنونا السلاف بعد أن حكمنا هذه البلاد طيلة قرون خلت، وبسبب تخاذلنا وتفرقنا تقلصت راية الإسلام عنا وأمسينا غرباء في أوطاننا. لقد صدق الرجل في ما قاله ولم نشأ ذكر اسمه ولكنها الحقيقة التي لا غبار عليها.

ذهبنا في اليوم الثاني إلى رحلة لنبع نهر البلدة (نيرتفا) ويبعد عن البلد مقدار عشرة كيلومترات تحفه حدائق جميلة ومقاه لطيفة ومطاعم بها أنواع الغذاء والشراب؛ جلسنا في أحد المقاهي المطلة على النبع الرقراق وكان معنا الكثير من السياح وأهل البلد الذين يأتون إليه للفسحة والنزهة كل يوم. تغدينا سمكاً نهرياً ونعمنا ساعات بالنظر إلى منبع النهر الصافي والزهور البراقة المختلفة الأشكال والألوان على ضفافي

النهر وأطراف الأرائك المنصوبة وتحدثنا مع السياح وأكثرهم كان من إسبانيا وأمريكا، فتارة نتفاهم بطرف من الإنكليزية أو لغة الإشارة في أكثر الأحيان؛ وفي يوغوسلافيا يتكلمون أربع لغات. وبلاد البوسنة والهرسك تغطيها غابات كثيفة ووديان مليئة بأشجار الفاكهة اليانعة يشقها نهر (نيرتفا) الآنف الذكر وبه كثير من أنواع السمك اللذيذ. وقد أصيبت البوسنة والهرسك بخسائر فادحة في الحرب العالمية الثانية ويقال إنه دمر أكثر من مائة ألف منزل وأعيد بناؤها فيما بعد وأصبحت البوسنة في مقدمة جمهورية يوغوسلافيا إنتاجاً لمصانعها الشهيرة وهي تجمع بين الشرق والغرب بمآذنها وقباب مساجدها وكنائسها الفخمة وبها جامعة كبيرة ومطارها على أحدث طراز ومطابخها شرقية غربية لوجود المسلمين هناك، ولا غرو فإن للدولة العثمانية البائدة التي افتتحت البلقان بما فيها رومانيا والبلغار ويوغوسلافيا (الصرب) والجبل الأسود واليونان الفضل الأكبر في انتشار الإسلام في تلك الأصقاع.

غادرنا البوسنة في اليوم الثالث إلى (زغرب) في حافلة (أتوبيس) وكان يوماً قاتماً وماطراً فمررنا على مروج خضراء وغابات وأنهار والمسافة تقرب من أربعمائة كيلومتر قطعناها بعشر ساعات تقريباً فوصلناها مساء ولم تكن هذه البلدة مقصودة إلا لنرتاح فيها لقطع رحلتنا إلى (ويانة) عاصمة النمسا وزغرب الشهيرة بكنائسها الفخمة وحدائقها الجميلة وفيها اختفت المساجد الإسلامية وانقطع حبل المسلمين وإلى مقالنا الثاني للنمسا وألمانيا إن شاء الله.

أيام من عمري
جولة في أوروبا
(٢)

امتطينا القطار السريع من بلدة يوغسلافيا قاصدين «فيينا» عاصمة النمسا، وبذلك نكون قطعنا جمهورية يوغوسلافيا من الجنوب إلى الشمال. وركوب القطار في أوروبا متعة ونزهة جميلة كان القطار يمر على وديان فيها أنواع الأشجار المحملة بالفواكه اليانعة والزهور الفواحة والثغور الباسمة من سكان القرى المبنية مساكنهم على نسق منظم (فيلات ذات دور أو دورين) وهم يعملون في حقولهم يشيرون بأيديهم بالسلامة للمسافرين، وكان الجو مطيراً وغائماً ورفقاؤنا من الركاب يلهون ويمرحون في ممرات القطار يتغنون بأغنياتهم الوطنية التي كنا نطرب من جرسها ولا نفهم معناها. وبعد مضي عشر ساعات تقريباً وصلنا ليلاً لمحطة ويانه ويا لها من محطة رائعة ذات دورين منسقين على طراز جميل تطاول محطة فكتوريا بلندن ومحطة باريس ما عدا محطة روما التي تدانيها وتفوقها في كبرها، سألنا بالمحطة عن فندق قريب واستبدلنا ببعض الدولارات العملة النمسوية (الشلن) وكانت

المحطة مكتظة بالسياح فتذكرنا فندقاً ذكره لنا بعض الإخوان وهو فندق «رويال» وكان من الدرجة الأولى فهممنا بمغادرته لولا أن تحصلنا فيه على غرفة بخمسة عشر دولاراً بدون طعام وكان بالفندق الكثير من حواشي جلالة الملك سعود ورأينا من الواجب السلام على جلالته فسألنا عن المكتب فقيل لنا إنه في فندق (بريستول) ذهبنا للفندق المذكور واتصلنا بالسيد عبد المنعم عقيل لتحديد موعد لنا حيث إن جلالته يقيم في قصر بعيد بين (ويانه وبادن وبادن) فحدد لنا سيادته الساعة التاسعة يوم الأحد ٣٠ صفر ١٣٨٣ وقد اجتمعنا بكثير من إخواننا السعوديين من حواشي جلالة الملك وأنسنا بهم.

وويانه بلد سياحي جميل ثالث أو رابع بلد في عدد السكان يمثل الارستقراطية وأبهة الملكية الغابرة، مبانيها فخمة وشوارعها طويلة ومنظمة تعتمد على موارد السياح الذين يفدون إليها من سائر أنحاء أوروبا وأمريكا وغيرها وتمتاز بالتماثيل المرمرية والصخرية والبرونزية وفي كل ميدان أو ساحة نافورات عليها من هاته التماثيل تمثل صوراً فنية كأنها ناطقة مجسمة وهي كثيرة الملاهي والكبريهات الليلية والكازينوهات والبارات وخاصة «مولان روج» الطاحونة الحمراء.

ومن النمسا بدأنا نشعر بالغلاء في كل الحاجيات ولم يكن لنا بد من اشتراكنا في رحلة للوقوف على بعض معالم وآثار تلك المدينة، فذهبنا مع جماعة من السياح وبدأنا بدار الأوبرا العظيمة التي لا تضارعها أي دار أوبرا في أوروبا فنزلنا ودخلنا مع مرشدنا الذي قادنا إلى قاعات كبيرة مبانيها من المرمر ومزخرفة السقوف برسوم ذهبية وألوان جذابة، هذا عدا التماثيل الرأسية المجسمة لمشاهير الفنانين والموسيقيين وليست

هذه الدار مقصورة على الأوبرا فقط بل بها أجنحة كثيرة وصالات كان يقابل فيها أباطرة النمسا ضيوفهم قبل بدء العرض، وأجنحة للاستراحة وغرف للنوم وحمامات، وعلمنا من الدليل أنه تهدم جزء منها خلال الحرب العالمية الثانية فأقاموا جناحاً من المرمر والرسوم التجريدية هي آية في الروعة والجمال.

ثم ذهبنا للقصر الأمبراطوري الصيفي والشتوي والكنيسة المجاورة للقصر ويعجز القلم عن وصف متانة الكنائس وزخرفتها وإبداعها وأشكالها المتنوعة وامتياز بعضها على بعض في فنون الزخرفة والمعمار والفن القوطي والإغريقي.. ومررنا ببيوت مشاهير الفنانين (بيتوهوفن) وغيره وشاهدنا المكتبة العامة ودار البرلمان وعلى مدخله تمثال آلهة الحكمة «ديانا» وأخيراً عرجنا على مقهى فوق تل مرتفع يطل على المدينة (فيينا) بمبانيها وقصورها وحدائقها وملاهيها.. وشاهدنا أكبر مدينة ملاهٍ تشتغل ليل نهار ورأينا العلم السعودي يرفرف على بعض الملاهي ولم نعلم السبب في ذلك، وفي اليوم الثالث ذهبنا أنا وابني رؤوف للقصر الملكي للسلام على صاحب الجلالة مليكنا المعظم فوصلنا في الوقت المقرر فاستقبلنا كبير الحجاب السيد عبد المنعم عقيل وأشار لنا بالجلوس وبعد برهة نزل جلالته من القصر فمكثنا ريثما يجلس في فناء الحديقة ثم قمنا للسلام على جلالته مهنئين بسلامته فسأل عن أحوالنا وأمر لنا بالقهوة وكان بجانبه ابنه الأمير عبد المجيد جاء ليستأذنه بالسفر إلى بيروت وكان بالمجلس أيضاً الشيخ السعدون وبعض «الخويا» وحاجبه الخاص وقد علمنا أن جلالته في اليوم السابق وهو رجب ٢٠ يوليه قد استحم في بادن بادن كما علمنا أنه سيعود عما

قريب إلى عاصمة ملكه السعيد[1] ثم استأذنا بالانصراف فأجاب جلالته: «ما يخالف» فخرجنا ونحن نسأل الله سبحانه أن يسبل على جلالته رداء الصحة والعافية.

لقد كلفنا المشوار إلى القصر الملكي في التاكسي (٣٥٠) شلناً أي ما يعادل سبعين ريالاً.

وكنت أود عرض نفسي على الاختصاصيين لشكواي من «البروستاتا» التي أجريت لها فحصاً سابقاً وعولجت بقدر الإمكان، ولقد هالنا أن نصرف في أربعة أيام مائتي دولار باعتبار خمسين دولاراً كل يوم لشخصين مثلنا فعزمنا على الرحيل. وفي مساء اليوم ذهبنا إلى مقهى «جرنيزنج» حيث عاش «بتهوفن وموزار وشوبيرت وبركنز وريتشارد شتراوس» وغيرهم، وفي المساء دلفنا إلى مطعم «بيوغراد» قيل لنا إنه شرقي في أطعمته وكان في قبو تحت الأرض وعلى الأنوار الحمراء الباهتة وصوت الأرغن تناولنا طعاماً أقرب للعفونة منه طازجاً وكان جميعه في صحن واحد عبارة عن أرز وفاصوليا ناشفة وبطاطس مقلية وقطعة لحم بقري وكوب من عصير الليمون لكل واحد والقيمة (مائة شلن) أي عشرون ريالاً فدفعنا المبلغ مع الحلوان صاغرين.

ومنها بادرنا إلى المحطة لقطع تذكرتين إلى ألمانيا بادئين ببلدة «ميونيخ» ثم منها إلى برلين وفي الصباح كنا في القطار السريع الذاهب إليها. كان يرافقنا بصالون القطار مهندس ألماني وزوجته وكانا على جانب كبير من الذوق والأدب وكان المهندس يعرف الإنكليزية فسره أن يكون الابن محمد طالباً بالهندسة فأخذ يعرفنا الأماكن التي يمر عليها القطار من قرى

(١) وقد عاد جلالته فعلاً بسلامة الله ورعايته عقب ذلك.

وأنهار وبلدان وتبادلنا معهما أكل الفاكهة التي معنا ومعهم ونزل الاثنان قبل ميونيخ أو «منخن» بعد أن أرشدنا إلى الساعة التي يصل القطار بها (لمنخن) وبعد سبع ساعات من ويانه وصلنا (منخن) بسلام. سألنا مكتب الاستعلامات عن أقرب فندق واستبدلنا ببعض الدولارات المارك الألماني ونزلنا في فندق متوسط أجرته ٢٥ مارك يومياً لغرفة بها سريران وبعد أن نمنا نوماً هادئاً خرجنا في الصباح إلى البلد.

وميونخ من الولايات المستقلة استقلالاً إدارياً مزدحمة السكان كثيرة المصانع والمعامل، وأول ما تلمس وتحس فيها بالحركة والعمل الدائب من جانب أفراد الشعب سألنا عن أفضل مكان نمضي فيه اليوم فقيل لنا هو متحف ميونيخ المشهور وسنكتفي بوصف ما رأينا وشاهدنا في هذا المتحف الذي لا مثيل له في العالم على ما أظن وهو يعد جامعة شعبية مجسمة لا متحفاً كالمتاحف المعتادة.

وبالجملة فهذا المتحف يبسط العلوم للطالب والعامل والفنان حتى ربة البيت، وهو متعة لأهل العلم والمعرفة يرون ثمرة جهود العلماء والمفكرين. بعد دقائق من ركوب الأتوبيس وصلنا إلى المتحف الهائل الذي به آلات ضخمة ومعامل دقيقة لتسخير قوى الطبيعة فترى بعينيك وتلمس بيدك تلك الآلات وتطويرها، فهذه محطة إرسال واستقبال لمحطة تلفزيون، وهذا سنترال أوتوماتيكي، وهذا مرصد فلكي، وهذه طائرات نفاثة وعادية وهلوكيبتر، وهناك صواريخ طوربيد مائي وهذه بئر بترول يستخرج منها البترول، وتلك محطة توليد كهرباء وهناك منجم كامل وذاك نفق طبعي يفجر فيه الديناميت وتتحطم فيه صخور الجرانيت، وهذا مفاعل ذري وهذه جسور ثابتة ومتحركة، وهذا مسقط مائي إلى غير ذلك من تطور الآلات والأدوات كالراديو والتلفزيون والأسطوانات والفونوغراف

والمعامل الكيميائية لعمل الأدوية والتحاليل الطبية، كل هذه الآلات والمعروضات تجسم نواحي التطبيق العملي بواسطة تلك الآلات والمعدات واضعين كل النظريات والحقائق العلمية من البداية للنهاية باستخدام الأضواء الملونة والخامات الطبيعية بطريقة مبسطة بتشغيل تلك الآلات بأزارير كهربائية يشغلها حتى الأطفال. وأعجب ما في هذا المتحف القبة الفلكية التي تعرض الحقائق الفلكية ومتابعة الأقمار الصناعية وعمل هذا التلسكوب بطريقة طبيعية، يحس فيها الإنسان كأنه يعيش في كون آخر تحت سماء زرقاء مخضبة بالشفق في الأصيل وباهتة قبل الفجر ومنورة بالكواكب نصف الليل أو مضيئة ليلة البدر؛ ولهذه القبة الفلكية قبة مماثلة في لندن التي تعتبر من أهم معالمها السياحة. ومما يلفت نظر السائح العربي إقامة النموذج الصادق للعالم الكيميائي العربي (جابر بن حيان) فأنت ترى تمثال العالم العربي وأمامه الأدوات وآلات التقطير والفرن الذي كان يعمل بالفحم والحطب وآثار الدخان والهباب الأسود على جدار الغرفة، كل ذلك مشروحاً ومكتوباً بالألمانية فقط دون لغة أخرى، فالألمان لا يزالون يعتزون بقوميتهم ولغتهم ولا يستفيد من هاته الكتابات إلا من أوتي حظاً من الألمانية.

تجولنا في أكثر أنحاء المتحف، حتى أعيانا التعب بعد ثلاث ساعات متواصلة وصاحت عصافير بطوننا وإن كان بالمتحف يوجد مقصف ولوكندة للسياح الذين يقضون طول النهار خرجنا تعبين منهوكي القوى نردد قول الشاعر العربي:

ليس أهل الغرب أرقى فكراً إنما جدّوا فنالوا الوطرا
وركدنا فرجعنا القهقرا ليس للإنسان إلا ما سعى

ودلفنا إلى مطعم للفراخ المشوية، وتناولنا غداءً شهياً ورجعنا للفندق لنرتاح.

خرجنا للتطواف في البلد الكبير حتى استقر بنا المسير في حديقة غناء مفتحة الزهور والرياحين يفوح أريج عطرها ذات اليمين وذات الشمال، بداخلها بحيرات على حافاتها تماثيل لحيوانات وأناس يتدفق الماء الرقراق من أفواهها كناصع اللجين، وعلى جوانبها مقاعد لجلوس الواردين من المقيمين والمسافرين. جلسنا وجلس بجانبنا شيخ ألماني وقور عرف من حديثه مع الابن بالعربية، أننا غرباء، فسأله عن بلادنا قال: «يس يس» وكان ملماً بالإنكليزية والمترجم هو الابن محمد سأل عن مساحة المملكة وعدد السكان، وقلنا له: أكثر من بلادك عشر مرات والسكان سبعة ملايين.

تعرض لي الابن قائلاً: ليس عن هذا يسأل يا بابا. قلت: ترجم له ما اقول فقط، تخلص الابن من الترجمة التي كان عاجزاً عن شرحها بكلام ملخبط فهم الرجل أم لم يفهم، غير أنه سأل بعد أن علم أن الابن طالب بكلية الهندسة «عمارة» هل لديكم مدارس عالية وجامعات؟ قلت: نعم مدارس كثيرة وكليات للعلوم وجامعتان بالعاصمة الرياض والمدينة. قال: وكم عدد الطلاب لديكم في السنين الأخيرة؟ قلت ربع مليون، دهش الابن قبل الرجل قائلاً: من أين لك هذا الإحصاء يا أبتاه؟ قلت: نعم، نعم، إنه إحصاء السنوات العشر تقريباً، قال: سبحان الله.

رجع الرجل يسأل: كم نسبة المتعلمين لديكم؟ قلت: ٣٠٪. قال الرجل: نسبة لا بأس بها في بلاد الصحراء. غير أن الابن اخذ يحاورني ليعلم عن صحة هذه النسبة قلت له: نعم هذا الإحصاء تقريبي يا بني بالنسبة لسكان المدن الكبيرة كالرياض ومكة والمدينة وجدة

والظهران. قال: ولكنها ليست الحقيقة التي سأل عنها الرجل في بلاد جلها صحراء. قلت: وما علينا منه؟ أتريد أن أقول له ٧٪ كأننا في مجاهل إفريقيا، وحتى مجاهيلها أفاقت من سباتها العميق ولتعلم يا بني أن كثيراً من الحقائق قد يتجاوز عنها إلى ما يلاقيها من الحقائق المطابقة للحال والمقام كما تعلم وليس لدي إحصاء دقيق لمثل هذه البيانات.. وهل يرضيك أن نظهر بمظهر الجاهلين عن أبسط أحوال بلادهم؟ ورد على الابن في تخابث: ما شاء الله يا بابا على منطقك الفلسفي، ولكنك محامٍ بالطبع لا تغلب في الكلام، قلت له: قم بنا إلى مطعم نتناول فيه عشاءً خفيفاً حتى نبكر في القيام غداً صباحاً إلى المحطة لنأخذ طريقنا إلى برلين. وفي الصباح وتمام الساعة التاسعة كنا بمحطة القطار الذاهب إلى برلين وكان رفاقنا بصالون الدرجة الثانية فتاتين وامرأتين ألمانيتين فأخذنا نتجاذب معهن الحديث باللغة العالمية (لغة الإشارة) فعلمنا أن إحدى الفتاتين الطالبة بمعهد الفنون ملمة بالإنكليزية وتبخل أن تتكلم بها لما قدمنا أن الألمان يعتزون بلغتهم وقوميتهم إلى حد كبير كان مع إحدى الفتاتين آلة لهو الجيتار فكانت تعزف عليه ألحاناً بالألمانية نطرب من نغماتها ولا نفهم معناها والقطار يمر بنا على وهاد وجبال وقرى ومدن كبيرة غابت عني أسماؤها. وبعد ست ساعات وصلنا الحدود الألمانية السوفيتية فوقف القطار وطلع علينا مفتشو الجمرك والجوازات واستوفوا منا عشرين ماركاً رسماً للمرور في هذا القسم ثم تحرك بنا القطار في القسم السوفياتي وكان يخيم عليه الكآبة والبؤس اللذان تمثلا في السكان من الألمان المساكين، كما رأينا آثار التخريب والتدمير التي ما زالت باقية من الحرب العالمية الأخيرة.

وبعد ثلاث ساعات وصلنا برلين الغربية بسلام.

أيام من عمري
جولة في أوروبا
(٣)

في برلين الغربية

بعد وصولنا لبرلين الغربية في القطاع الأميركي ونزولنا في أحد البانسيونات وأجرة الغرفة ذات سريرين فيه بعشرين ماركاً ـ خرجنا في الصباح نبحث عن قريب لنا (عارف ترجمان) ولم نجده في سكنه فسألنا عن مكان عمله في الورشة الميكانيكية، وبعد مشوار طويل وجدناه يعمل بالورشة مع زميليه خالد الخريجي وحسن يوسف بخاري، وبعد السلام عليهم عجبنا من عملهم بالورشة وهم المبتعثون لكلية الهندسة الميكانيكية فأخبرونا بأنهم قضوا سنة في تعلم اللغة الألمانية وفي هذه السنة يتمرنون عملياً في هذه الورشة وبعدها يدخلون الكلية.. وهكذا جميع الطلبة المبتعثين من السعودية وغيرها من البلاد العربية. وبهذه الكيفية يكون التعليم في ألمانيا أحسن منه في جميع أوروبا. وكنت أرغب من قبل في إدخال الابن مرافقي لكلية الهندسة المعمارية فعلمت أن لا بد له من سنة لتعليم اللغة وسنة للتمرين العملي، وهو في السنة

الثانية عمارة بجامعة القاهرة، ولو أدخلناه لفاتته أربع سنوات لأنه سيبدأ من الأول.

استأذنا لولدنا عارف ونزلنا للبلد نتجول في شوارعها وميادينها الفسيحة. وأكثر عماراتها فخمة ومستجدة، ومحال تجارتها ومعارضها فخمة، والكل دائب في عمله، وأوقات العمل محدودة، سواء ما كان منها في المصانع أو المتاجر، إلا بعض المقاهي والفنادق الصغيرة، وبهذا النظام يتسنى للعمال وغيرهم قضاء بعض الساعات في المعاهد المسائية وهذا النظام وجدناه في كل البلدان التي زرناها.

مطاعم برلين

بعد تطوافنا لما بعد الظهر أشار عارف أن نتناول غداءنا في مطعم مشهور، وإذا هو عمارة ذات ست طبقات ومعرض تجاري كبير فيه كل ما يحتاجه الإنسان من ملابس وخردوات وآلات وسيارات، حتى الكلاب لها معرض خاص في الطابق السفلي، ومثل هذه المعارض معارض أخرى تتضاءل أمامها مخازن شيكوريل وشملا وجاتينو بالقاهرة. وفي الطابق السادس منه مطعم فخم به روف كاردن (الحديقة المعلقة)[١] ومقهى وبار. صعدنا إلى هذا الطابق فوجدناه مكتظاً بالسائحين والغادين والرائحين ولم نجد لنا مكاناً في مائدة إلا بعد انتظار فراغ بعض الآكلين

---

(١) «المنهل»: أحسن الأستاذ الكبير كاتب هذه الرحلة القيمة الممتعة، بترجمته اسم (روف كاردن) إلى صيغة: «الحدائق المعلقة».. وهذا ما اقترحته في بحث نقد «معجم الحضارة» المنشور في عدد شعبان ١٣٨٣هـ وأؤكد أن الأستاذ كاتب الرحلة لم يطلع عليه عند كتابته هذه الكلمة العربية الفصحى إحلالاً لها محل الكلمة الأعجمية، لأن مقاله هذا وصلني قبل صدور العدد المذكور.

فأخذنا مكاننا على أحد الأخونة (جمع خوان) وطلب كل منا ما يشتهيه: (طبق سمك بالبطاطس) (طبق دجاج بالمكرونة) (طبق شريحة بقر مع أرز) فأحضرت لنا ثلاثة أطباق كبيرة فضية بها مطلوبنا مع السلاطة الشهية.. أما الخبز فكان مفقوداً فقلت: وأين الخبز؟ فقيل لنا: كل يكتفي بما لديه مقابل الخبز. فالبطاطس المقلية وكبشة المكرونة وكبشة الأرز تغني عن الخبز.. طلبنا الماء المثلج فقيل لنا: البيرة والنبيذ يقومان مقام الماء. قلنا: نحن مسلمون! قالوا: عليكم بشراب الليمون والبرتقال. تناول كل منا زجاجة من شراب البرتقال والليمون، وكانت القيمة لهذا الغداء الخفيف ثلاثين ماركاً.

مشكلة الطعام في أوروبا

ومشكلة الطعام والشراب في أوروبا عويصة لأمثالنا وقد عالجناها بقدر الإمكان على أن هنالك مطاعم شبه شعبية مكتوباً عليها: (سرفس يورسيلف) أي اخدم نفسك. وفي هذه المطاعم ترى المأكولات جاهزة وموضوعة في الفترينات. وبضغط أزرار كهربائي بعد وضع القيمة يخرج صحن صغير فيه المطلوب. وفي بعض المطاعم تجد المأكولات مرصوصة وأمامها عامل يقدم لك ما تشير إليه في طبق تحمله بنفسك إلى أن تنتهي إلى الصندوق فتدفع القيمة وتأكل من طبقك واقفاً حتى تنتهي، أما إذا دلفت إلى الصالون وجلست على الخوان، وطلبت ما تريد من قائمة الطعام فتدفع أربعة أضعاف القيمة. ولذا فكرنا أن نشتري معلبات السردين والسمك والخضراوات المطبوخة والبيض والدجاج المشوي فنأخذ ما نريد إلى الفندق، حتى الشاي ابتعنا مغلاة: (إبريقاً) كهربائياً، نعمل فيه الشاي، لأن الشاي والقهوة غاليان على اختلاف

المحال والمقاهي، حتى الماء المثلج ابتعنا ثلاجة لنشربه منها، وبذلك وفرنا الكثير من نفقات الطعام والشراب.

فلم لورنس

دلفنا في المساء إلى دار سينما كبيرة لمشاهدة فلم (لورنس).. وهذا الفلم صادف نجاحاً كبيراً في أوروبا. وأخذت أكثر مناظره في الأردن وسورية. وبمشاهدته أعاد لنا ذكريات نصف قرن، وما نشر من ملامحه في مجلة المنهل: (من تاريخنا القريب).

إن الدور الذي قام به عمر الشريف في شخصية (الشريف علي)[1] والنجم الأمريكي الذي قام بدور (الأمير فيصل) لم يوفقا إلى إتقان دورهما إلا في بعض المظاهر فقط، كما أن المؤلف والمخرج أضفيا على شخصية لورنس صفات الأبهة والأمارة عملاً بنعته: (الملك غير المتوج)، ولقد رأينا في هذا الفلم بعض المناظر والمشاهد التي كنا نسمع بها ولم نرها بالعين؛ فلقد رأينا كيف كان لورنس ينسف قطار سكة حديد الحجاز مع أعوانه وكيف كانت تزهق الأرواح البريئة ورأينا في منظر آخر كيف كانت الطائرات الألمانية تحلق على معسكر الأمير فيصل بن الحسين بالعقبة مركز قيادة جيش الشمال، وكان البدو والسكان يهرعون إلى الصحراء بأرواحهم تاركين ما وراءهم من مال ومتاع. ولقد أخبرني أحد أخوالي وهو «بكر كابلي» الذي كان مرافقاً للشيخ يوسف خشيرم وكيل إمارة العقبة بأنه في أحد الأيام بينما كانت الطائرات ترمي بقنابلها على المخيم الأميري هرب الشيخ يوسف ومعه

(١) والأصح: الشريف ناصر بن علي أخو الشريف حسين شحاد، ووكيل قيادة جيش الشمال.

ابنه عباس والخال، واحتمى ثلاثتهم في ظل شجرة لئلا يراهم الطيار في الوقت الذي كانت فيه صناديق الذهب مبعثرة على الأرض وليس هناك من يأخذها.. الكل هارب بنفسه.

في برلين الشرقية

لقد جرتنا الذكرى للعدول عما نحن بصدده، فلقد ذهبنا في اليوم التالي إلى رحلة لبرلين الشرقية. ولنصف للقارىء مجمل هذه الرحلة: بعد أن أخذنا نحن الثلاثة مقاعدنا في «الحافلة»: الأتوبيس مع ثلة من السواح بدأنا الدليل قائلاً: (كودمورننك): صباح الخير، يسرني أن تكونوا معنا في هذه الرحلة التي تستغرق أربع ساعات ترون خلالها شطري برلين والسور المشهور ولتبرزوا تذاكركم الحمراء التي دفعتم فيها خمسة عشر ماركاً وسوف تدفعون ماركاً واحداً عن كل زائر واسمحوا لي بالإنصات إلي، لأني لست شريطاً مسجلاً يعيد ما يقوله، كما على كل راكب أن يبرز جواز سفره وهذه تعليمات الجانب الشرقي وليحص كل منكم ما معه من النقود ولا شك أن ذلك من أسراراكم الخاصة، لأننا لا بد أن نقدم للسلطات قائمة بأسماء الركاب وجنسياتهم وأرقام جوازاتهم ومقدار ما يحمله كل راكب من نقود مختلفة، وإنها لعملية صعبة غير أنه لا بد أن ننصاع لأوامر الجانب الآخر إذا أردتم الدخول لبرلين الشرقية (ضحك).

وقد وصلت بنا الحافلة إلى نقطة تفتيش في القطاع الأميركي بشارع (فردريك الأكبر) وهنا نزل المرشد الغربي ليحل محله المرشد الشرقي قائلاً: مرحباً بكم. وتتحرك الحافلة فندخل برلين الشرقية، ونرى آثار البؤس والكآبة بادية على السكان.. وأشار لنا المرشد إلى بعض الأماكن

والعمارات القديمة وأخذ في الدعاية الشيوعية، وما أحدثه الألمان في القسم الشرقي من المساكن الشعبية والمصانع الكبيرة. وقد علمنا أن نظام البطاقات سائر حتى الآن في القسم الشرقي، فالخبز والزبدة والبيض والسكر والشاي والقهوة والزيت ما زالت تصرف بالبطاقات، العامل في ألمانيا الشرقية يتناول نصف أجرة العامل في برلين الغربية، ولذا لم يلتفت أحد من السائحين إلى محاضرة المرشد الشرقي.. جلسنا في كازينو بجانب الحافلة ردحاً من الزمن، وأخذ بعضنا يتناول المشروبات المثلجة والسندوتشات الخفيفة.

سور العار

ثم عاودنا رحيلنا إلى برلين الغربية، بعد أن اجتزنا (بوابة براندبرج) وبناية مركز الحزب الاشتراكي والجنود الذين يتبادلون الحراسة من نقط التفتيش بجوانب السور المشئوم التي بدأنا منها لنكمل رحلتنا، ومرة ثانية يركب المرشد الأول فيجيبنا مقدماً نفسه باسم (كارل باورز) ويقسم أنه لا توجد أية صلة قرابة بينه وبين باورز الأمريكي قائد طائرة التجسس (ى ـ ٢) (ضحك) ثم بدأ يحدثنا عن سور العار الذي لا يقره أي إنسان عاقل في وسط مثل هذه المدينة الكبيرة ويشطرها إلى شطرين في القرن العشرين ولن يوجد مثل هذا السور بعد سبع عشرة سنة من الحرب العالمية الثانية..

وطول هذا السور خمسون كيلومتراً وهو مبني بطوب الإسمنت المفرغ واستغرق بناؤه أربعة أشهر ويتولى حراسته عشرة آلاف جندي، ومن أجل هذا السور أجليت ثمانمائة أسرة بالقوة من المنازل القريبة منه وأخليت مئات العمارات، ومنها بعض الكنائس الكبيرة، وما زال بعض العمال دائباً في إصلاح الأسلاك الشائكة من فوق السور، مخافة أن يقفز

منها أي إنسان. وبجانب أربعة عمال جندي واحد شاكي السلاح يقوم بحراستهم لئلا يهربوا.. وأشار الدليل إلى نصب لجدة عمرها ثمانون سنة ماتت وهي تحاول أن تقفز من فوق السور، هذا إلى نصب آخر قتل فيه الهاربون من أنفاق حفروها من تحت السور. ولقد رأينا فتاة في مقتبل عمرها تبكي بجانب السور وتشير إلى أهلها في الجانب الغربي.

أيام من عمري
جولة في أوروبا
(٤)

أقمنا ببرلين خمسة أيام، وفي اليوم السادس قطعنا أنا وابني محمد رؤوف رفيق الرحلة تذكرتين بالقطار إلى «امستردام» عاصمة هولندة بطريق (هانوفر).. وبذلك نكون قطعنا ألمانيا من شرق إلى غرب، مارين بعديد من المدن والمصانع، عدا المزارع والمراعي والأنهار والغابات، وركب معنا رجل هولندي من رجال المال والأعمال وزعم أنه زار المنطقة الشرقية، وعمل بالظهران، حيانا الرجل بانحناءة بسيطة برأسه لما علم أننا سعوديون وأعجب بالمملكة قائلاً: إنها غنية بالبترول وفي وسعنا أن نصبح أمة قوية لو استخدمنا مكاسبنا في إحياء الزراعة وإنشاء المعامل والمصانع فقد نغتني عن كثير من مواد الاستيراد فنحن نبدِّد كل مواردنا في جلب أقواتنا اللازمة وسائر الكماليات.. قلت له: أولم يلفت نظرك العمران الهائل في أطراف المملكة وطرق المواصلات؟ ثم هناك تقدم ملحوظ في مجال التعليم والتخطيط والإنشاء؟ قال: صحيح! ولكنكم ما زلتم متخلفين، فحاجتكم ماثلة ابتداء من إبرة

الخياطة وعود الثقاب حتى ما يكسوكم من أرخص الثياب قلت: للابن خلصنا من حديثه فحسبنا منه هذا التقريع والتأنيب وأنهينا الحديث معه قائلين بأن حكومتنا آخذة في كل ما من شأنه أن يصل بنا إلى مدارج التقدم والرقي، قال: ذلك ما نرجوه لكم ونتمناه.. بعد ثلاث ساعات من المسير المتواصل في القطار السريع وصلنا امستردام عاصمة هولندة وقضينا ليلنا في أحد الفنادق، وفي الصباح خرجنا بعد إفطار خفيف إلى رحلة مع زمرة من السائحين، وكانت الرحلة على زورق بحري يسير بنا في القنوات الممتدة من البحر بأطوال ثمانين كيلومتراً تتصل ببعضها بوساطة جسور مجموعها ستمائة جسر تصل المدينة ببعضها.. وكانت مرشدتنا في الزورق تحاضرنا عن معالم البلد وآثارها حتى انتهت بنا الرحلة إلى الميناء حيث السفن الكبيرة والترسانة الضخمة.. ثم رجعنا من حيث بدأنا، وقد تجولنا داخل البلد، ولاحظنا كثرة راكبي الدراجات. وآخر عدد لها رأيناه عشرون ألفاً مع وجود «الحافلات» والأتوبيسات والترام، بأعداد وافرة هناك..

كان علينا أن نطلب سمة الدخول إلى لندن من القنصلية البريطانية التي قيل لنا إنها تبعد عن العاصمة ساعة ونصف الساعة في بلدة (دينهاك)، وفي اليوم الثاني ركبنا القطار الكهربي إلى تلك البلدة فتعرفنا إلى طالبين: أحدهما عراقي والثاني أردني ووجهتهما إلى (بلدة الأقزام) وحينما استفهمنا عنها علمنا أنها أنموذج بلدة مصغرة يقصدها السياح، اتفقنا معاً لمشاهدتها ونزلنا بمحطة البلدة فدهشنا لنرى لأول مرة بلداً مصغراً بمبانيه ومرافقه وملاهيه وكنائسه ومعامله وموانيه ومطاراته داخل أرض فيحاء تحوطها الزهور والأشجار والرياحين، دلفنا إلى داخل هذه

البلدة لنرى مبانيها التي لا تتجاوز المتر أو بعض المتر تتخللها الشوارع وتسير فيها الحافلات والسيارات المصغرة غادية رائحة، بينما نسمع من داخل المعامل دوي الآلات؛ فإذا تركت هذا المنظر ووقفت على بناء كنيسة سمعت رنين الأجراس كان القوم في صلاة فإذا نظرت لدور الملاهي سمعت أنغام الموسيقى، وإذا ما تقدمت إلى محطات القطر رأيت القطار يسير على خطه الحديدي يتسلق الجبال تارة والوهاد أخرى أو يغيب في الأنفاق، وإذا تحولت إلى الميناء البحري رأيت الزوارق والسفن غادية رائحة في نظام بديع وشكل غريب، وإذا خطوت إلى المطار ترى الطائرات على اختلاف أشكالها البعض قد هبط بوقته والبعض متهيّىء للإقلاع، وقد يخيل لك أنك تسير في عالم آخر فيختلط عليك المجاز بالحقيقة والحقيقة بالمجاز بينما ترى السائحين ينهالون بالألوف إلى ذلك المكان والسير بداخله يسير بدقة ونظام[١]، وإذا تعبت من المشي فهناك الأرائك المصفوفة داخل خمائل الزهور والظلال الوارفة والأشربة المرطبة.. وإن الإنسان ليحتار فيم ينظر؟ لهذا الإبداع والاختراع؟ أم لجمال المكان؟ أم الغيد الحسان؟ أم لما حواه من التحف والآثار؟ فلقد وفق القائمون بهذا الملهى الكبير والمهرجان العظيم في مواسم الاصطياف، وهناك التقينا بأحد أصدقائنا (الحاج أحمد الأندنوسي) فرافقنا باقي اليوم حتى اليوم الثاني وأرشدنا إلى بعض المتاحف والمكاتب وإلى حديقة الأسماك والحيوان.

وفي امستردام يوجد كثير من الأندنوسيين الذين وفدوا إليها زمن الاستعمار، ولذا تجد الكثير من المطاعم الأندنوسية هناك وقد دخلنا

(١) إن كل تحركات هذه البلدة الصغيرة بوساطة الكهرباء بضغط أزارير موضوعة لها.

بدورنا إلى بعض تلك المطاعم وتناولنا فيها الغداء، بيد أنه كان مرتفع القيمة كغيره من المطاعم الإفرنجية هناك ورأينا به الكثير من السواح يدخلونه عمداً ليتمتعوا بوجباته الشهية.

غادرنا أمستردام ووجهتنا (بروكسل) عاصمة بلجيكا ونزلنا بفندق وسط البلد يشرف على دور للملاهي ومقاه وخمارات (بارات) قضينا سهرتنا بشرفة الفندق وفي الصباح انتظمنا في رحلة سياحية لمشاهدة معالم البلد وما تحويه من آثار وكانت معالم وآثار الكنيسة الكبرى والقصور الملكية والمحكمة العليا والساحة الكبرى والمتحف، وأهم ما يلفت نظر السائح فخامة تلك القصور من الزخرفة والإبداع في التماثيل المرمرية والنقوش الذهبية وضخامة البناء.

تجولنا باقي النهار داخل البلد حتى بوابة لكسنبرغ، ثم رجعنا إلى الفندق وتناولنا فيه العشاء وسهرنا بصالته الكبيرة على أنغام الموسيقى ومشاهدة التلفزيون. وفي الصباح الباكر قصدنا المحطة وقطعنا تذكرتين إلى لندن بطريق (أوستن برغ) ومن أستن برغ ركبنا باخرة صغيرة لعبر المانش، إلى (دوفر) وكان البحر هائجاً وما إن غادرنا الميناء حتى هبت علينا ريح صرصر عاتية فأصابت الركاب بالدوار. لم تكن هذه الرحلة ممتعة كما كنا نتوقع بل كانت ممتعة شاقة لمدة أربع ساعات فوصلنا (دوفر) وبعد الاجراءات الجمركية والتفتيش الرمزي كان القطار الذاهب إلى لندن في انتظار الركاب وبعد ساعة وربع الساعة كنا بمحطة (فيكتوريا) بلندن. . فركبنا التاكسي ويممنا صوب ضاحية (فنستري بارك) حيث معنا عنوان فنادق يديرها رجل باكستاني هناك، ولما وصلنا وجدناها أشبه بدور الطلبة الغرباء فاضطررنا لنرجع إلى البلد بعد أن تحملنا أجرة التاكسي جنيهين. طفنا مدة ساعتين وأكثر نفتش عن غرفة

في فندق أو بانسيون فكان الجواب (فل) ملآن أو (ميليت): متكامل. وأخيراً اهتدينا إلى فندق جديد بحي (هاي كينزغ) أشهر أحياء لندن غرفة واحدة ذات سريرين بجنيهين ونصف مع الإفطار، حمدنا الله بعد أن أخذ منا التعب في البحث والتنقيب أصبحنا وكان اليوم أحداً فخرجنا وخارطة لندن بيد الابن وكان الجو غائماً وقد أمطرنا طوال الليل وأحسسنا ببرودة زائدة بالرغم من أننا كنا في شهر أغسطس قلب الحر فكيف يكون البرد في باقي الفصول؟.. سألنا عن مكان نقضي فيه اليوم فدلنا أحد الطلبة السوريين الذي التقينا به مصادفة في الأتوبيس إلى ضاحية (هاملتون كورت) وإذا بهذه الضاحية قصور شامخة لملوك انكلترة السابقين، ويتبع القصور متاحف وآثار وحدائق فواحة بالأزهار بمختلف الأشكال والألوان، والمكان غاص بالسائحين وبجانب القصور مدينة للملاهي أقيمت خصيصاً في ذلك الشهر لترويح سكان لندن والسائحين..

بعد تجوالنا في القصور الملكية تحولنا إلى مدينة الملاهي وقد بدأت الشمس تفتح عينها تارة فتبهج الجو بشعاعها الدافىء وتغمضها أخرى فالجو غائم لطيف. كانت الملاهي ألواناً شتى من الألعاب والمراقص والألعاب البهلوانية وسوق المعروضات من السلع والخردوات وعلى جوانبها مطاعم خفيفة للأطعمة الجاهزة من الشطائر (السندوتش)، تغدينا غداءً خفيفاً وقضينا سحابة نهارنا هناك، وفي المساء رجعنا إلى لندن وقد أخذ منا الجوع فدلفنا إلى مطعم فاخر علنا نجد طلبنا من الطعام وقد كان المطعم ممتازاً بالفعل من الدرجة الأولى وممتازاً في الغلاء الفاحش: كبشتان من الحساء وربع ربع فرخة مع قطع معدودة من البطاطس وسلاطة خضراء ولقيمات من الخبز وكوبان من شراب البرتقال بجنيهين أسترلينيين

عدا النفحة (البقشيش) وهذا البقشيش يكاد يكون ملزماً دفعه في المطاعم والمقاهي وركوب التاكسي والحانات.. نحن الآن في (بيكادلي) قلب مدينة لندن وهو أكبر أسواقها ويشتمل على دور السينما والمسارح وأنواع الملاهي والمطاعم وملتقى جميع شعوب العالم، هناك اخترنا مشاهدة (السين راما) وهي عبارة عن سينما تصرف فيها المخترعون بأن يخيل لك كأنك قطعة من المشهد فهو يدور حولك بممثليه وأبطال الرواية في أحجامهم الطبيعية، وكان الفلم يصور مشهداً من مشاهد الحروب فكنا نرى طلقات المدافع ودويها كأنها بين المتفرجين كما كنا نرى الدبابات والطائرات وأفواج الجنود كأنها تمر بنا ونحن جالسون، فكان منظراً جديداً بالنسبة لنا ومن باب العلم بالشيء، وفي اليوم الثاني كانت وجهتنا السفارة السعودية بلندن لنجتمع ببعض إخواننا السعوديين فسلمنا على القائم بالأعمال وزيرنا المفوض السيد إبراهيم بكر والتقينا بكثير من الأخوان وتزودنا بصحفنا المحلية واستنشقنا أخبار الوطن في لهفة وشوق ثم عرجنا على حدائق (هايد بارك) الشهيرة والتي كانت بمقربة من دار السفارة؛ وإنك لتعجب من كبر هذه الحدائق التي خصصت لرفاهية الشعب في قلب البلد فرأينا الناس منتشرين في أنحائها فالأرائك منثورة هنا وهناك وجماعات السائحين والمنتزهين زمراً زمراً جالسون، وتسمع الخطباء يخطبون بكل حرية بدون رقيب والناس حول كل منهم يصفقون. اتخذنا مكاناً على ضفاف البحيرة التي يسبح عليها أنواع البط والأوز وكان منظراً أخاذاً بمجامع القلوب. طوفنا بأرجاء تلك الحدائق حتى كلت منا الإقدام. كان الجو ملبداً بالغيوم فأخذنا طريقنا للفندق وبدأ المطر يتساقط رذاذاً وكنا بلغنا الفندق وبدأ يستمر في الهطول، كان عشاؤنا دجاجة مشوية ابتعناها في طريقنا مع حبات من الخوخ المستورد وقيمة الواحدة بشلنين؛

أما الشاي فكنا نهيئه في الغلاية فوفر علينا ثمن الشاي في الكازيونات، وفي تلك الليلة زارنا الدكتور رضا خليفة من المدينة والمبتعث في لندن للتخصص في الجراحة ودعانا لبيته لوليمة غداء وكان قد سبقه لدعوتنا سعادة السفير فأجلناها ليوم آخر وذهبنا في اليوم الثالث لحفلة الغداء التي أقامها لنا السفير في مطعم (تليانو) الشهير، شكرنا للسفير دعوته وكرم ضيافته وإلى الملتقى قارئي العزيز في لندن إن شاء الله.

أيام من عمري
جولة في أوروبا
(٥)

في لندن

مكثنا أنا والابن محمد أسبوعاً بلندن وذلك في شهر أغسطس قلب الحر وكان الجو طوال الأسبوع غائماً ومطيراً، غير أن الأعمال كانت تسير سيراً كالمعتاد. رغم هطول الأمطار ساعات من النهار خرجنا في ثلاث رحلات لمشاهدة معالم المدينة العظيمة التي تضم مع ضواحيها عشرة ملايين من البشر وذكرنا شيئاً مما شاهدناه في المتحف البريطاني ومكتبته الضخمة.. ومتحف الشمع الذي يشتمل على تماثيل أشهر الوزراء وملوك بريطانيا وملوك ورؤساء الكومنولث فترى كل شخص على هيئته الطبعية ولباسه ولونه ولو نفخ الله فيه الروح لتكلم ومشى. وفي قبو المتحف تماثيل المجرمين في الزمن الغابر وما كان يجري من تعذيبهم والتنكيل بهم، فهذا تقطع أوصاله وهو معلق كالخروف وذاك تسمل عيناه وذا تقطع رقبته بالمقصلة إلى غير ذلك من المناظر المؤذية والمخيفة، كما دخلنا قبة الأفلاك وهي لا تقل روعة عن قبة الفلك في

ميونيخ فرأينا كيف يتكور الليل على النهار والنهار على الليل وحالة الفصول الأربعة وسير الشمس والقمر وحركة الكواكب والفلاح بصورة مبسطة يفهمها كل إنسان. وفي رحلة نهرية في التايمز مررنا على أشهر العمارات والوزارات في وستمنستر والبرلمان البريطاني والكاتدرائية بأبراجها الشاهقة وساعة «بيج بن».. عمارات كبيرة وقصور ضخمة وأبراج عالية ومسلات معقدة وبوابات أثرية وحدائق فواحة ومعامل كبيرة، كل ذلك يطبع في نفسك ما للشعب الإنكليزي من قوة ومنعة وصلابة رغم انفكاك المستعمرات عنهم وارتباطها بالكومنولث. والإنكليز في بلادهم متمسكون بالنظام بدون رقيب فترى في محطات الأتوبيس طوابير من الناس واقفة في انتظار الخطوط، وعندما يصل الأتوبيس يبدأ الركاب في التحرك والدخول بدون جلبة وكل من يأتي يقف في آخر الطابور وإذا جاء الأتوبيس مليئاً فإن الكمساري يعلن ذلك في كلمة واحدة (فل). وهكذا في جميع الدوائر الرسمية ومحال البنوك والثقة متبادلة بين عامة الشعب فلا تجد من يزوغ من دفع أجرة تذكرة الركوب أو قيمة الجريدة التي على الشارع بدون بائع وترى زجاجات اللبن المليئة والفارغة أمام البيوتات لا يأخذها إلا أصحابها ولا تجد من يغالطك في الحساب اللَّهم إلا الحلوان (البقشيش) فهو ضربة لازب لا مفر منه. ولقد ركبنا مرة سيارة أجرة ونسيت نفح السائق بشيء خلاف الأجرة فوقف مطالباً كأن ذلك من تمام الأجرة..

قصدنا في صباح أحد أيام الأسبوع إلى قصر بكنجهام لمشاهدة موسيقى الفرسان التي تصدح أمام القصر الملكي فرأينا أفواجاً من السياح والنظارة حتى قدمت الجوقة الموسيقية وهي عبارة عن كوكبة من

الفرسان يتجمعون في ساحة القصر أمام الشرفة الملكية وتصدح موسيقى القرب التقليدية، وقد تظهر الملكة في المناسبات لتحيي الجمهور. ولقد تعجب من تأميم الطب في بريطانيا وقد عجزت عن تأميمه الدول الاشتراكية، ففي كل حي ومحلة يوجد طبيب يتردد على الأسرة وكل أجنبي يأتي إلى أية حارة يجب أن يسجل اسمه لدى طبيب الحي حتى إذا احتاج إلى علاج أصبح له الحق في الذهاب لعيادته أو استدعائه مجاناً. ولقد احتجنا إلى علاج بسيط (مرهم) فلم تبعه لنا الصيدلية ولم تقبل إلا صرفه بأمر الطبيب وفي هذا أكبر خدمة إنسانية تقدمها الحكومة للشعب.

وهناك بعض الأشياء يلاحظها السائح في لندن كغلاء الخضر كالخيار والباذنجان والفلفل الرومي والفاكهة فيباع الخيار مثلاً بالبوصة والسنتمتر ملفوفاً في ورق السلوفان. وتراه معروضاً في أبرز مكان مكتوباً عرضه وطوله بالبوصة وقيمته بالشلن.

وأوقات البيع محدودة في أكثر العواصم ومنها لندن، فترى الدكاكين والمعارض مكتوباً على مواجهتها مواعيد الفتح والإغلاق وفي باقي الأوقات وخاصة بالليل تجدها مغلقة بأبواب الزجاج ومضاءة من الداخل معروضاً بداخلها المبيعات حتى إذا رغب أحد في شراء بعض المعروضات أتى في وقته المحدد للبيع..

ومما يلفت نظر السائح في لندن وجود (قطار تحت الأرض ـ اندرجروند) وهذا النفق طوله ثلاثون كيلومتراً عدا تفرعاته التي تتجاوز مئات الفروع مع مئات المحطات وهو ذو أربع طبقات تحت الأرض وقد يكون طبق خامس لم نشاهده بعد وفي كل محلة أو ضاحية توجد

محطة لهذا القطار وينزل إليه بوساطة مصاعد على شكل غرفة أو معارج كعربية أو درج عادي لا يقل ارتفاع كل دور عن خمسة أمتار، وحينما ننزل إلى المحطة نرى خرائط ملونة مثبتة في جدار المحطة، تبين لك اتجاه القطر الغادية والرائحة بحيث لو عملت بإرشاد هذه الخرائط وصلت إلى المكان المطلوب. وهناك نفق تحت نهر التايمس وشارع كبير يصل ما بين الضفتين وقد قيل لنا إن عمر هذا النفق يزيد على مائة سنة وعمل فيه كثير من سكان المستعمرات من الهند والزنوج أكثر من مائة ألف ومات في العمل عشرات الألوف ومثل هذا القطار موجود في ألمانيا وفرنسا أيضاً ولكن دون قطار لندن فيما أظن ولولا هذا القطار الذي تحت الأرض لشلت حركة العمل والسير في لندن المكتظة بالسكان، وهاهم اليوم مصممون على إيجاد نفق تحت المانش يصل فرنسا ببريطانيا والمشروع رهن التنفيذ.. وبينما نحن في لندن إذ سمعنا بنهب مليوني جنيه أسترليني من قطار البريد حيث تصدى له جماعة من الفدائيين وأوقفوا القطار ونقلوا المبلغ إلى سيارتهم وفروا بها رغم وجود أكبر دائرة مباحث (اسكوتلنديارد) في لندن فحمدنا الله على سلامة بلادنا من النهب والسلب المكشوف وإن كنا ما زلنا دونهم في أكثر مرافق الحياة، وبعد أيام سمعنا بالقبض على بعض المشتبه فيهم وأوقفوا رهن التحقيق.

إلى باريس

وبعد قضاء الأسبوع عزمنا على السفر إلى باريس بطريق (نيوهافن) فركبنا القطار السريع من محطة فكتوريا إلى نيوهافن ومنها في باخرة صغيرة إلى «كاليه» وكان بحر المانش في هذه المرة هادئاً فنعمنا برحلة

بحرية ممتعة حتى ميناء كاليه ومنها ركبنا القطار إلى باريس عاصمة فرنسا ومحط أنظار السائحين..

نزلنا في باريس في أحد الفنادق القريبة من محطة السكة الحديدية غرفة ذات سريرين مع إفطار خفيف بأربعين فرنكاً، وبعد أن استرحنا قليلاً خرجنا نطوف حوالى الفندق نتعرف إلى الشوارع المحيطة بنا ثم دلفنا إلى مطعم قريب تناولنا عشاءنا فيه وخرجنا إلى أحد الكازيونات (مقهى) لنشرب عصيراً من البرتقال أو الليمون بدلاً من الماء، وطفقنا نتفرج على المارة حتى داعب النعاس جفوننا فرجعنا لننام حتى الصباح.

وفي الصباح قصدنا أول ما قصدنا متحف (اللوفر) الشهير وهو بناء ضخم تتوسطه ساحة كبيرة كان في ما مضى من القصور الملكية العظيمة ثم أصبح متحفاً يضم بين أبهائه أشهر التحف وأبدع الرسوم وأثمن الجواهر وأفخم الموبيليات وفيه من التحف النادرة من آثار الكلدان والفينيقيين والآشوريين والفراعنة الشيء الكثير هذا عدا ما نهبوه من مستعمراتهم السابقة من بدائع الآثار. وأبدع ما في المتحف تلك الرسوم الزيتية الكبيرة من أشهر الرسامين. دخلنا أكثر قاعات المتحف نمر على المعرض مرور الكرام بدون تبصر أو قيد حتى كلت منا الأقدام وكثيراً ما كنت أجلس لأستريح، حالما الابن محمد يمشي بلا توان.. إننا: شاب في العقد الثاني من العمر وشيخ بلغ الستين وهل يدرك الضالع شأو الضليع. حتى إذا رجع ليأخذني أقول له: لقد درنا دورة الثور في الساقية فيضحك ويقول: باق شيء كثير، قلت له: لنرجع يوماً آخر فنتمم الدورة إن شاء الله..

وفي المساء خرجنا إلى رحلة ليلية لنرى معالم باريس وهي مضاءة

بأنوار قوية والدليل يرشدنا لمشاهدة تلك المعالم ويبدي بعضاً من ترجمتها بإيجاز.. فهذا قوس النصر وهذا ميدان الكونكورد وميدان الشانزلزيه وتمثال جان دارك والمسلة المصرية وغابة بولونيا وقصور ملوك فرنسا وبرج أيفل وتلك النافورات الجذابة يتدفق الماء من تماثيلها البديعة كاللجين حالما أنوار الكهرباء القوية تضفي على تلك الأماكن آيات البهاء والجمال، وأخيراً أتوا بنا إلى مسرح كبير لنمضي ليلتنا بمشاهدة أشهر فناني فرنسا وغانياتها المستهترات فرأينا فصولاً مختلفة: ألعاب بهلوانية، حوار مضحك، رقص عار لا يستسيغه كل ذي طبع سليم، كذلك سمعنا من أنواع الغناء من أشهر المغنيات ولكن بدون فهم نصفق معهم كما يصفقون ونهتف كما يهتفون، وكان الخدم يباشرون الحاضرين بالخمور المعتقة، وطلبنا من الندل (الجرسون) عصيراً للفواكه بدلاً من الخمر فأجاب متأسفاً: «لا يوجد في المسرح غير الخمور» تنازلنا بنصيبنا لزميلينا على المائدة وكان أحدهما ضابطاً إنكليزياً برتبة ميجر تعرفنا إليه بعد أن عرفنا بنفسه زاعماً أنه كان أحد أفراد بعثة التدريب في الرياض فسألناه عن رأيه في جيشنا الباسل فقال إنه يحتاج إلى تدريب أيضاً وقرر أن الجندي العربي كفؤ وشجاع لحمل السلاح.

تعرض لي الابن محمد قائلاً: يا أبت! نحن جئنا لنلهو؟ أم لنخوض في أحاديث لسنا منها في العير أو النفير؟.. فقضينا حديثنا مع الزميلين بعد أن أفرغا في جوفيهما حقنا من الشراب؛ وبعد انتهاء المسرح وإضاءة الأنوار الحمراء خرجنا نهرول قبيل الصبح قاصدين فندقنا الهادىء لنرتاح من رحلتنا الممتعة والمملة لطول الساعات التي قضيناها

في الطواف والمسرح على أن نعود لرحلة نهارية أيضاً في نهر السين. وكانت هذه الرحلة لطيفة حيث شاهدنا معالم أخرى زيادة عما شاهدناه ليلاً كقصر الإلياذة وقصور البوربون وكنيسة روتردام ودواوين الوزارات والقصر الجمهوري والجندي المجهول والمكتبة العامة نعلم عنها بالقدر الذي يشرح لنا به الدليل، وفي المساء ذهبنا لنجلس في أحد مقاهي الحي اللاتيني. وهذا الحي يجمع أشتاتاً من الأجناس المختلفة وخاصة العرب الجزائريين والمصريين فرأينا العجب العجاب ما يندى له الجبين من خلاعة واستهتار بالفضيلة بدون خجل ولا حياء، فمن ذلك أن فتاة كانت تسير مع أمها فأقعدهما بعض الشباب المستهتر بالقوة رغم اعتذارهما وطلبوا لهما بعض المشروبات ولما قضوا وطرهم من الجس واللمس صرفوهما كأن لم يكن ما كان.

وفي هذا الحي توجد ملاهٍ شعبية يأوي إليها العمال من كل جنس ولون ولا تسل عما يجري هناك من الفساد طوال الليل حتى الصباح.

ولقد ساءنا أن نرى بعض إخواننا العرب الموسرين يبددون أموالهم ببذخ وإسراف. ولو أنفقت تلك الثروات في مصالح البلاد لباءت بالخير والبركات، ومن الممكن تحديد المال اللازم لكل سائح كما هو المعمول به في أكثر الدول وبعض الدول العربية أيضاً حتى تأمن تبديد الثروات. إن الدول الإسلامية والعربية خصصت لكل حاج إلى بيت الله مقداراً من المال لإنفاقه في سبيل الله والأولى أن يحدد المال لمن يسلك طريق الشيطان..

وفي اليوم الرابع أمضينا أنا والابن محمد أكثر النهار لمشاهدة برج أيفل الشهير ويحيط بهذا البرج حدائق غناء مزدانة بالزهور الفواحة

وأرائك منصوبة لجلوس الزوار والسائحين أعلى صعدنا إلى البرج فرأينا باريس مصغرة بمعالمها وضواحيها ونهرها الجميل، وذكرنا هذا المنظر ببرج الجزيرة بالقاهرة وقد يفوق برج أيفل في البناء والتنسيق. تناولنا غداءنا من الباعة سندوتشات (شطائر) وجلسنا ساعة نرتاح بجانب نهر السين وسهرنا ليلتنا في أحد مقاهي الشانزلزيه، وفي الصباح قصدنا السفر إلى لوزان ـ بسويسرة.

أيام من عمري
جولة في أوروبا
(٦)

إلى سويسرا

بعد أيام من إقامتنا في باريس ومشاهدة ما أمكن مشاهدته من معالمها ومتاحفها غادرناها أنا والابن رفيق الرحلة إلى (لوزان) بسويسرة مصيف أوروبا الشهير وبعد خمس ساعات في القطار السريع وصلنا لوزان بعد الظهر وظللنا في مكتب الاستعلامات نبحث عن غرفة في فندق فلم نجد حتى عثرنا على غرفة بفندق «عدن» على بحيرة (ليمان) لمدة أربع وعشرين ساعة فقط. حملنا حقائبنا إلى (التاكسي) وما أكثر ما حملناها وتعذبنا في حملها وحسب المسافر حقيبة واحدة خفيفة وأكثر السواح والمسافرين يحملون حقائبهم في أيديهم لا يحتاجون لمساعد أو حمال، وبعد أن تغدينا بالفندق نزلنا إلى ضفاف البحيرة الممتدة من سويسرة إلى فرنسة تحوطها المدن العامرة والبلاجات الهادئة والحدائق الزاهرة. جلسنا في أحد أركان إحدى الكازيونات المطلة على البحيرة نتملى من جمال المناظر الخلابة والمرائي الساحرة، فهناك ثلة من الشباب والفتيات

يستحمون في المياه العذبة الرقراقة، وضحكاتهم تتعالى وتخفت مع الأمواج الغادية والرائحة، وأطفال كأزهار الربيع يلهون ويمرحون في ملاعب أعدت لهم خاصة، وأفواج من السواح من كل جنس ولون يتجولون هنا وهناك.

وفي الكازينو التقينا بقاض سويسري، وما علم بأني «محام شرعي» حتى بدا يسائلني عن بعض أحوال القضاء في البلاد سأل: هل القضاء مستقل لديكم؟ أجبت كل الاستقلال، إذا وصل الأمر إليه يجري بحق وعدل، غير أن بعض القضايا تحسم من قبل الحكام الإداريين للمصلحة العامة كقضايا الإخلال بالأمن وحوادث السرقات.. سأل الرجل: هل لديكم قوانين أو مواد قضائية تتمشون بموجبها في الأحكام؟ قلت: لدينا من كتب الفقه الذي دونه كبار أعلام الفقهاء ما يغني عن المواد والقوانين.. والقضاة يستنبطون أحكامهم من تلك المدونات. سأل: وهل لديكم محاكم مختصة للحقوق والجزاء والجنايات؟ قلت: لدينا محاكم كبرى برئاسة قاض وعضوية قاضيين أو ثلاثة ومحاكم صغرى: (المستعجلة) بعضوية قاضٍ واحد.. والمحاكم الكبرى تنظر في جميع القضايا المختلفة، والمستعجلة تنظر في قضايا الحقوق التي لا تتجاوز ألف فرنك «ريال» وقضايا الجنح الصغيرة. قال: وهل يشترك مع القضاة (محلفون) يأخذ القاضي بآرائهم وشهاداتهم؟ قلت: لا بل هناك محاكم للتمييز بنقض الحكم أو تأييده، وفي كل، فالقضاة لدينا يجتهدون في الأحكام، قال الرجل: يظهر لي أن القضاء يحتاج إلى تطوير وتنظيم. وهنا برم الابن من الترجمة قائلاً: يا أبت ما لنا ولهذا الحوار الذي ما جرنا إليه إلا قولك بأنك محام.. ألم تر أن الرجل ينظر إلينا كأمة متخلفة حضارة؟ قلت له: يا بني! وهل وجدت في أجوبتي إلا ما

يشرف؟ قال: ولكنها يا بابا لا تخلو من غمزة أو إيهام! قلت في نفسي: سبحان الله (ولد بطني يفهم وطني) وقلت له: اطمئن فلن أكلفك بترجمة شيء بعد الآن، وفي تلك الآونة ودعنا القاضي بإيماءة خفيفة ومضى لشأنه، وقمنا نبحث عن مطعم لنتناول فيه عشاءً خفيفاً ونمضي إلى الفندق لنقضي ليلنا فيه. وكنا عولنا على السفر في باخرة من هذه البحيرة إلى (جنيف) وفي الصباح كنا على ضفاف البحيرة نقطع تذكرتين في باخرة سياحية نظيفة مع زمرة من السواح.. كانت رحلة ممتعة ونحن نسير سيراً هادئاً في جو غائم جميل. وكنا نرسو لدقائق معدودة على مصايف ينزل إليها بعض الركاب أو يطلع علينا بعض المسافرين وأذكر من بعض تلك المصايف «ايفيان».. الفرنسية التي جرت فيها مباحثات وفد الجزائر.. وبعد ثلاث ساعات كنا في بلدة جنيف يممنا فندق (كرنفال) الذي احتجزنا فيه غرفة من قبل من لوزان.. ومع ذلك فقد اعتذر إلينا مدير الفندق وطلب إلينا أن نجلس بالصالون حيث إن نزلاء الغرفة سيغادرون بعد ساعة.

تركنا حقائبنا، وخرجت والابن نتجول ساعة في البلد الجديد، وكان دأبنا كلما خرجنا من الفنادق التي ننزل بها أن نأخذ من مكتب الفندق خارطة البلد، وموقع الفندق في الخارطة، واسم الفندق، واسم الشارع، ورقم الهاتف، وبذلك نضمن العودة ونأمن الضياع.

أمضينا ساعة من الزمن ثم رجعنا إلى الفندق، لنأخذ مكاننا في الغرفة وكانت أنيقة تطل على شارع المحطة، ومجهزة بتلفزيون عدا الراديو والهاتف وبحمام ساخن..

أبدلنا ألبستنا وصلينا الظهر والعصر جمعاً، وما أكثر ما كنا نجمع

الصلوات مع القصر طول رحلتنا هذه.

تجولنا مساء داخل المدينة المكتظة بالسواح في أشهر الصيف..

وسويسرة بلد الساعات المختلفة الكبيرة والصغيرة الرخيصة والغالية، فرأينا أنواعاً منها تبدأ من عشر فرنكات إلى أربعة آلاف فرنك. ولم نر فرقاً كبيراً في أسعارها وأسعار بلادنا. وبالسؤال علمنا أن السعر التجاري والإصدار غير سعر البيع في الأسواق.

ولما كلت منا الأقدام جلسنا في مقهى «كازينو» على ضفاف بحيرة جنيف.. وكانت المناظر هنا أبدع مما رأيناها في لوزان.

وفي صباح اليوم الثاني كانت لنا رحلة لأشهر معالم البلد مع طائفة من السواح فهناك النافورة التي يتدفق منها الماء على ارتفاع أربعمائة قدم، وقمة (مون بلان) الثلجية وكاتدرائية (سان بيتر) ودار الأوبرا، والسجن العمومي، وقال لنا الدليل: إنه خلو من أي سجين.. ومررنا على مبنى عصبة الأمم ومتحف القساوسة وشارع البنوك والقصور الفخمة المطلة على البحيرة والساعة المنسقة من الزهور الملونة ومحركها طبعاً خفي تحت الأزهار.

وفي المساء وددنا زيارة مكتب فرع الرابطة الإسلامية فلم نجد أحداً وكان علينا أن نسافر في صباح اليوم الثاني إلى روما فأمضينا سهرة في إحدى دور السينما، كان الفيلم بمثابة دعاية لليهود فأرونا كيف كان هتلر يقضي على الألوف المؤلفة بالحرق والتقتيل. وبهذه الدعاية اكتسب اليهود عطف مواطنيهم من الألمان خاصة وسائر المسيحيين. أما الدول الإسلامية وخاصة العربية منها، فلم نجد لها مكاتب دعاية أو إثبات لوجودها كأمة ذات تاريخ وحضارة، فضلاً عن إبراز اضطهاد اليهود

لمليون لاجىء فلسطيني منتشرين في أحضان الدول العربية المجاورة ينتظرون ساعة العودة والخلاص القريب.

إلى روما

رجعنا أدراجنا للفندق ونمنا نوماً هادئاً حتى الصباح. وبعد إفطار خفيف حزمنا حقائبنا ويممنا صوب المحطة التي كانت قريبة منا فقطعنا تذكرتين إلى روما. وفي المحطة التقينا بسائحين عراقيين: الأخوين: (مهدي وحمود) وكانت وجهتهما كوجهتنا روما، فأنسنا بهما وأنسا بنا، وكانت فرصة طيبة لتجاذب الأحاديث، وقضاء وقت طويل لا يقل عن ست عشرة ساعة في القطار والطريق كله مروج خضر، ومزارع يانعة وجنات أعناب ومياه جارية، إلى مسالك جبلية شاهقة، ومنحدرات ضيقة. والقوم يكدون ويعملون في حقولهم ومصانعهم ومراعيهم.. فمضى النهار وأرخى الليل سدوله فذهبنا في نوم متقطع طول الليل وطرفاً من النهار، وفي كل قطار يصحبه عربات مطعم يجد الإنسان حاجته من الطعام والشراب.

وصلت شلتنا إلى روما، فقد أصبحنا أربعة بعد أن كنا اثنين وما أحلى الرفقاء في الأسفار إذا كانوا متجانسين، والمثل يقول: (الرفيق قبل الطريق).

نزلنا في محطة روما فراعنا ما رأينا من فخامتها وبهائها وبنائها الحديث المنسق على أحدث فنون الهندسة فأعجب بها الابن محمد بصفته (طالب هندسة). وبجانب المحطة جميع مكاتب السياحة والطيران.. ولأول مرة رأينا في المحطة مندوبي الفنادق يعرضون علينا النزول بأجور معقولة، فاصطحبنا واحداً منهم إلى «بانسيون» أشبه بفندق

تديره امرأة إيطالية تقوم بإطعام النزلاء وخدمتهم، استأجرنا غرفتين متجاورتين ثم خرج أربعتنا نطوف داخل البلد الكبير، ويوجد في روما كثير من المطاعم أشبه بالشرقية لوجود أصناف منها كالمحشي والأرز والمسقع والخضر أما الدجاج المشوي فعام في جميع البلدان.

قررنا الإقامة ثلاثة أيام فرتبنا رحلتنا بالتفاهم مع صاحبة الفندق. وأول ما بدأنا به بزيارة مدينة «الفاتيكان» وفي اليوم الثاني كنا مع جماعة السواح في حافلة (أتوبيس) ومعنا المرشد الخاص فمر بنا على ميدان الجمهورية ومباني الحكومة ونافورة الشياطين الأربعة والأستاد الأولمبي وكنيسة سانت سوزانا، حتى وصلنا «الفاتيكان».

في مدينة الفاتيكان

ومدينة الفاتيكان أنشئت عام ١١١١ ألف ومائة وأحد عشر ميلادي وسكانها أكثر من مائة ألف نسمة، وتحكم بوساطة البابا. وهي مقر البابوات الكاثوليك، وتشمل كنيستها الكبيرة بناءات ضخمة وأبراجاً عالية وأبهاء عديدة ومتاحف ثمينة ومكتبات أثرية. وكان اليوم مصادفة يوم أحد، فشاهدنا موكب القداس الأعظم، وكان الموكب يتألف من ثلاثة قساوسة يسيرون في الطليعة حاملي الصليب والشموع يتلوهم ثلاثة رهابنة في كامل ألبستهم، ثم قسيس كبير عليه روب أحمر بذيل طويل ممسك به الاتباع، فيعلو الموكب منصة الوقوف والتلاوة على نغمات الأرغن والحاضرون للصلاة شبه ركع على كراسيهم؛ وكان الزوار والسواح يتجاوزون الألوف المؤلفة وفي أبهاء الكنيسة رسوم مختلفة للعذراء والمسيح لمشاهير الرسامين الأقدمين منهم والمتأخرين. ولم نر زحاماً شديداً مثل ما رأينا في هذه الكنيسة العظيمة. كل هذا والدليل لا

يفتأ كآلة أوتوماتيكية يشرح لنا ما حفظه عن تلك الآثار برطانته التي لا يفهمها إلا من أوتي حظاً من اللغة الدارجة فكان موقفنا كالأطرش في الزفة.. لا نعي ما يقول وكل منا حريص أن لا يفلت من صاحبه وإذا انفلت الإنسان من رفقائه صعب الحصول عليه. وما أشبه هذا المنظر بمنظر الحجاج في منى وعرفات.

وكان معنا أحد اللبنانيين فقال لنا: إن هذه الزيارة على الهامش وسيأتي بعدها بمفرده ثلاثة أيام ليكتب في مذكراته أشياء وأشياء كثيرة هو في حاجة إليها ليدونها في مؤلف له.. وهكذا رأينا شأن كثير من السائحين..

انتهت رحلتنا بعد الظهر فرجعنا إلى غرفنا في الفندق بعد أن تناولنا غداءنا في أحد المطاعم الشرقية.. وبعد استراحة قصيرة خرجنا ثانياً نتجول، وما أكثر ما شاهدنا من التماثيل والنافورات في أكثر الميادين والحدائق العامة وكثرة الكنائس في كل صوب ومحلة. وقضينا يومنا ما بين حدائق الحيوان والسفارة السعودية واجتمعنا بإخوان لنا هناك واستنشقنا أخبار الوطن فهاجت بنا الذكرى، وسمرنا تلك الليلة مع زميلينا العراقيين في الحديقة التي بها تماثيل الفنانين.. وشاهدنا تمثال أحمد شوقي الذي كرمه الإيطاليون كشاعر عربي...

إلى نابولي وكابري

ومن روما قصدنا (نابولي) ومكثنا بها يومين وذهبنا في رحلتين: رحلة إلى (بومبي) البلدة التي دمرها بركان «فيزوف» فيما غبر من القرون حتى اكتشفت عام ١٧٤٨م وتم اكتشاف نصف المدينة وقد أقيم بجانبها متحف يضم ما تحصل عليه القوم من التحف والآثار.. ولقد شاهدنا

عشرات البيوت المكتشفة مع ما فيها من بعض الأثاث والأدوات، كما كانت قبل التدمير.. والرحلة الثانية كانت إلى جزيرة (كابري) الجزيرة الحالمة كما يلقبونها، فمضى أربعتنا بوساطة باخرة تشق طريقها في مياه خليج نابولي الزرقاء، ميممة تلك الجزيرة التي جذبت ألوف السواح، وتغني بها الشعراء. وكان معنا ما يقرب من مائتي سائح من رجال ونساء يلهون ويمرحون بأغانٍ وأهازيج قد لا يطرب بعضها مثلنا. وبعد نصف ساعة كنا على شاطىء الجزيرة، وهناك طريقان للصعود إليها حيث إنها غير منبسطة بل هي عبارة عن كتلة من جبل تتدرج مبانيه وحدائقه من شاطئه إلى أعلاه بطريق مسفلت أو بالترام الصاعد بالكهرباء بسلاسل على قضبان خاصة.. وقد اخترنا في صعودنا إليها طريق السيارات وفي الهبوط (الترام الهابط). ويصح أن نسمي ما على هذه الجزيرة بالقصور (والحدائق المعلقة)..

جلسنا في الكازينو المطل على البحر والبلاج، نتملى منظره الساحر، ثم اتفقنا على أن نبتاع طعاماً جاهزاً نمضي به في إحدى حرجات الجزيرة على القمة هناك.. وبعد تناول الغداء تجولنا في الأسواق المعدة لبيع الخردوات وبعض التحف وكانت أسعارها مرتفعة بالنسبة للبلد، غير أنه لا بد للزائر من أن يبتاع شيئاً على سبيل التذكار.

وبعد العصر انتهت ساعات الرحلة، وكان علينا أن نهبط لنأخذ أماكننا في الباخرة الصغيرة البيضاء.

ثم إلى أثينا فالقاهرة

وبعد قضاء يومين في نابولي قصدنا ميناء «برندز» وكان لزاماً علينا أن نرجع إلى (أثينة) حيث كانت تذاكرنا سياحية فاخترنا ركوب البحر من

«برندز» إلى (بيريه) مرفأ أثينة فأمضينا ليلتين في البحر الأبيض على ظهر باخرة يونانية.. مررنا على كثير من القرى اليونانية وأنزلت الباخرة ركاباً في بعض الجزر كجزيرة «كورفو» وبلدة (بتراس) وقطعنا في سيرنا (مضيق كورنت) الذي اقتطعه اليونان وسط الجبل الشاهق ويزيد عرض المضيق في بعض الأماكن بضعة أمتار، ومن فوق المضيق على الجبل جسر مقام لسير القطار والسيارات.

وصلنا بعد يومين تقريباً إلى «بيريه» وحجزنا أماكننا في طائرات الشرق الأوسط، وبعد خمسين يوماً من هذه الرحلة الممتعة والمتعبة وصلنا القاهرة بسلام.

ملاحظات على هامش الرحلة

١ ـ لقد كانت هذه الرحلة بمثابة (فلم) حين شاهدنا على مختلف شاشات بلدان الدول العشر عدة شعوب في مختلف معايشهم وأعمالهم وعاداتهم وأخلاقهم وأذواقهم ودياناتهم ولهوهم.

٢ ـ الأثر الأليم بضعف حالة مسلمي يوغسلافيا بعد أن حكمت الدولة العثمانية جميع بلاد البلقان ثلاثة قرون ثم انسلخت عنها دولة فدولة وأصبح المسلمون هناك (كالأيتام في مأدبة اللئام).

٣ ـ لم نر على بعد ألوف الأميال التي قطعناها بالقطار والسيارات إلا حركة دائبة في المعامل والمصانع وعملاً منتجاً في الحرث والزراعة والبناء والعمران ما أدى إلى التوسع في اقتصاد كل دولة من هذه الدول.

٤ ـ النظام الشامل والاستقرار المنشود والأمن المستتب في جميع الأرجاء وتسهيل أمور المسافرين.

٥ ــ غلاء أكثر المواد الغذائية بالنسبة للشرق الأوسط ورخص جميع الخردوات والآلات والسيارات.

٦ ــ استهلاك قدر كبير من ثروات أغنيائنا العرب في سبيل اللهو والملذات.

٧ ــ الدعاية الواسعة لإسرائيل في دول أوروبة بالنشرات والإعلانات ودور السينما والجوالة اليهود بدون مقاومة أو مدافعة من جانب الدول العربية حتى اكتسبوا عطف جميع الشعوب والدول.

٨ ــ وأخيراً على قدر ما شاهدنا من المعارض والمتاحف ودور الآثار نأمل من وزارة الحج والأوقاف والرابطة الإسلامية زيادة العناية بموسم الحج وترتيب أماكن الحجاج في منى وعرفات وتهيئة وسائل الراحة وتنظيم طرق المواصلات وتنظيم أداء المناسك والعناية بالآثار وإقامة بناء ضخم للرابطة الإسلامية ليكون بمثابة المقر الدائم أيام الحج لتعارف زعماء المسلمين وتبادل آرائهم واتخاذ القرارات الفعالة في كل ما يعود على المسلمين في جميع أنحاء العالم بالخير العام والتمسك بدينهم الحنيف.

جولة في شمال إفريقية

(١)

مقدمة:

بعد اصطيافنا بسورية ولبنان كنت متفقاً مع صديقي الشريف زيد بن شحاد[١] أن نسافر لإيران ولما جاءت الأخبار بحدوث الكوليرا هناك عدلنا عن فكرة السفر إليها وقررنا أن تسافر لشمال افريقية ومنها إلى الأندلس (الخلد المفقود) حيث كنا في شوق لنراها. وسبقني الشريف إلى القاهرة ولحقته بدوري ومكثنا بها ما يقرب من شهر جددنا عهود الإنس بأمسيات لياليها الجميلة وأخذت أحسن لصديقي السفر براً إلى ليبيا ومنها إلى تونس فالجزائر فالمغرب ومنها نقفز إلى الأندلس عن مضيق جبل طارق.. تجهم رفيقي من طول هذه الرحلة التي يبلغ طولها ما ينوف عن خمسة آلاف كيلومتر فهونت عليه الأمر بتجزئة السفرة إلى مراحل حيث نقيم في كل دولة من هذه الدول الأربع أسبوعاً أسبوعاً. والسفر بالطائرة وإن كان أسرع وأيسر، غير أن السفر براً أروع وأمتع،

---

(١) الشريف زيد من أعيان أشراف بني حسين بالمدينة وأحد الخبراء الزراعيين كان والده الشريف حسين شحاد قائمقام إمارة المدينة في العهد الهاشمي.

للاطلاع على كل شبر من الأرض وما يحويه الطريق من قرى ودساكر ومزارع وفلوات وجبال وآثار وأنهار ومدن وبساتين.

بدء الرحلة:

وفي منتصف جمادي الثانية استأجرنا سيارة أجرة إلى بنغازي بخمسة جنيهات لكل واحد منا وكانت السيارة من نوع (أنيسة) ماركة (تاونس) وتحمل ثمانية ركاب أخص منهم بالذكر (سي البشير) وخادمته مبروكة ووليده (آلة عود) ولهذا العود قصة مثيرة للإعجاب فإن (سي البشير) ظل معانقاً لعوده طوال الطريق إلى درنة، ولما خلا مقعد أحد الركاب استأجر مكانه لعوده هذا حتى طرابلس الغرب بخمس جنيهات.

تحركنا من القاهرة نؤم الإسكندرية في الساعة التاسعة صباحاً فوصلنا الإسكندرية بعد ساعتين وجلسنا فيها لبعض العصر واستأنفنا السير منها إلى العلمين ميدان المعارك الدامية في الحرب العالمية الثانية، ما بين المحور ودول الحلفاء الأربع وكاد (روميل) قائد قواد المحور أن يستولي على الإسكندرية لولا أساطيل الحلفاء وطائراتهم. رأينا في طريق العلمين الأنصاب التذكارية التي أقامها كلا الطرفين ووجدنا بعض السياح يتجولون هناك.. وبعد الغروب وصلنا (مرسى مطروح) فتعشينا فيها ثم واصلنا السير إلى السلوم وجلسنا بها وهي بلدة على شاطىء البحر، فندق متواضع ودائرة الجمرك والشرطة وبعض المنازل، وفي الصباح جرت معاملة الجمرك وتسجيل النقود والسمة بالخروج من إقليم مصر.

في ليبيا

وبعد أن قطعنا المنطقة الحرام وصلنا (أم ساعد) أول مركز لمملكة ليبيا، وبعد التفتيش المتبع ووضع السمات على الجوازات استأنفنا السير

إلى (طبرق) والطريق صحراوي. وقرب طبرق رأينا بعض الأشجار والأبنية وأنابيب الماء الآتية من (درنة) وعلى مقربة من طبرق رأينا (قصر السلام) الذي يقيم فيه الملك إدريس السنوسي وأنابيب الماء تمتد من درنة حتى أكثر من مائتي كيلومتر؛ وفي طبرق توجد آبار البترول ووجدنا بعض الجنود في سيارات عسكرية في طريقنا وقرأنا في الصحف أن ميناءها سيوسع لترسو عليه ثلاث ناقلات بترول، وكنا نود البقاء في طبرق بعض الساعات لكن سائقنا (حسين) واصل السير منها إلى بلدة (درنة) فوصلناها بعد الغروب.

بلدة درنة:

وبلدة درنة حديثة المباني متسعة الشوارع زاخرة بأنواع البضائع وبها عدد من الفنادق والمطاعم ودور السينما ومدارس متعددة وبمقربة منها يقع شلال أبي منصور الخلاب وماؤه عذب وسلسال وتطل عليها من الشرق (عقبة الفتائح) التي تصعد إلى الجبل فتبدو البلدة للناظر كأنها غادة تعانق البحر في شوق ويزداد منظرها بهاء في الليل.

تعشينا بأحد مطاعمها. وكانت أول أكلة (مفلفلة) لم يستسغها رفيقي العزيز.

وبلدة درنة ما أشبهها بمدن سورية ببساتينها ومياهها وأزهارها الخلابة.

وبعد العشاء تحركت سيارتنا قاصدة بنا (بن غازي) فمررنا بالجبل الأخضر وبعض القرى والمزارع وأخذنا النعاس لطول الطريق.

في بنغازي

وبعد نصف الليل وصلنا بنغازي عاصمة برقة بسلام فنزلنا في فندق متواضع ونمنا حتى الصباح، وبعد إفطار خفيف تجولنا في البلدة وهي مدينة حديثة يبلغ عدد سكانها مائة ألف وقد دمرت الغارات الجوية أفخر عمارات المدينة القديمة أثناء الحرب العالمية الثانية ولا تزال بعض أسوارها القديمة باقية؛ وشوارع المدينة فسيحة تتخللها الميادين والحدائق وبها فنادق ومطاعم وملاهٍ وملاعب ومدارس وجامعة علمية وحديقة حيوانات.

وفي تجوالنا مررنا على ضريح المجاهد العظيم عمر المختار الذي أعدم شنقاً سنة ١٩٣١ من قبل الجنرال (غراسياني) قائد قوة إيطاليا في ليبيا يومئذ، وكان لإعدامه رنة حزن وأسى عميقة في قلوب العرب والمسلمين أجمعين.. أذكر أبياتاً لأحمد شوقي في رثائه:

ركزوا رفاتك في الرمال لواءً ... يستصرخ الوادي صباح مساءَ
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم ... يوحي إلى جيل الغد البغضاء
في ذمة الله الكريم وبره ... جسد ببرقة وسد الصحراء
جرح يصيح على المدى وضحية ... تتلمس الحرية الحمراء
لم تُبق منه رحى الوقائع أعظما ... تبلى ولم تُبق الرماح دماء
كرفات نسر، أو بقية ضيغم ... باتا وراء الساقيات هباء

وهكذا دار الزمن دورته فطاح موسوليني وغراسياني وانتصر الليبيون وفازوا بالاستقلال.

صلينا بجامع بنغازي الكبير صلاة الظهر واستأجرنا مقعدين في

(البولمان)[1] إلى طرابلس وتحركنا في الساعة الثالثة بعد الظهر، وكنا ما يقرب من سبعين شخصاً ما بين رجل وامرأة. وكان مرورنا على قرى ودساكر وكان السائق يقف كل ساعتين تقريباً على مقهى. وبعد مسيرنا مائتي كيلومتر حصل خلل في محرك السيارة ولم يهتد السائق لعلتها فطلب فرع الشركة سيارة أخرى من اجدابية وكانت على بعد ثمانين كيلومتراً منا، فجاءنا (بولمان) آخر ركبنا فيه جميعاً، وكنا نظن السفر فيه أكثر راحة من السيارة (البوكس) فكان أتعب منه.

في اجدابية:

وصلنا (اجدابية) بعد ساعتين فنزلنا في مطعم وتناولنا عشاءً خفيفاً وكان صاحب المطعم قد حج في العام المنصرم فأبى كرمه أن يأخذ منا قيمة ما أكلناه فشكرناه.

في طرابلس الغرب

ووالينا مسيرنا طول الليل فوصلنا صباحاً إلى طرابلس الغرب عاصمة ليبيا: ونزلنا في أحد فنادقها الكبيرة ونمنا بعد الظهر بعد أن تغدينا في مطعم الفندق. وفي تجوالنا بالبلد رأينا سائق سيارتنا من القاهرة (حسين المخزومي) فدعانا للغداء في اليوم الثاني فاعتذرنا له فأقسم بالله أن نلبي دعوته فقبلناها وتوالت الدعوات طيلة إقامتنا بطرابلس.

وهنا يجدر بنا أن نذكر لمحة من تاريخ ليبيا السياسي:

كانت ليبيا حتى عام ١٩١١ ولاية من ولايات السلطنة العثمانية وكانت إيطاليا تترقب استعمارها فشنت عليها الحرب واستولت على المدن

(١) أتوبيس كبير.

الساحلية (طرابلس ـ وبنغازي ودرنة) معتمدة على أسطولها الضخم، وبعد سنة تخاذلت تركيا أمامها بحكم بعدها وإنهماكها في حرب روسيا والثورات الداخلية، فتنازلت لها على شرط منحها الاستقلال الذاتي، فكان هذا الشرط حبراً على ورق بعد انسحاب الجيش التركي، ولكن الليبيين صمدوا في وجه العدو الغاصب وقاتلوا بضراوة وبسالة ولم يستطع المستعمر التوغل داخل البلاد وظل محاصراً في المدن الساحلية المذكورة إلى عام ١٩٢٢. ولما استولى موسوليني على مقاليد الحكم في إيطاليا بعث جيشاً جراراً بقيادة (الجنرال غراسياني) المشهور بقسوته لإبادة المناضلين من الليبيين وقادة المجاهدين فأحرق القرى التي يعتصم فيها المجاهدون وكون مجلساً عرفياً لمحاكمتهم صورياً والحكم عليهم بالإعدام ثم غدر بحكومة (برقة) التي يرأسها السيد إدريس السنوسي (ملك ليبيا اليوم) فلم يجد الأمير إدريس غير الالتجاء لأرض الكنانة ومنها واصل قيادة المجاهدين حتى سقوط البطل المجاهد المختار فتشتت رفاقه وتوقف القتال. وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية واندحار إيطاليا وبعد المعركة السياسية التي خاضها الليبيون الأحرار وفي مقدمتهم الأمير إدريس السنوسي قررت هيئة الأمم المتحدة سنة ١٩٤٩ اعتبار ليبيا دولة مستقلة، وفي سنة ١٩٥٢ قررت الجمعية لوطنية الليبية مبايعة الأمير إدريس ملكاً دستورياً على ليبيا بمقاطعاتها الثلاث (طرابلس وبرقة وفزان).

مشاهداتنا في طرابلس

بعد هذه الفذلكة التاريخية نعود لما رأيناه وشاهدناه في طرابلس. ففي اليوم الثاني قصدنا دار سفارتنا فيها فتشرفنا بزيارة سفيرنا الكريم:

سعادة الأستاذ (عبد المحسن الزيد) وموظفي السفارة وجلهم من المدينة في مقدمتهم الشريف غالب بن محسن الشدقمي والسيد فؤاد حافظ والسيد عبد العزيز أوليا فأقام لنا السفير حفلة عشاء فاخرة كما أقام لنا مثلها الشريف غالب والسيد فؤاد حافظ وأقام لنا السيد عبد المنعم الإدريسي حفلة غداء فاخرة في أحد بساتين ليبيا الشهيرة وأقام لنا الحاج عبد الله الطرابلسي حفلة عشاء وفي كل هذه المآدب يتجلى الكرم العربي والصداقة الأخوية التي تربطنا بإخواننا السعوديين والليبيين من وراء البحار؛ وفي الوقت نفسه طاف بنا الشريف غالب في داخل البلد فأطلعنا على شوارعها ومبانيها وبساتينها وأنديتها وفنادقها.

* * *

وطرابلس بلد جميل على ساحل البحر الأبيض المتوسط، سكانه يربون على مائتي ألف وشوارعها تصف بها الأشجار من كل جانب وتطل على الخليج الساحلي المباني الحكومية والفنادق الكبيرة والمقاهي النظيفة. رأينا (قصر الخلد) والقصر الملكي.

جولة في شمال إفريقية

(٢)

اخترنا كما قدمنا ركوب القطار السريع لأنه مريح ويمر على مزارع وجنائن ومدن وقرى وأناس راكبين وآخرين نازلين على اختلاف أزيائهم ومشاربهم ولتتاح لنا الفرصة للتكلم معهم ومناقشتهم.

وفي صباح يوم الأحد الموافق ٢٩ ـ ٦ ـ ٨٥ هـ كنا بمحطة الجزائر نقطع تذكرتين في الدرجة الثانية إلى عنابة البلد الأولى في الجزائر، وكانت عربة القطار نظيفة ومريحة لا تقل فخامة عن قطار باريس وكنا نمر على فجاج ووهاد وأراض خضراء حافلة بأشجار الزيتون وشجر البرتقال واليوسفي وألوف الفدادين من كروم العنب ونرى أنابيب الماء تمتد ذات اليمين وذات الشمال. وكان الجو غائماً وقطرات المطر تتساقط على زجاج نوافذ القطار كاللؤلؤ المنثور ولم يكن هناك رعد أو برق[1].

وكان هنا في عربة القطار امرأة نصف متعلمة، مهذبة ذاهبة للجزائر

(١) كان كاتب المقال قد قام بجولة في دول غرب أوروبا قبيل سنتين وكان رفيقي في الرحلة ابني الأوسط المهندس محمد النقشبندي.

فتجاذبنا معها أطراف الحديث ولم تكن فيما ظننا مسلمة ولعلها كانت يهودية، بيد أننا لم نرد إزعاجها والذي دلنا على ذلك عدم ذكر اسمها وبخلها من زادها.

ففي الوقت الذي كنا نقدم لها الفاكهة كانت لا تقدم لرفيقي مما تتفكه به ساعة بعد ساعة مما معها.

في عنابة

وصلنا عنابة ليلاً ونزلنا في أحد الفنادق المتوسطة القريبة من المحطة بعد أن وضعنا حقائبنا في مستودع الأمانات، وفي الصباح خرجنا نتجول في المدينة وإذا هي بلدة جميلة بمبانيها وشوارعها وشاطئها فركبنا عربة (حنطور) وتجولنا من الصباح حتى الظهر وتغدينا في أحد مطاعمها ورجعنا للفندق واسترحنا ساعة قمنا بعدها نؤم المحطة لنلحق بالقطار الذاهب للجزائر.. وبعد نصف ساعة من انتظارنا كنا داخل القطار على المقعدين المطلين على النافذة لنستمتع بمناظر تلك البلاد الكبيرة.

قال لي رفيقي مبهوراً مما نرى من المشاهد الخلابة: ما هذا يا أستاذ؟ هل نحن في جنة الآخرة أم في جنة الدنيا؟

فأجبته: اللهم عمر بلادنا...

قطعنا ما يقرب من مائة كيلو متر في أراض فيحاء وتجلت لنا سلسلة جبال «أوراس» ذات التاريخ المجيد والذكرى الخالدة، وكان معنا نفر من الجزائريين نجاذبهم أطراف الحديث حتى إذا جن الليل أخذنا النعاس وأخذ رأس كل منا يميل ذات اليمين وذات الشمال وعند الصباح يحمد القوم السرى.

في مدينة الجزائر

وصلنا الجزائر وركبنا سيارة أجرة ننشد البحث عن فندق ملائم فلم نجد مكاناً بفنادق الدرجة الثانية. وأخيراً عثرنا على فندق بشارع ابن المهيدي فنزلنا به وبعد أن صلينا صلاة القضاء وأفطرنا إفطاراً خفيفاً بدلنا ثيابنا المتسخة وخرجنا إلى السوق نسأل عن عنوان الحاج أحمد طالبي وكان صديقنا بدمشق الحاج سامي آغا صناديقي زودنا بكتابين: أحدهما للحاج أحمد المذكور والثاني لابن أخيه بالدار البيضاء نور الدين، وبعد دقائق كنا أمام دكان الحاج أحمد.. وكان الرجل يعرفنا فأخذنا بالأحضان.. فسألناه كيف عرفنا؟ فقال: عرفتكم من زيكم إنكم غرباء وقد جاءني كتاب من السيد سامي يخبرني بقدومكم، مكثنا بدكان الحاج أحمد فطلب لنا الشاي (الشاهي) وبعد أن قلنا له: في فندق قريب. قال: ولم تأتوا إلى داركم؟ قلنا: لم يكن بالنية النزول عندكم وإنما لمعرفتكم، أقسم الرجل إلا أن نأتي بحقائبنا من الفندق لننزل في داره... فتخلصنا منه بكل شدة على أن نعود إليه غداً فقال: سنتغدى معاً، فأجبناه ومشينا نسأل عن مطعم مناسب، وكان قريباً من الفندق فتغدينا غداءً شهياً ورجعنا إلى الفندق فصلينا الظهر ونمنا لنعوض سهر القطار في الليلة الماضية، وبعد العصر خرجنا نتجول في البلد إلى المغرب ثم دخلنا داراً للسينما وكان الفيلم فرنسياً، والقصد أن نمضي السهرة كيفما كان.

وفي اليوم التالي كنا قصدنا دار السفارة السعودية بالجزائر وفيها من أصدقائنا السعودية بالجزائر وفيها من أصدقائنا عبد العزيز العقيل، ولكننا سمعنا بقدوم سعادة السيد عمر السقاف وكيل وزارة الخارجية الدائم،

للاشتراك في لجنة وزراء خارجية الدول العربية الذي سيعقد بالجزائر للتحضير لمؤتمر القمة الآسيوي الإفريقي، فعدلنا عن الزيارة نظراً لانشغال السفير وموظفي السفارة باستقبال سعادته ومرافقيه وذهبنا إلى صديقنا الحاج أحمد في دكانه قبيل الظهر فذهب بنا للجامع لصلاة الظهر فعلمنا أن المسجد المذكور كان جامعاً قبل الاحتلال الفرنسي وكان قد بناه الأتراك في القرن السابع عشر فاغتصبه المستعمر وجعله كاتدرائية لمدة قرن وثلث ثم عاد مسجداً بعد تغيير بسيط.

وبعد الصلاة ذهبنا لدار مضيفنا في سيارته التي يملكها: «رينو» بضاحية تبعد عشرة كيلومترات عن المسجد. والدار أشبه بدارة «فيلا» تحيطها جنينة صغيرة زاهرة بأنواع الورود والرياحيين ذات طريقين. الطابق الأول مجهز بالفراش والأثاث الدمشقي القديم ـ أي من الكنب المطعم بالصدف ـ وبالتحف الدمشقية، وغرفة أخرى مجهزة بالفراش العربي مراتب ووسائد وسجاد عربي، وهذه الطبقة خالية لنزول الضيوف، وفي الدور الثاني يسكن الحاج أحمد مع أهله، فأطعمنا طعاماً جزائرياً لذيذاً.

وبعد استراحة قليلة وأداء صلاة العصر ذهب بنا مضيفنا في سيارته يجوب بنا في داخل البلدة وضواحيها القريبة.

وصف مدينة الجزائر

والبلدة واقعة في إطار محفوف برواب مشجرة تتخللها عمارات عالية منتشرة في كل حارة ومحلة، وما أشبهها بمدرج ملعب يمتد من الشمال إلى الجنوب كأنها القصور المعلقة ونخص بالذكر القصبة البيضاء المدينة القديمة موطن بطولات رجال الثورة، وأينما ذهبنا نجد منظراً خلابا

للعاصمة ذات الخليج البديع والشاطىء الجميل.

ومر بنا الحاج أحمد على بناء المجلس التأسيسي وقصر رئيس الجمهورية وبناء البلدية والبرق والبريد والفنادق الممتازة والمبنى الفخم الذي صمم بناؤه لاجتماع المؤتمرات الدولية وفي مقدمتها مؤتمر القمة الآسيوي الإفريقي.

وبعد هذه الجولة الطويلة الممتعة رجعنا لقواعدنا بالفندق وتناولنا عشاءً خفيفاً بالإضافة إلى الشاي الحجازي، وأدينا صلاة العشاء ونمنا للصباح وكان الحاج أحمد قد ألح علينا بالغداء في اليوم التالي وكان يوم الجمعة، فذهبنا إلى دكانه في الضحى، ومكثنا مليا عنده ودكانه مخصصة لبيع التحف الدمشقية وكلما ذهبنا وجلسنا لم نر أحداً من السياح.

سألنا الحاج أحمد عن أسباب ذلك فأجاب قائلاً: إن الجزائر كان يأتيها كل عام مئات الألوف من سياح أوروبا وأمريكا وأكثرهم من فرنسا وهم الذين كانوا يبتاعون هذه التحف وغيرها من مصنوعات الجزائر؛ وفي سنة الثورة بدأ يخف مجيء السياح كما أن ما يقرب من نصف مليون أجنبي وجلهم من الفرنسيين غادروا الجزائر بعد الاستقلال ولم يرجع إلا بعضهم بسبب أملاكهم ومزارعهم ومثل هذا الشارع واسمه الآن «شارع أبو زرينة» كان يزدحم بالشارين في ما مضى من الزمان، وها أنتم ترون أن الجزائريين لم يضحوا بأرواحهم وأموالهم وتجارتهم إلا من أجل الاستقلال.

ولكن الله سيعوض الجزائر بما فتح عليها من كنوز الذهب الأسود في صحاريها الجرداء.

ولقرب أداء صلاة الجمعة ذهب بنا إلى الجامع الكبير وكان المقرىء يتلو سورة «الكهف» ولم نسمع أذان الجمعة.

وبعد نصف ساعة سمعنا الأذان وكان الجامع مكتظاً بالمصلين وصعد الخطيب إلى المنبر وكان خطيباً بارعاً مؤثراً في كلامه... فقيل لنا إنه الحاج أحمد سحنون أكبر الخطباء والعلماء بالجزائر.

خرجنا من الصلاة إلى دار الحاج أحمد المذكور وكان قد دعا معنا الحاج مصطفى الزموشي المستشار القانوني وهو رجل ضليع في الحقوق وذو أخلاق كريمة فتناولنا طعاماً شهياً وفاكهة لذيذة وامتزجنا في الحديث مع المستشار الوقور وأخذ يحدثنا بما لاقاه الجزائريون من العنت والجور أيام الاستعمار وكيف كانت خيرات الجزائر كلها مغنماً للمستعمر، ثم كيف كافح الأحرار والمجاهدون طيلة ثمان سنوات حتى نالوا الاستقلال ولم يكن هذا الاستقلال متوقعاً لولا لطف الله وكرمه وأن المليون من الشهداء، كانوا ثمناً للحرية والاستقلال.

آمنا بقوله واستشهدنا له بقول المرحوم أحمد شوقي:

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

أخبرنا حضرة المستشار بأشياء وأشياء وكان آخر كلامه أن هذا الاستقلال الذي نلناه إنما هو نعمة ومكرمة من الباري جل وعلا فنسأل الله أن يوفقنا دائماً إلى سواء السبيل.

إلمامة عن تاريخ الجزائر

وهنا لا بد من إلمامة بسيطة من تاريخ الجزائر المناضلة: فقد حكمها الأتراك العثمانيون عام ١٥١٥ ثم استقل عنها ولاتها المعروفون

بالدايات[١] واحتلتها فرنسا سنة ١٨٣٠ وتخلت عنها سنة ١٩٦٢ بعد أن شنت عليها حرباً شعواء أو حرب الإبادة مدة ثماني سنوات، وأخيراً وبعدما فقدت الجزائر من أبنائها أكثر من مليون شهيد وألحق بها الخسائر الكبيرة من الجيش الفرنسي نالت الاستقلال هذا بعدما أعلن ديغول سنة ١٩٦٠ أن الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا وإن الثوار حفنة صغيرة من المتمردين ـ ولكن أولئك الثوار الأحرار أقضوا مضاجع ساسة الفرنسيين واخلوا خزينة دولتها بما أنفقوا على كبح جماح الثوار حتى اضطر ديغول إلى الإنسحاب من الجزائر وتركها لأهلها فنفدوا بجلدهم واوقعوا الخراب في المصانع وأحرقوا مخازن الذخيرة، هذا عدا ما قامت به الجمعية الإرهابية من اغتيال الجزائريين وإحراق الحارات، وإحراق الجامعة ومكتبتها التي كانت تحوي (٦٠٠) ألف كتاب وما قيمته أربعة عشر مليون دولار كما قيل وجددوا بذلك مأساة ما أحرقه الإسبان في الأندلس من المكتبات العربية في قرطبة وغرناطة قبيل ستة قرون خلت. ولكننا لا ننسى ما تعرض له ديغول من التهديد بالقتل من جنرالات فرنسا الذين لم يوافقوا على الانسحاب من الجزائر ومنحها الاستقلال وكم مرة تعرض للاغتيال ولا أعلم هل يستحق رجل فرنسا شكر الجزائريين أم لا على أن التاريخ هو خير حاكم في الأمر وسيسجل له ما يستحقه من شر أو خير.

تعيش الجزائر من واردات العنب والبلح وأحسن التمر هو (دقلة نور) ويعلب أكثره ويصدر للخارج وما تتحصله من المساعدات والقروض، ولكن الأمل معقود على مورد آبار البترول من الصحراء. وأكثر سكان

---

(١) الدايات: جمع داي كان يلقب به ولاة الجزائر.

الجزائر يتكلمون العربية وكثير منهم لا يحسن القراءة والكتابة بالعربية ويتكلمون الفرنسية والإسبانية بطلاقة حتى النساء وما زال النساء محتشمات؛ والمعيشة أغلى منها في تونس ومن أعجب ما شاهدنا نظافة المقاهي والكازينوهات ووجود الأواني الكهربية للشاي والقهوة وأرخصها يكلف ألفي ريال إلى عشرة آلاف ريال ولا يوجد مثلها لدينا بالمملكة ولا حتى بالقاهرة.

إلى المغرب

مكثنا بالجزائر خمسة أيام وفي اليوم الخامس قصدنا السفر إلى المغرب وكان لا بد لنا أن ننزل في وهران البلد الثاني في الجزائر من حيث الفخامة والجمال، وكانت فرصة طيبة لأن نرى ثالث بلد في الجزائر لأنه لم يكن لدينا الوقت للسفر إلى مدائن الواحات كبسكرة وبوسعادة كما فاتنا أن نذهب إلى قسطنطينية بعد بلدة عنابة.

وفي صبيحة يوم الأحد جاءنا الحاج أحمد بسيارته للفندق وحملنا أمتعتنا وقد أبى كرمه إلا أن يزودنا بكيس مليء من الطعام والفاكهة فقصدنا المحطة وهي كبيرة وما أشبهها بمحطة باريس وكان في انتظارنا فيها سيادة المستشار ونفر من الجزائريين الذين تعرفنا بهم بوساطة الحاج أحمد، وبعد نصف ساعة تحرك القطار يتهادى في سيره بين العمارات الشاهقة حتى خرجنا من أرباض البلدة وتعرفنا بالركاب الذين كانوا في الديوان في الوقت الذي كان القطار يمر بنا على أراض خضراء وسباسب فيحاء وأشجار الزيتون واللوز والبرتقال ومساحات كبيرة للكروم.

في وهران

وبعد العصر وصلنا «وهران» واخترنا أحد الفنادق القريبة بعد أن وضعنا حقائبنا في غرفة الأمانات، وتعشينا عشاء خفيفاً في الفندق وكنا تعبين فنمنا وفي الصباح خرجنا نتجول في البلد وإذا وهران بلد كبير وهي العاصمة الثانية في الجزائر على ما أظن.

استأجرنا عربة حنطور وجبنا البلدة ووقفنا على عمارتها وشوارعها المنظمة وثنينا إلى قطع شاطئها الممتد طويلاً ورجعنا إلى الفندق بعد أن تغدينا في أحد المطاعم، وتوجهنا نحو المحطة لنأخذ القطار الذاهب إلى «وجدة» أول بلد في المغرب.

قصة حزام النقود

وانتظرنا في المحطة نصف ساعة حتى جاء القطار فركبنا بالدرجة الثانية وركب معنا بعض المغاربة وأخذنا نتجاذب طرف الحديث ولم نسر مائة كيلومتر تقريباً حتى أخذت أتحسس الحزام في وسطى الذي به أكثر نفقتنا من الدولارات وهو ثمانمائة دولار لم أجد الحزام فتذكرت أني نسيته تحت الوسادة بالفندق حيث كنت معتاداً أن أضعه كل ليلة تحت الوسادة وفي الصباح أتحزم به فأنسانيه يومئذ الشيطان ولم يكن معنا غيرها غير بضع مئات من الشيكات. ذهبت السكرة وجاءت الفكرة فهمست لرفيقي بواقع الحال ولقد رأيته وقد امتقع لونه قائلاً: وكيف يا أستاذ؟ وقلت إني أضع الحزام كل ليلة تحت الوسادة واحتزمه في الصباح واليوم أنسانيه الشيطان سمع الرفاق بما نهمس به فقالوا ما بكم؟ فأخبرناهم الخبر فقالوا عليكم أن تنزلوا في بلدة «أبي العباس» وتأخذوا سيارة أجرة وتتفقدوا أمانتكم في الفندق وكانت المحطة القادمة هي بلدة «بلعباس».

نزلت ورفيقي وهو لا يكاد يؤمل أن نتحصل على الحزام ولو كان المبلغ شيكات لهان الحال ولكنها أوراق نقد ليس لها غريم فقلت له: لا تحزن سنرجع من الجزائر بما بقي معنا من الشيكات استأجرنا سيارة صغيرة إلى عنابة فكنا فيها بعد ساعة وقابلنا رب الفندق فضحك منا قائلاً: اطمئنوا ودخل بنا إلى حجرة وارانا الحزام بما فيه من النقود وتنفست ورفيقي الصعداء فقلت له: لقد تدركنا الله بلطفه والشكر لله، وقال لنا الرجل: عدوا نقودكم فعددناها فإذا بها كما وضعتها بالتمام ثم عقَّب قائلاً: أن الفضل يعود لهذه الخادمة التي دخلت بعدكم لتنظف الغرفة فوجدت الحزام فجاءتني به وهي تستحق الإكرام. ولقد نفحنا الخادمة بما كان معنا من الفرنكات ولكن كان صاحب الفندق آمن منها فقد كان في إمكانه إخفاء النقود وأجابته بعدم علمه بالحزام وأظن أن الأمناء في مثل هذه الحوادث قليل في هذا الزمان.

في مدينة بلعباس

رجعنا في السيارة التي جئنا فيها واضطررنا للإقامة أربعاً وعشرين ساعة في بلدة (بلعباس)، وقد نزلنا في فندق أنيق كان صاحبه يرغب في أن يحج في هذا العام فدعانا إلى العشاء في مطعم الفندق على حسابه ثم تجولنا في البلد وكان يوم عطلة بعيد الثورة أو الاستقلال وفي اليوم الثاني كنا بالمحطة نرقب القطار الذي جئنا به في اليوم السابق وكنا أسرع الناس وأشوقهم إلى ركوبه وبعد هنيهة صفر مؤذنا بالتحرك إلى بلدة «وجدة» أول بلدان المغرب العربي وصادف أن ركب معنا يهوديان أحدهما حاخام والثاني من التجار. وسرعان ما تعرفت بهما فقال لي صاحبي الشريف: ما أسرعت في التطفل بمعرفة الناس

قلت له: إذا لم أكن كذلك فمن لي بتسقط الأخبار قال: صدقت فواجبك كصحفي أن تسائل من أحببت حتى من الجنس اللطيف قلت له سامحك الله يا شريف لقد صدق المثل «اللي بباله أم الخير تحلم به طول الليل» سألت التاجر اليهودي بلغنا أن قسماً كبيراً نزح من المغرب إلى إسرائيل؟ قال: صحيح إن مائتي ألف يهودي هاجروا بالفعل إلى إسرائيل وبقي ما يقرب من خمسين ألفاً، لم يرضوا بمغادرة وطنهم الأول لاسيما ونحن نتمتع كباقي الرعية من المسلمين، دردشنا معه في أشياء كثيرة لا محل لذكرها ثم ثنينا بمناقشة الحاخام قلت له: وكيف ترون حالتكم باعتباركم الرؤساء الروحيين لليهود: أجاب نحن نتمتع بحرية في كنيسنا وتطبيق شريعتنا الموسوية على أفراد اليهود الموجودين في بلدان المغرب وقد مضى ذلك الزمان الذي كان اليهودي منا مهاناً ذليلاً يمشي حافي القدمين ويرسل ذوابة من شعر رأسه ليعلم إنه يهودي وكان لا يركب الخيل إلا الحمار أو الأتان وإذا رأى في طريقه شريفاً أو ثَرِيًّا من المسلمين انحنى أمامه أو جلس على قارعة الطريق حتى يمر المسلم عنه بسلام وإذا لم يفعل يهان ويضرب ولا ناصر له ولا معين إننا لا نعلم ما كانت عليه حالة اليهود هم الذين هاجروا من المغرب إلى إسرائيل أما المتمولون منهم ومن بيدهم اقتصاديات البلاد فما زالوا مقيمين يمتصون خيرات البلاد.

في بلاد المغرب

وصلنا إلى آخر حدود الجزائر وهناك بعد التفتيش وملء الأوراق الجمركية بما معنا في الحقائب وتحرير سمة الخروج بدأنا ندخل بلاد المغرب الأقصى وهنا لا بد لنا أن نشير لما حدث لنا لدى دخول

الجزائر والخروج منها فأن الأوراق التي سمحت لنا في الدخول والخروج في الجمرك كان بها شقان بالعربي والإفرنسي ولما حررنا بالإفرنسية فقلنا نحن وأنتم عرب وما لنا والافرنسية ومحرر بالورقة شق بالعربية قال: لا يمكن! واضطررنا لنعطي من يكتب لنا ببضع فرنكات أليست هذه غريبة تحصل في جمارك الجزائر العربية بلغ الغضب منا فقلنا سنكتب عنه في الصحف إن شاء الله ولكنهم أخذوا بخاطرنا طالبين الصفح عن غلطتهم لأن المأمور المسؤول لا يعرف العربية، بلعنا غضبنا وفي الوقت نفسه أخرج العرب من عروبتهم حتى أصبحوا عنها غرباء وإننا نسجل هنا هذه الحادثة ليطلع عليها سفراء الجزائر في البلاد العربية لتلافي مثل هذه الهنات والهينات.

دخلنا تراب المغرب العربي ولم تكن مناظر أرضه أقل روعة من أرض جارتها الجزائر من حيث جودة الأرض وكثرة المزارع وأشجار الكروم والفاكهة والزيتون وفي المساء وصلنا أول بلدان المغرب وهي بلدة (وجدة) بسلام وإلى اللقاء.

المقالات

القلق داء... ودواء...

إن في الإنسان عدواً كامناً في نفسه يعكر عليه صفوه ويسلبه راحته ويقف حجر عثرة في سبيل هنائه وسعادته ألا وهو (القلق).

إن الإنسان الذي تمكن بعقله وذكائه من الوصول إلى كثير من أسرار الكون وسخر قواها في سبيل خدمته ورفاهيته، ما زال عاجزاً عن تفهم كنه هذا العقل والوقوف على بواطنه وأسراره. والعقل للإنسان كربان السفينة يديرها دائماً إلى بر السلامة والأمان، فلو غفل عنها لارتطمت السفينة على شعاب الصخور أو ذهبت بها الأعاصير والأنواء إلى الغرق والفناء؛ وكذلك العقل إذا غفل عن قيادة صاحبه لتأثر بالانفعالات النفسية التي قد تؤدي به إلى كثير من الأمراض، ومن أكبر تلك الانفعالات النفسية «القلق».

وينشأ القلق بسبب صدمة لموت حبيب أو وقوع كارثة أو مرض مخوف، أو إفلاس، هذا إذا أنزلت به مثل هذه النوائب بالفعل؛ وقد ينشأ القلق من توقع وقوع مصيبة لما تقع ويقدر وقوعها، وقد ينشأ القلق من التوافه التي ليس لها وزن بالمرة فإذا كان هناك عقل واع يتلقى الصدمات بالصبر والسلوان ويترك التفكير في ما يقدر وقوعه ويطرد الأوهام وصغائر الأمور وسلم أموره لله وحده ويعلم أنه مسير لا مخير،

فقد أمن لنفسه الصحة والعافية؛ أما إذا لم يردعه عقله وتمشى مع خياله وأوهامه، فإنه يفقد هناءه وسعادته وربما أدى به إلى أمراض خطيرة لا قبل له بتحملها والتخلص منها.

ويقرر أطباء علم النفس والأعصاب أن جميع الانفعالات النفسية لها أثر خطير على الصحة وتؤثر في الوظائف الفسيولوجية للجسم، وأنه يوجد في كل جسم ضعف في ناحية من نواحي تكوينه فتتأثر تلك الناحية قبل غيرها فيصاب الإنسان بالأرق أو فقدان الشهية أو قرحة بالمعدة أو التهاب الأثنا عشري أو السكر أو ضغط الدم وأخيراً قد يسلمه القلق والتفكير إلى الخبل والجنون. .

ولقائل أن يقول إن سبل المعيشة اليوم قد تعددت مسؤولياتها وكثرت تبعاتها وهي لا تعفي أي إنسان من المهم والقلق والخوف من المستقبل. . وهذا صحيح إلى حد ما، ولكن يلزم الإنسان أن يتغلب بعقله ويصد كل ما يخيفه ويقلقه وينغص عليه هناءه.

ويقول أطباء علم النفس والأعصاب:

إن التفكير المعقول يعالج بالأسباب والنتائج والتفكير اللامعقول يفضي إلى التوتر والانهيار، وعلى الإنسان أن يواجه أسوأ الفروض في محنته ويرضى مما ليس منه بد، فعليك والحالة هذه أن تسأل نفسك وهو أسوأ ما يمكن أن يحدث لك وهي نفسك لقبول أسوأ الاحتمالات، ثم اشرع في إنقاذ ما يمكن إنقاذه ثم لترض بالأمر الواقع رضاءً بالقضاء والقدر، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ. أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧).

يقول أفلاطون: إن أكثر أخطاء الأطباء أنهم يحاولون علاج الجسد دون العقل في حين أن العقل والجسد وجهان لشيء واحد فلا ينبغي أن يعالج أحد الوجهين دون الآخر فيلزمنا أن نثق بالله وحده ونتكل عليه في كل الأمور ونؤمن بقوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة: ٥١) ولننظر إلى الجانب البهيج من الحياة فنضحك لها ولنترك النظر إلى الجانب القاتم منها فنبكي وحدنا. يقول الفيلسوف الإغريقي هرقليط من قبل خمسة آلاف من السنين: (كل شيء يتغير إلا قانون التغير فإنك لا تهبط نهراً بعينه مرتين فالنهر يتغير كل ثانية وكذلك الرجل الذي يهبط، إلى الحياة فالحياة في تغير دائم والشيء الأكيد في هذه الحياة هو اللحظة التي نعيش فيها فلماذا نشوه جمال حياتنا بحمل هموم المستقبل الذي يخضع لقانون التغير).

وجاء القرآن الكريم فأجمل كل هذه القالة في جملتين فقط ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (الرحمن: ٢٩)..

يقول الأستاذ بودلي في كتابه (رياح الصحراء والرسول) ما خلاصته:

(إنه في عام ١٩٣٨ يمم شطر افريقيا الشمالية الغربية[١] حيث عاش مع الأعراب المسلمين في الصحراء وقضى سبعة أعوام بينهم أتقن خلالها لغة البلاد وارتدى زيهم وأكل طعامهم وعاش في الخيام وتعمق في دراسة الإسلام وألف كتاباً عن الرسول الأعظم ﷺ عنوانه (الرسول) وكانت تلك الأعوام أمتع الأعوام وأمتع سني حياته وأحفلها بالسلام والاطمئنان).

* * *

---

(١) غالباً هي موريتانيا أو بلاد شنقيط.

ومحل الشاهد قوله: (تعلمت من عرب الصحراء كيف أتغلب على القلق فهم (مسلمون) يؤمنون بالقضاء والقدر وهذا الإيمان ساعدهم على العيش في أمان واطمئنان إنهم يؤمنون بأن ما قدر يكون وأن الفرد لن يصيبه إلا ما كتب الله عليه) ويقول: إن الأعوام التي قضاها في جنة الله (الصحراء) أقنعته بأن الملتاثين والمرضى النفسيين والسكريين الذين تحفل بهم أوروبا وأمريكا إن هم إلا ضحايا المدنية التي تتخذ السرعة أساساً لها، ولقد دلت الاحصائيات في أمريكا أخيراً بأن ثُلث مليون أمريكي قتلوا في الحرب العالمية الثانية بينما قضى بداء القلب الذي نشأ من القلق مليون شخص، وهناك علاج وظيفي يقول به علماء النفس وهو أن ينهمك الإنسان في عمل ما فإذا لم يكن لديه عمل وظيفي فعليه الاشتغال بالألعاب الرياضية كالصيد أو الرسم أو التجذيف أو لعب الكرة، فإن انشغاله بالعمل لا يسمح له بالتفكير في قلقه وأحزانه. يقولون إن تشرشل سئل في إبان الحرب العالمية عندما كان يشتغل ثماني عشرة ساعة هل هو قلق من جراء المسؤوليات الضخمة الملقاة على عاتقه؟ فأجاب: (إني مشغول جداً إلى حد أنه ليس لدي، الوقت الكافي للقلق). ويقول برناردشو الكاتب والفيلسوف الإنكليزي: إن الإحساس بالتعاسة هو أن يتوفر لديك الوقت لتتساءل أسعيد أنت أم لا؟ ويقول الدكتور كارل منجز الطبيب النفسي: (إن القلق يجعل من أصلب الرجال عوداً مريضاً واهناً). ويقول الدكتور ألكسيس كاريل: (إن رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق يموتون مبكرين).

* * *

أصبتُ في أواخر السنة الماضية بشيء من القلق والضيق النفسي وكنت

أزمعت أن أمضي أوقاتي ما بين الصلوات في الحرم النبوي وتلاوة القرآن والمطالعة والتحرير؛ وبالفعل هيأت كتباً لهذا الغرض، وما إن مر شهران علي، حتى أحسست بضيق وقلق يساورني كلما خلوت بنفسي وتراءت لي الأحلام المزعجة والرؤى الخبيثة وأحسست بدنو الأجل حيث جاوزت الستين من العمر وأصبحت لدي حساسية مرهفة بحيث أتأثر من وقع الجرس أو دق مسمار وفي بعض الأحيان أبكي، لأتفه الأسباب، فكنت أسري عني بتلاوة القرآن أجزاءً عن ظهر قلب وأتجلد بالصبر والسكوت حتى لا تدرك أم عزيز (قرينتي) ما يعتورني من القلق والضيق ولكنها اكتشفت أخيراً ما ألم بي فطفقت تسليني وتذكرني ما قاسيناه من الشدائد حينما كنا في ضنك من العيش وأفراد عائلتنا يزيدون على الاثني عشر شخصاً فكنا هانئين واليوم بفضل الله كبر الأولاد وتزوج من تزوج من الأخوات وأكثر الأولاد. وبقي منهم أقل من النصف في طريق إتمام دراستهم، ولدينا من المال ما يستوعب مصرفنا والحمد لله، فكنت أسمع منها كالمتبلد ثم أرجع لنفسي فأقرر بصحة ما تقوله لا سيما ما قاسته هي من أهوال شتى الأمراض فأجريت لها أربع عمليات في البطن كلها خطيرة فكانت تتحملها بصبر ورباطة جأش وأنا ألم أكن منهمكاً في عدة أعمال ذات مسؤولية قبيل عشر سنوات؟ فبينما أنا كنت أدير معمل النسيج بالمدينة كنت أقف لدى المحاكم لمباشرة قضايا المالية وغيرها، في الوقت نفسه اتخذت الفلاحة مهنة أتسلى بها في أوقات الفراغ وكثيراً ما كنت أمشي في حر الظهيرة إلى بستان النصيري راجلاً فتشفق علي أم عزيز فكنت أرى ذلك الشقاء سعادة وهناء ولم يسعني بعد هذا إلا الاعتراف بأني بطر وأشر بنعمة الله سبحانه فأظل أبكي على السعادة التي أراها شقاء وتعاسة وكم كنت أترنم بقول ابن نباتة:

يا مشتكي الهم دعه وانتظر فرجاً — ودار وقتك من حين إلى حين
ولا تعاند إذا أصبحت في كدر — فإنما أنت من ماء ومن طين

وأردد قول الشاعر:

ما مضى فات والمؤمل غيب — ولك الساعة التي أنت فيها

وكم تعوذت في تلاوتي ودعائي بأدعية واردة فكان يخفف عني بعض الشيء غير أن اليأس والخوف كان يتغلب علي ويقلقني في الوقت الذي يسرني الشعر الرومانطيقي كدالية المتنبي:

عيد بأية حال عدت يا عيد

وخاصة قوله:

يا ساقيي أخمر في كؤوسكما — أم في كؤوسكما هم وتسهيد؟
أصخرة أنا ما لي لا تحركني — هذي المدام ولا تلك الأغاريد
إذا وجدت كميت اللون صافية — وجدتها وحبيب القلب مفقود
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه — أني بما أنا باك منه محسود

وكانت أحسن الساعات تلك الأمسيات التي أروح فيها مع جاري الحبيب القاضي فضيلة عبد المجيد حسن في سيارته إلى ضواحي المدينة فنقضي ما يقرب من ساعتين في احتساء الشاي والمسامرة، فكان يسليني ويصف لي آيات لإعادة الطمأنينة والسكينة، وهناك بعض القريبات زعمت أني مصاب بعين وأحضرت لي بعض التعاويذ فاشترطت أن تكون من القرآن فكانت سورة الفاتحة مكتوبة على صحون الصيني وموضوع العين

والحسد والسحر ثابت بالقرآن في سورتي (الفلق) و«الناس» كما أن القلق والوسوسة ثابتان في سورة الناس أيضاً.

لا أطيل عليك قارئي العزيز، فإن حالتي لم تعد لحالتها الطبيعية فعرضت نفسي على الأطباء فاكتشفوا ضعفاً في الأعصاب ووصفوا لي دواء مقوياً فقط، وأخيراً نصبت من نفسي خصماً أستجوبه ما هي أسباب هذا القلق والضيق فكانت الإجابة كما يلي:

١ ـ أيها الكهل، إنك مع قرينتك أصبحت سجيناً في شقة بعد أن كنت كثيراً بعيالك في بيت مستقل.

٢ ـ ألم تتجاوز أيها الشيخ الستين من العمر فتتصور شبح الموت يدنو إليك.

٣ ـ إنك وكيل قصار وغيب من ذوي القربى، فماذا عملت لأجل مصلحتهم؟.

٤ ـ ماذا قدمت لآخرتك من أعمال صالحة وأنت مثقل بالذنوب والآثام؟.

٥ ـ إن هذه الصلوات والتسابيح والتلاوة إن هي إلا كالروتين كالآلة الصماء بدون خشوع أو حضور قلب ولذا فأنت قلق حزين.

صح أن هذه الأفكار كانت تسبب لي القلق فعملت جاهداً في ما يمكن لي عمله وذلك بأن قررت السفر إلى الأولاد والرجوع بولدنا الصغير عبد السلام وترك أخيه الأوسط (طالب بكلية الهندسة) ضمن البعثة السعودية؛ أما كريمتاي فسوف أزفهما لزوجيهما ما دام قد جرى عقدهما في العام الماضي؛ أما ما يساورني من قرب الأجل فإن الآجال معدودة (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وسأعمل لمصلحة القُصَّار

والغيَّب بما فيه مصلحتهم، وبالفعل وفقت لإنماء مال القُصَّر ٢٥٪ ودار وقف الغيب أبدلتها بعقار يغل ثلاثة أضعاف غلته الحالية[١].

أما ما قدمته من صالح الأعمال، فالله به عليم وسوف أقدم النور أمامي بقدر إمكاني واعتمادي على رحمة ربي التي وسعت كل شيء؛ أما موضوع العبادات فهي فتنة عامة وإن كان المسلمون إلى خير. . ويوم نعمل بالحديث: (الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) فسوف ندخل الجنة سلاماً بسلام.

وها أنا جئت للقاهرة وكان من أثر القلق أن ترك عندي ضغطاً في الدم وضعفاً في الأعصاب فعولجت ولله الحمد وأنا في طريقي للعودة إلى الوطن مصحوباً بابني الصغير، ولا أنسى ما لمصر من الذكريات الطيبة وما لعلمائها من الفضل في تثقيف أولادي الخمسة ونهلهم من مناهل العلم في مدارسها وجامعاتها الكبرى.

---

(١) إن القُصَّر بنتان مات والدهما وتركهما قاصرتين فحضنتهما والدتهما وعكفت على تربيتهما وكنت تحصلت على مبلغ من النقد خاص بهما فعملت فيه حتى زكاة ٢٥٪ وأما الغيب فهم أولاد خالتي كان لهم بيت خرب بقرب المسجد النبوي فاستبدلنا به عمارة تغل ثلاثة أضعاف غلته.

الذكرى الوطنية

غادر الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود عاصمة ملكه الرياض في ١٣ ـ ٤ ـ ١٣٤٣هـ الموافق ١١ ـ ١١ ـ ١٩٢٤م على رأس جيش من الحضر والبادية من خيرة رجاله بلغ عددهم خمسة آلاف وذلك بعد أن جاءته البشرى بدخول الأخوان بقيادة ابن بجاد والشريف خالد بن لؤي لمكة المكرمة وانسحاب الملك علي بن الحسين إلى جدة. وبوصول هذا الخبر السار.. خطب الملك في الجمع خطبة مؤثرة هذه خلاصتها:

إن الله منّ علينا وعلى أهل نجد بالدخول للبيت الحرام بعد أن منعنا منه عدة سنين بدون ذنب جنيناه أو جرم اقترفناه، ثم أصدر أمره بالسفر إلى مكة، وفي ١٣ ـ ٤ ـ ١٣٤٣هـ خرج الموكب السلطاني تتقدمه كشافة تتقدم الموكب إلى مقدمتهم حامل العلم السعودي تتلوه أعلام الألوية وقبل سفره بعث إلى بلدان نجد أن يلتحقوا به في الطريق سواء كانوا من جند أم حضر، وأخذ السلطان في سيره قاطعاً الطريق في ثلاثة وعشرين يوماً على ظهور الإبل، وكلما مر على بلد التحق به من أراد السفر معه، كما كان الفقراء يجلسون على قارعة الطريق يلتمسون إحسانه فيمنحهم السلطان منحاً سخية من النقود التي كان يحملها لهذه الغاية في اسفاره وغزواته..

(*) (المنهل) إن محرر هذا المقال عاصر الدولة العثمانية ودولة الأشراف ثم عصر الدولة السعودية طيلة زمن يزيد على نصف قرن وهو اليوم يخطو للثمانيين من عمره المديد.

بعد ثلاث وعشرين ليلة وصل السلطان للأبطح واعتمر ومن معه فدخل الكعبة المشرفة وطاف وسعى شاكراً المولى على ما أنعم به عليه سالماً غانماً. وفي مساء ذلك اليوم اجتمع بكبار علماء مكة وأعيانها وخطب فيهم خطبة دينية سياسية حرية بأن تكتب بماء الذهب في تاريخ آل سعود الغر الميامين وختمها بقوله: «إن كان في خطبته ما يخالف كتاب الله فردوه وسلونا ما يشكل عليكم والحكم بيننا وبينكم كتاب الله وما جاء في سنة رسول الله ﷺ وإننا لم نطع محمد بن عبد الوهاب ولا غيره من العلماء إلا فيما جاءوا به من كتاب الله وسنة رسوله. عندئذ انبرى بعض علماء مكة طالبين الاجتماع بعلماء نجد والتباحث معهم في بعض الأصول والفروع فاستجاب لطلبهم فاجتمعوا وتباحثوا وبعد الاجتماع أصدر علماء مكة بياناً جاء فيه ما ملخصه: إننا اجتمعنا بعلماء نجد وحصل الاتفاق بيننا وبينهم في أهم المسائل منها: إنه من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب منفعة أو دفع ضرر فهذا كافر يستتاب ثلاثاً فإن تاب فبها وإلا قتل، ومنها: تحريم البناء على القبور وإسراجها وإقامة الصلاة فيها فإن ذلك بدعة محرمة في الشريعة. وبعد هذا البيان صدر بلاغ رسمي نشر بين الجمع الحافل وتلاه اجتماع عام في اليوم الثاني خطب فيه السلطان خطبة بليغة منها: «أريد رجالاً يعملون بصدق وإخلاص حتى إذا أشكل على أمر من الأمور رجعت إليهم وعملت بمشورتهم وبذلك تكون ذمتي سالمة ويكونون هم المسؤولين». وقال: «أريد الصراحة في القول وثلاثة أكرههم ولا أقبلهم: رجل كذاب يكذب علي متعمداً ورجل ذو هوى، ورجل متملق، إلى آخر تلك الخطبة البليغة. ثم دعا عظمته لتأسيس مجلس وطني فاجتمع بدار البلدية بمكة العلماء والأشراف والأعيان والتجار وانتخبوا منهم لجنة مكوّنة من أربعة

عشر عضواً برئاسة سادن بيت الله الحرام عبد القادر الشيبي ونادوا بعبد العزيز ملكاً على الحجاز فقبل منهم عظمته بعد إلحاح. بعد هذا تابع الملك عبد العزيز سفره إلى جدة مع قواته حيث كان الملك علي بن الحسين أخذ يجهز قواته مما تبقى من جنود والده وممن جلبهم من المرتزقة من سورية وفلسطين، وبدأ الحرب في الرغامة ظاهر جدة في شرقها ولم يكن جنود الملك علي في قوة جيش لنضوب المال لدى الملك علي إذ لم يبق في خزانة حكومته ما يؤدي به رواتب للجند، إختل النظام وبدأت الفوضى في الجنود وقل الزاد فاضطر الملك علي إلى التنازل عن الملك للملك عبد العزيز بدون قيد ولا شرط وأبلغه تنازله بواسطة المعتمد البريطاني بجدة فبعث المعتمد إلى الملك عبد العزيز يبلغه بقرار تنازله بدون قيد ولا شرط حيث لم يكن هناك اتصال بين الملكين إلا بواسطة دار الاعتماد البريطاني باعتبار أنها صديقة للطرفين ـ فتفضل الملك عبد العزيز بأن يأخذ الملك على كل ما يملك من أمواله ونقوده حتى خيوله وعبيده.. كما أصدر العفو عن أتباعه ووزرائه وتوجه الملك علي إلى العراق لدى أخيه الملك فيصل بن الحسين ملك العراق يومئذ فمكث هناك مع أتباعه وأشياعه حتى توفاه الله.. وهكذا لم تلبث حكومة الأشراف سوى تسع سنوات من إعلان الحسين بن علي ثورته في شعبان عام ١٣٣٤هـ فسبحان الذي بيده الملك يعطي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء إنه على كل شيء قدير».

وبعد تمكن الملك عبد العزيز من بسط حكمه في الحجاز ونجد وعسير توجه إلى الرياض وأقام ابنه الأمير فيصلاً نائباً عاماً عنه في الحجاز وأخذ يتمشى مع نظم الإصلاح والعمران، وبنى المساجد والمدارس وأمر من رجاله الأكفاء لإدارة شؤون البلاد بالعدل والإصلاح

وما زال يدير شؤون المملكة بعقله الكبير وسياسته الحكيمة طيلة نصف قرن حتى توفاه الله سنة ١٣٧٣هـ فحمل أمانة الملك بعده ولي عهده سعود ثم الملك فيصل الذي أخذ يكمل ما بدأ به والده من الإصلاحات الكبرى لدعم قواعد المملكة وشاء الله أخيراً أن يقضي شهيداً مأسوفاً عليه رحمه الله وطيب ثراه وكان قد عهد لأخيه سمو الأمير خالد بولاية العهد وإدارة دفة الحكم من بعده، فحمل مشعلها الوضاء جلالة الملك خالد بن عبد العزيز وأناط أعمال المملكة بأخيه سمو الأمير فهد يعاونهما أخوتهما وفي مقدمتهم سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز ومن ولاه من إخوته وذويه مؤملاً فيهم الخير وإسعاد البلاد. . وفقهم الله جميعاً لصالح العباد والبلاد.

للـذكـرى

اطلعت في بعض أعداد مجلة «المنهل» فيما مضى على حديث لسيادة عبيد الله مدني[1] مؤرخ المدينة يتعلق بأصل وزمن قدوم آل برادة للمدينة الذين مفخرتهم العالم الأديب عبد الجليل برادة، وأجاب سيادة السيد، السائل، بما يعلمه عما سئل عنه. وكان لدي استفسار أيضاً لم أتمكن من تحريره (لمرضي يومئذ حيث لم أقو على الكتابة).

أخبرني الخال علي كابلي بأن بستان الأبارية بالرومية[2] (المقام عليه اليوم فندق التيسير) كان منتدى للعلم والأدب لأعيان المدينة وفي مقدمتهم المرحوم عبد الجليل فكانوا يتعاطون الشعر ومذاكرة العلوم في أيام الصيف خاصة.

وأنا بدوري أذكر أني قبل نصف قرن كنت قرأت في رسالة أدبية قصائد رائعة للمرحوم عبد الجليل برادة من جملتها أشعار ممزوجة بالهندية

---

(١) كان السيد أول زميل لي عام ١٣٣٨هـ في المدرسة الفيصلية.

(٢) «المنهل»: الرومية: حارة من حارات المدينة المنورة بشرقيها. أدركنا اسمها هكذا، ولعلّها كان يقيم فيها الترك أو كبارهم قديماً.. وكان يقيم فيها الشيخ عبد الجليل برادة في دار يملكونها ذات بستان وتعرف الدار والبستان باسم «الأبارية».. وقد هدمت الدار وأزيل البستان الذي كان مسوراً بسور من طين وأحل محلهما فندق التيسير الآن كما وصفه الأستاذ عبد الحق نقشبندي في مقاله هذا.

والتركية أحفظ من كل منهما ثلاثة أبيات. وهذه هي الأبيات الهندية (الأوردو):

متى الوصل من خير خشف هويكا[1] فنار الهوى في فؤادي جليكا[2]
أيا ذاهباً نحو ذاك الحمى توقف قليلاً فهم[3] بي جليكا
إذا كان خلى بتلك الربا بهذي الربوع هم كياكريكا[4]

والأبيات التركية هي:

ترك إذا ناديته بن عاشقم سن رحم كن[5]
جنديد[6] مني معجبا وأجابني بزبانه[7]
بوعشق[8] درمحنت ألور ما أنت من مردانه[9]

فهل يعلم السيد عبيد مدني نسبة هذه الأبيات ومثلها للمرحوم؟ كما أن السيد أنور عشقي له شعر رفيع ضاع أكثره كما يقال. وقد سمعت أبياتاً له من زميلي السيد ماجد عشقي.

---

(١) هويكا بالجيم المصرية: أي: يكون.
(٢) أي تتقد.
(٣) معنى (هم بي جليكا): نحن نسير.
(٤) معنى: (هم كيا كريكا): أي شيء نعمل؟ هذه ترجمة الألفاظ الهندية المذكورة.
(٥) أي: أنا عاشقك فارحمني.
(٦) بمعنى: ضحك مني.
(٧) بزبانه أي بلغته
(٨) أي أن هذا الهوى ذو محن.
(٩) معنى (من مردانه): من رجاله.

ولقد كان المرحوم أحمد عابد راوية لأكثر شعراء المدينة، بيد أنه لم يسجلها في دفتر خاص.

ولعلّ هذه الأبيات المنسوبة للسيد أنور عشقي نشرت من قبل في المنهل، وهي أبيات غزل وتشطير لبيتي شعر في الشكوى والغزل، وهي:

أمدام: لو شاهدت ما ينتابني   عند الهجوع وليس غير هواك
لرحمتني إن كنت ذات ترحم   ورثيت لي ولربما أبكاك
عيشي منعمة وإن كنت المنى   نغصت عيشي فانعمي بهناك

والتشطير للبيتين هو:

ولقد يعز على النواظر أن ترى   دول اللئام وذلة الأحرار
فالحر يزهد في الحياة ولا ترى   كبار قوم في أكف صغار
هذا الزمان تضايقت أخلاقه   أضحى يشوب الصَّفو بالأكدار
تباً له من خائن متمرد   جعل الخيار بقبضة الأشرار

وهناك أبيات غزلية جميلة لسميّه عبد الحق العثماني «رفاقت علي» هي:

وشبه بالتفاح خدي جهالة   وما كنت أرضى أن يشبه بالورد
وشبه بالرمان نهدي وما استحى   يشبه بالعناب مبسمي الشهي
فمن أين للتفاح أسكار هائم؟   ومن أين للرمان غصن حوى قدي؟
فإن كان مثلي في البساتين عنده   كثير ينال الوصل فيهم بلا وعد
وحصل ما يغنيه عن وصل غادة   فماذا الذي قد جاء يطلبه عندي؟
وحق جمالي والجبين ومهجتي   وحنة وصلي والتذلل في ودي
لئن عاد للتشبيه يوماً حرمته   لذيذ وصالي أو يعيش على كد
وإن مات من فرط الأسى لم أبح له   جنان وصالي ثم أصليه بالصد

ولعلّ سيادة السيد عبيد مدني جمع ثروة وافرة من شعر شعراء المدينة وقد يكون ما كتبته هنا من باب التكرار، غير أني وغيري لهم رجاء بأن يتكرم السيد بطبع الجزء الأول من تاريخه القيم[1] لنستمتع من رواء جماله وفوائده نحن الشيوخ قبل ريب المنون وفقه الله تعالى وأطال بقاءه.

(١) «المنهل» نضم صوتنا إلى صوت الأستاذ الكبير أحد رواد الأدب في هذه البلاد الشيخ عبد الحق نقشبندي أطال الله بقاءه في لباس الصحة والعافية ونرجو كما رجا من سعادة الأستاذ الجليل مؤرخ المدينة المنورة السيد عبيد مدني أن يطبع الجزء الأول من تاريخه القيم للمدينة المنورة. وهكذا تباعاً حتى آخر جزء منه إن شاء الله. وخير البر عاجله.

دمعة على الماضي

احتجبتُ عن الكتابة مدة طويلة أصبت خلالها باضطرابات نفسية وتوتر في الأعصاب رغم مدافعتي ومطاردتي لها، وزاد الطين بلة أن قل طعامي وشرابي وكنت أرى الأحلام المزعجة والرؤى الخبيثة فيعتريني الخوف والقلق فأظن أن منيتي قد دنت فيحلو لي أن أجلس وحيداً أجتر أخطائي وأوهامي وأقلق حتى لسماع الموسيقى لأعذب الألحان وكرهت المطالعة والتحرير حتى الرسائل الإخوانية وكدتُ أفقد كل أمل في الحياة وتعجبني أشعار اليأس وشكوى الزمان كقول المتنبي:

يا ساقيي أخمر في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما هم وتسهيد
أصخرة أنا ما لي لا تحركني ... هذي المدام ولا تلك الأغاريد
إذا طلبت كميت اللون صافية ... وجدتها وحبيب القلب مفقود
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبه ... أني بما أنا شاك منه محسود

أو قول أبي نواس:

غير مأسوف على زمن ... ينقضي بالهم والحزَن
إنما يرجو الحياة فتى ... بات في أمن من المحن

أو قول البارودي:

محا البين ما أبقت عيون المهامنّي ... فشبتُ ولم أقض اللبانة من سني

عناء ويأس واشتياق وغربة ألا شد ما ألقاه في الدهر من غبن

على أني أحوقل وأراجع وأستعيذ بالله من الوسواس الخناس. فأذكر قول ابن نباتة:

يا مشتكي الهم دعه وانتظر فرجاً ودارِ وقتك من حين إلى حين
ولا تعاند إذا أصبحتَ في كدر فإنما أنت من ماء ومن طين

وقول الآخر:

إذا اشتدت بك البلوى ففكر في ألم نشرح
فبعد العسر تيسير إذا فكرته فافرح

والبيت المشهور:

وليست حياة المرء إلا أمانيا إذا هي ولت فالحياة على الأثر

لم يزدني كل هذا إلا قلقاً واضطراباً، وأغرب ما في الأمر أني كتبت في العام الماضي مقالاً (القلق داء ودواء) نشر بالمنهل الأغر، فكان بعض الإخوان ينكر حالتي ويلومني لما وصلت إليه من الأوهام والتخيلات، وأذكر يوماً وأنا داخل للمسجد النبوي أن التقيت بصديقي عارف براده فسأل عن حالي وأكد لي أن ليس بي شيء، ومر علينا ساعتئذ مولاي السيد محمود أحمد فقال له الأخ عارف أنظر يا سيد للأستاذ ويعتقد أنه مريض وليس به أي علاقة للمرض، فقال: مريض وليس به أي علاقة للمرض، فقال السيد أطال الله عمره لا يعتبر كلام الأستاذ حتى يقرره الطبيب. جواب صحيح! لكنهما لم يعلما عن باطن حالي وبعضهم اتهمني بالجحود وبنعم الله علي، وفي الحقيقة لم ينقصني مال أو تعب

العيال بعد أن كبروا وتعلموا ولم يبق غير الأصغر منهم ولم يكن بجانبي في محنتي هذه غير قرينتي وشريكة حياتي، حتى هي الأخرى كادت أن تزهق مني[١] ولم أجد من أبثّه شكواي إلا جار الجنب والصاحب بالجنب وهما فضيلة الشيخ عبد المجيد حسن، والشريف زيد بن شحاد؛ وكنت أعتقد أنه لو لا مداومتي على الصلاة وتلاوة القرآن لافتقدت شيئاً من عقلي، غير أن الله سبحانه حفظ عقلي من الخبال، وأخيراً عولت على السفر وتغيير الجو كنصح الأطباء وما إن تم اختبار ابني الأصغر (عبد السلام) حتى بادرت بقطع التذاكر للسفر إلى بيروت مع ابني ووالدته؛ وإني لأعجب من نفسي الآن إذ كنت أتوقع سقوط الطائرة أمام عيني وأستسلم لموت مفاجىء، وكان بجانبي في المقعد الثاني الأخ محمد سالم زميلي في التدريس في ما مضى من الزمان فسأل عن حالي فأجبته أن لدي توتراً في الأعصاب فشكا لي بمثل حالتي وأن سفره هو للعلاج وتغيير الهواء.

وصلت بنا الطائرة (الكونفير) لمطار بيروت الدولي، وبعد الاجراءات الجمركية ركبنا سيارة أجرة وأشرت للسائق: (إلى عاليه) وبعد نصف ساعة كنا بالجبل بعاليه في فندق وندسور المطل على الوادي فأخذنا غرفة كبيرة بداخلها حمام على قدر مساحة الغرفة مفروش بالمرمر، وقطع الحمام ملونة باللون الوردي وأنا لم أر في المدن التي دخلتها حماماً مثله في الفنادق حتى في لندن وباريس. ويظهر أن الفندق كان قصراً لأحد الباشوات في ما مضى من الزمان، وفي اليوم الثاني أسرعت أم عزيز بطلب طبيب في عاليه، فحضر وادعى أنه أبو الطب كبقراط أو جالينوس،

(١) بيد أنها صبرت وصابرت حتى تكلله بالشفاء.

وبعد المعاينة والثرثرة الفارغة قال إني صحيح الجسم غير أن الكبد (كسلان) فوصف حقنا آخر ما وصل إليه علاج الأكباد، فطفقت أتعاطى الحقن أسبوعاً ولم أجد لها أثراً أبداً، وكانت (عاليه) بواديها المخضر وأزهارها اليانعة وهوائها الطلق أضيق في عيني من كفة الحابل، ومكثت أسبوعاً لا أخرج من الغرفة ويلذّ لي أن أجلس وحيداً كئيباً فاتفقت أم عزيز مع صاحب الفندق لاستقدام طبيب نفساني مشهور من بيروت، وحضر الطبيب النفساني وهو: (الدكتور علاء الدين الدروبي) ففحص جسمي وسألني عن أحوالي وما أعانيه من الاضطراب النفسي وما لحقني من الصدمات في ما مضى، فأجبته على قدر سؤالاته فقال إن العلاج علاجان علاج سريع ويحتاج للنوم بالمستشفى ما يقرب من شهر أعالج فيه بالكهرباء وعلاج بطيء لستة أشهر أعالج بالعقاقير، وقد اخترت العلاج البطيء فوصف لي دواء أستعمله دواماً ثلاث مرات قبل الطعام ودواء آخر استعملته عند النوم حبتين، واستدرك حضرته قائلاً إن أثر الدواء لا يظهر في بحر أسبوع أو أسبوعين. شرعت أستعمل الدواء الجديد ولا من أثر، فحضر ابني الأوسط (محمد رؤوف) الذي يدرس (هندسة عمارة) بالقاهرة، ولما حضر تجلدت أمامه قدر المستطاع وذهبنا معاً إلى بعض المصايف والأماكن المشهورة (كالأرز) ومغارة قاديشا وإهدن وبشري موطن جبران خليل جبران وطرابلس وسير ومغارة جعيتا ذهبت إلى هذه الأماكن رغم أنفي مسوقاً مع الأدلاء وكل تلك المناظر والهواء المنعش والأزهار الفواحة من الجبال والوهاد ما استعذبتها ولا استلطفتها وكنت كما قال المتنبي:

ومن يكُ ذا فم مر مريض   يجد مراً به الماء الزلالا

* * *

عولنا على السفر إلى دمشق فتوجهنا وهنا أبدأ بالدخول في صلب المقال، وما إن وصلنا لوادي بردى حتى رأيتني أنتعش وألهج بأبيات لأحمد شوقي:

خلفت لبنان جنات النعيم وما نبئت أن طريق الخلد لبنان
جرى وصفق يلقانا بها بردى كما تلقاك نحو الخلد رضوان
والحور في دمر وحول هامتها حور تكشّف عن ساق وولدان
وربوة الواد في الجلباب راقصة النحر كاسية والنحر عريان
آمنت بالله واستثنيت جنته دمشق دار لها الفيحاء بستان[1]

وذلك بعد أن امتدح لبنان بقصيدته: (يا جارة الوادي) من ضمنها قوله في زحلة:

قسماً لو انتمت الجداول والربى لتهلل الفردوس ثم رعاك
مرآك مرآه وعينك عينه لم يا زحيلة لا يكون أباك

وما إن دخلت دمشق وقر قرارنا في شقة استأجرناها بالمزرعة بسفح جبل قاسيون حتى رأيت النشاط يدب في جسمي وشعرت بالجوع وطفقت أتلذذ بالمأكل والمشرب ولا أدري هل كان ذلك من تأثير الدواء أم من جو دمشق الجميل!..

(١) من قصيدة طويلة قالها أحمد شوقي حينما جاء إلى الشام زمن احتلال الفرنسيين ومطلعها:

قم ناد جلق وأنشد رسم من بانوا مشت على الرسم أحداث وأزمان
هذا الأديم كتاب لا عفاء له رث الصحائف باد منه عنوان
الدين والوحي والأخلاق طائفة منه وسائره دنيا وبهتان
بنو أمية للأبناء ما فتحوا وللأحاديث ما شادوا وما دانوا
بالأمس كنت على الزهراء أندبهم واليوم دمعي على الفيحاء هتّان
لولا دمشق لما كانت طليطلة ولا زهت ببني العباس بغدان

على أن لي بدمشق ذكريات قديمة مرة ودفينة في النفس وبعضها حلو لذيذ تعاودني الذكرى كلما جئت دمشق وفي هذه المرة كان تأثري شديداً فرأيتني أرجع إلى ما وراء التاريخ خمسين عاماً ١٣٣٥هـ كيف همتُ على وجهي وحيداً لألتقي بأهل والدتي[١] بدمشق حينما كان فخري باشا حاكم المدينة العسكري يجلي سكان المدينة، وكم كان فرحي للقاء جدتي وأخوالي وكان دليلي ابن الخالة عبد الحميد عنبر الذي غمرني بعطفه وكنا نزلاء في دار فخمة لأحد كبار الأكراد أجلته الحكومة التركية؛ ولم نمكث غير شهور عدة حتى نقلنا إلى دار متواضعة بجوار ضريح (محيي الدين بن العربي) وكانت الحكومة قد رتبت لنا خبزاً وراتباً قدره ليرتان تركيتان، وقد دهمنا الشتاء ببرده وزمهريره ولم يكن لدينا من الملابس والفرش ما نقاومه به، وبعد شهور ظهر وباء حمى التيفوس والكوليرا في المهاجرين من المدينة وخاصة الفقراء منهم وسقط منهم خلق كثير دفنوا (بجبل قاسيون) ومدافن (الميدان) (والعقيبة والعمارة) منهم عشرات من ذوينا وأقاربنا فمات من انتهى أجله وبقي من لم ينته أجله، وفي أواخر عام ١٣٣٦ أتتنا أخبار الزحف البريطاني لفلسطين وانهزام الأتراك مع حلفائهم الألمان وكنا نسمع بأن فرقة عربية بقيادة (الأمير فيصل بن الحسين) آتية مع الجيش الزاحف، وبين عشية وضحاها سقطت فلسطين ودخل الجيش البريطاني بقيادة الجنرال (اللنبي) لدمشق ومعه شرذمة من الجيش العربي وكان يوماً مشؤوماً على العرب بضياع فلسطين وسورية باستيلاء الإنكليز على فلسطين واستيلاء فرنسا على سورية، ثم شعرنا بتأليف دولة عربية تألفت في دمشق برئاسة الملك (فيصل بن الحسين) ولم تمض مدة طويلة

---

(١) إن كاتب المقال توفيت والدته وهو صغير فكفلته جدته لأمه ولذا التحق بها.

على تلك الحكومة الفتية حتى جاءها الإنذار من فرنسا بحل الحكومة وتسريح الجيش ومغادرة الملك البلاد، غير أن وزير الدفاع أصر على الدفاع عن دمشق مع من لبى نداءه من الجيش والأهلين وخرج بتلك الشرذمة القليلة للقاء العدو في طريق بيروت، وكان الجيش الفرنسي يتألف من فرق السنغال والجزائر بقيادة الجنرال غورو فتمزقت الشرذمة وفر أكثرهم وبقي العظمة يقاتل مع من بقي معه حتى سقط عن فرسه صريعاً ومات شهيداً ودفن في (ميسلون) وبذلك سجل بعزيمته الصادقة أن من واجب المسلم أن يجاهد في سبيل الله ثم وطنه حتى الرمق الأخير.

مرت هذه الحوادث في مخيلتي كشريط سينمائي أفقت بعدها لأراني بعد خمسين سنة عالقة بذهني هذه الذكريات المؤلمة. وفي يوم من أيام إقامتي ذهبت إلى حي الصالحية ماراً على الدور التي أقمنا بها متمثلاً بقول قيس:

أمر على الديار ديار ليلي   أقبّل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

وبدأتُ بعد ذلك للصعود على جبل قاسيون لزيارة الموتى من أقاربي ومنهم جدّي لأمي عبد القادر عنبر خان، ولما وصلت لمقابرهم تمثل لي أن كلاً منهم ينشدني:

أيها الزائر ليا
قف على قبري مليا
واقرأ السبع المثاني
رحمة منك اليا

في حياتي كنت مثلك
أقرأ القرآن حيا
عن قريب تبقى مثلي
ليس بعد الله شيا

قرأت ما تيسر من سورة يس والفاتحة والمعوذتين والصمدية على أرواحهم ومن يليهم من الشهداء وأرقت دموعاً ساخنة للعظة والذكرى.

الأمثال العامية الدارجة

ـــ ١ ـــ

إن الأمثال العلمية منها والعامية موجودة في أكثر الأمم ومنها الأمة العربية. ففي كل قطر من الأقطار وجدت أمثال خاصة بها عدا الأمثال العلمية والأدبية التي امتلأت بها مؤلفات خاصة كأمثال الميداني وغيره من المؤلفين.

وفي الحجاز نجد أمثالاً دارجة خفيفة الروح ظاهرة المعنى تقال في المناسبات، وإني أعرف المئات منها في الحجاز، على أن الكثير منها قد انقرض بموت المعمرين، والجيل الناشىء يتلقى آداباً وعلوماً كان آباؤه وأجداده بعيدين عنها فلم يأبه لهذه الأمثال باعتبارها من فضول القول ومن سمات الناس القدامى على حد وصفهم.

وقد اخترنا لك قارئي العزيز مائة مثل فقط لتكون نموذجاً مسجلاً على صفحات «المنهل» الأغر، يوم يندرس كلها أو بعضها بموت من يتداولها اليوم.

وقد شرحنا بعض الكلمات المغلقة على قدر الإمكان وبعض هذه الأمثال نشأ عن قصص، كما أن الأمثال الأدبية نشأ بعضها عن قصص

أيضاً، ولو أطلنا الشرح لاحتاج الأمر إلى استيعاب رسالة طويلة لا ميدان لها بمجلة (المنهل)، ومن أراد المزيد من الشرح فعليه أن يسأل عنها من البحاثة المنقب «شاعرنا الجليل الشيخ أحمد بن إبراهيم الغزاوي»، وفقيه اللغة الأديب الكبير الأستاذ عبد القدوس الأنصاري.

وها أنذا أشرع في بحثي مبتدئاً بما كان مبدوءاً بالألف وبعدها بقية حروف الهجاء وبالله التوفيق:

١ ـ الجواب يقرأ من عنوانه.

٢ ـ الفصيح من البيضة يصيح.

٣ ـ الصديق وقت الضيق.

٤ ـ أول شدة عوجة.

٥ ـ أكف البرمة لفمها البنت تطلع لأمها.

٦ ـ الله أراح القرعة من كد[١] الأمشاط.

٧ ـ ايش تعمل الماشطة في الوجه العكر[٢].

٨ ـ الغزالة الجيدة تشتغل بجريدة[٣].

٩ ـ المنحوس منحوس ولو علقوا على حلقه فانوس.

١٠ ـ الدبان يعرف طريق اللبان[٤].

١١ ـ البيض الفاسد يتدحرج على بعضه.

---

(١) الكد: مشط شعر رأس المرأة.

(٢) العكر: القبيح الشكل.

(٣) جريدة: تصغير جريدة النخل.

(٤) الذباب.

١٢ ـ أعور ويتنقور[١].

١٣ ـ النار تعقب رماد.

١٤ ـ المربط ضيق والحمار رفاس.

١٥ ـ العود من أول طلعته.

١٦ ـ اضرب اليتيم ولا تشق ثوبه.

١٧ ـ الود يقرب والجفا يبعد.

١٨ ـ استنا يا كديش حتى يجيك الحشيش.

١٩ ـ النار ولا العار.

٢٠ ـ أطعم الفم تستحي العين.

٢١ ـ اللي مو في البال حاله صعيب[٢].

٢٢ ـ اللي نحبه نبلع له الزلط واللي نكرهه نقعد له على الغلط.

٢٣ ـ الباب اللي يجي منه الريح سدو واستريح.

٢٤ ـ الرفيق قبل الطريق.

٢٥ ـ ابعد عن الشر وغني له.

٢٦ ـ إذا كان لك عازه عند العبد قول له يا سيدي.

٢٧ ـ اليد قصيرة والعين بصيرة.

٢٨ ـ المال السائب يعلم الأحرار السرقة.

---

(١) بمعنى: يتبختر.

(٢) اللي: من هذه الصيغة: هذه الأمثال فهي بمعنى: الذي.

٢٩ ـ أنظف من الصيني بعد الغسيل[١].

٣٠ ـ إذا غاب القط اِلعب يا فار.

٣١ ـ أمسك لي واقطع لك.

٣٢ ـ اللي عنده مخ يجخ.

٣٣ ـ الجمل ما يشوف سنامه.

٣٤ ـ الدجاجة غسلت رجليها ونسيت ما كان عليها.

٣٥ ـ اسأل مجرب ولا تسأل طبيب.

٣٦ ـ اللي يبغى الدح ما يقول أح.

٣٧ ـ العريان في القافلة أمير.

٣٨ ـ اللي في بال أم الخير تحلم به طول الليل.

٣٩ ـ المتخوزق يسب السلطان.

٤٠ ـ اللي ما يرضى بالحمى يرضى بالنفاضة.

٤١ ـ احترم نفسك يحترمك الناس.

٤٢ ـ اللي بيته من قزاز ما يرمي الناس بالأحجار.

٤٣ ـ اللي يمد رجله ما يمد يده.

٤٤ ـ ما يجي الغنج إلا عند الحمير العرج.

٤٥ ـ بيت عالي وسقف مخروق. بيت هوج كلهم عوج[٢].

٤٦ ـ بيضة اليوم ولا دجاجة بكره.

---

(١) الصيني: بمعنى النظافة.

(٢) الكبر.

٤٧ ـ بكره الشمس تطلع والخبر يبان.

٤٨ ـ بعد ما شاب دخلوه الكتاب.

٤٩ ـ بيضة ما تلاطم حجر.

٥٠ ـ بعد الكبرة جبة حمرة. تيتي زي ما رحت زي ما جيتي.

٥١ ـ جيت اصطاد صادوني.

٥٢ ـ حر في الزرازير[١].

٥٣ ـ حط رأسك في بابوج السعيد تسعد. حبيبك اللي تحب ولو كان دب.

٥٤ ـ ذكرنا القط جانا ينط.

٥٥ ـ زدهم على بغلهم كديش لعلَّهم يرمحون.

٥٦ ـ ساوي الخير وارم في البحر.

٥٧ ـ سريني[٢] وأسريك حتى يؤذن الديك.

٥٨ ـ سوس الحب منه فيه. صد عصفورين بحجر.

٥٩ ـ صفي النية ونام مع الحيّـة.

٦٠ ـ ضحك من غير سبب قلة أدب.

٦١ ـ عقار ما هو في بلدك ما ينفعك ولا ينفع ولدك.

٦٢ ـ علمناهم الشحاته سبقونا على الأبواب.

٦٣ ـ غربة وكربة وثوب للركبة.

---

(١) الزرازير: جمع زرزور طير صغير.

(٢) سر معي.

٦٤ ـ كل دقة بتعليمة.

٦٥ ـ كل من يغني بليلاه.

٦٦ ـ كلام الليل مدهون بزبدة.

٦٧ ـ كل من يشوف قرده غزال. ما لحق العنقود قال حامض يا عنب.

٦٨ ـ البطن ما تجيب عدو.

٦٩ ـ مجنونة وقالوا لها غطرفي.

٧٠ ـ قيس قبل الغطيس.

٧١ ـ لسانك حصانك إن صنته صانك وإن هنته هانك.

٧٢ ـ من ساب داره قل مقداره.

٧٣ ـ مسكين وحاله حزين.

٧٩ ـ ما كل جنى ينقري عليه بسم الله.

٨٠ ـ ما يحك جلدك مثل ظفرك.

٨١ ـ من يقول للغولة عيونك حمر.

٨٢ ـ ما أحد مستريح ولا ابن الجريح.

٨٣ ـ المتورط أولى بالخسارة.

٨٤ ـ من شاف أحبابه نسي أصحابه.

٨٥ ـ ما سلم حتى ودع.

٨٦ ـ ما كل مدردم(١) بذنجان.

٨٨ ـ قلد عالم واطلع سالم.

---

(١) مدور.

٨٩ ـ نومة وتمطيطة أحسن من فرح طيطة.

٩٠ ـ لولا الغيرة ما كبرت الصغيرة.

٩١ ـ لا تنصح جاهل يعاديك.

٩٢ ـ ولد بطني يعرف رطني.

٩٣ ـ يا داخل بين التومة وقشرتها ما ينوبك إلا صَنَنَتْها[١].

٩٤ ـ يا عريان كلك ايش يكسيك ظلك.

٩٥ ـ يا حافر حفرة السوء يا واقع فيها.

٩٦ ـ يا غريب كن أديب.

٩٧ ـ يتعلم الحلاقة في روس اليتامى.

٩٨ ـ يا وحشة كوني نغشة[٢].

٩٩ ـ خشوني لا تنسوني سرجوا الشمعة وشوفوني.

١٠٠ ـ صديق عدوك عدوك.

١٠١ ـ شقا عامل يأكله هامل.

---

(١) الروائح الخبيثة.

(٢) خفيفة الروح.

الأمثال العامية الدارجة

ـ ٢ ـ

راجعنا غير واحد من الشباب عن حلاوة الأمثال الدارجة حتى الجامعيين منهم وطلبوا منا زيادة الأمثال إن كان في مجلة المنهل سعة لها راجياً من أستاذنا الأنصاري أن يستجيب لقرائه الأعزاء في ما يطلبون.. وكنا قدمنا أن هاته الأمثال العامية وجدت في كل أمة من الأمم ومنها الشعب الحجازي، وقد انقرض الكثير من هذه الأمثال كما انقرض جل الأمثال الأدبية القديمة، ولقد أخطأنا بقولنا: «والجيل الناشىء يتلقى آداباً وعلوماً كان آباؤه وأجداده بعيدين عنها فلم يأبه لهذه الأمثال باعتبار أنها من فضول القول وسمات الناس الرجعيين».

فقد ثبت لدينا أن الشباب أحس بحلاوة تلك الأمثال فطلب المزيد منها قائلاً: ما سمعنا بهذا من آبائنا من قبل. وقلنا: من أراد المزيد من شرح الأمثال فعليه بشاعرنا الكبير الشيخ أحمد الغزاوي البحاثة وفقيه اللغة الأديب الكبير الأستاذ الأنصاري.

١ ـ إذا كان خصمك القاضي لمين تقاضى.

٢ ـ الفاضي يعمل قاضي.

٣ ـ لا أهنيك ولا أمنيك ولا أخلي رحمة ربي تجيك.

٤ ـ من أول من غزاتو، كسر عصاته.

٥ ـ الحجر منك والدم من راسي.

٦ ـ اللي مكتوب على الجبين لازم تشوفو العين[١].

٧ ـ أنت أمير وأنا أمير ومين يسوق الحمير[٢].

٨ ـ أنا ما لم آكل كبار ولا ألاعب صغار[٣].

٩ ـ أهله سابوه والجن... استلقوه[٤].

١٠ ـ إيش عندك يا مستورة قالت حق قارورة.

١١ ـ الأرض مشبورة والناس مخبورة.

١٢ ـ اللي لله هو الباقي.

١٣ ـ يللي ما عنده أم حاله يغم.

١٤ ـ السر في الساكن ما هو في السكن.

١٥ ـ الطشاش ولا العمى.

١٦ ـ الطيش رزقه يعيش.

١٧ ـ أكبر منك بيوم أعلم منك بسنة.

١٨ ـ الدعاوى زناوى.

١٩ ـ إذا طاحت البقرة تكثر عليها السكاكين.

---

(١) بمعنى أن المقدر كائن لا محالة.

(٢) معناها هنا دائماً: الذي.

(٣) أكبر رد على الشيوعية القائلة بالمساواة.

(٤) أحيل شرح هذا المثل للشاعر الكبير أحمد بن إبراهيم الغزاوي.

٢٠ ـ اللي ما يعرفك ما يقدرك.

٢١ ـ الحكم فرحة ولو على فرخه.

٢٢ ـ الجنازة حامية والميت كلب[١].

٢٣ ـ أهل الميت صبروا والمعزين كفروا.

٢٤ ـ الاسم لطوبه والعمل لمشير.

٢٥ ـ أكل التمر حبة حبة.

٢٦ ـ القملة تبيض مية وتشتكي بقلة الذرية.

٢٧ ـ اللي ما يعجبه من دا الكحل يشمر ويرتحل.

٢٨ ـ اللي يتجوز أمنا هو عمنا.

٢٩ ـ الحس مسنّى وأبات متهني[٢].

٣٠ ـ اليد اللي ما تقدر تدوسها بوسها[٣].

٣١ ـ أبو الحصين قالوا له: مين يشهد لك؟ قال: عصعصي.

٣٢ ـ الفقير في القافلة أمير.

٣٣ ـ الرطل عيار الزبدية.

٣٤ ـ الحر من غمزة والحمار من دفزة.

٣٥ ـ الراكب ما يشوف الماشي[٤].

---

(١) مثلاً العمائم تركها سكان الحرمين وتمسك بها بعض الناس الآخرين.

(٢) هذا المثل له قصة طريفة وهي قصة القط مع الفار حيث كان الفار يقنع بما تبقى له من الزيت على المسن ولا يخرج من دكان الحلاق لئلا يصطاده القط..

(٣) مثل فيه عبرة وعظة.

(٤) صح فكثير من الأكابر لا ينظرون .

٣٦ ـ الطمع يقل ما جمع.

٣٧ ـ رجعت حليمة لعادتها القديمة.

٣٨ ـ راحت السكرة وجات الفكرة.

٣٩ ـ رضينا بالهم والهم ما رضي بنا.

٤٠ ـ أنت تريد وأنا أريد ويفعل الله ما يريد.

٤١ ـ بعد العيد ما ينفتل كعك(١).

٤٢ ـ داقو سعيد لقاه لديد.

٤٣ ـ حاميها حراميها.

٤٤ ـ جحا أولى بلحم ثوره.

٤٥ ـ حسدوا الأعمى لكبر عيونه.

٤٦ ـ جا يكحلها عماها.

٤٧ ـ خل مداسك قبله لا يستبع بها سفله.

٤٨ ـ صحن كنافة وتحته آفة.

٤٩ ـ دوام الحال من المحال.

٥٠ ـ قال: يا بويا شرفني. قال له: حتى يموت اللي يعرفني.

٥١ ـ تحت السواهي دواهي.

٥٢ ـ على مين تقرا زبورك يا داود.

٥٣ ـ لعبت يا سوس في البندق وعود البان خليت المخبى بان.

---

(١) ما الفائدة من عمل الكعك بعد العيد؟ وعندئذ مثلاً الحلاوة فهل تقدم العيد؟ كثيراً ما وقع هذا المثل.

٥٤ ـ لولاك يا كمي ما أكلت يا فمي.

٥٥ ـ دقوا لي جرس، ولد خالتي اشترى فرس.

٥٦ ـ من فمك يا كحلا أحلى.

٥٧ ـ ما في شي بلاش ولا العمى والطراش.

٥٨ ـ كل شيء سلف ودين حتى المشي على الرجلين.

٥٩ ـ كل ما يعجبك وألبس ما يعجب الناس.

٦٠ ـ لا تفكر لها مدبر.

٦١ ـ كن رحيم ولا ابن عم.

٦٢ ـ لبس الخشبة تبقى عجبه.

٦٣ ـ كل مين بعقله يعيش.

٦٤ ـ كل مين في سوقه يبيع خروقه.

٦٥ ـ نحس دائر ولا نحس مستمر.

٦٦ ـ متى طلعت القصر قال أمس في العصر.

٦٧ ـ مد هم، يسد هم.

٦٨ ـ فلان يخطف الكبابة من فم القدر.

٦٩ ـ ما يعجبه عجب ولا الصيام في رجب.

٧٠ ـ ميمونة راجعون.

٧١ ـ جبت الأقرع يونسني كشف قرعه وخوفني.

٧٢ ـ فلان زي رجل المرقع لا يضر ولا ينفع.

٧٣ ـ كعكة في يد اليتيم عجب.

٧٤ ـ المال مال أبونا والناس يضاربونا.

٧٥ ـ لا تقرصيني يا نحلة ما أبغي لك عسل.

٧٦ ـ كبب وليس يطلع كويس.

٧٧ ـ قليل الحظ يلتقي في الكرشة عضمه.

٧٨ ـ يا مليح لا تأخذ على نفسك إلا كل مليح.

٧٩ ـ يا مزكي حالك يبكي.

٨٠ ـ مشي حالك مع أبو عيالك.

٨١ ـ لا تشكي لي أبكي لك.

٨٢ ـ فلان يسكر من زبيبة.

٨٣ ـ ما بين حانة ومانا ضاعت لحانا.

٨٤ ـ كل مين يرى الناس بعين طبعه.

٨٥ ـ يا مربي أولاد الناس يا داق المويا في المهراس.

٨٦ ـ فلان يكتف القملة ويحلبها.

٨٧ ـ أنا وهو راضي ويش دخل القاضي.

٨٨ ـ كل حجرة لها أجرة.

وإلى هنا وقف بنا مقال الاسترسال في الأمثال الدارجة العامية.

شهر رمضان[1]

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

استهلت الآية الكريمة: بأنه في شهر رمضان نزل القرآن العظيم الشأن وقد يتبادر للبعض العجب من نزوله في هذا الشهر وهو نزل منجماً في مكة المكرمة والمدينة المنورة في بضع سنين، ولكن المقصود من نزوله أول ما نزل على نبيه الكريم في شهر رمضان حينما كان يتعبد في غار حراء فنزل عليه جبريل وقال له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ. ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ. عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١ ـ ٥).

والقصة مذكورة في حديث طويل لسنا بصددها في مقالنا هذا. وعلمنا من هذه الآية الكريمة أن من شهد الشهر (أي هلال رمضان) فعليه أن يصومه فيما إذا لم يوجد شاهد آخر وبه قال أكثر الفقهاء، ومن كان مريضاً (بالروماتيزم) وجع الأعصاب أو وجع الرأس أو بزكام خفيف إلى آخر الأمراض التي مثلها فليس له أن يفطر، وأما المسافر مسافة قصر

---

(١) مجلة المنهل عدد ٩ رمضان سنة ١٣٩١هـ.

الصلاة فله أن يفطر مع أن هذه المسافات تقطع في ساعات بالسيارة والصوم أفضل لقوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ١٨٤).

وتمام الآية الآنفة: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ (البقرة: ١٨٥) أي تقوموا فيه بالذكر والتهليل والتحميد والصلاة والقراءة، وعليه كان الرسول عليه السلام إذا دخل شهر رمضان شد المئزر وشغل بذكر الله وكان يتدارس القرآن مع جبريل طوال الشهر، فإذا كان بالليل قام أكثره بالصلاة والتهجد والنوافل حتى تتورم قدماه من طول القيام في الصلاة وكان أكثر إفطاره على التمر وخبز الشعير ولحم الجزور والمعزى في بعض الأيام.

وقد وردت أحاديث كثيرة في فضل شهر رمضان منها:

(من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) ومنها الحديث القدسي: (الصوم لي وأنا أجزى به) وقوله ﷺ: (لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك).

وفي هذا الشهر ليلة القدر التي قال سبحانه وتعالى فيها مشيراً بفضلها وفضل هذا الشهر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ. وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ. لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ (القدر: ١ ـ ٢) إلى آخر السورة.

وطوبى لمن صادف تلك الليلة العظيمة القدر وأحياها بالصلاة والاستغفار ليغفر الله ذنوبه ويدخله الجنة. كما ورد في بعض الأحاديث الشريفة[١] وهناك حديث: (ومن كان صائماً وأفطر على تمر المدينة وجبت له الجنة).

---

(١) يروى عن السيدة عائشة أنها قالت لرسول الله ﷺ: ماذا أقول في ليلة القدر؟ قال: قولي: اللَّهم إنك تحب العفو فاعف عني وعافني.

والمراد بالإفطار إفطار كامل من تمر لا من تمرة واحدة ولا الأكل بعدها من أنواع الطعام الدسم حتى التخمة، وأما الإفطار عليه فمسنون كما يفعله الكثير من الناس وخاصة من وفقهم الله بالحضور إلى المسجد لصلاة المغرب.

ومن محاسن هذا الشهر أن الناس يوسعون فيه على أولادهم ولكن بدون تبذير وإسراف، غير أن البعض من أوساط الموسرين يلتزم بأضعاف المصرف العادي من المآكل المنوعة ولا بد كل يوم من الحساء (الشوربة) والسمبوسك أو الكنافة أو القطائف، كما لا بد من مشلح جديد وأثواب فاخرة له ولأولاده مهما غلت قيمتها. وقد قيل: (ليس العيد لمن لبس الجديد وإنما العيد لمن خاف الوعيد).

* * *

ومن محاسن هذا الشهر أن يتزاور الأقرباء والأصهار والجيران والأصدقاء في لياليه.

ومن محاسنه أن يصرف الأغنياء زكاة أموالهم في هذا الشهر على الأرامل والأيتام والفقراء والمساكين.

ومن محاسن هذا الشهر أن أكثر الناس يصلون مع الجماعة كما يصلون التراويح.

ومن محاسنه أن يقل اللغو والخصام وتنزل السكينة والخوف من الله في قلوب الكثيرين من الناس، فإذا جاء العيد لبس الناس ألبستهم الجديدة أو المغسلة، كل على قدره، وبعد الصلاة يتزاور الأقارب ويخصص اليوم الأول لزيارتهم وزيارة الأصدقاء وفي اليوم الثاني والثالث لزيارة أهل المحلات وإن قلت عادة التزاور لبعد المحلات الجديدة وكثرة

السكان، فقد بلغ سكان المدينة على نحو مائتي ألف نسمة بعد أن كانوا في آخر زمن إحصائي يبلغون نحو ثمانين ألفاً بموجب إحصاء وثائق الخبز التي كانت تعطى لرب كل أسرة بقدر عدد أسرته، وقد يكون هذا الإحصاء أكثر من الحقيقة وكلهم أجلوا في سنة ١٣٣٤هـ وسنة ١٣٣٥هـ إلى مختلف بلدان سورية كدمشق وحلب وحمص وحماة والبعض إلى مكة المكرمة والبعض إلى العقبة في مخيم جيش الملك فيصل بن الحسين ملك الحجاز السابق ولم يرجع منهم الثلث بعد أن مات ثلثهم وتفرق شمل الباقين.

* * *

ولنعد إلى مقالنا عن شهر رمضان المبارك، فلقد ذكرنا أكثر محاسنه، وهناك بعض الهنات التي تجري فيه ولا تليق بقدسيته فقد نرى بعض الشباب ومن تابعهم يعقدون مجالس اللهو ويقضونه في لعب (البلوت) والبعض يعكف على شرب الجراك طويلاً.

أما أوساط الناس كالعمال ومن أشبههم فيقضونه في المقاهي لشرب الشاي والقهوة والشيشة ولكنهم يستيقظون مبكرين إلى أعمالهم حالما أن أولئك الشباب ينامون بعد السحور على أن بعضهم يسهر ليصلي صلاة الصبح حاضراً ثم ينام.

وفي هذه الحالة لا يجد العامل وقتاً لقضاء حاجات بيته، كل ذلك لسهره طوال الليل ونوم الليل لا يوازيه نوم النهار قط كما يقول الأطباء.

عادات في شهر رمضان

وقد رأيت أن أذكر لمحة عما رأيته من أمور وعادات في زمن الأتراك، فقد عاصرت الحكومات الثلاث بحكم سني اليوم حيث بلغت السبعين من

العمر سائلاً المولي العفو والعافية وحسن الختام إن شاء الله.

فمما رأيته في ذلك الزمن أن خوانات الأطعمة كانت تأتي إلى الحرم الشريف لأفطار بعض الوجهاء والأعيان وقد يشبعون من الأكل ولا تبقى لهم شهية بعد هذا الطعام ثم كانت مجالسهم شيعاً وأحزاباً، فريق ضد فريق وكانت الألعاب أكثر من (البلوات).. فهناك الشطرنج والنرد والضومنة وغيرها، وكان أئمة صلاة التراويح في المسجد النبوي يتجاوزون عشرين إماماً.. هذا خاص بالباشا حاكم المدينة، وهذا لشيخ الحرم، وهذا لشيخ الخطباء، وهذا للأغوات، كما كنا نرى أطفالاً أئمة حفظوا القرآن يصلون التراويح، وهناك بعض أئمة يصلون بسور من القرآن فيقضون العشرين ركعة في نصف ساعة أو أقل، وكان اقلهم وقتاً على ما أذكره هو الشيخ عبد القادر حجار فكان يقضي العشرين ركعة في عشر دقائق[1] فلا نسمع غير التكبير والتسبيح.

وقد جمعنا الله على إمام واحد اليوم[2] وكانوا يظنون أن من أكل سمكاً ليلة السابع والعشرين يعيش للعام القادم.

ولم تكن صلاة الجماعة في الصبح أكثر من عشرة صفوف.

وكان هناك المسحراتي الذي يوقظ أهل الدور للسحور ويبدأ عمله من بعد صلاة التراويح يصحب معه ناقوساً يضرب عليه أمام كل بيت في محلته، لأنه كان لكل محلة مسحراتي وأما ما كان يقوله أمام كل بيت

---

(١) وقد كنت من حفظة القرآن ولا زلت أحفظه وصليت التراويح بالحرم وأقام لي سيدي الوالد حفلة بالسرج والحلوى ليلة الختم ويذكر ذلك زميلاي: السيد أحمد العربي والسيد عثمان حافظ وقد قاما بتنظيم تلك الحفلة التي يذكرني بها الصديق الشيخ جعفر فقيه.

(٢) بقصار السور وبالقرآن كله.

فأذكر منه نموذجاً منه واحداً: كان يقف أمام البيت ويدق بناقوسه على كل شطر من كلماته فمن تلك الأقوال أذكر قوله:

ستي الفقيها قريني   تقل لك أمي هجيني
سورة تبارك والتين   علقه صغيرة أعطيني

ذاكراً بعدها أسماء رجال البيت بلقب أفندي: الأفندي فلان، والأفندي فلان، وينتهي من عمله هذا قبيل السحور، فإذا حل يوم العيد اصطحب معه حماراً عليه خرج وطاف بتلك البيوت التي كان يطرقها طوال الشهر فيناوله اصحاب البيوت ما تيسر من الدراهم أو من الحبوب أو التمر.

وأتذكر بعض مقالاته المشجعة والضرب على الناقوس على كل سجعة، فمن أقواله يوم العيد:

يا جاريه يا رمانة   كلمي ستك النعسانه
جيبي الغدا من الخزانه   لا تلهطيه بالأمانه

بالدعاء لهم قائلاً: «كل سنة وأنتم طيبين؟ أما إذا لم يكن في بعض البيوت الفقيرة شيء يعطونه فإنه كان يقول:

يا ليت ماجيتكم في الليل   ثلاثين ليلة أنا في السهر
والكلاب تجري ورايا   وأجري على رب البرايا

وكان الأطفال يتناولون المنح (البقشيش) من والديهم وذوي قرباهم ويصرفون كل ما حصلوه في الملاهي وركوب عربات الكارو ويقنعون بالهللة[1] والقرش. وقد بقيت هذه العادة ولكنها اليوم بعشرات الريالات،

---

(١) كان القرش أربع هللات.

للأغنياء، وبريال للمساكين، وبدلاً من ركوب الحمير صار ركوب السيارات الفارهة والتنزه في مختلف البساتين. أما الفقراء فهم على ما كان سلفهم من ركوب العربات والحمير.

وإلى هنا أختم مقالي هذا سائلاً المولى أن يوفقنا لصيام هذا الشهر وإقامة الصلوات وكثرة التلاوات وبذل الصدقات فيه، ويغفر الله للجميع إنه سميع مجيب.

الإنفاق في سبيل اللـه

لا غرو أن الزكاة هي ثالث ركن من أركان الإسلام، فأولها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وثانيها إقامة الصلاة وثالثها إيتاء الزكاة، فلو امتنع جماعة من المسلمين عن الزكاة لوجب قتالهم كما قاتل الخليفة الأول أبو بكر مانعي الزكاة بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ فعارضه عمر بن الخطاب قائلاً كيف تقاتل قوماً يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ فأجابه ابو بكر: ثكلتك أمك يا عمر والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم. وآيات الزكاة كثيراً ما وردت في القرآن الكريم مقرونة بإقامة الصلاة ولو دفع كل مسلم زكاة ماله على الوجه الأكمل لسدت ثغرات كبيرة من حاجات الفقراء، ولسنا في مقالنا هذا بصدد شرح الزكاة فالقول فيها مفروغ منه. ومقدار الزكاة في النقد والعروض والأنعام والثمار والمزروعات قررته السنة واتفق عليه الفقهاء، ومقالنا هذا في صدقات النوافل التي ليس لها حد معلوم وقد حض الله سبحانه على الإنفاق في سبيله فأول ما بدىء في سورة البقرة قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ . ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (البقرة: ٢ ـ ٣) ومما يدل على أن صدقات النوافل غير الزكاة المفروضة قوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى

ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ (البقرة: ١٧٧).. وقوله ﷺ: (إن في أموالكم حقاً غير الزكاة).. وهناك عشرات من الآيات في فضل الصدقات منها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (البقرة: ٢٦٧) وقوله جل من قائل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ (البقرة: ٢٧٠) وقوله جلا وعلا: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢)، وقوله مخاطباً نبيه الأكرم ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة: ١٠٣) وقوله عز من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (التوبة: ٣٤) وقوله سبحانه: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الروم: ٣٨) وقوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات: ١٩) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (الحديد: ١٨).

هذا مجمل الآيات التي وردت في القرآن الكريم عدا الأحاديث النبوية ولو نظم أخذ هذه الصدقات وصرفها على البؤساء والمعوزين لما بقى هناك فقير أو جائع والاختلاف بين الفقراء والأغنياء هو أصل كثير من المشاكل الاجتماعية. والتباين بين الفقراء والأغنياء يزداد ظهوراً بشكل محسوس. وشعور الفقراء بهذا التباين يزداد عمقاً ومرارة، فالغني والفقير موجودان دائماً، في كل العصور كيف لا والله سبحانه يقول في حكم كتابه: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ (الزخرف: ٣٢). والأغنياء في الزمن

الماضي يختلفون عن أغنياء اليوم، فالأغنياء الذين كانوا يملكون المال في ما مضى كانوا يتميزون بسخاء وكرم لا نظير له اليوم إلا ما قل وندر فكانوا يضيفون ويطعمون ويتصدقون بالأموال عن طيب خاطر وكانوا يوقفون العقارات في مشروعات خيرية كالأربطة لسكنى الفقراء وبناء المساجد وبناء الزوايا لذكر الله وإقامة التكايا لإطعام الطعام وعتق الأرقاء وإقامة السبل للمياه العذبة، ولم تكن هذه الطريقة لتثير حفيظة البؤساء لعدم تجاهل وجودهم وتعرضهم للمذلة والهوان. أما فقير اليوم فقد أخذ يشعر بأنه مظلوم وأن يد الغني الآثمة هي التي تكسب الغنائم وتبني رؤوس الأموال. والمخترعات الحديثة اليوم زادت من دخل الغني وأوجدت البطالة في كثير من العمال، وهذا ما دعا كثيراً من الزعماء والفلاسفة لبذل الجهود لتحسين حالة الفقراء ومنها نشأت المبادىء الماركسية والاشتراكية العالمية.. ونحن المسلمين لو نظرنا في نظمنا الإسلامية وتعاليمنا الدينية لأغنتنا عن كل فلسفة هدامة واشتراكية مستوردة وخاصة ما ورد في البذل والإنفاق من الأجر والثواب ورحم الله أحمد شوقي إذ يقول في مدح الرسول ﷺ:

الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغلواء
داويت متئداً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
ظلموا شريعتك التي نلنا بها	ما لم ينل في رومة الفقهاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالكل في حق الحياة سواء
فلو ان إنساناً تخير ملة	ما اختار إلا دينك الفقراء

وهنا لا ننسى أن حكومتنا السنية لم تأل جهداً في تبني المشروعات الخيرية كالضمان الاجتماعي وإنشاء دور للأيتام ودور للعجزة، بيد أن هذا

لا يغني الأغنياء والموسرين عن صرف أموالهم في وجوه البر والخيرات كفتح صناديق للبر في كل بلد وفتح المدارس لتحفيظ القرآن الكريم وعمارة المساجد والمدارس في القرى وابتعاث عدد من الطلاب للاختصاص في العلوم العالية. وأين نحن من مساعدة فلسطين الدامية فلسطين الجريحة التي اغتصب الصهاينة أرضها المقدسة وأخرجوا أهلها من ديارهم ونكلوا بهم وقتلوهم وشردوهم. ولئن قصرنا بالجهاد بنفوسنا وأرواحنا أفلا نساعد بأموالنا؟

فإلى موسري هذه الأمة وأغنيائنا والمحسنين أزجى ندائي هذا وإن في ذلك لذكرى وتبصرة لأولي الألباب.

الأخــلاق

ـ ١ ـ

هذه فصول في علم الأخلاق كنت لخصتها حينما كنت معلماً لهذه المادة بمدرسة العلوم الشرعية والمدرسة السعودية قبيل ثلث قرن ألقيتها على تلاميذي بالأمس وأخواني اليوم[١] عثرت على هذه المسودة بينما كنت أنبش أوراقي المهجورة فأحببت أن أتحف بها قراء المنهل تعميماً للفائدة وليعلم نشء اليوم ما كان عليه نشء الأمس في تلقي مثل هذه الدروس في آخر مراحله الابتدائية التي تماثل المرحلة الثانوية اليوم وبالله التوفيق.

علم الأخلاق: علم يوضح معنى الخير والشر وما يلزم من معاملة الناس بعضهم لبعض من فعل الخير واجتناب الشر ويبين الغاية التي يقصدها الناس في أعمالهم ومعايشهم.

وموضوعه: أعمال الإنسان التي تصدر عن إرادة وعمد.

---

(١) ذكر منهم مع حفظ الألقاب علي عامر، علي سعيد، هاشم عشقي، أنور بصراوي، صالح الأخميمي، أمين مرشد، أمين مدني، يوسف مدني، عارف برادة، كاظم برادة، يس طه، أسعد طه، منصور عارف، سامي حفظي، ضياء الدين رجب، عمر السقاف، عبد العزيز داغستاني، هاشم طاهر، يوسف طرابلسي، زين العابدين توفيق وغيرهم.

وفائدته: من عمل بتعاليمه كان من الخيار الصالحين.

وغايته: تنظيم أعمال الناس لإسعادهم وهذه التعاليم الأخلاقية تتجلى بأروع صورة في الأخلاق المحمدية والشمائل المصطفوية والأوامر الشرعية الإسلامية ففي الحديث الشريف (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وفي الأثر (اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن).

والأخلاق الحسنة هي ملكات فطرية في الإنسان وجدت فيه يوم خلق تصقلها التربية والمعرفة وتقومها الحوادث الطارئة كما أن الرذائل صفات خبيثة في النفس لا تؤثر عليها التربية والمعرفة إلا عرضاً لا جوهراً كالأخوين اللذين يولدان من أب واحد وأم واحدة ويدرجان في بيت واحد فيكون هذا شجاعاً كريماً وذاك جباناً بخيلاً وهكذا في غير الصفات وقديماً قال الشاعر:

إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

إنما هناك صفات كسبية لا تلبث أن تصبح طبيعية راسخة في الإنسان وتلك هي طبيعة بلاده وحالة بيئته ومعاشرة أصدقائه ولذلك كان التباين في الصفات والنعوت بين مختلف الأمم فالأمة التي يتصف مجموعها بالكرم واللطف يؤثر في أفرادها ويقل أن يظهر فيها بخيل غليظ وأن وجد يستر ويتخفى لئلا تسقط كرامته بينهم والأخلاق من حيث هي تصلح وتفسد وترقى وتنحط تبعاً لقوانين ثابتة لدى علماء النفس والأخلاق وإذا عرفنا تلك القوانين أمكننا إصلاح أخلاقنا بقدر ملاءمة الطبيعة وتلك بقوانين لم تكتشف كلها حتى اليوم ولما كان علم الأخلاق متعلقاً ببعض فروع الفلسفة كعلم النفس من حيث بحثه في قوى الإحساس والإدراك

والحافظة والذاكرة والإرادة والخيال والوهم والشعور والعواطف واللذة والألم فهذه المباحث مقدمة لازمة علم الأخلاق ويتعلق علم الأخلاق أيضاً بعلم الاجتماع لأن دراسة أعمال الإنسان تجر حتماً إلى دراسة الحياة الاجتماعية لاحتياج الإنسان إلى المجتمع. وعلم الاجتماع يبحث في الجمعية الأولى من الناس ويبحث في اللغة والدين والأسرة والقوانين والحكومات ويتعلق علم الأخلاق بعلم القانون من حيث موضوع العمليين أعمال الإنسان وعلم الأخلاق أوسع دائرة في علم القانون من حيث تأمر الأخلاق بكل ما له نفع وتنهى عن كل ما يضر من نتائجها الداخلية والخارجية وهنا لا بد من إلمامنا ببعض المباحث النفسية فنقول:

كل عمل إرادي يسمى سلوكاً ولهذا السلوك أسس نفسية يصدر عنها العمل كالغريزة والعادة لا نرى هذه الأسس وإنما نرى آثارها وهي الأعمال الإرادية والأخلاقي لا يقنع إلى ظواهر الأعمال إلا إذا عرف أساس تلك الأعمال ثم عالجها بما يناسبها وأهم تلك الأسس هي الغريزة والغريزة ملكة يتوصل بها الإنسان إلى غاية عمل من غير سابق نظر إلى تلك الغاية من غير سابق تدريب عليها ويولد الإنسان وفيه كثير من الغرائز منها غريزة حفظ الذات وحفظ النوع والخوف وكل كائن مهما كبر أو صغر علا أو سفل يسعى لأن يعيش وينمو بكل ما أوتي من قوة الدفاع والمناعة وتلك هي غريزة حفظ الذات وغريزة حفظ النوع تظهر الميل للجنس والعاطفة الأبوية بين الذكر والأنثى والعاطفة الأبوية تظهر في المرأة بصورة أقوى وهي سبب في حياة العاطفة في الإنسان وميله إلى الأدب والفن وبهاتين الغريزتين عمر العالم وكان ميداناً للتزاحم والقتال وهما أساس لكثير من الأعمال.

وخصائص الغريزة يختلف باختلاف الأشخاص فترقى وتضعف نظراً

لرقي عقل الفرد وعقول الأمة ومواعيد ظهور الغرائز ليس محدوداً ولا منظماً في الإنسان كما في الحيوان وكثيراً ما تتعارض الغرائز ببعضها وقد تظهر في شكل بواعث للعمل وهي قابلة تثبت وتنمو بالتربية كما أنها قابلة لا تضعف وتفنى بالإهمال وفي كل هي المادة لتكوين الأخلاق وتربيتها يكون بمقاومة الحوادث إذا كانت سيئة أو الترحيب بها إذا كانت حسنة.

وغريزة الخوف متأصلة في الإنسان أيضاً ملازمة له من حين يولد حتى يموت وإن كانت الشرائع السماوية والقوانين أزالت كثيراً من أسباب الخوف بيد أن شبح الحروب ومسألة المعاد والحساب والعقاب ما زالت ماثلة لكل إنسان.

وإذا تكرر العمل حتى صار الإتيان به سهلاً سمي عادة وأكثر أعمال البشر من قبيل العادة وتتكون العادة من ميل النفس إلى الفعل وإجابته بإصدار العمل مع التكرار الكافي وكل ما يشعر به الإنسان أو يعمله مرتبط بمجموعه العصبي سيما المخ ومن خصائص المجموع العصبي قابليته للتشكيل وإذا تشكل واستمر عليه كأن الورقة إذا أثنيناها اتخذت شكلاً جديداً بعد الضغط الأول ثم تعود لحالتها إذا بسطت وكذلك الشأن في الأعصاب كمن يعتاد أن يضع رجلاً على أخرى فهو يميل إلى ذلك الوضع إذا فعله باستمرار ومن أهم خصائص العادة سهولة العمل المعتاد وتوفير الزمن والانتباه وهي في قوتها تكاد تكون طبيعية راسخة في الإنسان ومن نتائج هذه العادة المتأصلة جعل المسنين يرفضون الآراء الحرة المفيدة والمكتشفات العلمية الحديثة بينما الشباب والأحداث يسرعون للتصديق والإيمان وعليه يلزمنا الأخذ بالعادات الحسنة والتجنب

عن العادات السيئة ومعرفتنا بتكوين العادة يغنينا عن التخلص منها بالعمل عكس ما تكونت وبمقاومة الميل إلى العمل نستطيع إماتة العادة ولتغيير العادة السيئة يجب عمل ما يأتي:

العزم القوي الذي لا يشوبه تردد بعد أن يعلم أن ذلك في المقدرة أو أخذ النفس بالتدرج في الأمر بقدر الاستطاعة حتى ينتهي الأمر أو انتهاز فرصة لتنفيذ العزم واتباع كل انفعال نفسي يعين على التنفيذ والمحافظة على قوة المقاومة وإبقائها حية تعين على تغيير العادة ومن القواعد المسلم بها عند علماء النفس أن الفكر يسبق العمل حتماً فإذا أريد الاعتياد على عمل أو العدول عنه وجب النظر إلى أساس ذلك الفكر والفكرة إذا عرضت على المخ فقبلها ورحب بها طويلاً أنتجت العمل لا محالة فإيجاد الفكرة في المخ قبل البدء في العمل هو إيجاد شعلة فيه فإذا تركت وشأنها عمت النار المخ وأشعلته كله وإذا رفضت في بادئ الأمر ولم يسمح لها بالبقاء طويلاً أمن من شرها وطريقة إطفائها هو عدم السماح للفكرة أن تحل بالمخ بتاتاً وثانياً إشغال المخ يشبه الفكر الأول ومن كل ما تقدم علمنا أهمية العادة في الإنسان فهو يكاد يكون مجموعة عادات تمشي على الأرض وقيمته تعتمد كثيراً على عاداته ومع الأسف أن الطفل في السنين الأولى من عمره عند تكوين العادات لا تكون له قوة تمييز بين الطيب والخبيث فكثيراً ما تعلق به عادات وطباع مبذولة من حيث لا يعلم المسكين عاقبتها فإذا كبر صعب عليه تغيير عاداته وطباعه وفي هذه الحالة لو كان له أبوان صالحان أو رفيق طيب أو بيئته حسنة استفاد كثيراً في تعلقه بالعادات المحمودة وتجنبه عن العادات الممقوتة فكل قرين بالمقارن يقتدى.

الأخـلاق

ـ ٢ ـ

قدمنا أن علم الأخلاق يوضح معنى الخير والشر وما يلزم من معاملة الناس بعضهم لبعض ويبين الغاية التي يقصدها الناس في أعمالهم ومعايشهم.

وموضوعه أعمال الإنسان التي تصدر عن إرادة وعمد.

وفائدته أن من عمل بتعاليمه كان من الصالحين الأخيار.

وغايته تنظيم أعمال الناس لإسعادهم، والتعاليم الخلقية تتجلى بأروع صورة في الأخلاق المحمدية والأوامر الشرعية بدليل قوله ﷺ: بعثت لأتمم مكارم الأخلاق وقد سبق منا أن تكلمنا في مباحث نفسية تتعلق بعلم الأخلاق كالغريزة والعادة وموعدنا هنا في بحث الوراثة والبيئة والإرادة.

الوراثة والبيئة: يقول القانون الطبعي أن الفرع يشبه أصله والأصل ينتج مثله وفي الأثر: الولد سر أبيه، وورد أيضاً: تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس. وقديماً قالت العرب:

بأبيه اقتدى عدي في الكرم ومن يشابه أباه فما ظلم

وقال آخر:

اعــرف مــنــه قــلــة الــنــعــاس وخــفــة فــي رأســه مــن راســي

وقد أصبح قانون الوراثة من الأصول المسلم بها ولا مجال للشك فيها وإنما الاختلاف فيما يورث وما لا يورث. فالمورث كالحواس والشعور بالعواطف والعقل والإرادة وطبيعة الأب وشكله وكفاءته وصحته وضعفه، والمختلف فيما لا يورث كالعاهات من العمى والعرج والصمم وأنواع العلوم كالفقه والأدب والطب والهندسة أو خلق من الأخلاق كالكبر والذل والجبن والشجاعة إلى غير ذلك من الصفات مع ملاحظة أننا لا نرث من الأصول غرائز نامية ولا ملكات ناضجة وإنما نرث الاستعدادات والجراثيم وإلا لكان ابن العالم عالماً وابن الطبيب طبيباً. والتربية العالية والتعليم هما اللذان يساعدان في ظهور تلك الغرائز والملكات والبيئة تطلق على الأشياء المحيطة بالإنسان من بلاد ومجار وأنهار وأشجار وجبال وقوم وهي إماً مادية كما ذكرنا أو اجتماعية وهي ما تشمل النظم الاجتماعية المحيطة بالرجل من منزل ومدرسة ومهنة وحكومة وشعائر دينية وطقوس موسمية ومعتقدات وعلوم وأخلاق فالبيئة الصالحة تساعد كثيراً في نمو الغرائز الحسنة كما أن البيئة الفاسدة تثير السيئة منها فالوراثة والبيئة يحددان قيمة كل إنسان ويقدران خيبته ونجاحه وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فــكــل قــريــن بــالــمــقــارن يــقــتــدى

على أن أكثر المواهب الإنسانية يعتمد على البيئة أكثر من الوراثة.

والإرادة: قوة من قوى النفس كالبخار والكهرباء فهي المحرك

للإنسان وعنها تنشأ جميع الإرادات، فملكة الإنسان وقواه تكون كامنة في النفس حتى توقظها الإرادة فكل الصفات النفسية لا أثر لها في الحياة ما لم تدفعها الإرادة القوية لتظهرها إلى عمل في الوجود، والإرادة قد تكون دافعة بأن تدفع الإنسان إلى عمل أو مانعة كأن تحرم عليه القول أو الفعل وهي بنوعيها منبع للخيرات والشرور، والإرادة القوية في الأعمال المحمودة هي سر النجاح وهي عنوان عظماء الأمة ونوابغها وقد قيل عن بعض الحكماء إنه كان يقول لكل من فشل في عمل: إنك لم تكن لك إرادة قوية، وإذا كانت الإرادة ضعيفة كان لا يستطيع الإنسان عمل الخير والكف عن الشر ثم لا يلبث أن يتماهل عن عمله كسلاً أو بخلاً أو يستسلم للشرور عند وجود المغريات أو قد تكون الإرادة قوية ولكنها متجهة نحو عمل الشر كما يشاهد في المجرمين يقدمون على نوع من الإجرام فلا يثني عزمهم شيء فتظهر قوة إرادتهم بأقوى مظاهرها.

والعلاج للإرادة المريضة هو إلزام النفس أعمالاً تطلب جهداً أو مشقة وبذلك تكتسب الإرادة قوة وعلينا أن لا نترك إرادتنا تتبخر من غير أن ننفذ ما عزمنا عليه لأنه بذلك يكتسب الإنسان فشل التنفيذ والكثير منا يضع في قائمة أعماله أعمالاً طيبة ليقوم بها أو يتفوه بأنه سيقوم بعمل كذا وكذا ثم لا يقوم بشيء منها كسلاً وتجاهلاً ثم لا نجد لتلك الأعمال أثراً يذكر وإذا سئل في ذلك أجاب بلا خجل ولا استحياء: (إنما الأعمال بالنيات) وتناسى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ. كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ (الصف: ٢ ـ ٣) فالواجب علينا دائماً محاولة ما أردنا عمله من الأمور الحسنة ولا نسمح لإرادتنا أن تتلاشى سدى. وأما علاج الإرادة المتجهة نحو الشر فعلاجها تعريف

النفس طرق الخير والشر ونعلمها بنتائج ذلك وما يترتب على عمل الشر من الجزاء والعقاب وبذلك نلزمها إطاعة بواعث الخير واجتناب بواعث الشر وهنا علينا أن نعلم هل إرادة الإنسان حرة في إتيان العمل أو مجبورة بالرغم عنها ففي هذا خلاف كبير بين علماء الدين والفلاسفة. فذهب بعضهم إلى أن الإنسان مجبور على أعماله وليس له إرادة حرة بل القدر يصرفها كما يشاء وذهب فريق آخر قائلاً إن أعمال الإنسان حرة وفي استطاعته أن يفعل ما يشاء والصحيح في هذا أن الإنسان مجبور نوعاً ما بمعنى أنه قدر عليه في الأزل ما يأتيه في دنياه من أعمال، وحر نوعاً ما من الحرية بمعنى أن الله منحه قوة لمزاولة الأعمال وهذا هو الجزء الاختياري المعروف لدى العلماء وهو المترتب عليه الثواب والعقاب ولولا ذلك لكانت الأوامر الخلقية والشرعية ضرباً من العبث ولما وجد المدح والذم ولما كانت جنة ولا نار.

وجاء في الحديث الشريف أن الرسول صلاة الله عليه وسلامه كان يوماً مع أصحابه فذكر مسألة القدر وقال: «جف القلم بما هو كائن الشقي شقي والسعيد سعيد». فقال الصحابة: إذن نتكل يا رسول الله فقال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له».

والحقيقة أن مسألة القضاء والقدر تعلو عن متناول عقول البشر القاصرة وجلها يقضي أن يعلم الإنسان تفصيلات عنها من عالم الغيب والشهادة ولذا كان الخلاف قديماً وحديثاً بين الفلاسفة وعلماء الأديان ونحن في بحثنا هذا لا نطيل الكلام عملاً بقوله عليه السلام: (إذا ذكر القضاء فأمسكوا).

الأخـلاق
ـ ٣ ـ

الباعث على العمل

معنى الباعث أي الدافع للعمل ويستعمل هذا الباعث في معنيين فيما يدفعنا للعمل أو للغاية التي تجذبنا إليه، ومثال ذلك كالمعلم الذي يضرب التلميذ للغضب في المعنى الأول وتأديب في المعنى الثاني. والذي يوجب بحثنا هو المعنى الثاني أي الباعث النائي من العمل، ثم إن اللذة التي تصحب العمل هي المقصود منها اللذة الشخصية وهي ما يعبر عنها بالأثرة أو لذة الناس ومنفعتهم وهي ما يعبر عنها بالإيثار. فهناك خلاف بين علماء النفس وعلماء الأخلاق والذي ذهب إليه الأكثر هو أن الإنسان قد يبعثه على العمل تحصيل لذته وخيره أو نفع الناس وخيرهم، فهو بطبيعته أثر مؤثر قد يبعثه على العمل هذا تارة وذاك أخرى وعمل الأخلاق تهذيب الناحيتين فكلاهما إذا بولغ فيه ضاع المقصود منه. وفي الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنه: (إن لنفسك عليك حقاً وإن لربك عليك حقاً فأعط كل ذي حق حقه) وقديماً وضعت المبادىء الأخلاقية لمحاربة الأثرة والحض على الإيثار وبه جاءت الشرائع السماوية وعنها ندبت الشفقة والرحمة وفرضت زكاة المال وفي الحديث الشريف: «أحبَّ لأخيك ما تحب لنفسك».

الخلق

والخلق: اعتياد الإنسان عمل شيء ما ويسمى خلقاً أو تغلب ميل من الميول النفسية على حسب الاستمرار، فالكريم من يغلب عليه ميل العطاء كلما وجد الباعث إليه، والبخيل من يغلب عليه ميل المنع مع وجود باعث العطاء، وبذلك لا يكون الرجل كريماً ما لم يتغلب عليه ميل الكريم باستمرار؛ أما الذي يميل إلى العطاء مرة والشح أخرى مع وجود الداعي إليه، فلا يعد كريماً ولا بخيلاً وليس له خلق ثابت يتصف به، وكما أن الشجرة الطيبة التي تؤتى أكلها يانعاً على الدوام فكذلك الخلق الطيب في الإنسان لأنه مولع بالتقليد والمحاكاة، وكثير من النابغين عزى نبوغهم إلى أنهم وفقوا إلى اختيار صاحب أو رفاق أثروا فيهم أثراً صالحاً ونبهوا قوى كانت فيهم كامنة؛ ففي مطالعة سير الأبطال والأنبياء والصالحين والعلماء والزعماء قدوة حسنة، فإن حياتهم توحي إلى القارىء الاقتداء بهم حسب ميول القارىء، وكثيراً ما دفع الإنسان إلى العمل حكاية قرأها عن رجل عظيم أو عالم حكيم وحسبنا معشر المسلمين بمطالعة سيرة الرسول الأكرم ﷺ فقد جمعت أكمل الصفات وأحسن العادات القائل في حقه جل وعلا: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤) ومما يساعد الإنسان في تنمية الخلق الطيب أن يخصص لنفسه نوعاً من أعمال الخير العامة فيتخير ما يلائم ذوقه واستعداده، كنشر العلم بين الناس أو تحرير المقالات الأدبية الهادفة أو تقوية ملكته الشعرية أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أو السعي لرقي أمته من ناحية اقتصادية أو سياسية، وفي كل هذا ينمو حبه لأفراد أمته والسعي لخير بلاده. وأما علاج الخلق السيىء، فمقاومته بضده فإن أحس بإفراط في الشهوات فليقاومها بالزهد وإن تغلب عليه ميل الغضب فليمل إلى الحلم وإن أحب الحرب فليجنح للسلم وهكذا يقاوم سورة الأخلاق السيئة.

الوجدان والضمير

هو تلك العادة الكامنة في النفس التي تحذر الإنسان من فعل الشر وتحاول أن تصده عن فعله، فإذا فعله أحس بتوبيخ نفسه على ما فعل، وإذا كانت القوة المذكورة تأمر بفعل الخير والقيام بالواجب فإذا فعله شعر بارتياح عظيم فتلك القوة هي الوجدان وقد أشار القرآن الكريم إلى هاتين القوتين في سورة القيامة: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ (القيامة: ٢) (بالنفس اللوامة المعنى النفس المطمئنة) فعنى بالنفس المطمئنة المعنى الثاني فدل ذلك ما لهاته القوة من الرفعة ومزيد.. والمتحضرة أو المتمدنة والمتأخرة لأن كل أمة تختلف في تقويم بعض الخير والشر فنرى البدوي مثلاً لا يأنف أن يأتي بيت جاره في غيابه بينما الحضري يعدّ ذلك خروجاً على الأدب والمألوف، كما أن الرجل المتمدن لا يأنف أن يكتشف الطبيب على عورته، بينما الرجل المتأخر يعد ذلك عيباً وشيئاً غير مألوف. وقد يخطىء الوجدان في إرشادنا للحق والواجب لأنه يأمر دائماً بما يعتقده واجباً، فإذا كان الاعتقاد خطأ كان الوجدان مخطئاً، ولذلك يجب على الإنسان أن يطلب حقائق الأشياء ليحكم عليها عن نظر وحسن اعتقاد ولا يلام المرء بعد الاجتهاد ومنه كان للمجتهد إن أصاب أجران وإن أخطأ أجر واحد للوجدان درجات نماها شعور بعمل الواجب خوفاً من الناس وثانيها شعور بضرورة ما تأمر به القوانين الوضعية الصالحة وشعور بما تأمر به الأوامر الدينية وثالثها شعور بما تراه النفس حقاً خالف الناس أو وافقهم مع مراعاة القانون الإلهي وذلك أرقى الوجدان وبشرط أن تكون تلك النفس بلغت من التربية والتعليم الغاية من الكمال كالأنبياء والحكماء والمصلحين. وللوجدان أهمية كبرى في سعادة الإنسان في حياته لأنه هو الذي يحمله على أداء واجبه وإتقان صناعته وإخلاص عمله بوجدانه

الكامن في نفسه وهو الذي يطالبه بأعمال الخير على التوالي، وكلما كانت الأمة قوية الوجدان كانت إلى الخير أقرب وإذا فقد وجدانها فقدت سعادتها وهناءها.

المثل الأعلى

أسلفنا لكل ذي لبّ وتفكير له مبادىء وغايات في حياته ومن عاش بلا مبدأ فهو خليق أن يعدّ في عداد العجماوات رعاية كل شخص تتباين حسب فطرته وتربيته ومعلوماته وميوله فهي ترقى وتنحط تبعاً لبلوغ غايته وعمرو غايته أن يصبح مليونيراً فهو لا يفتأ دائباً في استحصال الدرهم والدينار، وخالد مناه أن يكون زعيماً يشار إليه بالبنان، بينما عرفة الخامل يكتفي أن يكون كأبيه الزبال، فعليه يجب على كل إنسان أن تكون عنده صورة كاملة لما يود أن تكون عليه حياته المقبلة فالصورة التي في ذهنه ويود تحقيقها هي المثل الأعلى. وتختلف المثل العليا بين الأفراد كما قدمنا حسب تربيتهم وتدرجهم في العلوم والمعارف وللمثل العليا تأثير على النفوس فهو دائم المثول أمام الإنسان أمام الإنسان المجد يجذبه لتحقيقه وأعمال الإنسان في سلوكه وأعماله تدلنا على مثله الأعلى، والمثل العليا كثيرة والصعوبة في اختيار أحسنها وليس في وسع الأخلاق والحكيم أن يرسم مثلاً دقيقاً يوافق كل فرد من الناس مع اختلاف الطبائع ودرجة محيط التعليم، والممكن المعقول أن يكون المثل الأعلى للشخص صورة كاملة لخير الإنسان في كل شأن من شؤون حياته في اعتقاده وعمله ودينه ومعاملته للناس. وأهم عامل في تكوين المثل المنزل والمدرسة والدين، وبالجملة البيئة التي تحيط بالإنسان من حين نشأته إلى بلوغه سن الرشد وغريزته الطبعية، والمثل ينمو مع الإنسان من صغره

فهو ليس بالجديد عليه ليعرف من أين أتاه، فإذا خرج الشاب إلى معترك الحياة جدد غايته ووضح مثله وكلما اتسع نظره كبر عقله وتمت أجزاؤه وهو عرضة للنقص والضيق لمن لم يجد سبيلاً لتوسيع فكره وإنارة عقله وتوسيع معلوماته وذلك ما نشاهده في طبقة العمال والصناع الذين يقضون سحابة نهارهم في عملهم الآلي غير ملتفتين في أوقات فراغهم إلى حصول فائدة وحياتهم ليست إلا عملاً متكرراً كالآلات الصماء. وفي ذلك من تحديد المثل ونقصه كما لا يخفى.

وها أنا في ختام مقالي هذا أزجي نصحي لإخواني وبني وطني أن يتخذوا لنفسهم مثلاً سامياً يسعون إليه في جميع أعمالهم؛ وقد حض الرسول صلوات الله عليه وسلامه على معالي الأمور ونهى عن سفاسفها حيث قال: (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال الشاعر العربي:

ولو إنني أسعى لأدنى معيشة   كفاني ولم أطلب قليلاً من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل   وقد يطلب المجد المؤثل أمثالي

وقيل أيضاً:

بقدر الكد تكتسب المعالي   ومن طلب العلا سهر الليالي
ومن طلب العلا من غير كد   أضاع العمر في طلب المحالِ

وقال المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت في مرادها الأجسام

فعلينا أن نسعى بجميع الوسائل للوصول إلى المثل العليا، فإن كان من طريق العلم وجب علينا أن لا نأنف من الدرس والمطالعة وطلب العلم

مهما كثرت أعمالنا وعلا مقامنا، فطلب العلم من المهد إلى اللحد، وإن كان من طريق المادة وجب علينا أن ننخرط في أعمال التجارة واقتناص كل فرصة تدر علينا بالربح الحلال متخذين الأمانة شعاراً، وإن كان من طريق الزعامة وجب أن نظهر بمظهر الأخلاق الوديعة والتحمل والصبر ومساعدة الناس وقضاء مصالحهم والسعي لجلب الخير لهم والدفاع عنهم وإنصاف المظلومين منهم والتشنيع على الظالم بالحكمة والموعظة الحسنة.

وكم يسرنا اليوم أن نرى نخبة من شبابنا يزينون بعض كراسي الوزارة والإدارات العامة ساعين لخير أمتهم وبلادهم، وإنا نرقب المزيد من هؤلاء العاملين وفقنا الله وإياهم إلى سواء السبيل.

مجالس السَّمر

قال لي أحد تلامذتي[1] وقد أصبح كهلاً حينما كنت معاون مدير المدرسة الناصرية عام ١٣٦٠هـ: لقد قرأت لك يا أستاذي بجريدة المدينة ومجلة المنهل مقالات شيقة بعنوان (ذكريات لا تنسى منذ نصف قرن) كان في بعضها عبرة وعظة وخاصة لدى أجلاء أهل المدينة إلى الشام إبان الحرب العالمية العظمى وما قاسوه من الجوع والمرض حتى رجوع الباقين منهم، وفي بعض تلك المقالات متعة وسلوى لما كان يجري في الأعياد. فهل تسمح لقراء المنهل أن تحدثنا عن مجالس السمر في الماضي وكيف كنتم تقضون لياليها قبل المذياع والمرناء والأندية الأدبية والمحاضرات الليلية؟ قلت: اسمع يا حبيبي، أنا حينما بلغت الثانية عشرة من عمري عام ١٣٣٤هـ دق ناقوس الحرب العظمى فذهبت مع من ذهب إلى دمشق وأمضيت سنتين رجعت بعدهما للمدينة ودخلت المدرسة (الفيصلية) الابتدائية عام ١٣٣٧هـ وكان قد دخل الحجاز في حكم الشريف الحسين بن علي رحمه الله وكان أمير المدينة ابنه الأكبر الأمير علي (ملك الحجاز فيما بعد) وكنت مراهقاً لم أتجاوز الخامسة عشرة

---

(١) لكاتب المقال تلاميذ كثر يبلغون المائتين وأزيد من وزراء وقضاة ومحامين وألوية وعقداء في الجيش ومديري شرطة ومديرين عامين ومديري إدارة وتجار ومقاولين ومحاسبين.. ولله الحمد والشكر.

وكان زميلي في الصف في الرحلة الأولى شاعر المدينة ومؤرخها الفذ السيد عبيد الله مدني أحياه الله الحياة الطيبة حتى نرى تاريخه القيم مطبوعاً منشوراً قبل أن يدركنا ريب المنون والأجل المحتوم، وكان السيد عبيد يودني ويدعوني لداره العامرة بسوق المدينة ويفتح لي مكتبة والده لأنتقي منها كتب القصص والتاريخ فكان يصحبني بعض الأحيان لمجلس أعمامه(١) رحمهم الله فأسلم عليهم سلام الطالب الزميل لابن أخيهم.

ولما انتظمت في سلك تلامذة المدرسة الراقية(٢) رزقت بزميلي ـ بتشديد الياء وفتحها ـ: السيد عثمان حافظ، رئيس تحرير جريدة المدينة اليوم، والسيد أحمد العربي عضو مجلس الشورى فكنا نتلصص في بعض الليالي لمجالس السمر التي كانت تعقد في مجلس الشريف شحاذ قائم مقام المدينة يومئذ وفي مجلس أخيه الشريف ناصر بن علي بالكشك الكبير بمقعد بني حسين، ومجلس الشيخ يوسف خشيرم بحوش منصور، ومجلس الشيخ عمر كردي بدارهم بالمناخة(٣)؛ أما ما كان يجري من السمر في تلك المجالس، فقد كان تبادل الأحاديث وأخبار البلد وأسعار الحاجيات. وللشباب قرب تلك المجالس، مجالس خاصة عن كبارهم يلعبون الشطرنج أو الداما أو الورق أو الكنجفة، وبعض تلك المجالس كانت لا تخلو من آلات الطرب والغناء حيث كان مباحاً كما كنا نحن نشترك في مجالس الذكر والموالد التي كانت تقام ليلاً في بعض الشهور

(١) وهم السادة: زين العابدين رئيس العين الزرقاء وعبدالجليل شيخ خطباء الحرم النبوي، وعبد العزيز، رحمهم الله.

(٢) كانت المدرسة الراقية تعادل المتوسطة، وتزيد عليها بمنهج دراستها.

(٣) لقد بنى تلك الدار فرع البنك الأهلي التجاري حيث عمرت من جانب البنك لعدة سنوات ثم تعود للوقف.

المباركة من ربيع الأول ورجب ورمضان وأشهر الحج. وفي عام ١٣٤٢هـ سافرت للهند لطلب العلم مبتعثاً من قبل مربينا المرحوم السيد أحمد الفيض آبادي.

وبعد أن نلت الشهادة العالية من مدرسة مظاهر العلوم العالية رجعت للمدينة لأراها تحت الحكم السعودي وقد تبدل الحال إلى أحسن مما مضى، فعينت مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية التي أسسها السيد أحمد المذكور عام ١٣٤١هـ باسم مدرسة العلوم الشرعية ـ تساءلت عن مجالس السمر التي مر ذكرها فعلمت أن أكثرها قد طوى بساطه ولم يبق منها غير مجلس السادة المدنية المار ذكرهم وفتحت مجالس أخر كمجلس آل الخريجي ومجلس الشيخ سعود دشيشة ومجلس الشيخ محمد دغستاني ومجلس الشيخ عبد الحفيظ كردي ومجلس الشيخ ذياب ناصر وفي هذه المجالس كان يجري فيها ما يجري في المجالس السابقة، إلا أن أندية الطرب والغناء أصبحت ممنوعة كما أن مجالس الإذكار والموالد منعت أيضاً لمخالفتها لمذهب السلف الصالح ولما كان فيها من البدع المنكرة، وقد كان يجتمع بعض الصحاب ليكونوا جماعة يسهرون في بيت كل واحد بالدور ويتبادلون الأحاديث وأهم لعبهم الورق (الجوكر) أو (السكسين)[١] أو قراءة بعض القصص.

* * *

وقمت أنا بدوري معهم أيضاً ردحاً من الزمان ثم فكرت في تأسيس نادي المحاضرات فأسسناه في الثانوية بالمدينة اليوم أنا وسامي حفظي

---

(١) لقد اختفت لعبة الجوكر ولعبة اليوم هي (البلوت) كما اختفت لعبة الكنجفة أيضاً.

معاون رئيس البلدية عافاه الله والشيخ عبد الله حجار عافاه الله والمرحوم السيد ماجد عشقي والزميل السيد عثمان حافظ، وأسس بالمقابل الأستاذ عبد القدوس الأنصاري منشىء مجلة المنهل نادي الحفل الأدبي للشباب السعودي العربي، ومن أعضائه الشيخ عبد المجيد خطاب والشيخ كامل خطاب، والمرحوم أحمد رضا حوحو والمرحوم السيد أحمد الخياري والسيد أسعد الحسيني وغيرهم، وأرجو أن يعلق على كلمتي هذه فهي صدى السنين الحاكي[1].

* * *

أتخذ الناديان صبغة أدبية علمية تدرج منها إلى صبغة اجتماعية، وكان حاكم المدينة (أميرها) المرحوم عبد العزيز بن إبراهيم المشهور باليقظة والحزم فبلغه أنه يدعى إلى الناديين علية الزعماء وأعيان الحجاج، واتفق أن دعا نادي المحاضرات المرحوم (القوتلي) قبل أن يتولى رئاسة الجمهورية بسورية والحاج أمين الحسيني والمرحوم حسن البنا، كما كان الناديان يدعوان كبار القوم من أعيان البلد كالمرحوم الشيخ محمد سرور الصبان وكبار الأدباء كالمرحوم علي باكثير وكان الأستاذ الأنصاري حريصاً أن لا يقرب باب السياسة ولكنه أجبر عليه فقد بلغنا المرحوم الشيخ إسماعيل رئيس ديوان إمارة المدينة المنورة الأمير بلغه خبر تلك الاجتماعات فهون أمره عليه وأشار علينا بتوقيف النادي، كما أشار على الأستاذ عبد القدوس بذلك أيضاً على ما أظن. الخلاصة هذا ما كان يجري في ليالي السمر قبل ثلاثين سنة أو يزيد غير أنه كان إلى جانب

(١) «المنهل»: تعليقنا على هذه الأنباء التاريخية الأدبية هو أن أقول في تجرد: بارك الله في ذاكرة الأستاذ الصديق المبجل عبد الحق نقشبندي فذاكرته في الماضي وضَّاءة.

ذلك مجلس العامة من عيون الشرفاء والصناع وأرباب الحرف.

* * *

في هذه المجالس كانت تجري مساجلات وفكاهات أدبية وأشعار غزلية لم اشترك فيها بالفعل بل سمعت ما كان يتلى فيها من الأشعار والنكات الحلوة.

هذا وسأثبت في ما يلي بعض تلك المساجلات والأشعار الرقيقة وهي كالدوبيت أو الشعر النبطي وكانت مشهورة (بالكسرات) وأول هذه الكسرة من الغزل الرقيق:

يا سيد زاد الحلا لونكْ   ويش السواد الِّلي في العينين
يوم اسمع الناس يطرونك[١]   سالت دموعي على الخدين

* * *

لا يا زهر ليم[٢] جيتك ضيفْ   كب[٣] الجفالا تجيب أعذار
جسمي نحل والعضام[٤] وقيف   والقلب لولا ضلوعه طار

* * *

وقول الآخر:

بين (النصيري وأبو جيدان)[٥]   غزال يمشي على هونو
ضرب قلبي برمش العين   يا رب تحميه وتصونو

---

(١) المراد يتغزلون فيك.
(٢) لم أعرف المراد من زهر ليم.
(٣) كب بمعنى اترك.
(٤) العضام: العظام.
(٥) النصيري وأبو جيدان بستانان بضاحية العوالي بالمدينة متقابلان.

وقائل هذه الكسرة اسمه موسى النخلي:

سمع هذه الكسرة المرحوم الشريف ماجد(١) فعلق عليها بكسرة يقول فيها (وكان إذ ذاك جالساً في بستان النصيري):

موسى تهيض من اللي شاف   ونا تهيضتْ من الكسره
ربك خلقنا من الأشراف   ما حط في قلبنا حسره

* * *

ومن المساجلات البديعة قول سليمان يخاطب المرحوم محمد القين(٢):

يا القين دور لنا رهوان   العربجي باع فيتونه
أبغي تمشي على البستان   وأشاهد الخوخ في غصونه

* * *

أجاب القين هازئاً بسليمان، وقامعاً له بكسرته اللاذعة فقال:

أخاف إن جيت يا سليمان   اللي بغيته يدسونه
يدخلونك مع البقران   والغرب فوقك يشدونه

* * *

وقال المرحوم الشريف ماجد يخاطب جار الله الحيدري المشهور بقول الكسرات ومحمد القين الأستاذ في الفن:

حلفتكم بالوليّ يا اثنين   وأيضاً أؤكد بجاه الله
المعرفة حزتها يا القين   وإلا أنت من تحت يا جار الله

---

(١) هو من أشراف بني حسين جد الشريف غالب المستشار بالسفارة السعودية بمصر.

(٢) هو والد الشيخ عبد الله القين المفتش المالي المتقاعد وجد السيد عبد العزيز القين مدير مطار جدة.

وقد أجاب القين، الشريف ماجداً، هازئاً بزميله جار الله بقوله:

أنـا أشـوف كـل فـعـلـي زيـن   والـمعرفة في عيون خلق اللـه
ورفـيـقـي مـبـحـلـق الـعـيـنـين   يـحـكـي عـلـى مـا هـداه الـلـه

كني بمبحلق العينين انه حمار.

* * *

وهناك شكوى على لسان شجرة الليم لشجرة الليمون مع العلم بأن ورق الليم يستعمله الحجازيون في الشاي لطيب نكهته ويقطفون من أشجاره الأوراق النامية.

شكوى الليم لليمون

الـلـيـم أشكـى عـلـى الـلـيـمـون   قـطـف (الـنـوامـي) سـقـم حـالـي
الـعـود مـبـري وأنـا الـمـسـقـوم   يـا رب تـشـفـق عـلـى حـالـي
أجـاب الـلـيـمـون يـا خـالـي   تـشكـي مـن السقـم يا خـالـي[1]
أنـا الـمـقـطـوف مـنـي ألـوف   وتـرانـي صـابـر عـلـى حـالـي

* * *

وهذه آخر كسرة للمرحوم محمد القين:

يـا أهـل الـهـوى بـعـتـكـم قـسـمـي   ونـزلـت سـومـه مـع الـدلال
مـسـحـت مـن دفـتـره اسـمـي   مـا بـعـد هـذا الـمـشـيـب خـبـال

* * *

(١) انظر لهذا الجناس بين «خالي» و «خالي» في كلام العوام.

رحم الله الشريف ماجداً، ومحمد وجار الله الحيدري وموسى وسليمان.

* * *

وبعد، فإني هنا أنهي مقالي عن مجالس السمر في الماضي مبدياً أسفي لموت الكسرات بموت قائليها ولكل زمان دولة ورجال.

حول مؤتمر القمة الإفريقي

من بواعث السرور إلى النفس أن نرى أو نسمع انقلاباً في أوضاع الأشياء السيئة إلى حسنة، ومن حسنة إلى أحسن ومن ذلك ما نراه في تطور البشر والتكامل الإنساني وخلاصه من قيود العبودية إلى نعيم الحرية والاستقلال.

كان من حسن حظي أن كنت بالقاهرة أيام انعقاد مؤتمر القمة الإفريقي الذي جمع ملوك ورؤساء أربع وثلاثين دولة كان أكثر شعوبهم يرزح في أغلال الرق وقيود الاستعمار، ولم ينج حتى الملوك منهم وفي مقدمتهم امبراطور الحبشة هيلاسيلاسي الذي تشرد يوم اغتصب الطاغية «موسوليني» بلاده، ويتلوه الملك الحسن الثاني يوم نفت فرنسا والده مولاي محمد الخامس مع أهله وعياله والحسن معه، كما لا ننسى ما لاقاه السنوسيون من التشريد والنكال من إيطاليا مدة أربعين سنة حتى أتيح للسيد إدريس السنوسي الجلوس على أريكة الملك والاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية.

كان حلماً: أن تشهد إفريقية موكب الأحرار بعد أن عاشت في مواكب العبيد والاستعمار..

كان حلماً: أن ترتفع أعلام أربع وثلاثين دولة عاشت مستعبدة أكثر من مائة عام.

كان حلماً: أن يجتمع قادتها ورؤساء حكوماتها ليتدارسوا كيف يستغلون ثروات بلادهم بعد أن كانت بيد المستعمر عشرات السنين.

كان حلماً: أن نرى زعماءها وقادتها الذين ذاقوا عذاب السجون والنفي يتولون حكم بلادهم بعد أن قادوا معاركها من أجل الحرية والاستقلال.

كان حلماً: أن تتركز أنظار العالم على هذا المؤتمر التاريخي.

كان حلماً: أن لا تصبح إفريقية مطمعاً للاستعمار ومحطاً لآماله ونهباً لخيراتها.

كان حلماً: أن تصبح إفريقية النامية تساهم في صنع الأحداث الكبرى في العالم اليوم..

كان حلماً: أن تسعى هذه الدول لتصفية بقايا الاستعمار في جنوب إفريقية وغربها وشرقها..

كان حلماً: أن تسعى هذه الدول في هدم التفرقة العنصرية التي تصر عليها جنوب إفريقية الغاشمة.

كان حلماً: أن تسعى هذه الدول المتحررة للمضي بشعوبها في طريق التنمية والتقدم والصمود أمام التيارات التي تهب عليها من كل جانب..

* * *

إن قوى الاستعمار قسمت العالم إلى أسود وأبيض إلى متحضّر ومتخلف، إلى دول تستحق الاستقلال، وأخرى لا حق لها غير الاستعمار.. واليوم بعد هذه الانتفاضة الجبارة من هذه الدول الفتية يعني ذلك دخول قوة جديدة في المعترك السياسي الدولي ومشاركتها في وضع الثقافة والعلم..

* * *

وهأنذا أذكر لقرائي الأعزاء مواقع هذه الدول من القارة العظيمة مع ذكر أهم مواردها الزراعية والمعدنية وعدد سكانها ومساحتها.. ومما يجدر ذكره أن ست دول منها عربية وهي:

١ ـ السودان ٢ ـ الجمهورية العربية المتحدة ٣ ـ ليبيا ٤ ـ تونس ٥ ـ الجزائر ٦ ـ المغرب وسبع دول منها إسلامية وهي: ١ ـ نيجيريا ٢ ـ غينيا ـ ٣ ـ موريتانيا ٤ ـ الصومال ٥ ـ مالي ٦ ـ النيجر ٧ ـ الكامرون.

ولنبدأ بذكر الجمهورية العربية المتحدة:

١ ـ الجمهورية العربية المتحدة: تقع بين البحر المتوسط شمالاً والسودان جنوباً وغرباً بالمملكة الليبية المتحدة وشرقاً البحر الأحمر ومساحتها (٣٨٦) ألف ميل مربع، سكانها يربون على خمس وعشرين مليون نسمة عاصمتها القاهرة «المعزية» وأهم حاصلاتها القطن المعبر عنه بالذهب الأبيض والحبوب والفواكه.. وأهم صناعتها المنسوجات بأنواعها والصناعات الخفيفة والثقيلة. وأهم معادنها البترول والحديد.

٢ ـ السودان: يقع السودان بين مصر شمالاً والحبشة جنوباً وغرباً تشاد والكونغو وشرقاً البحر الأحمر والحبشة مساحته ٩٦٧ ألف ميل مربع وعدد سكانه تسعة ملايين وعاصمته الخرطوم وأهم حاصلاته القطن والفول السوداني والمواشي والعاج والجلود وفيه بعض الصناعات كالنسيج وشكل حكومته جمهوري.

٣ ـ المملكة الليبية: تقع المملكة الليبية بين البحر الأبيض شمالاً وتشاد وإفريقية الوسطى جنوباً، وشرقاً مصر، وغرباً تونس والجزائر مساحتها ٣,١٧٩ ألف ميل مربع وسكانها مليون ونصف تقريباً عاصمتها

طرابلس وشكل حكومتها ملكي أهم حاصلاتها البلح والفواكه والزيتون وأهم معادنها البترول.

٤ ـ **الجزائر**: تقع بين البحر الأبيض المتوسط شمالاً وموريتانيا جنوباً وغرباً مساحتها (٥,٨٤٧) ألف ميل مربع وعدد سكانها عشرة ملايين وفقد منهم مليون من الشهداء في الحرب مع فرنسا، عاصمتها الجزائر وشكل حكومتها جمهورية، من أهم حاصلاتها الفواكه والبترول الذي ظهر أخيراً والمواشي..

٥ ـ **تونس**: تقع تونس بين البحر الأبيض المتوسط شمالاً وليبيا جنوباً وشرقاً البحر المتوسط وغرباً الجزائر مساحتها (٣,٤٨) ألف ميل مربع وسكانها أربعة ملايين عاصمتها تونس شكل حكومتها جمهوري.. أهم حاصلاتها الزيتون والفلين والرصاص والحديد والزنك.

٦ ـ **مراكش**: (المغرب العربي) تقع بين البحر المتوسط ومضيق جبل طارق شمالاً وموريتانيا جنوباً وشرقاً الجزائر وغرباً المحيط الأطلسي مساحتها (١٧٣) ألف ميل مربع سكانها خمسة ملايين تقريباً عاصمتها الرباط شكل حكومتها ملكي.. أهم حاصلاتها القمح والجلود والمواشي والصوف وأهم معادنها النحاس.

٧ ـ **موريتانيا**: تقع جنوب المغرب وشمال السنغال مساحتها تزيد على مليون ميل مربع وسكانها نصف مليون جلهم عرب مسلمون وأكثر أراضيها صحارى وأهم حاصلاتها المواشي وأهلها محافظون على عروبتهم وإسلامهم.

٨ ـ **نيجيريا**: تقع غرب القارة الإفريقية وسكانها أكثر من خمسة وثلاثين مليوناً أكثرهم مسلمون وهي أغنى الدول الإفريقية في ثرواتها

المعدنية والزراعية، ونظام الحكم جمهوري.

٩ ـ النيجر: تقع بين صحراء الجزائر شمالاً وليبيا جنوباً مساحتها مليون كيلو متر مربع سكانها مليونان ونصف، أكثر أراضيها صحراء ومسلموها محافظون على دينهم. أهم حاصلاتها المواشي، أكثر سكانها مسلمون.

١٠ ـ غينيا: تقع بين مالي والسنغال شمالاً وسيراليون وليبريا جنوباً مساحتها (٢٦٠) ألف كيلو متر مربع سكانها مليونان ونصف أكثرهم مسلمون محافظون على دينهم وأهم حاصلاتها الحبوب الغذائية والموز والأناناس والقول السوداني، ونظام الحكم جمهوري..

١١ ـ الكامرون: تقع بين نيجيريا شمالاً وإفريقية الوسطى شرقاً والأطلسي غرباً مساحتها (٤٧٤) ألف كيلو متر مربع سكانها أربعة ملايين نسمة أكثرهم مسلمون ونظام الحكم جمهوري ورئيس الجمهورية أحمد هيجو.

١٢ ـ الصومال: تقع بين المحيط الهندي والحبشة شرقاً وغرباً، وسكانها مليونان ونصف، يدين بالإسلام أكثرهم، ويتحدثون العربية والإيطالية ونظام الحكم فيها جمهوري.

١٣ ـ مالي: تقع مالي بين السنغال وغينيا وساحل العاج مساحتها مليون كيلومتر مربع سكانها أربعة ملايين عاصمتها باماكو.. أهم حاصلاتها الفول السوداني.. نظام الحكم فيها جمهوري.

وهنا تنتهي الدول السبع الإسلامية ونذكر الآن باقي الدول وفي مقدمتهم:

١٤ ـ أثيوبيا (الحبشة): تقع شرق إفريقية بين الصومال شرقاً

والسودان غرباً وكينيا جنوباً ومساحتها مليون كيلومتر مربع وسكانها عشرون مليون نسمة ما بين مسلمين ومسيحيين ووثنيين عاصمتها أديس بابا وشكل حكومتها ملكي.

١٥ ـ **كينيا**: تقع بين الحبشة والصومال وأوغندا وتنجانيقا والسودان وسكانها ستة ملايين نسمة بين مسلمين ومسيحيين وعاصمتها نيروبي.

١٦ ـ **غانا**: تقع على ساحل خليج غانا بين جمهورية توغو شرقاً وساحل العاج غرباً وسكانها حول خمسة ملايين وهي أغنى بلاد العالم بالكاكاو والذهب والأخشاب والمطاط، ونظام الحكم جمهوري عاصمتها أكرا..

١٧ ـ **السنغال**: تقع بين موريتانيا ومالي شمالاً وغينيا جنوباً ومساحتها (١٩٧) ألف كيلو متر مربع وسكانها أربعة ملايين نسمة وعاصمتها داكار وأهم حاصلاتها الفول السوداني ونظام الحكم جمهوري.

١٨ ـ **الكونغو**: «ليوبولدفيل» تقع وسط إفريقية وسكانها خمسة عشر مليوناً وعاصمتها ليوبولدفيل وشكل حكومتها جمهوري.. وأهم ثروتها ألماس والذهب.

١٩ ـ **الكونغو**: «برازافيل»: تقع بين المحيط الأطلسي والجابون ومساحتها (٣٤٩) ألف كيلومتر مربع وسكانها مليون نسمة تقريباً عاصمتها برازافيل شكل الحكومة جمهوري.

٢٠ ـ **تشاد**: تقع غرب السودان وسكانها مليون نسمة بين مسلمين ومسيحيين. عاصمتها فورت لامي، شكل الحكومة جمهوري وعاصمتها تشاد.

٢١ ـ **بوروندي**: تقع شرق وسط إفريقية، سكانها ثلاثة ملايين ونصف. عاصمتها أوزمبوا. نظام الحكم ملكي وأهم حاصلاتها (البن).

٢٢ ـ **إفريقية الوسطى**: مساحتها ٣٢٢ ألف كيلومتر مربع. سكانها ثلاثة ملايين بين مسلمين ومسيحيين. عاصمتها بيدجان أهم حاصلاتها ثروتها المعدنية من الذهب والماس.. نظام الحكم جمهوري.

٢٣ ـ **الجابون**: تقع غرب إفريقية. سكانها نصف مليون. عاصمتها ليبرفيل.

٢٤ ـ **أوغندا**: تقع شرق إفريقية.. سكانها ستة ملايين نسمة. عاصمتها أوغندا نظام الحكم جمهوري.

٢٥ ـ **فولتا العليا**: تقع غرب افريقية سكانها نصف مليون.

٢٦ ـ **رواندا**: تقع جنوب شرق إفريقية مساحتها ٢٦ ألف كيلومتر مربع سكانها ثلاثة ملايين نسمة عاصمتها كيجالى، نظام الحكم جمهوري.

٢٧ ـ **ملاوي ـ نياسا لاند**: تقع جنوب شرق افريقية. سكانها ثلاثة ملايين نسمة وتعتمد على الزراعة وقد نالت استقلالها أخيراً.

٢٨ ـ **اتحاد تنجانيقا وزنجبار**: تقع شرق إفريقية عاصمتها دار السلام حاصلاتها زراعية وحيوانية ومعدنية.. نظام الحكم جمهوري وفيها كثير من العرب والمسلمين.

٢٩ ـ **مالاجوس ـ مدغشقر**: جزيرة كبيرة تقع جنوب شرق إفريقية سكانها ستة ملايين مسلمون ومسيحيون. نظام الحكم فيها جمهوري عاصمتها تناناريفو.

٣٠ ـ **ليبريا**: تقع على الساحل الغربي مساحتها ٤٣ ألف ميل مربع

سكانها مليون ونصف مسيحيون ومسلمون وهي أقدم جمهورية في إفريقية عاصمتها منروفيا.. حاصلاتها المطاط والحديد والأرز والبن وقصب السكر.

٣١ ـ **توجو**: تقع بين داهومي شرقاً وغانا غرباً سكانها مليون ونصف بين مسيحيين ومسلمين عاصمتها لوما نظام الحكم جمهوري.

٣٢ ـ **داهومي**: تقع على الساحل الغربي لإفريقية مساحتها تعادل ثلاثة أضعاف سويسرة، سكانها حوالى مليونين مسيحيين ومسلمين عاصمتها (لوما) نظام (بورتونوفو) نظام الحكم جمهوري.

٣٣ ـ **سيراليون**: تقع على الساحل الغربي لإفريقية، سكانها مليونان كثير منهم مسلمون عاصمتها (فريتاون).

«ملامح المستقبل العربي كما أتخيلها!»

مستقبل الأمة العربية في وسط هذا الضجيج الكارب، من أحداث العالم المضطرب المائج الهائج ـ هو أمر هام ينبغي أن تعنى به الصفوة من رجال الفكر العربي.. فتقدم فيه آراؤهم لأمتهم على موائد صحافتهم الرائدة الراشدة.. حتى يستطيع كل منهم أن يحدد موقف أمته من الأحداث الحاضرة ومن المستقبل القريب. والبعيد على السواء..

فإن استبان موقف العرب الحاضر على هدى يستطيع أبناء العالم العربي عندها أن يحددوا معالم مستقبلهم وأن يكيفوه بحيث يكون وضاءً باسماً بالقوة والإشراق والنماء والتضامن والسير إلى الأمام في قوة خارقة واحترام شامل.

هذا هو ما حدا المنهل على أن يجعل استفتاءه لهذا العام هو هذا الموضوع الشيق موضوع الساعة، ويرى القراء في ما يلي آراء السادة الكتّاب متسلسلة حسب ورودها إلى رئاسة التحرير:

رأي الأستاذ عبد الحق النقشبندي

هذا الاستفتاء الذي وجهته إدارة مجلتنا المنهل الغراء لهو اختبار دقيق لمعرفة ما يكنه كل مفكر عربي ويرجوه لخير أمته وبلاده، وإني وإن كنت تركت التحرير والتحبير منذ زمن طويل وركنت للتقاعد بعد خوض معترك

الحياة، فقد أبى علي صديقي الأستاذ الأنصاري حينما تلطف وزارني بالقاهرة إلا أن ينزلني طوعاً أو كرهاً لحلبة هذا الاختبار محبباً إلي أن أجتر ذكريات الصبا ونشاط الشباب وهأنا ألبي طلب الأستاذ وإن كنت لست من فرسان هذا الميدان اليوم.

إن الأحداث التي مرت بنا نحن أبناء ما قبل الحرب العالمية الأولى منذ قيام الاتحاديين وإطاحة عبد الحميد ونشوب الحرب العالمية الأولى وانهزام قوى الائتلاف أمام دول الحلفاء وثورة الحسين بن علي وزوال الحكم الهاشمي باستيلاء القوات السعودية على الحجاز وقيام دويلات عربية تحت سيطرة الاستعمار ثم قيام الحرب العالمية الثانية ومشاهدتنا لأهوال الحربين وما قاسيناه من لأواء الحصار التركي، والحصار السعودي في بلدتنا (المدينة المنورة) قل أن تجتمع لجيل كجيلنا المخضرم الصائر إلى حسن الختام إن شاء الله.

إن الاستفتاء المذكور أعلاه لم يتطرق لماضي أمجاد العروبة أو حاضرها بل حدد بالضبط ملامح المستقبل العربي، وهنا لا بد لنا من نظرة عابرة على الحاضر لربطه بالمستقبل فأقول إن هذا الحاضر إن بشر في بعض جوانبه فهو ينذر بالشر في بعض جوانبه الأخرى وعفا الله عن فيلسوفنا العربي ابن خلدون في مقولته المشهورة (لا تقوم للعرب قائمة) وهو لم يقلها جزافاً إلا بعد أن عرك الأمور بنفسه وعرف من طبيعة العرب والبربر ما لا نعرفه وشاهد الفتن والقلاقل التي أودت بالدولة العربية في الأندلس، ولكننا اليوم وإن لم يقاتل بعضنا بعضاً إلا أن كلمتنا ما زالت متفرقة لا يجمعها إلا الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ (آل عمران: ١٠٣) ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها.

أخي العربي! إنك ترى بعض الدول العربية قد نفض عنه غبار الجهل والخمول وبرز في ميادين العلوم والصناعات الثقيلة، فضلاً عن تقدمه في الإصلاح الزراعي والنشاط الثقافي والتعاون الاجتماعي، بينما ترى بعض الأقطار في بؤس من العيش والجهل العميق كما ترى البعض متخماً بالمال والثراء الفاحش والبعض في بحبوحة من العيش الهنيء من جراء البترول (الذهب الأسود) الذي أفاء الله به علينا لإصلاح أمورنا وإعداد العدة لأعدائنا المتربصين بنا لتفريق كلمتنا وتمزيق شملنا وهذا البترول هو بمثابة الدم الحر الذي يتدفق من قلب عروبتنا، فلزام علينا أن نريقه في مشروعات التصنيع والعمران. . أليس من العار يا أخي أن عجزنا عن صنع إبرة أو اكتفينا بمحصولنا من الشعير أو الذرة أو سترنا عوراتنا بنسيج من الخيش فكيف بنا ونحن نركب السيارات الفاخرة ونأكل ما لذ وطاب ونلبس الدمقس والحرير وتناسينا المقولة (اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم) وهذا ما أشار إليه ابن خلدون بأن سبب زوال العزة هو الانغماس في الشهوات ونبذ للبطولة والفتوات حتى يغلبهم العدو ويمزقهم شذر مذر وأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، فلقد أصبحنا يا أخي عالة في أقواتنا ومعاشنا ولباسنا وسلاحنا فأين استقلالنا الاقتصادي وأين استقلالنا الصناعي وأين اكتفاؤنا الذاتي لنضع هذا المنظار الأسود القاتم ولننظر إلى ملامح المستقبل العربي بمنظار الأمل والرجاء فماذا ترى أو كما أتخيلها:

اتحاد وحلف وميثاق تعاون وتضامن بين الدول العربية ووقوفهم صفاً واحداً كالبنيان المرصوص أمام كل نازلة تنزل بالعرب والإسلام مع احترام وضع كل دولة وبغير مس باستقلالها الذاتي وكيانها الاقتصادي حيث ظهر أن فرض الوحدة بالقوة قد يؤدي إلى تفتيتها، وحسبنا اتحاد في الأهداف اتحاد في الغايات، اتحاد في المثل العليا، اتحاد في ميادين العلم والثقافة

والفنون والصناعة، اتحاد في التجارة، اتحاد في الدفاع، اتحاد في السياسة الخارجية وقد تجلت هذه الأهداف والغايات في جامعة الدول العربية بعد:

١ ـ تنسيق وتعديل ميثاق الجامعة بأن أصبحت جميع قراراته تصدر عن إجماع وموافقة من جميع الأعضاء ولم يكن هناك سيطرة لدولة من الدول على باقي الأعضاء وأصبح التفاهم أساساً لفض جميع الخلافات والنزاعات.

٢ ـ يرتبط بالجامعة جيش منظم من جميع الدول العربية للدفاع عن كيان كل دولة عربية من أي عدوان كان من الاستعمار وأعوان الاستعمار ولرد الأقطار السليبة من مغتصبيها وفي مقدمتها فلسطين العزيزة، ونواة هذا الجيش الذي ذهب للكويت لنصرته وتأييده في استقلاله.

٣ ـ تكون حصيلة ١٠٪ من جميع الدول العربية لصرفها على بعض الأقطار المتخلفة وفي مقدمتهم لاجئو فلسطين أن يمر عليهم جلادوهم ومخرجوهم من ديارهم من دول الاستعمار.

٤ ـ مشروعات كبيرة في كل دولة عربية للزراعة والري والتصنيع والإعمار ومعامل الذخيرة والسلاح، ويكون هناك امتداد لنهري دجلة والنيل في شكل أنابيب ضخمة تروي الأقطار العربية المجاورة قدر الإمكان وبذلك يتجلى التعاون والإخاء.

٥ ـ مواصلات عامة بين الأقطار العربية والإسلامية ابتداء من الباكستان مارة بإيران والبلاد العربية حتى مراكش للمحيط الأطلسي.

٦ ـ أسطول بحري يمخر المحيطات وأسطول جوي يرتاد الفضاء إلى جميع القارات، وبذلك نصبح كالجسد الواحد مصداقاً للحديث الشريف

(المسلمون في تعاضدهم وتساندهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى) أو كما قال:

وهنا أختم مقالي بأبيات تذكرتها وكنت نظمتها منذ عشرين سنة في هذا المعنى من قصيدة:

يا لقومي حسبكم من ذا الشقاق فتعالوا لاتحاد واتفاق
وأزيلوا كل «فرق» بيننا فكفانا نصطلي نار الفراق
كم صبرنا وانتظرنا فرجاً بيد أن الصبر مر في المذاق
كونوها (وحدة عربية) من ربى صنعا إلى أقصى العراق

* * *

قد سئمناها حياة مرة وارتضينا العهد والموت الزؤام
فممات لخلاص ونجاة أو حياة في التئام وانتظام
يا شباب اليوم زهر الأمل جد في السير لدرء العلل
فمصاب العرب أضحى بيننا كل يوم والفيافي جلل
فبكم قد عقدت آمالنا نرتجي عزا ورتق الخلل
أنتم الذخر المرجى وغدا سنراكم (أمة المستقبل)

بُنَاةُ الْعِلم

السيد أحمد الفيض آبادي

ايه يا أحمد الخصال فإنا قد عهدناك زاهداً وتقيا
إن مهد العلوم في ركن طه سوف يبقى على الزمان نديا

ليسمح لي الصديق الفاضل الأستاذ عبد القدوس الأنصاري أن أستعير عنوان هذا المقال من رسالته (بناة العلم) والصديق لم يترك مجالاً لمزيد في مناقب المترجم، بيد أني حاولت في مقالي هذا ذكر بعض النواحي التي لمستها من الراحل بمناسبة مرور ثلاثين سنة ونيف على وفاته تغمده الله بشآبيب رحمته ورضوانه، وها أنا أذكر نبذة مختصرة من ترجمة آله الكرام. إن السيد حبيب الله أو (الشاه حبيب الله) كما يلقبون السادة بالهند نشأ في بلدة (تانده) من أعمال فيض آباد شرقي الهند وكان مشهوراً بالتقوى والصلاح متمسكاً بأهداب الدين مبغضاً للاستعمار الإنكليزي، فعوّل على الهجرة مع أهله وأولاده فباع أرضه وعقاره وتوجه للحرمين عام ١٣١٦هـ، وبعد فراغه من الحج جاء مع أولاده الخمسة: (صديق أحمد) و «حسين أحمد» و (سيد أحمد)(١) و (جميل أحمد) و (محمود

---

(١) هكذا كان اسمه الحقيقي واشتهر بالسيد أحمد الفيض آبادي.

أحمد) إلى المدينة المنورة موطن آبائه وأجداده وأول ما عمل أن ترك تبعيته الإنكليزية والسلك في تبعية الدولة العثمانية فاشترى قطعة أرض بنى عليها داراً للسكن وداراً ثانية أشبه بمدرسة واصطحب معه مكتبة قيمة تشتمل على العلوم العربية وكتب التفسير والحديث والفقه على أن تدرس للطلبة في تلك الدار بوساطة ولديه الكبيرين السيد صديق أحمد والسيد حسين أحمد[١] على أن يلحق بهما العلامة محمود الحسن شيخ الهند ويجاور بالمدينة ولكن لم يكن بالإمكان فتح مدرسة بدون استئذان من الحكومة المحلية والسلطات الحكومية في المدينة لم تكن لتوافق على مثل هذه المشروعات العلمية، فأشار الوالد على ولديه الكبيرين (صديق أحمد وحسين) بالتدريس في الحرم النبوي مجاناً بدون مقابل فقام السيدان حسب رغبة والدهما بالتدريس في الحرم النبوي صباح مساء، ومرت السنون سراعاً توفي بعدها السيد صديق أحمد تاركاً ابنه الوحيد (وحيد أحمد) وتوسعت حلقة دروس السيد حسين أحمد من سكان المدينة والمهاجرين من أتراك وهنود ومغاربة قازانية وتعددت الدروس إلى عشرة فأكثر. درس فيها كتب الفقه والتفسير والحديث والعلوم العربية، وإني لأذكر وأنا صغير لا أتجاوز السابعة، حلقة دروسه كما اذكر والدهم السيد حبيب الله نفسه فقد كان ربعة القوام اقرب إلى القصر أسمر الوجه بلحية خفيفة وعيون نفاذة وعمامة بيضاء يتوكا على عصا وكان صديقاً لجدي لأمي يزورنا الفينة بعد الفينة ويصف لمرضانا العلاج المناسب.

كان يتعاطى الطب اليوناني خاصة لأهله وأصدقائه، وكان السيد أحمد يعاونه[٢] في شؤون البيت ويعمل ناسخاً لبعض الكتب النادرة أما الأخوان

---

(١) وكانا تخرجا من المدارس العربية العالية.

(٢) كما أخبرني بنفسه رحمه الله.

الصغيران جميل أحمد ومحمود أحمد فأدخلا في المدارس التركية وأنتدب جميل أحمد كطالب مبتعث إلى (استانبول) مع بعض طلاب من المدينة وكان ذكياً فطناً فأصيب بداء اضطره للرجوع إلى المدينة فقضى نحبه رحمة الله عليه. وأما السيد محمود فقد تخرج من المدرسة الإعدادية وتوظف كاتباً بالمحكمة الشرعية بالمدينة وجاءت الحرب العظمى عام ١٩١٤م وقام الشريف الحسين بن علي بثورته على الترك وأطلق أول رصاصة من قصره بالغزة إيذاناً بالثورة في شعبان عام ١٣٣٤هـ وفي هذه السنة كان شيخ الهند محمود الحسن وتلميذه البار السيد حسين أحمد في بلدة الطائف فقبض عليهما باعتبارهما أسيرين من مؤيدي دولة الخلافة وسلما إلى القنصل البريطاني بجدة فلم يكن منه إلا أن أركبهما على إحدى البواخر الإنكليزية وسجنا في جزيرة (مالطة).

والسيد حبيب الله وأبناه السيد أحمد والسيد محمود أحمد أجليا من قبل السلطات التركية إلى (الروملي) مع الفوج الثاني الذي أجلاهم الحاكم العسكري (فخري باشا)[1] من أهل المدينة المنورة وذلك أنه بعد ورود الخبر بثورة الشريف الحسين أخذ الباشا بإجلاء كل من وقعت عليهم الشبهة فاختلط فيهم الحابل بالنابل ورمى أهالي المدينة بعضهم بعضاً، ثم صدر الآمر بإجلاء سكان المدينة جميعهم إلى سورية والأناضول لقلة وجود الأرزاق فخلت المدينة من أهلها ولم يبق فيها إلا بضع مائة ليس غير، وكانوا يعدون في الإحصاء بثمانين أو سبعين ألفاً ولم يرجع بعد الحرب إلا ربعهم فقط كان في جملتهم الأخوان: السيد أحمد والسيد

(١) هو حاكم المدينة العسكري وقائد الحملة الحجازية عام ١٣٣٧هـ.

محمود أحمد فرجعا عام ١٣٣٨[١] وعين مولاي السيد محمود أحمد رئيساً لكتاب المحكمة الشرعية بالمدينة المنورة واشتغل السيد أحمد وكيلاً لبيت الدهلوية بمكة ترد إليه حوالات الحجاج وكانت تأتي بعض الصدقات على يده لتوزيعها على الفقراء والمحتاجين فأخذت تراوده فكرة والده لإنشاء مدرسة دينية بالمدينة فبدأ يتعرف على الطلبة المتفوقين والطلبة الأيتام وكان كاتب المقال من المتفوقين بمدارس الحكومة يومئذ فكان يختبرنا أنا وابني الخالة عبد الحميد ومحمد عنبر ومحمد كشميري وعبد القيوم صقر ويمنحنا منحا سخية تزيد من اجتهادنا في الدروس، كما كان يحبب لنا طلب العلوم العالية في خارج المدينة واستضافني المرحوم في شهر رمضان عام ١٣٤١ وصليت التراويح طوال الشهر في تلك الليالي حتى السحور، وكنت أختم القرآن في ثلاثة أيام، فعرضت عليه فكرة السفر إلى الهند فساعدني، سافرت في شوال من العام المذكور، قاصداً الحج أولاً ثم السفر إلى جدة وكان رحمه الله قد أعد العدة لفتح المدرسة التي كان ينوي فتحها، اشترى داراً قديمة شرقي المسجد النبوي على أن يبنيها فيما بعد على الطراز الحديث وبدأ بإلقاء الدروس في صحن تلك الدار وعين للمدرسة مجلس إدارة من المرحوم العلامة الشيخ محمد الطيب الأنصاري والمرحوم إسماعيل أفندي حفظي رئيس ديوان الإمارة يومئذ والسيد محيي الدين تورة البخاري والسيد محمود أحمد، وما علم بافتتاح تلك المدرسة مدير المعارف (الشيخ عبد القادر الشلبي) حتى استحصل أمراً بغلقها حتى يؤذن لها من جانب الملك

(١) بعد وفاة والدهما.

حسين فانتقل المرحوم إلى الحرم النبوي يدرس فيه مع ثلة من تلاميذه وبعد أن استوثق الحكام بأن المدرسة ستكون مدرسة دينية لا تخدم مصلحة أي حكومة أذن له بفتحها فشرع في هدم البناية القديمة وبناء مدرسة بالأحجار المنحوتة على أحسن طراز وجعل منهاج الدروس ثلاثة أقسام (قسم ابتدائي) و (قسم حفظ القرآن) وشعبة للعلوم الدينية واسمي المدرسة (مدرسة العلوم الشرعية ليتامى بلدة خير البرية) وتطوع الشيخ محمد الطيب الأنصاري مع تلاميذه للتدريس في هذه المدرسة ومعه تلميذاه اللامعان عبد القدوس الأنصاري ومحمد عبد الله وغيرها وبعدما رجعت أنا وزميلي الشيخ عبد الكريم البخاري عيننا المرحوم مدرسين للعلوم العربية وسارت الدروس على أحسن وجه وناهيك بدروس الشيخ محمد الطيب الأنصاري فانهال الطلاب على دروسه وقد أخرجت المدرسة اعداداً طيبة من حفظة القرآن ورجال علم وأدب مرموقين يشار إليهم بالبنان منهم الوزير الشيخ محمد عمر توفيق ورئيس المحكمة الكبرى المساعد الشيخ عبد المجيد حسن ورئيس محكمة جدة الشيخ محمد الحركان وعضو محكمة المدينة الشيخ محمد الحافظ وشيخ الصحافة ورائد الأدب الأول عبد القدوس الأنصاري وعضو مجلس الشورى عبد الحميد عنبر والأخوان مساعد وعبد الرحمن السديري والمدير العام لمدرسة العلوم الشرعية سعادة السيد حبيب محمود[١] وغيرهم[٢] وإسناد إدارة المدرسة الثانوية السيد أحمد بشناق إلى خير خلف السيد حبيب

(١) رئيس غرفة التجارة ورئيس مجلس الأوقاف بالمدينة وعضو مجلس الأوقاف الأعلى بوزارة الحج والأوقاف.

(٢) المدرسة الثانوية بشناق.

مشت المدرسة سنين عدة على النمط الذي رسمه منشؤها المرحوم ثم بدأت شعبة العلوم تنكمش بافتتاح كثير من المعاهد وأخذ الطلاب يتوجهون إليها، غير أن القسم الابتدائي نظم بدقة وعناية وفق منهج وزارة المعارف، ثم قل إقبال الطلبة على حفظ القرآن وأصبح المسؤولون في إدارة المدرسة يبذلون جهودهم لإنجاح التلامذة في الشهادة الابتدائية، ونحن اليوم إذا أعدنا ذكر بانيها ومؤسسها المرحوم نرى لزاماً علينا أن نرجع لتنفيذ فكرته وفكرة والده بنشر العلوم الدينية. فهل لنا أن نأمل ونلتمس من خليفته سعادة السيد حبيب وعلى رأسه والده الوقور مولانا السيد محمود أحمد إيجاد كلية شرعية[١] ولو كان بادىء ذي بدء كلية متوسطة يقبل فيها الطالب من القسم الإعدادي؟

إني باعتباري أحد المدرسين القدامى أتوسل بالأفاضل من متخرجي المدرسة الذين ذكرتهم وأرجو بحرارة أن تتقبل هذه الفكرة وتنفذ في السنة الدراسية الجديدة وإني اقتطع من قصيدة في رثاء السيد أحمد الفيض آبادي يوم تأبينه.

مولاي أحمد قد أفضت (مناهلا) من (فيض) سحك طيلة (ألآباد)
سيدوم فضلك جارياً في (معهد) أسستَه بالعلم للأحفاد
سيكون (جامعة) تضم (معاهداً) شتى لنا ومثابة للضاد

واحتفظ بالوثيقة التقديرية التي منحنيها المرحوم بتوقيعه[٢] رحمة الله عليه وجعل الجنة مثواه آمين.

---

(١) أو معهد ديني.
(٢) وهي مختومة بختم المدرسة وبداخل الختم توقيع المرحوم مولانا السيد أحمد الفيض آبادي.

رأي

سيدي الأخ النبيل الأستاذ عبد القدوس الأنصاري الموقر.

بعد التحية والتكريم، فقد تلقيت خطابكم ١٣٨٢/٨/١٠ لإبداء رأيي على افتتاحية مجلة المنهل في عددها الصادر في شعبان ١٣٨٢ رحلة الشمال بعد الاطلاع على خطاب الكاتب الأديب السيد أحمد محمد الصائغ وإجابتكم عليه.. وأنا مع اعترافي بقلة بضاعتي في علمي الاجتماع والعمران لا يسعني إلا أن أجيب طلبكم الذي لا يرد فأقول: إنه مع احترامي لرأي سيادتكم وسيادة السيد الصائغ أرى أن وجهتي نظركما وإن اختلفتا شكلاً فتتفقان روحاً ومعنى لأن كلا منكما يهدف لرفع مستوى بلادنا الحبيبة التي لم تزل متخلفة في كثير من مجالات التقدم والعمران بالنسبة للدول العربية المجاورة، وما دعوتم إليه سيادتكم من التهجير سواء من الأقطار العربية أو الإسلامية للعمل في أراضيهم الزراعية الخالية هي قضية مهمة أقرها علماء الاجتماع والعمران والبادية كما ذكرتم مهما كثروا وتحضروا فهم قلة بالنسبة لتلك الفيافي البور. وتهجير الشعوب من الأراضي المزدحمة بالسكان إلى الأقطار الخالية أخذت به دول الشرق والغرب معاً من قديم الزمان، فلولا المهاجرون إلى الأمريكتين، وأستراليا وإفريقيا لما كانت الولايات المتحدة وكندا والبرازيل

ودول اللاتين وجنوب إفريقيا إلى دول إفريقيا الفتية من بعد الاستعمار البغيض، ولولا هجرة قحطان وعدنان في الماضي لما عمرت الجزيرة العربية وأقولها بصراحة لولا هجرة أكابرنا إلى الحرمين لما كنت أنا وأنت وألوف المثقفين من العلماء والأدباء وأرباب المهن والصناعات. وأنت تعلم يا أستاذ أن بلادنا تأخرت في الزراعة وأكثر المهن والصناعات الوطنية وقل أن تجد الخبراء في أي مهنة من المهن التي كانت مزدهرة في ما مضى، وبذلك أصبح إنتاج أراضينا ضعيفاً وغير جيد. خذ واحة المدينة مثلاً فلقد كانت تنتج من الخضراوات والفاكهة وأنواع الرطب والتمور أنواعاً فاخرة جيدة مع كثرة الإنتاج بفضل الخبراء والمعمرين فكان البرسيم غذاء الحيوان الوحيد يمكث سبع سنين في الأرض كلما استحش نما وزاد فأصبح اليوم لا يزيد بقاؤه على سنتين والحوض الواحد من الباذنجان أو البامية كان يغل عشرات الزنابيل ولا يغل اليوم زنبيلاً واحداً، والفاكهة قلت أنواعها فكان الخوخ مضرب المثل في روائه وحلاوته وهو اليوم مفقود، والرمان بولغ في كبره حتى لا يسعه فم المد المعروف والبطيخ كانت البطيختان تساويان حملاً في خرج وكانت أنواع الرطب والتمور تزيد على المائة أما اليوم فقد قل المحصول منه واختفى كثير من تلك الأنواع، وما ذلك إلا لقلة الأيدي العاملة وانعدام الخبراء؛ وفي هذه الحالة ألسنا في حاجة لاستقدام الأيدي العاملة من الأقطار المجاورة في مجالات الزراعة والصناعة؟ ولئن كنا في حاجة لاستقدام ألوف المثقفين فنحن في حاجة أضعاف أضعافهم من الصناع والعاملين..

ويقول علماء الاجتماع بأن خليط الأمم المتحدة والمتوحدة التي تعيش في رقاع الأرض كأمة واحدة وشعب واحد وإن اختلفت في الأصول والأجناس فللهجرة في كيانها أثر واضح المعالم في توحدهم واندماجهم

مع بعض وخاصة إذا كانوا أبناء أمة واحدة وملة واحدة. وهذه النظرية خليقة أن تطبق على الشعب السعودي الكريم فلقد ترامت أطراف من الخليج إلى امتداد غرب البحر الأحمر ومن تخوم الشام إلى جبال اليمن السعيدة، إذن فلنأخذ بمبدأ الهجرة كما يدعو إليه الأستاذ الأنصاري بشروط وقوانين ولعلّ في استخدام رؤوس الأموال الأجنبية فاتحة خير لعمران البلاد.

وقبل أن أختم مقالي أعود لما ذهب إليه السيد الصائغ من أنه يجب أن نفكر أولاً بتحسين أوضاعنا وتطوير مجتمعنا وتنظيم حياة سكان البلاد الأصليين من أبناء البادية وإيجاد العمل لهم في مواطنهم ورفع مستوى معيشتهم، وهو رأي سديد يحسن بالدولة أن تهتم به وتتولاه؛ فمن المعلوم أنه قل عدد من في البوادي بسبب قلة الأمطار وانعدام الكلأ ففنيت مواشيهم ونضبت آبارهم وتفرق أكثرهم في المدن والقرى القريبة منهم وأن المعونات المؤقتة التي تسديها الدولة إليهم إن هي إلا بمثابة حقنة مسكنة لا تلبث قليلاً حتى يستشري الداء من جديد كأشد ما كان، وفي تهجيرهم وتثقيفهم وفتح أبواب الرزق لهم قوة وعزة ومنعة للدولة لشد أزرها لدى الملمات، فهم درعها الواقي وحصنها الحصين ولقد كان لموقف العرب في جميع الغزوات والحروب التي مرت في التاريخ الفضل الأكبر في النصر والفتوحات.

وهنا أختم كتابي بالشكر للأستاذ الأنصاري والسيد الصائغ على إتاحة المجال لمفكرينا وأدبائنا لإبداء رأيهم في مجلة المنهل لما يعود بالخير لوطننا الغالي والله الهادي إلى سواء السبيل.

عبد الحق النقشبندي

من هم الأغوات

كان لأغوات الحرم النبوي فيما مضى من الزمن شأن يذكر، وكان كبيرهم يلقب بالمستسلم، وكان السلطان هو الذي يبعثهم من استنبول من أغوات السراي المعمرين ليقضوا آخر عمرهم في خدمة الحجرة، والبعض منهم كان على جانب من العلم وتداول في الاستسلام فيما مضى عشرات منهم وكان في آخر المائة بعد المائتين والألف المستسلم مرجان آغا سليم، وكان شيخ الحرم ومحافظ المدينة عثمان فريد باشا وفي أيامه سافر مرجان لإيران فأنعم عليه شاه العجم وبعث معه شمامة منضدة باللؤلؤ الثمين لجعلها داخل الحجرة، وبعث كتاباً معه لعثمان باشا يخبره ببعث الشمامة ولما رجع مرجان آغا للمدينة أفتقد الشمامة، فسأله الباشا عنها فلم يحر جواباً فأوعز الباشا لمأمور بيت المال أن يضع يده على بستان الدرويشية الذي كان مرجان آغا مستأجره من وقف الأغوات بأجرة زهيدة وغرس فيه الكثير من النخل والشجر، فأتمر مأمور بيت المال وكان هو سليمان الياس فوضع يده على البستان وقطع شجره ونخله وقسمها إلى مربعات ومخازن، وأخرج حجة شرعية بتملك مرجان آغا للبستان بوضع اليد وببيع المخازن لكل مشتر ويضع القيمة بصندوق بيت المال ويأخذ الباشا ما يريد منها ومن هذه القيمة وغيرها.

بنى عثمان باشا البيوت السكنية التي كانت مشهورة باسمه وبعد وفاته باعها أكثر ورثته إلى عبد الله البخاري وباعها ورثة من عبد الله إلى تاجر العطر.

وأوقفوها على الحجاج وجعلها الناظر عليها بهاء الدين خاشقجي ومن أتاه من الحجاج بأمر منهما أنزله مؤقتاً أيام الموسم فقط، ونرجع إلى ما كنا بصدده من الأغوات فقد تداول بعد مرجان آغا الكثير من المستسلمين أدركت وأنا يافع محمد سرور آغا وكان على جانب من العلم يدرس الأغوات دروس الفقه حتى كان المستسلم خليل آغا وكان هذا حافظاً للقرآن، وكان درس بعض العلوم على مدرسي الحرم واصبح يدرس بعض الأغوات ومن يجلس في حلقته، وقد تعرفت عليه من مربى المرحوم السيد أحمد الفيض أيادي سنة ١٣٤٠هـ ومرت السنون بعدها حتى عام سنة ١٣٦٠هـ وكنت تحصلت على إجازة المحاماة وكان كاتب الأغوات إبراهيم الكاتب تعرف علي وكان يحضر عن المستسلم وكيلاً عنه في بعض الدعاوى التي إذا عَنّ أمر من أمورهم في الوقف فحسن للشيخ خليل أن يوكلني فقبلت الوكالة وصرت أحضر عن المستسلم في بعض الدعاوى وأكسب القضية، ولم أشأ أن أجدد أتعابي في القضايا بل أقبل كل ما يعطيه الشيخ خليل من صندوق الوقف، وكان الشيخ خليل عتيقاً لأحد المصريين هو حسن البناني الذي أعتقه وبعثه للمدينة ليصبح ضمن أغوات الحجرة وذلك بعد أن علم بأن خليل يتصل نسبه للعباسيين المقيمين في السودان من أمد بعيد، ولما دخل خليل في سلك الأغوات يعيش على حصته من الوقف وما يبعثه له سيده من مصر مع أعيان المصريين فكان بدوره يكرمهم باستضافتهم وهم يردون له الجميل بأجمل منه من هدايا أو نقود، فكان يقتصد من تلك النقود وكلما توفر له مبلغاً

منها أشترى به عبداً أو أمه وأعتقها لوجه الله تعالى، وكانت قيمتهم لا تزيد عن أربعمائة أو خمسمائة ريال كما اشترى قطعاً من الأراضي في طريق سيد الشهداء، وشرع في بناء مسجد عليهما شيئاً فشيئاً فكان أهل الخير من الحجاج المصريين وغيرهم يبذلون منحاً لمساعدته وخاصته إذا سمعوا ببناء مسجد وقد أهدى له من بعض بكوات المصريين.

وكان يذهب كل يوم بعد العصر لرؤية ما يعمله العمال ثم بنى رباطاً بجانب مسجد القرين وبعد سنة من توليه الاستسلام تم له ما أراد من بناء مسجد قباء ومسجد سيد الشهداء ومسجد القرين والرباط، وشعر آخر عمره بدنو أجله فجعلني أنا ونائبه نصر الدين آغا وصيين مختارين بعد وفاته نتصرف بالثلث من ماله في وجوه البر والخيرات والثلثين نوصلهما لأبن معتقه عبد المنعم وعبد السلام ابن حسن بناني ولم يمض شيئاً على هذه الوصية حتى توفاه الله وكان أعتق عبيده وجواريه وأوصاني أن نجعل لهما نصيباً في ثلث المال وقد أوصلت ثلثي ماله نقداً بعد بيع فراشه ومتاعه وعربته لمصر سنة ١٣٧٢هـ وصار بعده نائبه نصر الدين آغا متسلماً على أن أقوم بدعاوى وقف أسر أغوات سنة ١٣٧٤هـ وبعدها سافرت لمصر لمراقبة الأولاد في مدارسهم بعد أن استقلت من محاماة مالية المدينة.

من مذكرات محامي

قال لي ابني الأكبر العقيد عبد العزيز النقشبندي: لقد عملت يا والدي في المحاماة سنين عدة أولاً كمحامي شرعي ثم أخيراً محامي وزارة المالية ولم تكتب ولو مرة من ذكرياتك عنها كما أتحفتنا الكثير من ذكرياتك، قلت له: إني لم أشأ الكتابة عنها عمداً الآن لأن المشتغلين بالمحاماة ينظر إليهم القضاة بعين الريبة باعتبار أنهم أناس لا يقصدون من مهنتهم غير الكسب لا إظهاراً للحق، وأنا لم أعمل في المحاماة إلاّ انتصاراً للمظلومين وكنت لا أقبل القضيّة إلا التي أرى فيها الحق ظاهراً لموكلي وسماع شهوده طبق دعواه إن كانت الدعوى تحتاج إلى إثبات، فكان أكثرهم لا يرجع لعدم عثوره على شاهدين عدلين يشهدون طبق دعواه. وفي مباشرتي لأحد قضايا الزوجية كانت الزوجة متضررة من زوجها الذي كان لا يعاشرها بالمعروف ورغبت التخلص منه ولو بالافتداء منه بالمخالعة، وكانت الدعوى موجهة على زوجها فحضر في الجلسة وتليت عليه الدعوى وقبل أخذ الجواب منه التفت إلى القاضي مؤنباً هكذا أنتم يا وكلاء تدخلون بين الزوجين للتفريق بينهما قلت له يا مولانا حاشا إنني لم أتوكل لهذه الغاية بل توكلت لاقتناعي بتظلم الزوجة فقال لي أحضرها في الجلسة الآتية فحضرت وحضر زوجها فسألها عن صحة دعواها فأجابت بصحتها، وعندئذ سأل زوجها ألا يعاشرها بالمعروف كما

ادعت؟ أجاب هذه دعواها قال له وما تريد منها قال تفتدي نفسها برد صداقي وما خسرته في زواجها حيث هي طلبت المخالعة كما ادعت، قالت إني مستعدة لأرد له صداقه، قال لها أحضريه في الجلسة الآتية فحضرت في الجلسة وأتت بالصداق وسلمته للقاضي فسلمه للزوج وخالعها منه وانتهت الجلسة بالمخالعة وحرر به صك للمدعية، وبعدها تزوجت المذكورة من زوج آخر وأنجبت منه أولاداً ولم تنجب من الأول وما زال والدها يشكرني كلما رآني على صنيعي لابنته وأصبح مولانا القاضي يتوخى الصدق في قضيتي. وفي قضية أخرى باشرتها بعد التأكد من صحة دعوى موكلي بموجب حجة شرعية صادرة من المحكمة وكانت دعواه بأن المدعى عليه وضع يده على قسم من أرضه واقتضى الأمر لوقوف القاضي على نفس الأرض لتطبيق حدودها كما هو محرر بالحجة وطلب من الشاهدين اللذين أحضرهما المدعي ليشهدا طبق ما هو محرر بالحجة المذكورة فحضر الشاهدان وبعد تلاوة الدعوى على أن المدعى عليه سأله القاضي عن قطعة الأرض الذي وضع يده عليها فأشار عليها وذكر حدودها وأنها تقع شرق أرض المدعي وتفصل بينها سكة الحديد فطلب القاضي من الشاهدين أن يتلوا شهادتهما فشهدا بما يناقض دعوى المدعى بأن أرضه يحدها من الشرق سكة الحديد والقطعة التي وضع المدعى عليه يده. عليها وهكذا انقلبت الدعوى على موكلي وأصبحت في صالح المدعى عليه فأخذ موكلي يعتب على الشاهدين على شهادتهما فقالا: ما شهدنا إلا بما علمنا وحكم القاضي بعدم الالتفات لدعوى موكلي. وهناك قضايا كثيرة منها أن ماء المطر كان يقع في حفرة خارج السور السلطاني فيكون ما يشبه الغدير فاتخذه بعض المنسية ليكون مقهى على جوانبه فيأتيه الناس بعد العصر لتناول الشاي والقهوة ونسبه الناس

لصاحب المقهى فكانوا يقولون هي مقهى فلان. ومات الرجل، واشتهر الغدير باسمه ومرت سنون عدة وجاء رجل مدعياً أن الغدير ملك فلان وأن والدته هي الوارثة الوحيدة وطلب حجة استحكام للغدير وبعد إثبات وراثة أمه سمع القاضي شهادة الشهود على مكان الغدير فشهدوا على أنه لفلان الواضع يده عليه مدة طويلة وصدرت للمدعي حجة الاستحكام ليتصرف في البيع.

وقضية رابعة أذكرها وهي أن بعض الناس طلب حجة استحكام أيضاً لأرض واضع يده عليها وأنه متصرف فيها بحفر بئر وزرعها لأنها أرض بوار ولزم الأمر لوقوف حاكم القضية عليها وسماع شهوده فشهدا شهيدين بموجب مدعاه وأنه متصرف في الأرض وذكروا حدود الأرض من جهتها الأربع وحدها الشمالي أرض بوار أيضاً وطلب من القاضي أن يأتيه بمقدار طولها وعرضها بالمتر في الجلسة الآتية فجاء المدعي بمقدار طولها بالمتر بيد أنه زاد في طولها من الشمال ضعف ما كان قد ادعاه وصدرت حجة الاستحكام فباع نصف القسم الشمالي ومن حجته وكان ذلك كسباً له من عمله هذا الذي لم يتنبه له فضيلة القاضي، بيد أن استدار ودار الزمان وأصبح القضاة يقدرون المحامين الطيبين ذوي الذمم لأنهم يساعدون في تصحيح الدعاوى.

يقول الأستاذ الرافعي نقيب المحامين بمصر: إن رسالة القضاء هي إقامة العدل بين الناس وهي مهمة قدسية تستمد وجودها نيابة عن المجتمع الإنساني في إعطاء كل ذي حق حقه والانتباه للضعيف والمظلوم وهي المهمة الأولى للدولة قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾ (صۤ: ٢٦). وهي مهمة القضاء العادل الذي

يطمئن الناس في ظله على أرواحهم وحقوقهم وحرياتهم وأموالهم. ومنذ أن وجد القضاء في المجتمعات المتحضرة وجدت المحاماة أي وجد الدفاع عن أصحاب الحقوق أمام القضاء فليس ممكناً للقاضي أن يتبين وجه الحق إلاّ إذا وجد مساعدة من المحامي، فالمحاماة عون القضاء في الوصول إلى الحكم العدل والعدل أساس الملك، ومن أجل ذلك قام التعاون بين القضاء والمحاماة ووجدت الصلة الروحية التي تجمع بينهما، والقضاء لا يستطيع أن يؤدي رسالته بغير المحاماة وأوجبت الشرائع وكالة المحامي عن صاحب الحق في الدعاوى ذات القيمة، وأوجبت ألاّ يحاكم متهم في قضية جنائية إلا إذا دافع عنه محام، فإذا لم يكن له محام ندبت له المحكمة محامياً يدافع عنه وتبطل المحاكمة إذا لم يحضر عنه محام فللقضاء دستوره وتقاليده، وللمحاماة دستورها وتقاليدها، فإذا أدى كل منهما واجبه استقام ميزان العدل واطمأن الناس على حقوقهم.

يقول أحد القضاة المرموقين في إيطاليا وكان أبوه محامياً يقول: لقد أفضى إليّ والدي في آخر أيامه بهذه العبارة: ثق بأن أحكام المحاكم عادلة دائماً إنني لم أجد سبباً للشكوى خلال اثنتين وخمسين سنة من ممارستي للمحاماة من انعدام العدالة فما كسبت قضية إلا وأنا مؤمن بأن الحق كان إلى جانبي وما خسرت قضية إلا وأنا مؤمن بأن الحق كان في جانب خصومي وأنا بدوري يا ابني قضيت خمساً وثلاثين سنة في اشتغالي بالمحاماة وأعتقد كذلك.

أجابني عبد العزيز إذاً قد جاء اليوم يا والدي الذي تعتز فيه بالمحاماة قلت ولكن انتهيت فليبارك الله في المحامين الشباب الصالحين. وإلى هنا كتبت هذه الحلقة الأولى من مذكرات محامي.

لمحة عن بطولة عالم إسلامي جليل في سبيل إنقاذ فلسطين من الصليبيين

في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تفاقم أمر المغول التتار في بلاد ما وراء النهر فزحف هولاكو خان على بلاد إيران وكانت دويلات صغيرة، فاستولى عليها عنوة ولاية بعد ولاية ودان له أهلها بالطاعة والاستسلام فزحف بجيشه الجرار إلى العراق في خلافة المستعصم بالله[1] وجرت مخابرات بينه وبين الخليفة بوساطة وزيره (مؤيد الدين العلقمي) بل (هادم الدين) فخان الخليفة، ودخل هولاكو بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وأباح المدينة ونهب قصور الخلفاء وقتل مئات الألوف من السكان حتى سال نهر دجلة بالدماء.

وفي نشوة ظفره وظلمه بعث رسله لسلطان مصر والشام مظفر الدين قطز، من سلاطين الأتراك المماليك ليسلمه ما في يده من البلاد مصر والشام بدون حرب وقتال، فرفض هذا السلطان طلبه بإباء. ويعود الفضل إليه في حماية الشرق الأدنى من مصر إلى بلاد الشام.. فعبر هولاكو نهر

(١) آخر الخلفاء العباسيين بالعراق.

الفرات متوجهاً إلى بلاد الشام.. ودخل حلب ظافراً، وكان السلطان يتأهب للجهاد بالتشاور مع قواده في مصر وأمراء مملكته يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ولم يبق لهولاكو غير أيام حتى يدخل إلى دمشق ويعيد مذبحة بغداد.

في تلك الأيام الرهيبة والأوقات العصيبة انبرى عالم كبير وفاضل جليل مشهور بالتقوى والصلاح، وصاحب تصانيف مشهورة، وداعٍ إلى الرجوع لعقيدة السلف ألا وهو الإمام تقي الدين ابن تيمية الحراني عالم الشام والذي يصدق عليه الحديث الشريف: (العلماء ورثة الأنبياء).

قام هذا الشيخ يحض الناس على الجهاد والذود عن حياض الوطن الإسلامي وبذل النفوس رخيصة في سبيل الله لدفع العدوان، وأخذ يتنقل بين الأهالي والجند ويطوف في الدساكر يثبتهم ويرغبهم في الجهاد مذكراً بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمرن: ١٧٥).

وقائلاً: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) فتحولت أرواحهم المنهزمة إلى جبهة صلبة تواقة للقتال والجهاد ولم يكن بعد قد تحرك السلطان قطز من مصر، فركب إليه الشيخ واجتمع به وبأمراء مملكته وقواده وكان السلطان كما قدمنا يقدم رجلاً ويؤخر أخرى حتى دخل عليه الشيخ وذكره بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ

يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ (التوبة: ٢٤). فنفخ فيهم روح الحمية ورجع من وقته، إلى دمشق ليقوي من عزيمة الشعب الإسلامية لخوض الجهاد والقتال ومعركة المصير، وبعد أيام تحرك ركْب السلطان قطز بجنوده الجرارة وكبار قواده وأمرائه واجتمعوا بجنود الشام ومن ورائهم الأهالي داعين لهم بالنصر والابتهال إلى الله.. والتقوا بهولاكو الذي جاء بجحافله وجنوده كالجراد المنتشر بين السماء والأرض.. التقى الجمعان بعين جالوت[١]، والشيخ تقي الدين مع المحاربين بسيفه ولسانه يحرض على الجهاد والقتال.. وكانت هذه المعمعة في شهر رمضان مثل هذا الشهر. وكان الشيخ ابن تيمية يمر بصفوف المجاهدين قائلاً لهم: «افطروا وقاتلوا فإن الرسول ﷺ أمر بالفطر في فتح مكة في شهر رمضان» وحمى الوطيس، ونادى السلطان (قطز): يا خالد ابن الوليد متفائلاً بسيف الله المسلول بالفتح والنصر.. فصاح به الإمام ابن تيمية قائلاً له: قل يا الله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. وقل ما كان الرسول ﷺ يقوله في المعارك: (اللَّهُمَّ أنت عضدي ونصيري، بك أجول وبك أصول وبك أقاتل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم).. فاستجاب السلطان لنصحه وبايع الله على الموت في الجهاد.

يقول العلامة ابن القيم تلميذ ابن تيمية: (لقد شاهد العسكر من قوة الإمام يومئذ أمراً عظيماً). وثبت السلطان في تلك المعركة الهائلة، وفي هذا قال الإمام ابن كثير: «وجرت خطوب عظيمة في ذلك اليوم وقتل فيها كثير من القواد والأمراء والجند، وما اقتربت ساعة العصر حتى انكسر هولاكو وقتل من جنوده ما لا يعلم عدده إلا الله، ونزلت من

---

(١) من أرض فلسطين.

قدس الله ريح النصر والفتح المبين وكشف الله عن المسلمين تلك الغمة العظيمة ولله الحمد والمنة».

فهل نرى اليوم من علمائنا الأعلام عالماً يحذو حذو ذلك الإمام، يجاهد بسيفه ولسانه، وقائداً مثل مظفر الدين قطز يهب روحه للجهاد (بعد أن أعلنها مدوية في آفاق العرب وبلاد الإسلام جلالة الملك فيصل بعد حرق ثالث الحرمين وأولى القبلتين[١])؟

اللَّهُمَّ وفق جلالته لما تحب وترضاه يا رب العالمين.

(١) بعد أن أصبح الجهاد فرضاً على كل مسلم.

مكتبة مصحف الحرم النبوي الشريف

هذه ـ مكتبة مصحف الحرم النبوي، حرية بأن تكون من الآثار التي كانت مطمورة في خزائن الحرم منذ سنين طويلة لم يعلم عنها أحد حتى قيض الله أن يتولى سعادة الشيخ حبيب محمود أحمد مهام إصلاحات الحرم النبوي والمساجد فعثر على المصاحف القيمة التي أوشك أن تقضي عليها العثة، وهذه المصاحف مخطوطة بالقلم مذهبة الأطراف والحواشي وقد كنت مدعواً لدى افتتاح هذه المكتبة فرأيت ويا عجب ما رأيت:

١ ـ المصحف الكبير الذي كان سابقاً أمام باب التوبة بالحجرة وهو مكتوب على رق غزال بخط النسخ ومترجم تحت كل سطر بالفارسية يقال إنه طبق المصحف الذي بعثه سيدنا عثمان إلى بلاد فارس، وهذا المصحف أمر بكتبه أحد شاهات العجم وأرسله الشاه هدية للحجرة المطهرة، وطول المصحف بجلده متر ونصف متر، وعرضه متر أو يزيد.

٢ ـ والمصحف الثاني مصحف سليم إنما بن محمد باشا الشهير، مخطوط بالنسخ ومؤرخ سنة ٨٨٩هـ.

٣ ـ والمصحف الثالث المكتوب سنة ١٥٠هـ زمن الخليفة الهادي بن المهدي العباسي وهو مكتوب في ثلاثين صفحة فقط في كل صفحة جزء مستقل..

٤ ــ مصاحف مبتورة وكتب علمية في الفقه والحديث وصورة من خريطة الإدريسي.

٥ ــ الدواليب الستة المصدفة المهداة من الأميرة أمينة هانم كريمة إلهامي باشا وحرم الخديوي توفيق باشا ووالدة عباس حلمي باشا وذلك سنة ١٣٢٨هـ.

٦ ــ قطع من غلاف الكعبة المشرفة ومن الستائر التي كانت تسدل في مواجهة أبواب الحجرة.

٧ ــ نماذج من فتائل الزيت أيام كان المسجد يضاء بالزيت والشموع.

٨ ــ الشمعدانات الصفراء التي كانت بجانب المحاريب حيث لم يبق لها لزوم بعد إدخال الكهرباء للحرم النبوي منذ أيام حكومة العثمانيين.

وقد زين السيد حبيب جدر الغرفة بالألواح الجميلة المكتوبة بآيات من القرآن الكريم، وبالأحاديث النبوية بقلم مشاهير الكتاب ومنها كتابة خطاط الحرم عبد الله زهدي رحمه الله، وزين سقفها بالنجفات البلورية التي كانت تضاء بالشمع، وجلب للغرفة مهندس ديكور رتبها ونظمها.. وبالجملة فقد أغدق عليها الحبيب كل ما يمكن أن تكون معه منالاً عجباً لكل من يزور هذه الغرفة بعد زيارة مسجد الحبيب الأعظم ﷺ. هذا وإننا لنشكر لسعادة السيد حبيب محمود أحمد هذا العمل الخالد الذي سيسجله التاريخ له بمداد الفخار، مد الله في عمره بالصحة والسعادة.

دُمُوعٌ وحَسَرات على الملك الراحل

نعى الناعون وبكى الباكون، من العرب والمسلمين، وفي مقدمتهم ملوك العرب ورؤساء الجمهوريات العربية والإسلامية، وفطاحل الكتاب ونوابغ الشعراء فأثنوا وامتدحوا وأطالوا في محامد الملك الشهيد الإمام فيصل بن عبد العزيز ما هو أهل له، فقد كان ـ والحق يقال ـ خير ملوك الأرض، وحامي حمى العروبة والإسلام.. وليس من باب المغالاة إذا قلنا إنه لم يسبق أن شوهد مأتم على ملك أو سلطان مثلما شوهد في مأتم فيصل العظيم. كما لم يتجمع آلاف المصلين مثل ما تجمع على جثمانه من رجال ونساء، وصلّى عليه صلاة الغائب في جميع أقطار العالم الإسلامي. وكان لوفاته رنة حزن وأسى. حتى لم يتمالك الكثيرون من إسالة الدموع وسكب العبرات. فرحمك الله يا فيصل وتغمدك بالرحمة والرضوان، وهنيئاً لك بالشهادة التي كنت ترجوها وتنوء بها في أكثر خطبك حتى وافاك الله بها، وسجلت في عداد الشهداء ونرجو أن يصح قوله تعالى على أمثالك: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩). لقد أنطت أمانة هذا العظيم بأخويك: جلالة الملك خالد المفدى وسمو الأمير فهد ولي العهد اللذين كنت تتوسم فيهما رجاحة العقل وسياسة الملك، سدد الله خطاهما وقرن بالسعادة والإقبال أيامهما.. وهنا أشير للقصيدة التي امتحدت بها جلالته

يوم آب من مؤتمر القمة بلاهور ـ باكستان ـ فقد كنت أفرغت فيها كل ما كان يتحلى به المرحوم من آيات المدح. وما عمله في المملكة لرقي شعبه، وما كان يكنه في نفسه.. وقد نشرت القصيدة في مجلة المنهل لشهر ذي الحجة ١٣٩٤هـ.

وهنا أرجو من زميلي الأستاذ عبد القدوس الأنصاري نشر تلك القصيدة[١] إلى جانب كلمتي هذه مرة أخرى في المنهل. لأنها في ذكرى وفاة الراحل العظيم.. وأخيراً رحمك الله يا فيصل، وسجلت في عداد الشهداء والصالحين..

(١) راجع القصيدة ص ٦٢ من الأعمال الكاملة.

الحج تعارفٌ وتآلف بين المسلمين

وذكرياتٌ أدبية قديمة

من المعلوم لدى المسلمين أن الحج خامس أركان الإسلام لمن استطاع إليه سبيلاً وإن كان الكثير منهم لا يطبق شرط الاستطاعة المقرر شرعاً، فنرى بعضهم فقراء لا يملكون غير تذكرة لركاب في باخرة أو سفينة أو أجر سيارة وبعض دراهم معدودة لا تكفي مصرف معيشته مدة إقامته بموسم الحج، وقد نرى من يتسول أيضاً. وأكثر الحجاج نراهم قد تعدوا سن الكهولة، والقليل من الشباب من يحج في بداية عمره والمستطيعون حقاً هم إخواننا الإيرانيون الذين ينفقون في بسطة من العيش يترفهون في مسكنهم حتى رجوعهم بهداياهم الثمينة، وبعض الحجاج يأتي ببضاعة طيبة، كالطنافس والعود والزعفران والبسط، فيكسب منها، وليس في ذلك من حرج لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٨).

والكثير من أعمال الحج كالطواف، والسعي ورمي الجمار أفعال تعبدية وقد عرفنا بعض فوائد بعضها وحكمتها والبعض لم نعرفه بعد وإن بين بعض العلماء حكمتها خذ مثلاً قول عمر رضي الله عنه لما أراد تقبيل الحجر الأسود: (إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت

رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك) فقال له بعض الصحابة: (بلى إنه ينفع فيشفع لمن قبله وأنه من أحجار الجنة، نزل مع أبينا آدم.. إذا صحت هذه الرواية. كما أن وجه المرأة يجب كشفه خاصة في الحج مع أنه عورة[1] وكانت المرأة في الجاهلية تطوف مكشوفة سومتها وتنشد قائلة:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

على أن هناك أشياء كان الرسول ﷺ قد هم بتغييرها لو مد في عمره كما جاء عن أم المؤمنين رضي الله عنها من قوله صلوات الله عليه: (لولا حدثان قومك بالجاهلية لجعلت للكعبة باباً شرقياً وباباً غربياً وأدخلت الحجر في الكعبة).. وقد أراد بعض الخلفاء بناءها من جديد بإدخال الحجر وفتح بابين واستفتى بعض علماء وقته فلم يفتوه وقالوا: (لا تتخذها لعبة بعدك للملوك والسلاطين) فكف عن ذلك.

وبعد هذه المقدمة نعود إلى صلب مقالنا: (الحج تعارف وتآلف) فأقول آسفاً إن أكثر الحجاج لا يفهمون معنى هاتين الكلمتين وقد يتبرم بعضهم ويتورم لو أخذ أحدنا يسأل عن أحوال المتميز منهم بالوجاهة والمعرفة.

ذكر لي أحد تلامذتنا وكان يدرس الإنكليزية في تلك الأيام قال: (كنت بالحرم الشريف فراقني أحد الحجاج الذي كان يضع نظارة على عينيه، أنيق الهندام من أهالي جنوب إفريقية فمددت يدي له قائلاً: (كود مورننك هواريو) بمعنى: (صباح الخير كيف الحال) فجذب يده مني وهب في كأني متسول فقمت عنه مكسوفاً.

---

(١) «المنهل» بعض المذاهب المعتبرة لا يرى وجه المرأة عورة..

ذكريات أدبية قديمة

ذكرني قول الطالب هذا أياماً قديمة كانت قبل نحو نصف قرن تقريباً ١٣٤٧هـ كنا نتوق إلى الاجتماع مع الأدباء وفضلاء الحجاج ونطرح السؤالات الأدبية للنهضة العلمية وقد سبق أن أتخذ كاتب هذه السطور (نادياً للمحاضرات) في بهو المدرسة الناصرية لإلقاء المحاضرات الأدبية والعلمية وكان من أعضائه النابهين صديقي زميل المدرسة والمهنة السيد عثمان حافظ[١] والأستاذ محمد حسين زيدان[٢] والمربي الفاضل أحمد بشناق[٣] وغيرهم فنجتمع كل ليلة جمعة ونلقي المقالات الشيقة في العلم والأدب والأخلاق، كما أن صديقي وزميلي الأستاذ الكبير عبد القدوس الأنصاري[٤] أتخذ نادياً ليلياً للمحاضرات لهذه الغاية وسماه هو وزملاؤه (الحفل الأدبي للشباب العربي السعودي المتعلم) وكان من أعضاء هذا النادي المرحوم الفاضل السيد أحمد الخياري[٥] والأديب المجاهد المرحوم أحمد رضا حوحو) أو القارىء المعروف السيد أسعد الحسيني وغيرهم وأول من شرف نادينا هو رائد الأدب الأول في المملكة المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان. وكان أول معرفته بشباب وأدباء المدينة في دار الصديق الأستاذ عبد القدوس الأنصاري حيث دعاه ودعا لفيفاً من الأدباء إلى حفل عشاء وذلك عند عودة محمد سرور من الرياض هو ومحمد الطويل.

---

(١) رئيس تحرير جريدة المدينة.

(٢) الكاتب المعروف في الصحف.

(٣) مدير المدرسة الثانوية بالمدينة.

(٤) صديقي وزميلي بمدرسة العلوم الشرعية حيث كنا مدرسين فيها أمد الله في عمره ليتوج بتاج الأدب والفخار في يوبيل منهله الذهبي (العيد الخمسيني للمنهل) أسأله تعالى أن يحييني لذلك اليوم لأقوم ببعض واجب الزمالة.

(٥) مدير مدرسة القراءات بالمدينة سابقاً.

وممن احتفل بهم نادي المحاضرات من كبار الأدباء: الشاعر فؤاد شاكر رحمه الله.. وكان من احتفل به نادي الحفل الأدبي الشاعر المرحوم علي أحمد باكثير رحمه الله وتدرج الناديان بدعوة أعيان الحجاج من الأدباء والعلماء حتى الزعماء منهم.

أما اليوم فهناك (الرابطة الإسلامية) التي جمعت فأوعت من كبار العلماء والأدباء والساسة المخلصين من المسلمين يتصلون بكبار الحجاج وقادة المسلمين كل ذلك بإيحاء مليكنا المحبوب حامي الحرمين والعرب والمسلمين فيصل بن عبد العزيز الداعي إلى الله وإلى التضامن الإسلامي والمجاهد في سبيل الله لإعادة فلسطين إلى حظيرة الإسلام. ومن حظ جمعية الرابطة أن يكون على رأسها الرجل الصالح الشيخ صالح القزاز المشهور بمكارم أخلاقه وفضله.. وللرابطة المذكورة فرع بالمدينة أيضاً بيد أنه يحتاج إلى أعضاء يقومون بالدعوة والإرشاد لدى أعيان الحجاج وعلمائهم.

هذا وإني أهيب بحجاج بيت الله الحرام، أن يتعرفوا بأخوتهم من الأقطار الأخرى وخاصة سكان الحرمين من العلماء والفضلاء أنا لا أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله.

رسالة تقدير من صديق كبير

صديقي الأستاذ عبد القدوس الأنصاري.

بيد الشكر والتقدير تلقيت من مجلة المنهل هديتكم الثمينة: (حصاد العيد) و(بين التاريخ والآثار) وسوف استمتع بما تحويان من متع أدبية واكتشافات أثرية، والحقيقة التي لا مراء فيها أنك بمؤلفاتك العديدة قد حزت قصب السبق في ميدان التصنيف والتأليف ويحق للصحافة أن تلقبك بما تشاء برفعة مكانتك وعلمك.

ولقد سبق لأخيك أن لقَّبك في يوبيل مجلة المنهل الفضي بذلك في هذا البيت:

أنت شيخ الصحافة في العهـ ـد السعودي مفرداً في البيان

وأزيده ببيت ثانٍ هو:

وقدير في عالم التصنيف والتأ ليف والاكتشاف بالبرهان

وأعيد ذكر الأبيات التي قبلها وبعدها والقصيدة مسجلة بتمامها في (مجلة المنهل في ٢٥ عاماً).

إيه عبد القدوس عمرك اللَّه ووقيت فتنة الحدثان
ربع قرن قضيته في جهاد وكفاح فنلت خير الأماني

أنت شيخ الصحافة في العهـ ـد السعودي مفرداً في البيان
وقديراً في عالم التصنيف والتأ ليف والاكتشاف بالبرهان
فلتعش رائداً لكل أديب كاتباً باحثاً رفيع المكان
وليدم منهل العلوم يروي كل صاد على مر الزمان
وتقبل تحية من صديق حافظ الود واحد الأخوان
خانه الحظ أن يفوز بقرب وطوته الأيام بالحرمان
هذه مهجتي إليك ترامى بين حر النوى ومن أشجاني

وأخيراً أسأل الله أن ترفل في برود الدعة والعافية حتى نرشف من عصير قلمك ما يثلج صدر الظمآن ويذكرك بالثناء العاطر قادم الأجيال.

الفروق بين الطبقات في العصر الحاضر وأثرهما

لنتناول الاختلاف بين الأغنياء والفقراء لأنه أصل كثير من المشاكل، والتبابن بين الأغنياء والفقراء يزداد ظهوراً بشكل ملحوظ، ومن جهة أخرى نجد شعور الفقراء بهذا التباين يزداد عمقاً وحدة، فالغني والفقير موجودان دائماً وأبداً فالرجل الغني القديم يختلف عن أغنياء اليوم، فالأغنياء الذين كانوا يملكون المال فيما مضى كانوا يتميزون بسخاء وكرم لا نظير له اليوم إلا ما قل ونذر فكانوا يوقفون العقارات في مشروعات خيرية. فالغني يساعد الناس الفقراء ويوقف لهم عقار في مشاريع خيرية نافعة ويعطف على الفقراء والبؤساء، يضاف إلى ذلك الخادم أو الرقيق في تلك الأيام تختلف عن الخادم أو التابع اليوم فكان التابع يعيش وسط العائلة كأنه جزء لا يتجزأ منها فكان السيد يمتطي جواداً أصيلاً بينما خادمه يمتطي جواداً أيضاً فإذا ما اشتد الحر فكلاها كانا يتصببان عرقاً وإذ ما أمطرت السماء فالبلل يصيب كلاً منهما بخلاف ما عليه أغنياء اليوم من الركوب في البولمان الفاخر المكيف أما الخادم فنجده في الدرجة الثالثة محشوراً كالحيوان وكان الخادم يأكل ما بقي من طعام سيده اللين فيما يحصل الخادم على طعام خشن، وقل هذا حتى في اللباس والمساكن، وعليه فأصبح الفقير لم يعد جامداً بل أخذ يشعر بأنه مظلوم بيد الغني الآثمة هي التي تقدم على سلب كل فرصة للعامل وتدوسه في الرغام

وتحت المخترعات الحديثة من الآلات وإن زادت من دخل العامل ولكنها زادت كثيراً من دخل الغني وأوجدت البطالة في كثير من العمال.

الجهود المبذولة لتحسين حالة الفقراء

نرى اليوم الجهود المبذولة لتحسين حالة الفقراء لكثير من الرجال المخلصين كالزعماء والفلاسفة أو الملوك الطيبين، ولم تخلُ الدنيا من أمثال هؤلاء الناس الذين يرثون لحاله الفقراء، بيد أن الداء لم يزل متأصلاً بحيث لا يمكن للإصلاحات الفردية المنعزلة المحدودة أن تنتج أثراً واضحاً، فظلت حياة الغني سلسلة من الترف والمتع والراحة أما بالنسبة للفقير فحياته من المهد إلى اللحد بؤساً وشقاء، وبينما يموت آلاف الفقراء من سوء التغذية والمرض، نجد موائد الأغنياء تفيض بأنواع المآكل والمشرب والعلاج الصحي ويتمتع كل منهم بما لا ينعم به الفقير والغني اليوم لا يكلف نفسه بالبحث عن فقير جائع ولو كان جاره الأدنى وقد يجهل حتى وجود الفقير.

الديموقراطية

في القرن الثامن عشر صار موضوع هذه المشكلة موضع اهتمام الأوساط العالمية وأطلق لفظ (الديمقراطية) على موجة الوعي السياسي الذي تبعه، فصار معنى (الديمقراطية) هو المطالبة بإعطاء العوام الحق العادل في الاشتراك في الحكم، وكانت المشكلة لا تحل إلا بإشراك العوام في حمل عبء تسيير دفة الحكم لتمكنهم من مراعاة حقوقهم الخاصة، وكانت هذه الحركة توجب أن من مصلحة الفقراء تلقي المسئولية في الحكم ليكون للفرد العادي صوت مسموع في المجالس الحكومية، وكان في مبدأ الأمر أن الذين يختارون لتمثيل وجهة نظر الفقراء هم من الطبقة التي لها علاقة

بالأراضي ثم تعدى إلى طبقات العمال وأرباب الحرف فتجمعت هذه في نقابات العمال لترعى مصالحها المشتركة.

الاشتراكية العالمية

والخطوة التالية كانت نمو الوعي السياسي من الطبقة العاملة من مختلف الحرف والمهن بما فيها الموظفون في الدولة، وقد جاء هذا التغيير كنتيجة لنهوض أصحاب الأراضي واتحادات العمال وكانت هذه أول تجربة سياسية تعرف بالاشتراكية وسرعان ما تبين أن هذه المحاولات التي تهدف لجعل الحياة للفقراء أسعد وأرحب لم تكن ذات معاير واحدة لأن الفقر ليس محصوراً في قطر من الأقطار ولا في دولة من الدول ولذا فكروا في إيجاد نظام عام عالمي، فنشأت الاشتراكية كنتيجة إلى اتحاد الفقراء في كل مكان في شكل آخر سياسي يكافح من أجل حقوقه في وقت واحد، وكان هناك عامل آخر ساعد على هذا النمو فقد وضح أن الرأسمالي في دولة ما يساعد الرأسمالي في دول أخرى فكان على الفقراء أن يتحدوا ويرتبط بعضهم ببعض في شكل نظام عالمي (مبادىء فلسفة كارل ماركس).

هذا الرجل فيلسوف ألماني من أصل يهودي تدين بالديانة المسيحية وقد فكر هذا الرجل جدياً في المشاكل التي تدور حول رأس المال والعمل، وقد هداه تفكيره بعد أن رأى من بطء الإصلاح في المشاكل التي تدور حول راس المال والعمل أن حض الرأسماليين على إعطاء العامل نصيباً عادلاً ليس بالطريق المجدي لأن القابضين على أزمة الحكم والمتولين على أموال الدولة لا يميلون إلى الاهتمام بهذه المسألة ولذا وجب إحداث انقلاب بالقوة ناصحاً طبقة العمال أن يثوروا ثورة واحدة ليقبضوا على زمام

الحكم باستعمال القوة بل حتى القسوة إذا لزم الأمر، وهذه الماركسية ليست سوى اشتراكية عالمية تنادي باستعمال القوة للحصول على المتغير الاقتصادي في بناء المجتمع الجديد وتنصح المبادىء الماركسية باستعمال هذه القوة للحصول على التغيير الاقتصادي وتنصح بالاستيلاء على السلطة السياسية كي يمكن القيام بالإصلاح الاقتصادي ولا يمكن أن يؤمل عمل من وراء التعاون مع الرأسمالية أبداً بسبب المكاسب التي تحصل عليها بطريق غير عادل بعد أن تعود عليها وأصبح من المستحيل التنازل بسهولة وبمحض إرادته عن هذه الأرباح غير الشريفة، فالقضية تقضي بطرح الرأسمالي جانباً من القوة وتحكم باحتقاره لأنه ظل يحتقر ويسحق الفقراء زمناً طويلاً في رأي كارل يرى أن اتحادات العمال وأصحاب الملكيات الصغيرة رأوا طبقة العمال في مضمار التسابق إلى نيل السلطة السياسية وأن هذه الطبقة قد طال عليها العهد في الجبن لدرجة أن أصبحت عاجزة عن تقلد مقاليد الحكم بقوة وحزم ومن الممكن غشهم وخداعهم بحيلة ماهرة فيردوا السلطة ثانية إلى مضطهديهم وإلى أن تتعلم طبقة العمال إدارة دفة الحكم يجب أن يكون لها دكتاتور قوى ماهر كي يواجه خداع الرأسماليين وأن التعايش في ظل العبودية قروناً طويلة يميت في الإنسان احترام النفس والثقة بها وكثيراً يعتقد الفقير أن الله خلقه هكذا..

أن هذا التبلد الذهني وفقدان الثقة والجبن هو الذي جعل كارل يخرج بنتيجة هي أن الفقراء بسبب مرور القرون العديدة عليهم في الاضطهاد جعلهم في حالة لا تسمح لهم باسترداد حقوقهم في السلطة لذا يجب أن يكون لهم في فترة الانتقال دكتاتور يريهم ويغرس في نفوسهم الاعتماد على النفس والقوة على المقاومة فإذا تم ذلك وجب أن توضع السلطة بأكملها في طبقة العمال.

لما مات كارل ماركس سنة ١٨٨٣م كانت جذور آرائه تأصلت في روسيا حيث كان الفقراء تحت ظل النظام القيصري في حالة يرثى لها فقامت جماعة من الشجعان المتهورين وأخذت على عاتقها تنظيم طبقة العمال وكان لينين أحد أعضاء هذه الجماعة ثم سيطر على الجماعة كلها فيما بعد وقد طبقت هذه الجماعة نظريات ماركس وألبست الجماهير أفكاره فكانت النتيجة أن قامت الثورة الشيوعية سنة ١٩١٧م وقضت على النظام القائم وإقامة نظام دكتاتوري لأول مرة في التاريخ وقد اختلف القادة بعد تقلد السلطة في خط السير فانقسمت إلى قسمين قسم المنشفيك وقسم البولشفيك.

المبادىء البلشفية ونتائجها

إن الغرض من وراء هذه الثورة هو سد حاجة الفقراء والقضاء على التباين الطبقي، وإن لهم حقوقاً متساوية في السكن واللباس والطعام والتعليم والرعاية الطبية؛ ولكي يتمكن البلاشفة من مواجهة حاجة الفقراء قرروا أن يأخذوا من كل شخص يتناسب وقدرته على الدفع فيعطي كل مزارع وعائلته من نتاج الأرض ما يكفيه ويسد تكاليف الأرض والفائض في كلا الحالتين قل أو كثر من منتوج الصناعات يكون ملكاً للدولة وتقرر تطبيق الأشراف على تحديد أماكن الصناعة وأنواع الزراعات، وتقرر أن يعمل حساب للمجهود الذهني وعلى من يشتغل بعمل فكري أن يقوم بعمل يدوي كي يكسب قوته وإلا ترك يموت جوعاً، واعتبرت الوسائل الهجومية خير طريقة للدفاع وبمعنى آخر محاربة الرأسمالية واستغلال الفقراء لها في جميع أنحاء العالم كي يمكن المحافظة على النتائج التي قضت إليها الثورة ووضع هذه المبادىء معناه مصادرة الأملاك الشخصية

بجميع أنواعها كما اتخذت التدابير الفعّالة للقضاء على الجوع والعوز بين العمال أما المترفين فقد خيروا بين العمل اليدوي أو الموت جوعاً.

أن المبادىء الأساسية في الشيوعية هي امتلاك الدولة لوسائل الإنتاج وخلق نظام معيشي لا طبقات فيه يهدف إلى ضمان أحوال العيش في مستوى محترم للجميع وترمي هذه المبادىء إلى إشعال نار الثورة في العالم لتحقيق أغراضها وإن في هذه المبادىء من شعور الدولة ـ بالمسؤولية نحو صالح الفقراء يجعلها تفوق النظام الرأسمالي الذي لا يبدي أي شفقة بالفقراء الذين يشتغلون في ظله ولا يهتم لمتاعبهم بيد أن نظام المزارع الجماعية الذي تشرف عليه الدولة يحرم على الفلاحين التصرف الفردي ويعرضهم لكثير من المتاعب، كما وأن الشيوعية قامت بمناهضة الدين والوقوف في سبيله واحتقار رجال الكنيسة على الآباء والمعلمين تلقين النشء في طور النمو كل ما من شأنه أن يتعلق بأمر ديني عنهم، وبادر الشيوعيون إلى إرسال الرسل خارج البلاد تنشر تعاليمهم.

الفاشية

الفكرة الأساسية في فلسفة الشيوعية هي (الدولية) مع تحقيق أصول معيشية للجميع وهذه الفلسفة تناهض فكرة الاستغلال الاستعماري الذي يملأ قوميي ألمانيا وإسبانيا وإيطاليا واليابان فهذه الدول ظلت تنتظر بفارغ الصبر أفول نجم دولتي بريطانية وفرنسا وتفككهما بمرور الزمن، قد سنحت الفرصة بعد الحرب العالمية الأولى فكان من الطبيعي أن لا تحوز الشيوعية منها في تلك الدول التي تلوذ بالصبر على الحرمان أملاً في الحصول على أنصبة وفيرة من الغنيمة العامة فحزب هتلر وموسوليني وحزب الفالانج التابع لفرانكو كانت مظهر لتلك الأهداف الوطنية الضيقة

التي تسودها النزعة التوسعية، تلك الحركات الثلاث تعارض الشيوعية لأن الشيوعية بدعوتها العامة القوية كانت تبشر بالقضاء على جميع تلك الآمال لأن الطبقات الفقيرة كانت تنظر إلى الشيوعية بعين الرضا لا تقدر برعايتهم وتدبير أمر سكنهم وغذائهم وبدأت الجماهير في ايطاليا وألمانيا ترحب بالشيوعية ولكن يحاول هتلر وموسوليني اتجاه التيار قالا إن النازية والفاشية ستطبقان هما أيضاً نظام السيطرة على الثروة والصناعة والتجارة وتحققان لطبقة الفقراء نصيبها العادل من ثمرة العمل، والقاعدة التي تبنى عليها النظريات الفاشية هي المجند والتنظيم القومي بواسطة رقابة صارمة في الداخل وفتوحات استعمارية في الخارج بهذا التمجيد القومي جعل نظرة الإنسان إلى أبناء جلدته (كشعب ممتاز) أمراً جنسياً سهلاً ولذا أصبح الألمان في نظر هتلر أبناء السماء وكان مبعث عداء هتلر لليهود هو خوفه من روسيا حيث يتمتع اليهود بنفوذ كبير فأرادت النازية أن تتخلص من اليهود ظناً منها أن هذا إجراء لازم لسلامتها وتلافي خطر الطعن من الخلف، ومجمل القول فالحركات القائمة تنادي بأنها تعمل على إزالة الفقر والمتاعب، فهناك الاشتراكية التي تمثلها إنجلترة وفرنسا وأمريكا وتسير ببطء وتدريجاً بالإضافة إلى الحركتين الأخيرتين فالفقر في تلك الدول يعالج بمستوى لا بأس به من المعيشة وذلك بفضل توجه الغاية الخاصة إلى جماعات الفقراء غير أن هذه الحركة قاصر على فقراء هذه الدول فقط والمقاصد الخفية للاشتراكية في رأي هذه الدول ليست سوى مقاصد قومية بحتة والتقدير الماركسي في نظرها هو كل شيء وقد أدارت ظهرها للدين ولجميع القيم الروحية التي بدونها يصبح الإنسان أشبه شيء بالعجماوات مع أنها لا تتردد في استخدام الدين إذا كان صالحاً لأغراضها.

الشيوعية وعيوبها

١ ـ عدم الاعتراف بالمجهود الفردي الذي هو المعيار الوحيد لتقدير العمل الفردي كثمرة من الأعمال الاقتصادية.

٢ ـ تملك الدولة للثروة ووسائل الإنتاج يعد ضماناً لوضع مستوى معين محترم لمعيشة العمال وما فاض عن ذلك فهو ملك للدولة.

٣ ـ التضيق على المشتغلين بالأعمال الفكرية ورجال الدين ومحوهم تدريجاً لأنهم طفليات في المجتمع.

٤ ـ إقامة وسائل الإنتاج على نمط ليس له مثيل من قبل.

٥ ـ إزالة التعليم الديني في محيط المدارس والجامعات.

٦ ـ بث الدعاية في جميع العالم وهذه الشيوعية التي تقول بمدافعتها لصالح الفقراء ليست مستعدة لتلقي بمقاليد السلطة في أيدي الجماهير ولهذه الحركة مبادىء عديدة وخطيرة أهمها:

١ ـ لا وزن للمجهود الفردي لأن النظام الشيوعي يستقطع من المجهود الفردي حقه في الربح الذي يزيد عن مستوى معين وهو مستوى يمكن على كل حال بلوغه دون حاجة إلى بذل مجهود إضافي وهذا من شأنه تثبيط الهمة وبالتالي يقلل القوة الانتاجية ويحرم الناس من الاهتمام الحقيقي بأعمالهم ومن ثم ينحط مستوى القوة الذهنية والمهارة الفنية.

٢ ـ استعمال هذه الحركة للقوة والعنف لسفك الدماء والإخلال بالأمن، فلو أن تنظيم هذه المبادىء كان تدريجياً لكان أنفع لبلوغ

الغرض المنشود ولأن إحداث التغيرات فجأة في مستوى معيشة الأغنياء يبذر بذور الأحقاد والعداوات.

٣ ـ مناهضة الدين فقد خطف جميع الذين يعلقون أهمية قليلة على الجانب الروحي للإنسان.

٤ ـ ظهور الشيوعية في ثوب نظام دكتاتوري وعندما تنادي بأنها المدافعة عن الجماهير نجدها تحرمهم من أية فرصة.

٥ ـ إن مجمل آمال الدولة الشيوعية هو إقامة سد في طريق التقدم الفكري والعلمي لأن الإنسان مهما حاول أن يكون كاتباً بارعاً أو فنياً ماهراً ينال أجراً أعلى من الحد الذي قرر للمجموع وبذلك يقف الفرد عن التطلع إلى بلوغ الدرجات العالية.

٦ ـ محاولتها البطش بالطبقات العليا والقضاء عليها وبذلك تحرم الدول من نمو خدمات جزء كبير من القوة الانتاجية في الشعب وتسبب قيام عداوة عنيفة متبادلة يبتغي كل فريق امتصاص دم الآخر.

٧ ـ وهو العيب الآخر أن انهيار الشيوعية يكون خطيراً على العالم ويسبب كارثة ليس لها مثيل، ففي النظم الأخرى إذا مات ملك تقدم آخر مكانه وإذا حل برلمان قام برلمان آخر مكانه إما إذا سقطت الشيوعية فليس هناك حل وسط بينها وبين الرجوع إلى حكم استبدادي يكون أكثر أخلاقاً من (الأتوقراطية) لأنه لا يوجد في الشيوعية نظام أو وضع بحكومة نيابية (عيوب الاشتراكية الوطنية).

(١) تشيعها لبعض الشعوب إلى حد الإضرار بمصالح الشعوب الأخرى.

(٢) عدم اتساعها للرقي الديني أو السلام الروحي بل على النقيض تضع القيود على القيادة.

(٣) عدم تفاعلها في تقدير قيمة الشخصية الفردية بحيث يتقدم في مقابلها صوت الفرد.

علم البديع

علم يعرف به وجوه تحسين الكلام المطابق لمقتضى الحال، وهذه المحسنات منها ما يرجع منها إلى تحسين المعنى ويسمى بالمحسنات المعنوية ومنها ما يرجع إلى تحسين اللفظ ويسمى بالمحسنات اللفظية وهي كثيرة مذكورة في كتب البلاغة منها:

١ ـ التورية وهو أن يرى لفظ له معنيان قريب يتبادر فهمه من الكلام وبعيد يكون هو المراد بإفادة قرينة خفية كقوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ (الأنعام: ٦٠).

فالمعنى القريب هو الجرح المعلوم والبعيد هو ارتكاب الذنوب. وكقول الشاعر:

يا سيداً حاز لطفاً   له البرايا عبيد
أنت الحسين ولكن   جفاك فينا يزيد

فالمعنى القريب هو اسم يزيد بن معاوية المعلوم والبعيد وهو الزيادة والمقصود وكقول الشاعر:

يا سادةً سكنوا حماة وحقكم   ما حلتُ عن تقوى وعن إخلاص
والدمع مع بعدكم إذا ذُكر اللُقَا   يجري المدامع طائعاً كالعاصي

فالمعنى القريب هو العصيان والبعيد هو نهر العاصي في حماه وهو المقصود.

٢ ـ الطباق وهو الجمع بين معنيين متقابلين كقوله تعالى: ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ (الكهف: ١٨) فجمع بين اليقظة والنوم. وكقول الشاعر:

على رأس حرٍّ تاج عزّ يزينه وفي رجل عبد قيد ذل يشينه

ففي هذا البيت جمع بين الحر والعبد وبين العز والذل.

وكقوله:

من قاس جدواك يوماً بالسحب أخطأ مدحك
السحب تعطي وتبكي وأنت تعطي وتضحك

فجمع بين البكاء والضحك.

٣ ـ المقابلة وهو أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك بالترتيب كقوله تعالى: ﴿فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا﴾ (التوبة: ٨٢) فذكر الضحك قليل والبكاء كثير.

٤ ـ مراعاة النظير هو جمع أمر وما يناسبه لا بالتضاد كقول الشاعر:

والطل في سلك الغصون كلؤلؤ رطب يصافحه النسيم فيسقط
والطير يقرأ والغدير صحيفة والريح تكتبُ والغمام ينقطُ

٥ ـ الاستخدام هو ذكر اللفظ بمعنى وإعادة الضمير عليه بمعنى آخر أو إعادة ضميرين تريد بثانيهما غير ما أردته من أولهما فالأول كقوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ﴾ (البقرة: ١٨٥) أراد بالشهر الهلال

بضمير الزمان المعلوم والثاني كقول الشاعر:

فسقى الغضا والساكنين وإن هم   شبوه بين جوانحي وضلوعي

فالغضا هو شجر البادية وضمير ساكنين يعود إليه بمعنى مكانه وضمير شبوه يعود إليه بمعنى نارُه.

٦ ـ الجمع هو أن يجمع بين متعدد في حكم واحدة كقول الشاعر:

إن الشباب والفراغ الجده   مفسدة للمرء أي مفسدة

٧ ـ التفريق هو أن يفرق بين شيئين من نوع واحد كقول الشاعر:

ما نوال الغمام وقت ربيع   كنوال الأمير يوم سخاءِ

فنوال الأمير بدرة عين   ونوال الغمام قطرة ماءِ

٨ ـ التقسيم هو إما استيفاء أقسام الشيء كقوله:

وأعلم علم اليوم والأمس قبله   ولكنني عن علم ما في غد عَمي

وإما ذكر متعدد وإرجاع ما لكل إليه على التعيين كقوله:

ولا يقيم على ضيم يراد به   إلاّ الاذلاّن عيرُ الحي والوتدُ

هذا على الخسف مربوط برمته   وذا يشج فلا يرثي له أحد

وإما ذكر أحوال الشيء مضافاً إلى كل منهما ما يليق به كقوله:

سأطلب حقي بالقنا ومشامخٍ   كأنهمو من طول التثموا مردُ

ثقال إذ الاقوا خفاف إذا دعوا   كثير إذا شدوا قليل إذا عدوّا

٩ ـ تأكيد المدح بما يشبه الذم وهو ضربان أحدهما أن يُستثنى صفة

ذم فصفة مدح على تقدير دخولها فيه كقوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم　　بهن فلول من قراع الكتائب

وثانيهما أن يثبت لشيء صفة مدح ويؤتى بعدها بأداة استثناء تليها صفة مدح أخرى كقوله:

فتىً كملتْ أوصافه غير أنه　　جواد فما يبقي على المال باقيَا

١٠ ـ حسن التعليل وهو أن يدعي لوصف علة غير حقيقية فيها غرابة كقوله:

لو لم تكن نية الجوزاء خدمته　　لما رأيت عليها عقد ومنطق

١١ ـ ائتلاف اللفظ مع المعنى هو أن تكون الألفاظ موافقة للمعاني الألفاظ الجزلة والعبارات الشديدة للفخر والحماسة والكلمات والعبارات اللينة للغزل ونحوه كقوله:

إذا مَا غضبنا غضبةً مضريةً　　هتكنا حجاب الشمس أو سفكت دمَا

إذا مَا أعرَنا سيد من قبيلةٍ　　ذرى منبر صلى علينا وسلّما

وكقوله:

لم يطل ليلي ولكن لم أنم　　ونفى عني الكرى طيف ألم

١٢ ـ الأسلوب الحكيم هو أن تلقي المخاطب بغير ما تترقبه أو السائل بغير ما يترقبه تنبيهاً على أن الأولى ما تقصد فالأول يكون بحمل الكلام على خلاف مراد قائله كقول القبعثري للحجاج وقد توعد القبعثري بقوله: لأحملنّك على الأدهم فقال القبعثري مثل الأمير يحمل

على الأدهم والأشهب فقال له الحجاج أردت أن يكون حديداً فقال القبعثري لأن يكون حديداً، خير من أن يكون بليداً أراد الحجاج بالأدهم القيد والحديد المعدن الخاص وحملهما القبعثري على الفرس الأدهم الذي ليس بليداً.

والثاني أن يكون بتنزيل السؤال منزلة سؤال آخر مناسب لحالة المسألة كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة: ١٨٩) فقد سأل أحد الصحابة النبي ﷺ ما بال الهلال يبدو دقيقاً ثم يتزايد حتى يصير بدراً ثم يتناقص حتى يعود كما بدا فجاء الجواب عن الحكمة المترتبة على ذلك لأنها أهم للسائل فنزل سؤالهم عن سبب الاختلاف منزلة السؤال عن حكمته.

١٣ ـ الجناس ـ هو تشابه اللفظين في النطق لا في المعنى ويكون تامًّا وغير تام، فالتام ما اتفقت حروفه في الهيئة والنوع والعدد والترتيب نحو:

لم نلق غيرك إنساناً يلاذ به فلا برحت لعين الدهر إنسانا

ونحو:

فدارهم ما دمت في دارهم وارضهم ما دمت في أرضهم

وغير تام نحو:

يمدون من أيدٍ عواص عواصم تصول بأسيافٍ قواض قواضب

١٤ ـ السجع هو توافق الفاصلتين من نثر في الحرف الأخير نحو: الإنسان بآدابه لا بزيّه وثيابه. ونحو: يطبع الأسجاع بجواهر لفظه ويقرع الأسماع بزواجر وعظه.

١٥ ـ الاقتباس هو أن يضمن الكلام شيئاً من القرآن أو الحديث لا

على أنه منه كقوله:

لا تكن ظالماً ولا ترض بالظلم وأنكر بكل ما يستطاع
يوم يأت الحساب ما لظلوم من حميم ولا شفيع يطاع

١٦ ـ حسن الابتداء هو أن يجعل المتكلم مبدأ كلامه عذب اللفظ حسن السبك صحيح المعنى فإذا اشتمل على إشارة لطيفة إلى المقصود سُمي: براعة الاستهلال. كقوله في تهنئة بزوال مرض:

المجد عوفي إذْ عوفيت والكرم وزال عنك إلى أعدائك الألم

وكقول الآخر:

قصر عليه تحية وسلام خلصت عليه جمالها الأيام

١٧ ـ حسن الانتهاء هو أن يجعل آخر الكلام عذب اللفظ وحسن السبك صحيح المعنى فإذا اشتمل على ما يشعر بالانتهاء سُمي براعة المقطع كقوله:

بقيت بقاء الدهر يا كهف أهله وهذا دعاء للبرية شاملُ

٢ ـ وكقول الشاعر:

أعجبتني كما المها فتية من العرب
تقرأ برحب الكتب تبت يد أبي لهب

وكقوله:

لوائمي قطعت أكبادهن متى رأينه في جمال الحسن والتيه
فيا صواحب أكباد مقطعة فذلكن الذي لمتنني فيه

١٨ ـ تجاهلُ العارف هو:

أيَا شجرً الخابور مالك مُورقاً   كأنك لم تجذع لابن طريف

وكقوله:

ما كنت أدري قبل حطك في الثرى   أن الكواكب في التراب تمور
ما كنت آمل قبل نعشك أن أرى   رضوى على أيدي الرجال يسير

وهناك محسنات لفظية ومعنوية كثيرة في كتب الشعر والأدب نكتفي بذكر ما أوردناه في هذه العجالة المختصرة.

التراجم

تراجم حياة شخصيات مشهورة

الحمد لله والصلاة والسلام على محمد ومن والاه:

وبعد، فقد بعث لي رئيس نادي المدينة المنورة الأدبي الأستاذ عبد العزيز الربيع كتاباً يقول فيه: تدعيماً للنشاط الأدبي والثقافي والفكري في بلدنا العزيز لمسايرة ركب الحضارة في عالمنا المتطور وللمحافظة على تراثنا العظيم ونشر الحركة الفكرية، فقد اعتزم نادي المدينة المنورة الأدبي أن يكرم أبناء طيبة من رجالها المعاصرين ويسرني أن أتلقى من سعادتكم ما لديكم من معلومات أو مؤلفات أو بحوث عن الأديب الكبير والمؤرخ العلامة (السيد أمين مدني) تمهيداً لرصد في ريع الحفل الذي سيقام بهذه المناسبة ثم يجمع كل ما كتب عن الأديب الكبير ليطبع في كتاب خاص ويرجو أن يصله ما أسهم في ميعاد لا يتجاوز الخامس عشر من شهر شعبان. وبما أني ممن عايشوا السيد أمين مدني مدة سنين مضت لأني عرفته سنة ١٣٤٤ بمدرسة العلوم الشرعية التي كنت بدوري مدرساً فيها، وكان السيد أمين يأتي للمدرسة المذكورة ليتلقى بعض العلوم من كبار أساتذتها، وأذكر أنه قرأ على البعض من شرح البلاغة للتفتازاني. ثم التقيت به أخرى بالمدرسة الأميرية في الصف الرابع وكنت استقلت من مدرسة العلوم الشرعية لقلة راتبها

وتعينت معلم أول بالمدرسة الأميرية ودرس السيد أمين بالمدرسة وكنت أدرس بالصف المذكور التاريخ والجغرافيا والمحفوظات ودرس الأخلاق ثم سافرت بإجازة للأزمة الاقتصادية التي حلت بالمملكة واستمر السيد أمين حتى نال الشهادة الابتدائية وطفق يدرس على علماء الحرم الشريف وفي مقدمتهم دروس الشيخ محمد الخطيب الأنصاري حتى نال الشهادة العالمية وكان مولعاً بتاريخ العرب فطفق يدرس تاريخهم ونال قسطاً وافراً من المعلومات العربية فبدأ بتأليف كتابه القيم المشهور (العرب في أحقاب التاريخ) ولقد ترجم الأستاذ عبد القدوس بمجلة المنهل لمحة من تاريخ حياته في شهر رجب سنة ١٩٦٦ بمناسبة مقالته عنه ولا بد اطلع عليه السيد أمين وموافق لما جاء به.

ذكريات لا تنسى

قال لي ابني المهندس المعماري محمد عبد الحق قد اطلعت في أحد أعداد المنهل ما كتبه عنك الأستاذ عبد القدوس الأنصاري أنك اشتغلت في التعليم ما يقرب من ثلاثين سنة في مدارس مختلفة ابتداء من مدرسة العلوم الشرعية فالمدرسة الأميرية لدار الأيتام فمدرسة دار الصناعة فالمدارس الليلية، وبذلك خلفت الكثير من تلامذة، وسألني أحد أصحابي هل والدك بحق خلّف طلاباً من قضاة ومحامين ومدراء أعمال وأصحاب مؤسسات وتجار ومدراء إدارات؟ قلت نعم يا ابني ما ذكرته وهاأنا أذكر لك بعضاً منهم وإن كنت نسيت أكثرهم لمضي السنين لأني أحلت للتقاعد سنة ١٣٨٢هـ وهاأنا أخطو للثمانين (ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم) وهنا أبدأ بالوزراء.

١ ـ الشيخ محمد علي الحركان وزير العدل سابقاً وعضو هيئة كبار العلماء.

٢ ـ المرحوم السيد عمر السقاف وكيل وزارة الخارجية.

٣ ـ الشيخ محمد عمر توفيق وزير المواصلات سابقاً.

٤ ـ الشيخ محمد الحافظ القاضي بمحكمة المدينة المنورة.

٥ ـ الشيخ عبد المعين أبو ذراع قاضي المحكمة المستعجلة بالمدينة المنورة.

٦ ـ الشيخ شحات كابلي قاضي محكمة تبوك سابقاً.

٧ ـ الشيخ ضياء الدين رجب رحمه الله قاضي محكمة البلاد المحامي الشرعي.

٨ ـ ومن المحامين السيد أديب طاهر المحامي بالمحكمة الشرعية.

٩ ـ الشيخ أمين مرشد محامي المعارف.

١٠ ـ الشيخ جميل حماد محامي البلدية.

ومن القائمين بأعمال السفارات السعودية في مختلف البلاد.

١١ ـ المرحوم السيد أنور بدراوي القائم بأعمال السفارة السعودية بالقاهرة.

١٢ ـ السيد محسن القائم بأعمال السفارة السعودية بطرابلس سابقاً.

١٣ ـ السيد منصور عارف القائم بأعمال السفارة السعودية بنيجريا سابقاً.

١٤ ـ السيد محمد شرارة القائم بأعمال السفارة السعودية بنيجريا سابقاً.

١٥ ـ السيد عبد القادر هاشم القائم بأعمال السفارة السعودية سابقاً.

١٦ ـ الشريف غالب بن محسن الملحق الصحفي بالسفارة السعودية بمصر.

١٧ ـ ومن كبار الضباط اللواء مصطفى مدني أرنؤطي مستشار وزارة الدفاع.

١٨ ـ السيد يوسف طرابلسي مدير البعثة السعودية سابقاً بمصر.

١٩ ـ ومن مدراء المال والأعمال الشيخ عبد العزيز الدخيل رئيس متوسطة الدخيل.

٢٠ ـ السيد محمد حسن جبلاوي مدير مؤسسة الجبلاوي.

٢١ ـ السيد علوي السقاف مدير مؤسسة السقاف للمقاولات.

٢٢ ـ ومن مدراء الشرطة سعود محروسي رئيس القسم العدلي بالمدينة سابقاً.

٢٣ ـ السيد نوري ناجي مدير شرطة تبوك سابقاً.

٢٤ ـ ومن المدراء المرحوم عارف براده مدير مالية المدينة سابقاً.

٢٥ ـ المرحوم كاظم براده مدير كهرباء المدينة سابقاً.

٢٦ ـ الشيخ صالح فضائلي رئيس بلدية المدينة سابقاً.

٢٧ ـ الشيخ حلواني مساعد رئيس البلدية بالمدينة المنورة.

٢٨ ـ الشيخ المرحوم هاشم عشقي مدير بريد جدة سابقاً.

٢٩ ـ السيد عبد القادر طاهر رئيس بلدية المدينة سابقاً.

٣٠ ـ السيد زين العابدين ضياء مدير مكتبة المدينة المنورة.

٣١ ـ السيد حمزة عابد مراقب الطالبات السعوديات بالقاهرة.

٣٢ ـ السيد حسن عابد مفتش بجوازات المدينة المنورة.

٣٣ ـ السيد عبد الرؤوف إسماعيل سكرتير المجلس الإداري بالمدينة.

٣٤ ـ السيد محمد عبد القدير عنبر مستشار وزارة المواصلات سابقاً.

٣٥ ـ السيد عمر حلبي مدير ورشة السيد حبيب محمود بالمدينة.

٣٦ ـ السيد عبد الحميد حجار مدير شركة القصيبي بالمدينة.

٣٧ ـ السيد تقي خاشقجي مدير قسم التنفيذ بالبلدية سابقاً.

بعد ذكر هؤلاء السادة انبرى ابني قائلاً: على رسلك يا بابا حسبك من ذكرت فإن في ذكر بعضهم الكفاية عما طلبت، قلت يا ابني لقد عاصرت الكثير من العلماء والأعيان والأشراف وأنا لم أذكر لك إلا من كانت له علاقة معي فقط. وإني أعتذر عن الذين نسيت ذكر أسمائهم تقبل الله مني ومن الأحياء صالح الأعمال.

ترجمة حياة السيد أمين مدني

ولد السيد أمين في ذي الحجة سنة ١٣٢٨هـ بالمدينة المنورة في حياة والده السيد عبد الله مدني وفي مساء يوم ولادته بعثه لدى أظهاره من قبيلة عوف المروحية فأتم رضاعته فيهم وتوفي والده بعد شهرين من ولادته وبعد السابعة جيىء له بأستاذ خصوصي في البيت يعلمه مبادىء القراءة والكتابة، ثم دخل المدرسة الابتدائية الأميرية واستمر فيها حتى نال الشهادة ثم أخذ يحضر دروس الشيخ محمد الطيب الأنصاري بالحرم الشريف وتخرج عليه ثم عيّن مساعداً لسكرتير مجلس الإدارة وسكرتير اللجنة مطالبة أوقاف الحرمين ثم أنتخب مديراً لجريدة المدينة ثم سافر لمكة المكرمة وتعين مفتشاً بوزارة المالية بواسطة الشيخ محمد سرور الصبان ثم سكرتيراً لديوان التفتيش ثم عاد للمدينة وتعيّن رئيساً للبلدية ثم استقال منها وقد انتخب عضواً في عدة وفود رسمية نيابة عن المدينة، وله من المؤلفات كتاب (العرب في أحقاب التاريخ). انتهى ما كتبه عنه الأستاذ عبد القدوس الأنصاري في المنهل. أما صلتي بالسيد أمين ومعرفتي به فترجع من سنة ١٣٤٤هـ لما رجعت من الهند وتعينت مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية وكان السيد أمين يتلقى بعض الدروس العربية في المدرسة وأذكر أنه قرأ عليّ شيئاً من علم البلاغة واستقلت من المدرسة المذكورة لقلة مرتبها وتوظفت معلماً أولَ بالمدرسة الأميرية

الابتدائية فوجدت السيد أمين منتظماً في الصف الرابع وكنت بدوري أدرس الجغرافيا والتاريخ والمحفوظات فتشرفت به تلميذاً ضمن تلامذة الفصل المذكور. وبناء للأزمة الاقتصادية التي حلت بالمملكة يومئذ فقد استئجزت من المعارف لمدة شهر وسافرت لمكة المكرمة سنة ١٣٥٠هـ على أن أسافر للهند فرغّبني ـ السيد أحمد العربي أن أكون منتدباً ومراسلاً لجريدة صوت الحجاز التي أنشأها الشيخ يوسف نصيف مكان رئيس التحرير هو السيد حسن فقي الأديب الممتاز فقبلت. وكان السفر محظوراً على الحجازيين فتوسط لي المرحوم الشيخ محمد سرور الصبان لدى عبد الله السليمان بالسفر مع هيئة اللاسلكي الذاهبة للرياض وغيرها، وكان رئيس الهيئة أحد أصدقائي يحيى زارع فركبت مع الهيئة ووصلنا الرياض بعد المشقة حيث لم يكن الطريق مرصوفاً، وبعد وصولنا للرياض زرت مع الهيئة المغفور له الملك عبد العزيز وكنت عملت في الليل قصيدة قصيرة نسيتها وأذكر مطلعها وكانت مع قصرها جيدة.

مليك العرب دم وانعم صباحا فسعدك في سما الإقبال لاحَا
وحسبك ما اعتصمت به ملاذا كتاب الله والسنن الصحاحا

فسرَّ جلالته ونفحني بمائة ريال خاصة أنه علم بأني منتدب عن جريدة صوت الحجاز.

وفي اليوم الثاني سافرت مع باقي الهيئة إلى الإجارة وكان بها محمد الطويل مدير جمارك الأمناء، فلما علم بانتدابي عن الجريدة استضافني بمكتبه ثم سافرت معه إلى البحرين ومنها سافرت للكويت فكتب لها بالمعتمد السعودي بتعجيل سفري فنزلت عنده وأعطاني جواز السفر

فسافرت في مركب للبصرة ومنها لبغداد واتصلت بالشيخ يوسف خشيرم أحد معتمدي الملك فيصل ابن الحسين وكان يتصل بالملك دائماً فأخبره بمقدمي كمنتدب جريدة ورغّبني الشيخ يوسف بزيارة الملِك فقلت كيف يتسنى لي زيارته فقال أنا أرتبها لك وصحبني في اليوم الثاني إلى البلاط الملكي وأجلسني مع بعض الضيوف وأفهمني أن لا أطيل الجلوس أكثر من خمس دقائق فدخلت على الملك وكان واقفاً فأمرني بالجلوس وسألني عن أحوال المدينة وبعض من كان يعرفهم من الأعيان فأفدته بما أعلم عنهم ثم قام فعلمت بانتهاء الزيارة وخرجت فأخبرني الشيخ يوسف بأن الملك يخشى على شاب مثلي وصدف أن سافر في اليوم الثاني إلى مصيفه ببلدة (بنجوين بشمال العراق فاستأذنت بدوري من الشيخ يوسف وكان الحر شديداً في بغداد فطلبت أن أبقى لأحصل على المنحة التي كان الملك يمنحها لمن يزوره من الحجازيين وسافرت من بغداد لدمشق وهناك نزلت بفندق متواضع واتصلت بالمرحوم السيد محمود الحمصي مدير المدرسة فأمضيت الصيف بدمشق ورجعت للمدينة، وكان السيد سافر مع ابن عمه السيد جعفر والسيد ماجد مدني للهند للعلاج فذهبوا لحيدر آباد واتصلوا برئيس الصحة العامة الدكتور خواجه معين الدين فأسعفهم بعلاجات شافية ورجعوا بعد أشهر وتعرفوا بأعيان حيدر آباد ورجعت بدوري للمدينة وتوظفت بمعمل النسيج محاسباً وكان يديره ابن السيد زين العابدين مدني رئيس لجنة العين، فبقيت معه كمحاسب مدة سنة ثم استقال من العمل وتعين رئيساً للجنة العين لوفاة والده المذكور فتعين لإدارة المعمل السيد أمين بإيعاز من الخواجه معين الدين فتولى الإدارة وكنت توظفت محامياً لمالية المدينة وذلك فقط بالحضور في جلسة نيابة عن المالية في الدعاوى التي يَدّعي أصحاب الدور الذين

تخلوا عنها أيام سفرهم لدمشق واستولت عليها المالية خوفاً من أن يضع أحد يدهم عليها وذلك حفظاً لأموال الغيب وكنت كثيراً ما أتغيب فلم يعتب عليّ السيد أمين بل كان يحترمني وبعد أن عمل مدة استقال من العمل وأسندت إليّ الإدارة بعد استقالته وبقيت أديره حتى استقلت منه بعد استيلاء حكومة الهند على حيدر آباد وعندئذ توقف ما كان يبعثه مجلس إدارة المعمل بحيدر آباد. وفي تلك الأثناء، توفي الدكتور خواجه معين الدين نقلت استقالتي هنا وهناك كانت صلة ملموسة بيني وبين السيد عبيد مدني شقيق السيد أمين فقد كنت زاملته بالمدرسة التحضيرية الفيصلية أيام رجوعه إلى المدينة من الشام سنة ١٣٣٧ فدخلت المدرسة المذكورة ووجدت السيد عبيد في أول رحلة الصف فانتظمت معه حتى نلت وإياه الشهادة التحضيرية ثم خرج هو وبقي يدرس في البيت وفي الحرم وخاصة على الشيخ محمد العمري في فنون الشعر والأدب حتى أصبح شاعراً مرموقاً ومؤرخاً للمدينة وقد كنت دائم الاتصال به وكثيراً ما كنت أتغدى معه في بيتهم بالسوق الذي كان مشهوراً ببيت المفتي وكان لوالده مكتبة في البيت بها كثير من كتب التاريخ والقصص فكنت أستعير كتب القصص ثم أردها وكان بيت والده المرحوم السيد عبد الله مثابة للوارد والصادر من الزوار والحجاج الحجازيين وكان خوانه ممدوداً كل يوم وقد أخبرني من أثق به أن كثيراً ما يناول بعض جلسائه ممن يعرفهم من ذوي الحاجة بجنيهات ذهبية صار البعض يأخذ حق نشوقهم فيضع جنهين أو ثلاث، وهو الذي بنى الفندق المشهور يومئذ بفندق المدني وأسماه دار السلام فكان ينزل فيه من أعيان الحجاج وقد نزل فيه بعد وفاته أنور باشا ـ وجمال باشا السفاح وطلعت باشا، أذكر ذلك لأن بيتنا كان مجاوراً للفندق، ولما

نشبت الحرب العامة سنة ١٣٣٤هـ وأجلى فخري باشا أهل المدينة لدمشق استولى عليه فخري باشا وجعله مستشفى عسكرياً، وبعد رجوع أهل المدينة من دمشق وغيرها تولاه السيد عبيد وكان يؤجر بعض غرفه بأجر ضئيل وكان يأتي كل مساء فيجلس في حديقته الخارجية وكنت أزوره هناك حتى اتفق لإخوانه لبيعه بإشارة صديق الطرفين السيد ولي الدين أسعد فباعاه لابن لادن وتقاسما الثمن واشترى كل واحد منهما داراً بمصر فكان يذهبان كل سنة للاصطياف إلى القاهرة وكنت بدوري بمصر وكنت أزور المرحوم في الشقة التي استأجرها القريبة من النيل لأن العمارة التي اشتراها كانت بعيدة وكان يحب أن يكون متصلاً بأصحابه وخاصة ابن عمه السيد محمد مدني الذي كان مقيماً بمصر والسيد ولي الدين أسعد وابن عمه الدكتور عمر وعلي أسعد ولما قام عبد الناصر بنشر الاشتراكية ـ وتوقف رواتب الموظفين السعوديين ومنهم الداعي حيث كنت أقمت مع أولادي بعد إحالتي للتقاعد من محاماة المالية فاضطررت للرجوع ورجع السيد عبيد والسيد أمين وأنابا عنهما السيد ولي الدين لتأجير العمارتين وبعث أجرتهما، وقد اجتمعت بالأخوين في الحفل الذي أقامته بكلية الآداب بجدة للأدباء القدامى بالمملكة فكان الداعي مدعواً بصفته من الأدباء القدماء وألقيت المحاضرة عن الشاعر أحمد شوقي وألقى السيد عبيد رحمه الله محاضرة بالمثل، ورجعت قبل إتمام الحفل المذكور للمدينة حيث كنت مريضاً بالقرحة وقبل عامين على ما أظن احتفل النادي الأدبي بالمدينة لإقامة حفلة التكريم للسيد عبيد وغيره من الأدباء وكان الحفل أشبه بحفلة تمثيلية ثم بعد أن شفيت من مرضي ذهبت للسيد عبيد في دارته بطريق سلطانه فتلقاني بالتكريم والترحاب وعلمت منه أنه ملازم للدار في

مكتبته الحافلة بالكتب القيمة، وقال إنه أوكل أعماله لابنه الأكبر السيد عدنان مدني، فسألته عن تاريخ المدينة التي نوهت مجلة المنهل والحفيد الأستاذ عبد القدوس بنشر مقال عنه فقال لي إن شاء الله سيطبع عما قريب فودعته وانصرفت شاكراً، ولما ذهبت لمصر علمت أنه جاء للاصطياف بدوره وكنت أحب أن أزوره فلم أعلم بمكانه وكان الشهر شهر رمضان فرجعت للمدينة فسمعت بوفاته بمصر وسيؤتى به للمدينة لدفنه فيها فاتصلت بالأستاذ عبد القدوس وعلمت منه أنه قدم من مصر أيضاً للاشتراك في تأبينه وتعزيته وقد كتبت مقالاً بدوري بعنوان:

وما كان زيداً هلَك هلك واحد ولكنه بنيان قوى تهدما

ونشر المقال بالمنهل فكان ذلك بعض ما يجب عليّ من وفاء صديق لصديقه بعد وفاته رحمه الله رحمة واسعة وأفاض عليه من سحائب رحمته ورضوانه وفي هذه الليلة المباركة من النصف من شهر شعبان يقيم رئيس النادي الأدبي سعادة عبد العزيز الربيع هذه الحفلة لتكريم العالم الفاضل السيد أمين مدني وأنا بصفتي عضواً أفخر بها بهذا النادي أقدم شكري للأستاذ الربيع.

ولم أكن أعرف من قبل أن السيد أمين شاعر بحق إلا بعد أن قرأت مقاله المنشور في المنهل أبّن فيه أخاه المرحوم السيد عبيد وأضيف إلى ترجمة حياة السيد أمين: القصيدة التي نشرت بالمنهل ١٧/١١/١٣٩٦هـ.

قدر طوى صنوي فصرت وحيداً وغدا الشقيق رؤى يلوح بعيدا
ما كنت أحسب عندما ودعته أني أودع هالكاً مفقودا
فكأنه رفض الترحل صحبة للموت يبقى زاهداً موعودا

نـزل الـقـضـاء بـه فـفـرق بـيـنـنـا   يـا لـيـتـه حَـيّ وكـنـت فـقـيـدا
يا من تقحم في الحياة كؤودها   قد كنت تعبر شاهقاً وصعيدا
قـاسـيـت أمـراضـاً لأمـت جـراحـهـا   أنّـى تـكـون بـعـثـرة مـوؤداً
الـمـوت قـنـاص ونـحـن فـريـسـة   يـصـطـاد مـنـا واهـنـاً وجـلـيـدَا
كم كنت أرجو أن تكون مؤبني   يا شاعراً نظمَ الدموع عقودَا
شاطرتني حلو الحياة ومرّها   فلكم وقفت بجانبي صنديدا
كـنـا مـعـاً نـسـعـى لـنـيـل مـطـامـع   سـهـلاً نـكـون وتـارة جـلـمـودَا
قـطـعـت بـنـا الأيـامُ شـرخ شـبـابـنـا   والـجـهـدُ يـأبـى أن يـكـون قـعـيـدا
والمجد صعب والمسالك وعرة   والنفس جانحة تريد مزيدا
أوقـفـت عـمـرك جـامـعـاً تـاريـخـهـا   نــصــاً يــكــون فــريــدا
والبحث مضنٍ والحقائق غمة   تحتاج تحقيقاً يكون وئيدا
والعمر محدود يضيق نطاقه   مما تهم به النفوس صعودا
ونهضت تدعو للجديد مطوِّرَا   أدب المدينة نثره وقصيدا
ونظمت للتاريخ شعراً رائعاً   يومي بما فعل الزمان نشيدَا
حمل الفجيعة باكياً متأوهاً   مات المغرد صوته تنهيدا
ينعي عبيداً في قلوب أحبةِ   سعدوا به وبهم يظل سعيدا
أبـشـرْعـبـيـد بـجـنـة ونـعـيـمـهـا   طوبى لمن نزل الجهاد شهيدا

وآمل أن يتحفنا السيد أمين بأجود قصائده لإضافته لتاريخ حياته الحافل بالعلم والتأليف، وقد أنجب السيد أمين ابنه النبيل السيد أياد مدني وكثيراً ما قرأت له بجريدة المدينة مقالاً في السياسة الدولية فأعجبت بها ولا غرو فالشبل من ذاك الأسد اقر الله ـ عين والده وقد

قيل في المثل (ابن النجيب لا ينجب وإن أنجب أعجب). وهنا انتهى بنا مجال الكلام في الحلقة البيانية ـ لهذا وإني أعرف الكثير من تاريخ السادة المداينة قد لا يعرف بعض السيد أمين فقد استفتينا من صديقي ابن عمه السيد جعفر مدني رعاه الله الذي كان يقص علي من أخبار جده السيد محمد مدني الذي تولى نيابة القضاء وأراني إعلام حكم صادر من جدة بخط الشيخ الجميل وغير ذلك من الأخبار فقد كان يودني ويكرمني من رحمه الله رحمة واسعة وأفاض عليه من شآبيب رحمته ورضوانه ـ وصلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

السيد عبيد مدني

وما كان زيداً هلكه هلك واحد ولـكـنـه بـنـيـان قـوم تـهـدمـا

ولد السيد عبيد سنة ١٣٢٤هـ ووالده السيد عبد الله مدني في رابع إخوانه السيد عبد الجليل والسيد عبد العزيز والسيد زين العابدين أبناء المرحوم السيد محمد مدني الذي تولى خلافة قاضي المدينة كما كان أمين ديوان المحكمة، وكان ذا مال وأعوان وعبيد، وهو الذي بنى قصر الصالحية بالشونة وسكن فيه مع أولاده، وبعد وفاته سكنه أولاده الثلاثة إلا السيد عبد الله والد السيد عبيد فإنه سكن داراً بسويقة المعروفة بيت المفتى، وتزوج السيد عبد الله من شقيقه السيد زكي البرزنجي، ابن السيد أحمد البرزنجي، وبنى السيد عبد الله الفندق الكبير خارج باب المجيدي، به أكثر من ثلاثمائة غرفة لإسكان الحجاج، كما نزل في هذا الفندق الكثير من الشخصيات البارزة من الأتراك في مقدمتهم أنور باشا وجمال باشا (السفاح) وزير الحربية وطلعت باشا وزير المالية. واشتهر السيد عبد الله بكرمه وكان بساطه ممدوداً لكل غاد ورائح وكان ينفح الفقراء منحاً خفية دنانير ذهبية، وأنجب ابنه البكر الصديق السيد عبيد وفرح بمولده وأنفق الكثير يوم ولادته وبعد سبع سنوات من عمره توفي السيد عبد الله رحمه الله. لقد عرفت الصديق عبيد مدني وأنا لا أتجاوز

الثانية عشرة وكنت تلميذاً بزقاق الكبريت، ففي عطلة الظهر كان السيد عبيد يأتينا ليلعب معنا حيث كان بيتهم في سوق القماشة (بيت المفتي) لأن والدته بقيت في البيت بعد وفاة والده ولما وقعت الحرب العظمى سنة ١٣٣٣هـ أمر حاكم المدينة العسكري فخري باشا بإجلاء أهل المدينة للشام والأناضول خوفاً من انقطاع الأرزاق من الشام وخوفاً من ميل الشريف مع الحلفاء صار سكان المدينة يسافرون تباعاً، واتفق المحامي السيد عبيد بسفري السيد زين العابدين وبقاء الأخوين عبد الجليل وعبد العزيز بالمدينة وبقي السيد عبيد مع والدته معهم وانتقلا لقصر الصالحية، وبعد سنتين من الحرب انكسر الأتراك وتعقبهم الجيش البريطاني لسورية ودخل الحجاز في حكم الشريف الحسين وصدر الأمر برجوع من كان بدمشق وغيرها للمدينة فرجع السيد زين العابدين للمدينة وذلك سنة ١٣٣٧هـ وكنت بدوري بدمشق فرجعت ودخلت المدرسة الفيصلية إحدى المدارس التي أنشأها الشريف تيمناً بأسماء أولاده الأمراء، وأدخل السيد عبيد للمدرسة الفيصلية، وكنت وإياه في الصف الأول فتوطدت بيني وبينه الصداقة حتى نلت الشهادة التحضيرية ودخلت بعدها للصف الراقي وخرج السيد عبيد ولم يواصل دراسته في المدرسة بل أخذ في الدرس بالحرم الشريف، وكان مولعاً بالأدب فتتلمذ على المرحوم الشيخ العمري فكان الشيخ يأتيه للبيت فيدرس عليه، وكنت بدوري أذهب لدار السيد عبيد في السوق وأسمر عنده وكثيراً ما تعشيت معه واطلعت على مكتبة والده الحافلة بالكتب الثمينة فأعجبني منها كتاب ألف ليلة وليلة فقال لي خذه جزءاً جزءاً واقرأه في بيتك. ثم إني سافرت للهند لطلب العلم سنة ١٣٤٢هـ وبقيت ثلاث سنوات حتى نلت الشهادة العالمية ورجعت سنة ١٣٤٥هـ. وتوظفت مدرساً بمدرسة العلوم

الشرعية وزرت صديقي السيد عبيد فوجدته قد قطع شوطاً بعيداً في العلم والأدب، فكنت أزوره بعد العصر إلى فندقه الذي كان يذهب إليه بعد عصر كل يوم فيجلس في حديقة البستان المتصل فكان يزوره أصحابه ومنهم الداعي ونمكث إلى المغرب ثم يرجع كل منا لداره. ثم إن السيد عبيد حُبب إليه بيع الفندق حيث كان يؤجره لبعض المدرسين بأجرة طفيفة فباعه لمحمد بن لادن، واشترى بثمنه دارين بمصر إحداهما له والثانية لأخيه السيد أمين مدني، ومكث الأخوان وأقاما بها وسافرت أنا لمصر سنة ١٣٧٢هـ مع الأولاد للاصطياف فاجتمعت بالسيد عبيد وكثيراً ما كنا نجتمع في الولائم لدى صديق الطرفين السيد ولي الدين أسعد رحمه الله أو في شقة السيد محمد مدني وغيرهم، ولما قام عبد الناصر بثورة الاشتراكية توقفت رواتب الموظفين السعوديين المقيمين بمصر فاضطررت للرجوع وأبقيت الأولاد بمصر وأدخلتهم بمدرسة السيد ولي الدين أسعد، وكان ابني الأكبر عبد العزيز بمصر في البعثة العسكرية فبقوا معه، وبعد بلوغي الستين أحلت للتقاعد وأصبت بالقرحة وأجريت لي عملية جراحية وبعدها أصبت بداء الاكتئاب وبقيت عدة سنين أعاني من المرض حتى شفاني الله فاجتمعت بالسيد عبيد في حفل مؤتمر الأدباء بمكة المكرمة سنة ١٣٩٥هـ ورجعت للمدينة ورجع السيد عبيد للمدينة وفي السنة الثانية سنة ١٣٩٦هـ ذهبت لمصر للعلاج مع أم الأولاد فعلمت بوجود السيد عبيد هناك فسألت الشيخ عبد القدوس عن مكانه لأزوره فقال لي هو بمصر، بيد أنه لا يعلم مكانه لأنه لم يكن في داره التي اشتراها سابقاً فرجعت للمدينة في أخريات رمضان تلك السنة. وعلمت من الشيخ عبد القدوس أنه والسيد عبيد سيبقيان بمصر حتى انتهاء الصيف وبعد عيد الفطر ١٢ شوال ١٣٩٦هـ كلمني الشيخ

عبد القدوس بالتليفون من المدينة قائلاً لي لقد جئت من مصر للاشتراك في عزاء المرحوم السيد عبيد مدني الذي توفي بمصر وجاؤوا بجثمانه بالطائرة اليوم لدفنه في البقيع، وقد صلى عليه في المسجد النبوي ودفن فسألته عن مكان العزاء لأذهب للعزاء فقال لي دار ابن عمه السيد ماجد مدني من طريق قباء فذهبت بعد المغرب واشتركت في العزاء وبكيت على صديق وزميل نور الله مرقده ورحمه الله. تزوج السيد عبيد أولاً بابنة عمه السيد عبد العزيز وأنجب منها ابنه البكر السيد عدنان وبعد وفاتها تزوج من كريمة السيد عبد الله جمل الليل وأنجب منها الدكتور غازي ونزار وعصام وبنتاً واحدة وقد شغل من الوظائف عضوية مجلس الشورى سنين عدة ثم اثر العودة للمدينة للإقامة بها الإقامة الدائمة وبنى داره في طريق سلطانه سكن فيها مع ابنه السيد عدنان وكان تزوج السيد عدنان ووكل أموره عليه. وأن الصديق الأستاذ عبد القدوس أبّنه في مجلة المنهل بما يليق بصديق مثله العمر طويل وكان يعدُّه شاعر المدينة بحق ومؤرخها الوحيد رحمه الله رحمة واسعة وأفاض عليه من سجل رحمته ورضوانه.

الشيخ الشريف محمد العربي بن رشيد

من أعلام المدينة المنورة

يندر أن تجمع من شخص واحد تلك الخصال النبيلة التي اجتمعت في الشريف محمد العربي، فهو نسيب عالم ورع زاهد عفيف كريم كل ذلك يزينه خلق سمح أجمع أصدقاؤه وتلاميذه على تزكيته والترحم عليه.

ولد رحمه الله في بلدة (مدغره) من مقاطعة تافلال في المغرب الأقصى وهي مقاطعة يسكنها الأشراف أبناء علي الذين ينتمون إلى محمد بن عبد الله بن الحسن الملقب بالنفس الزكية. ومقاطعة تافلال داخل المغرب تحدها الصحراء الجزائرية هاجرت أسرته خشية من الفرنسيين وفسقهم إلى المدينة المنورة وهو بعد طفل في بداية التعليم والتثقيف، وفيها تلقى تعليمه مبتدئاً بحفظ القرآن الكريم بكتاب الشيخ الطرودي رحمه الله، وبعد أن تحصل على طرف من العلم وأتم التجويد وحفظ شيئاً من المتون في المسجد النبوي وعلم أن الرحلة إلى العلم سنة مأمور بها، رحل إلى المغرب والتحق بجامعة القرويين ببلدة فاس وأخذ يجد ويجتهد وينتقل من عالم إلى عالم آخر لتحصيل أنواع العلوم وشتى الفنون كما ينتقل العصفور من شجرة إلى شجرة يبحث عن الثمرة

الجنية الناضجة. وبهذه الروح الوثابة والطموح الفذ أدرك ما ينبغي ونال ما يشتهي.. ثمان سنوات قضاها في تلك الجامعة الكبيرة لم تفتر له همة ولم تقعد به عزيمة. ولما رأى نفسه قد أستوعب علماً بما يؤهله التجارة الرابحة إلى طيبة الطيبة الغراء يعرضها على طلاب العلم فيتلقفها منه الطلاب في منزله وفي مدارس الحكومة والمدارس الأهلية والمسجد الشريف، ومع ذلك هو لا يضع بما عنده من علم بل يستزيد فكلما سمع بعالم من العلماء الأفذاذ يدرس علماً أو أدباً رأيت الشريف العربي على رأس الحلقة وكله وعي وإدراك لا ينقطع عن المسجد في جميع الأوقات ولا يفارق الكتاب ولا يترك القلم، وكانت أغلب دروسه الفقه المالكي والتوحيد السلفي والتفسير والحديث وكان له ولع بدروس اللغة العربية من صرف ونحو وبلاغة وأدب، له رحلات للعلم والتجارة إلى مصر والشام وتركية وقد نال إجازات قيمة من كثير من العلماء في الأقطار يزورهم في بلادهم ويقابلهم في المدينة المنورة، وفي الحرب العالمية الأولى رحل إلى دمشق ضمن من رحل إليها من سكان المدينة ورحل إلى تركية أيضاً وعاد للمدينة وعين في مدارس الحكومة مدرساً ممتازاً وكان رحمه الله له عناية خاصة بتربية ابنه السيد أحمد العربي فأحفظه القرآن مجوداً ولقنه العلم بالمسجد والمدرسة والكتاب في يده أو اللوح حتى استوعب السيد أحمد كثيراً مما عند والده ثم ذهب به إلى القاهرة وألحقه بالأزهر فدرس به عدة سنوات حتى نال الشهادة الثانوية ثم التحق بدار العلوم العليا فنال شهادتها بتفوق ثم أصبح مديراً للأوقاف العامة بعد أن كان عضواً بمجلس الشورى ومديراً لمدرسة البعثات. وكان السيد المترجم له كاملاً خلقاً وخلقاً أبيض اللون خفيف العارضين ضامر الجسم بين الطول والقصر هادي المشي له عينان

عسليتان يطل منهما الذكاء والفطنة والسماحة والعفة، عظيم النفس صبوراً على العبادة وطلب العلم إذا حضر مجلساً زينه، لا يتصل بالناس إلا لماماً، يقابل السيئة بالحسنة، طيب السيرة عف اللسان، سلم المسلمون من لسانه ويده انتقل عام سنة ١٣٥٤هـ من المدينة إلى مكة حيث تفرغ للعبادة وانقطع للتبتل إلى أن وافته المنية في ١٣ القعدة سنة ١٣٥٨هـ ودفن في تربة المعلاة عن عمر يناهز السبعين تغمده الله برحمته ورضوانه.

ترجمة حياة السيد أحمد العربي

ولد السيد أحمد العربي بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٣هـ ووالده الشريف محمد العربى من الأشراف العلويين الذين ينتمي محمد العربي هو من المنتمين للأسرة المالكة في المغرب، نشأ السيد أحمد في كنف والده ولما بلغ السابعة أدخل للكتّاب وكنت بدوري زميلاً معه في مدرسة رباط الكشميري لدى شيخها ومكثت فيها قرابة سنة ثم انتقلنا لكتاب الشريف أحمد النصري وذهبت أنا لكتّاب الشيخ عبد العليم حتى حفظت القرآن وحفظ هو القرآن أيضاً وذلك سنة ١٣٣٢هـ وكان والده اشترى داراً خارج باب المجيدي واشترى والدي داراً مجاورة لها ولقد بقينا متجاورين حتى وقعت الحرب سنة ١٣٣٣هـ، وبدأ فخري باشا حاكم المدينة العسكري بإخلاء سكان المدينة للشام خوفاً من قطع سكة الحديد بسبب ثورة الشريف الحسين وبالفعل قام الشريف الحسين بثورته في شهر شعبان سنة ١٣٣٤هـ فسافر السيد أحمد سنة ١٣٣٤هـ مع والده لدمشق سافرت بدوري إلى دمشق وحيداً لأن والدي آثر أن يبقى بالمدينة ويصبر على لأوائها لأنه عاهد الله على ذلك. وكان مع والد السيد أحمد عامله شيخنا عبد القادر الشلبي وأدخل السيد أحمد للمدرسة الابتدائية. ولم أتقابل معه حيث أني أصبت بمرض التيفوئيد الذي أصاب أكثر أهل المدينة ومات الكثيرون منهم إلا من رحمه الله. وشاء الله أن أشفى من هذا الداء وكان

الترك قد انهزموا أمام الجيش البريطاني الذي طاردهم حتى دمشق فدخلها سنة ١٣٣٦هـ ولما حلت سنة ١٣٣٧هـ أذن لأهل المدينة بعد استيلاء الشريف الحسين على الحجاز بالرجوع للمدينة فرجعت مع أهلي، وأنتظمت في إحدى المدارس الأربعة وهي المدرسة الفيصلية التي أنشأها شيخنا الشلبي بأمر الشريف الحسين باسم أولاده الأربعة الأمراء علي وعبد الله وفيصل وزيد، وبعد رجوع السيد إلى دمشق دخل بدوره للمدرسة المذكورة الفيصلية، وزاملته بالمدرسة حين نلنا الشهادة التحضيرية ثم لما أفتتح الشلبي الصف الذي يضمنا بالصف الأول وكان زميلنا أسعد باشا من المدرسة الفيصلية هو وأخوه ونلنا أنا والسيد أحمد والسيد عثمان السيد الأصغر بالصف الرابع، وفي الصيف كنت أدرس معهم لدى شيخنا الشلبي بمدرسة الجواهرجي وكان معنا السيد عثمان وطاهر الطيب وأحمد عبيد وسعيد شلبي نتلقى درساً في النحو والصرف والبلاغة، ولدى فتح المدرسة الراقية ارجع إليها حتى أتممت الصف الثالث سنة ١٣٤١هـ ثم سافرت بدوري للهند لمدرسة مظاهر العلوم العالمية سافر السيد أحمد مع الشيخ عمر حمدان لمصر وأنتظم في الأزهر برواق الحرمين، ورجعت من الهند سنة ١٣٤٤هـ بعد نيلي الشهادة العالمية للمدينة، ثم سافرت لمصر والتقيت هناك بصديقي السيد فكان هو والسيد ولي الدين أسعد ما زالا يدرسان في الأزهر حتى نالا الشهادة العالمية، وكنت التقي بهم يومياً وكان والده الشريف العربي معه في الرواق ومكثت سبعة أشهر بمصر بعد شرائي للمطبعة الصغيرة، وأتيت بها مع الكتب العلمية للمدينة، وتعينت مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية، وعلمت فيما بعد أن السيد أحمد والسيد ولي الدين أسعد وغيرهم من السعوديين التحقوا بالبعثة السعودية الأولى وانتظم السيد أحمد في مدرسة دار العلوم حتى نال دبلومها العلمي،

ورجع للمدينة مكللاً بالنجاح واحتفلنا به، وترأس الحفلة يومئذ الشيخ أمين فوده مدير المعارف حيث كان جاء زائراً للمدينة وقد ألقيت في الحفلة قصيدة ترحيبية:

آب الخليل المفدى ... يسمو جلالاً ومجدَا
أهلاً به من نبيل ... له المكارم تهدى
سربت مثل هلال ... وعدت بدراً تبدَّى
وكل شهم كريم ... يوليك شكراً وحمدا
من رام نيل المعالي ... سعى إليها وجدًّا
بالجدّ نيل المعالي ... ومن يرم نال جدّا
بالعلم ندرك شأواً ... بالعلم ندرك قصدا
هيا رجال بلادي ... نشمر اليوم زندا
الجهل قد عم فينا ... حتى بغى وتعدّا
حيّا الإله مليكي ... عبد العزيز المفدى
من حاز مجداً وعزاً ... والجود منه استمدّا
يا رب وفِّقه دوماً ... وأولِه منك أيدَا

وبعد تخرجه من دار العلوم ورجوعه لمكة تعين مدرساً بالمعهد العلمي السعودي فأمضى فيه سنتين ثم سافر لجزيرة جاوا وعين مدرساً لمدرسة الإرشاد، وعمل فيها سنة ثم رجع للمدينة، ورغب والده أن يسكن السيد أحمد المدينة فتوظف بمدرسة العلوم الشرعية مدرساً للأدب العربي، فدرس بها بضعة شهور ثم طلب لإدارة مدرسة الأمراء بالرياض، فذهب إليها وأقام سنة أو بضع سنة وتعلم عليه بعض الأمراء أذكر منهم أبناء

الملك عبد العزيز ـ وخاصة الأمير منصور والأمير سلطان ثم استجاز من الملك الرجوع لمكة حيث أن جو الرياض لم يلائمه فأذن له جلالته فرجع لمكة، فأنيطت إليه مدرسة البعثات وكان السيد طاهر الدباغ أنيطت إليه مديرية المعارف وتخرج على السيد أحمد كثير من شباب الجيل الماضي، ثم تعين مديراً للتعليم الابتدائي والثانوي ثم مديراً عاماً للأوقاف ثم مستشاراً للمعارف ثم أحيل عضواً دائماً ـ لمجلس الشورى وما زال يعمل فيه حتى اليوم. وقد أنجب السيد أحمد أولاداً ذكوراً وإناثاً وأكبر أولاده هو السيد محمد تخرج في كلية الشرطة بمصر ورجع لمكة وتعين قائداً للشرطة وولده الثاني نزار تخرج من كلية البترول ورجع وسافر للولايات المتحدة وعاد للوطن ـ وتعين مديراً لفرعها بالرياض وولده الثالث السيد هاشم تحصل على الماجستير في الإدارة والمحاسبة من الولايات المتحدة ورجع وتوظف بشركة البترول اليابانية بالخفجي وله من البنات ثلاث زوجهن من أزواج مرموقين ويعيش اليوم بمكة حيث ـ اختارها مقاماً له وقد أزوره ويزورني بالمدينة وأنا وإياه نخطو للثمانين من السنين ولم نكن نتصور أن نتفرق وكنا كما قال الشاعر:

وكنا كندماني جذيمة حقبةً   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً   لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

وفقني الله وإياه لصالح الأعمال وختم لنا بخاتمه الإيمان بمنه تعالى وكرمه.

ومن أجود شعره هذه القصيدة التي نظمها أيام طلبه العلم بالأزهر قال:

طال عهد النوى وعهد التأسي   عن بلاد غرامها ملء نفسي

وربــوع فــديــتــهــا بــفــؤادي   عشت فيها عهد المنى دون وكْسِ
وريــاض كــأنــهــا مــن زهــور   وطــيــور تــزف مــوكــب عــرس
وكــأن الــورد ثــوب عــروس   عــســجــدي مــنــمــق بــدمــقــسِ
وتخال النخيل والشمس تكسوه   بــأضــوائــهــا مــنــارة قــسِّ
وإذا مـا الـتـفـت نـحـو الـروابـي   شمت سرباً من الظبا غير نكسِ
يـا ربـوعـاً بـالـجـزع حـول قـبـاء   والـعـوالـي وقـربـانـكـن بـنـفـسـي
كـم لـنـا فـيـك ذكـريـات غـوال   لـم يـشـب سـعـدهـن قـط بـنـحـسِ
مـع رفـاق غـرٍّ سـراة تـسـامـوا   لــذرى يــعــرب وســادة فــرس
نـتـسـاقـى مـن الـبـيـان رحـيـقـاً   أدبــاً تــالــداً وطــرفــة طــرس
ولنا في مجالس الشاي ندوات   مـجـون وبـعـض جـد وهـلـس
نـشـرب الـشـاي أخـضـراً يـتـحـلـى   فـي كـؤوس كـأنـه ذوب شـمـس
جـلـلـتـه سـحـابـة الـعـنـبـر الـزاكـي   فـأمـسـى أمـنـيـة الـمـتـحـس
مع ندامى من كل أروع وضاح   الـمـحـيـا يـصـغـي لـه كـل حـسّي
في حمى طيبة المفداة جادتها   الـغـوادي بـكـل غـيـث مِـلـسِّ
هي دار الإيمان والسادة الأنصار   مــن خــزرج كــرام وأوسِ
هـي داري ولـسـت أسـلـو سـواهـا   مـا حـيـيـت وأن أوارى بـرمـسـي
كـيـف أسـلـو وذاك شـأن بـلاد   مـن ربـاهـا نـمـا وأيـنـع غـرسـي
زادهــا الــلــه عــزةً وازدهــاراً   وحـمـاهـا مـن كـل ضـر وبـأسِ

ونظم هذه القصيدة العصماء تكريماً للكشاف العراقي لما قدم من العراق بطريق البر إلى المدينة ثم غادرها للحج لمكة المكرمة وذلك سنة ١٣٥٢هـ.

وفــد الــعــراق احــتــفــاء   ومــرحــبــاً بــالــشــبــاب

حــلــلــتــمــوا دار عــهــد ومــعــشــر وصــحــاب
هــذا الــحــجــاز ونــجــد ســهــولــه والــروابــي
تــهــلــلا عــن حــبــور بــكــم وعــن تــرحــاب
مــا أروع الــيــوم يــوم مــلء الــحــشــا والــشــعــاب
شــعــب يــصــافــح شــعــبــاً هــو الــشــقــيــق الــمــحــابــي
جــيــل يــجــدد عــهــداً بــالآل والأصــحــاب
يــوم نــودع عــهــداً عــهــد الــســنــيــن الــصــلاب
وهــا هــو الــيــوم وافــى فــي أروع الأثــواب
والــفــضــل فــضــل الــمــلــيــكــين وُفّــقَــا لــلــصــواب
عــبــد الــعــزيــز الــمــفــدى الــعــاهــل الــغــلاب
والــشــبــل فــيــصــل فــخــر الــمــلــوك فــخــر الــشــبــاب
وقــاهــمــا الــلــه لــلــعــرب مــعــقــلاً غــيــر نــابِ
فــإنــمــا نــحــن عــرب ســلائــل الأعــراب
دمُ الــعــروبــة يــجــري فــي هــذه الأصــلاب
وســوف نــبــلــغ يــومــاً مــا نــرتــجــي مــن رغــاب
وإنــمــا الــمــجــد والــســبــق واعــتــزاز الــجــنــاب
لــمــن يــعــدّ لــيــوث الــشــرى وأســد الــغــاب
والــســاريــات الــغــوادي فــي الــيــم أو فــي الــســحــاب
والــمــرســلات شــواظــاً يــدكّ شــم الــهــضــاب
والــنــاهــضــات لــهــيــبــاً والــزاحــفــات الــغــراب
أمــا الــمــطــايــا الــعــوادي وســابــحــات الــعــراب
ولامــة الــســامــريــات والــقــنــا والــعــضــاب

فتلك آثار عهدٍ مضى لغير إياب
فحبذا القوة اليوم عدة الغلاب
وحبذا قبس العلم إنه غير خابِ
فإنما الأمل اليوم في جهود الشباب
همو العتاد المرجّى وعدة الأراب
فبارك الله هذا الشباب رمز الرغاب
ووفق العرب طرا في سعيهم للصواب

وأنشد هذه القصيدة لدى حفلة وداع الكشاف وبعد عودته من الحج وقد استحسنها الكشاف وكان فيهم عمداء كليات بغداد فاستعادوها مراراً بالتصفيق الحاد وهي:

وداعاً بني عمنا الأقربين وفد العراق وفتيانها
نودعكم بقلوب تكن لكم ودها ملء وجدانها
نودعكم بقلوب تحن إلى الرافدين وقطانها
ونقرىء فيكم شباب العراق تحايا الشباب لإخوانها
نحييكم باسم مهد العروبة شيب البلاد وشبانها
تحية عاصمة الرافدين يثرب معقل أيمانها
نحيي بها وفد دار السلام مهد الحضارة ميدانها
نحيي بها فيكمو يعرباً بعدنانها وبقحطانها
فأنتم طلائع يقظاتها وفرسان وحدة أيمانها
تجشمتموا العقبات الصعاب وجبتم مجاهل كثبانها
لشد أواصر بني يعرب وتجديد سالف أزمانها

وتـوطـيـد أقـدام نـهـضـاتـهـا وتـشـيـيـد أبـراج عـمـرانـهـا
فـمـرحـى لـكـم لـبـعـوث الـنـهـوض ورسـل الـحـيـاة وعـنـوانـهـا
أعـدتـم إلـيـنـا عـهـود الـعـروبـة والـراشـديـن وسـلـطـانـهـا
وعـهـد الـخـلافـة فـي الـرافـديـن ومـأمـونـهـا فـرع هـارونـهـا
وعـهـد أمـيـة فـي الـمـشـرقـيـن تـصـول وتـزهـو بـتـيـجـانـهـا
مـمـالـك كـانـت تـشـع الـحـيـاة وتـبـعـث أنـوار عـرفـانـهـا
فـأوهـى الـتـفـرق دولاتـهـا وصـدع أركـان بـنـيـانـهـا
وأودت بـهـا عـاصـفـات الـنـزاع وأودت بـهـا ريـح حـدثـانـهـا
وشـاء الـقـضـاء بـأن نـكـتـوي وأن نـصـطـلـي حـر نـيـرانـهـا
ولأيـا أراد الـقـضـاء بـأن يـكـفـر عـن عـهـد أشـجـانـهـا
فـأوحـى إلـى عـقـلاء الـعـروبـة أن يـجـمـعـوا شـمـل أحَـدانـهـا
فـكـانـت مـسـاعـي الـمـلـوك الـعـظـام لـيـوث الـجـزيـرة شـجـعـانـهـا
إمـام الـعـروبـة عـبـد الـعـزيـز فـارسـهـا وابـن فـرسـانـهـا
وفـيـصـلـهـا الـعـلـم الـمـنـطـوى وغـازيـه رمـز فـتـيـانـهـا
وكـانـت مـسـاعـي شـيـوخ الـعـروبـة تـعـضـد أحـراره شـبـانـهـا
وهـا قـد بـدأنـا نـرى ثـمـرات الـجـهـو د الـجـسـام وأغـصـانـهـا
فـإن اتـصـال بـلاد الـجـزيـرة خـيـر سـبـيـل لـعـمـرانـهـا
وأن الـخـطـوط تـقـوم مـقـام وريـد الـحـيـاة وشـريـانـهـا
اجـل قـد أنـسـنـا دبـيـب الـحـيـاة وإيـراق أعـواد أفـنـانـهـا
وقـدمـاً عـلـمـنـا بـأن الـحـيـاة سـتـدفـق فـي أثـر ركـبـانـهـا
لأن حـيـاة الـشـعـوب اقـتـصـاد هـو الـيـوم مـحـور مـيـزانـهـا
لأن الـسـبـيـل إلـى الاقـتـصـاد ويـمـن الـحـيـاة وإحـسـانـهـا

هو العلم مفتاح باب الحياة وأسُّ دعائم بنيانها
هو العلم ثروة أغنى الشعوب ومنشأ قوّة سلطانها
وما الفقرُ بالمال لكنّه بعزّ الرجالِ وأذهانها
وإنا إذا لم ننظم لنا حياة ونحكم من شأنها
وندعم بالعلم والاقتصاد سياج حماها وميدانها
أغارت علينا نسور الشعوب وألقت علينا بغربانها
فحيهلا بجهود الشباب لتوحيد آراب أوطانها
أأحفاد يعرب هذه المدينة تقرئكم أيَ وجدانها
تحدثكم بجهود الرسالة إبان تنزيل فرقانها
وتنبئكم بحياة الرسول وتروي لكم بعض ألوانها
تذكركم بجهود الصحاب وما كان من فعل إيمانها
وكيف نما الدين فيها وكيف ترعرع ما بين جدرانها
وكيف توالت عليها النوائب تترى سراعاً بحدثانها
وكيف هي اليوم تخطو وئيداً إلى مجدها ولعمرانها
بفضل الإمام العظيم المفدى مليك البلاد وربانها
فهذي المدينة سفر خلود يجل التحدث عن شأنها
وهأنا ذا اليوم شاعرها أردد أصداء وجدانها
فمن لي بالشاعر العبقري فأسمعكم صوت حسانها
وأقضي حقوق وفاداتها وأعرب عن قدر ضيفانها
إذا لم أكن ذلك العبقري فحسبي ترجيع ألحانها
وقدني إعلان تكريمها وقدني إسداء شكرانها

ومن قصيدة بعثها للداعي وأنا مثله أطلب العلم في الهند قوله:

وللسيد أحمد العربي قصائد جمة نظمها وهو تلميذ وشاب وشيخ وله ديوان شعر حافل بالقصائد الحبيبة للنفس، فمن أراد يستزيد من شعره السهل الممتنع فليراجع ديوانه:

وأول شعره هي هذه الأبيات التي بعثها إليّ بالهند في عام سنة ١٣٤٢هـ وكان يدرس بالأزهر:

أيها الخلّ في سبيل المعالي — ما نقاسيه من أسىً وكلالِ
ولعلَّ الزمان يسمح يوماً — بنعيم وغبطة ووصَالِ
إن قلبي مسلسل الوجد لكن — ليس بالمستحيل بل متوالِ
وحنيني إلى الحجاز حديثي — وهيامي لطيبة شاغل بالي
طال حزني فقصر الصبر عن حبي — وجفاني الكرى وطيف خيالي
بيد أن الظروف مختلفاتٌ — والليالي كما علمت الليالي

وكتبت له بدوري من الهند أشكو فراقه وأتشوق لطيبته الطيبة:

مهلاً وُقيت مصارع الأزمان — يا عمدة الخلان والإخوانِ
نشكو الفراق وروعه لمتيَّم — أضحى أسير الوجد والأشجانِ
أبداً يحن جوىً إلى الهند الذي — كم في الحشا أودى بوخز طعانِ
ولقد تأملت البريّة منشداً — فيهم بديع وداك المنصانِ
فوجدت كل الصيد في جوف الفرا — ووجدت كل الناس في إنسانِ

أطال الله حياته وبلغه ما يرجوه ويتمناه آمين.

ترجمة الشيخ عبد القدوس الأنصاري

ولد بالمدينة المنورة كما قال لي عن نفسه بأن والدته لما جاءت من بلده تمبكتو مع المرحوم الشيخ محمد الطيب التمبكتي وضعته وبعد وفاتها كفلته زوجة الشيخ حتى ترعرع وكانت تلقنه أركان الإسلام وآيات من القرآن وذلك حتى سنة ١٣٠٠هـ وبعدها على ما أظن كان يتعلم على الشيخ الطيب أمَّا أنا فقد عرفته شاباً سنة ١٣٣٧هـ حينما كنت تلميذاً بالمدرسة الفيصلية وكان يأتي الأستاذ عبد القدوس للمدرسة وفي أبطه محفظة الدروس يسأل عن العريف المرحوم محمد بن سالم فينزل العريف إليه ويعطيه من النفحات التي ترد للعلماء والطلبة من أهل الخير، وكان الشيخ الطيب مدوناً في سجل علماء الحرم وبعدها رجعت من الهند بعد نيل الشهادة العالمية سنة ١٣٤٠هـ وتوظفت مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية وكان الشيخ الطيب صدر المدرسين بها ومن طلبته عبد القدوس وزميله محمد عبد الله السوقي والشيخ أبو بكر التمكتي وغيرهم، وكانت غرفة درسي بجانب غرفة الشيخ الكبيرة وكنت أتسمع لدروسه في التفسير والحديث، فتعرفت إلى الشيخ عبد القدوس وزميله عبد الله من المدرسة نجتمع بعد العصر في الحرم الشريف ومعي زميلي السيد عثمان حفظ وقد كان يزاورنا الشيخ عبد القدوس وزميله عبد الله في المكتبة التي أنشأناها في باب الرحمة وكثيراً ما كنا نتناقش في الأدب، وبعد سنتين استقلت من

مدرسة العلوم الشرعية وتوظفت بالمدرسة الابتدائية الأميرية بسبب قلة راتب المدرسة وقد أكمل الشيخ عبد القدوس وزميله عبد الله نصاب المدرسة من العلوم العالية حتى نالا الشهادة وتوظف الشيخ عبد القدوس مدرساً للأدب بالمدرسة وتوظف الشيخ عبد الله إماماً بالمسجد النبوي. ودارت الأيام دورتها فاستقال الشيخ عبد القدوس من المدرسة وتوظف معاون رئيس ديوان الأمارة وأول ما ألف هو كتاب آثار المدينة، وقصة التوأمان واستقلت أنا من المدرسة الأميرية بسبب الأزمة الاقتصادية وسافرت في العطلة الصيفية سنة ١٣٥١هـ وبعد غياب سبعة شهور رجعت للمدينة، وفاتني أن أذكر أنه لما كنت مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية سنة ١٣٤٥هـ أسست النادي الأدبي مع بعض زملائي وأصدقائي وبعض الطلبة أذكر منهم السيد عثمان والمرحوم عبد الحميد عنبر وعبد الله حجار وضياء رجب وأحمد بشناق وسامي إسماعيل، وأسس الأستاذ عبد القدوس نادي المحاضرات مع بعض أصدقائه وزملائه أيضاً، أذكر في مقدمتهم صديقه الأوحد المرحوم السيد أحمد خيارى وأحمد رضا حوحو وبعض الطلبة ولم يكن النادي تأسس بأمر رسمي كما كان نادي المحاضرات بالمثل ولما علم أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم سأل رئيس ديوانه إسماعيل حفظي رحمه الله عن الناديين فأوعز لنا المرحوم بإيقاف عمل الناديين فتوقفنا. وأعود فأقول: ولبثت بدون وظيفة ثلاثة شهور ثم رجعت لوظيفتي بالمدرسة بمكاني لاستقالة السيد عثمان حافظ حيث كان تعين مكاني لغيابي الطويل بعد الأزمة الاقتصادية التي ما زالت قائمة ولا يصرف غير نصف الراتب وهو لا يكفيني لمعيشة أولادي فاستقلت من المدرسة وتعينت مديراً لدار الأيتام التي أنشأها المرحوم عبد الغني دادا، غير أني استقلت منها لأن العمل فيها كان يتطلب كل النهار وقسماً من الليل حتى

ينام التلامذة، فصدف أن تأسس معمل النسيج الوطني الذي أنشأه أغنياء حيدر آباد ولي بواسطة معتمدهم المرحوم خواجه معين الدين فتعينت محاسباً فيه سنة ١٣٥١هـ بالراتب الذي كنت أتقاضاه في المدرسة ستين ريالاً وكان يدير المعمل السيد هاشم ابن المرحوم السيد زين العابدين مدني وكان والده رئيساً للجنة العين الزرقة، وبوفاته عين السيد هاشم ابنه مكانه فتعين السيد أمين مدني مديراً للمعمل واستقال منها فتعينت أنا مديراً للمعمل سنة ١٣٥١هـ وفي سنة ١٣٥٢هـ أنشأ صديقي السيد عثمان جريدة المدينة وأنشأ الأستاذ عبد القدوس مجلة المنهل وقد كنت أكتب في جريدة المدينة واشتركت في مجلة المنهل من بداية عددها وكان وكيلها هو السيد.

كما كنت أكتب بعض مقالات في جريدة المدينة وفي أيام إدارتي لمعمل النسيج توظفت سنة ١٣٦١هـ محامياً لمالية المدينة فكان ذلك لا يتعارض مع عملي في المعمل حيث كنت أحضر الجلسات الداعية لحضور محامي المالية وكانت الجلسات جلسة أو جلستين في الأسبوع لا تتعارض مع إدارتي للمعمل المذكور وعملت في المعمل. وسبق أن الأستاذ عبد القدوس حينما كان موظفاً بأمارة المدينة بعد استقالته من مدرسة العلوم الشرعية تقدم بطلب إصدار مجلة المنهل وفي ٧/٥/١٣٤٩هـ تلقت أمارة المدينة الإرادة الملكية بعدد ١٣١٢/١٠٦٠/٤٨/٤/١٣٤٩هـ صدر الأمر أن لا بأس بإصدار المجلة بشرط عدم التعرض للسياسة والاعتراض على الحكومة وإنما في الأمور الأدبية والحث على المصالح الداخلية وأمور الدين على مذهب السلف الصالح وتأليف هيئة من شخصين أحدهما من طلبة العلم والثاني ممن لهم إلمام بالسياسة، فعينت الأمارة قاضي المستعجلة الشيخ سليمان العمري للأمور الدينية وعبد العزيز الخريجي للأمور السياسية وكفل على ذلك المرحوم السيد

أحمد الخياري وتحررت بذلك حجة شرعية لصدور المجلة بالشروط المذكورة، وطبع العدد الأول بالمدينة بمطبعة طيبة للسيد عثمان حافظ، واشتركت فيه من أول عدد وكنت توقفت عن الكتابة لصدمة لحقتني أيام كنت أكتب في صوت الحجاز مقالات (ما بين بغداد ودمشق). وكان أخي السيد عثمان حافظ أنشأ جريدة المدينة بمؤازرة أخيه السيد علي ودرجت المنهل والمدينة ثم أنتقل الشيخ عبد القدوس والسيدان علي وعثمان حافظ لطبع المجلة والجريدة في جده حيث إن طبعهما هناك أقل نفقة، وتولى الشيخ عبد القدوس مساعد رئيس ديوان وزارة الداخلية المرحوم عبد الرحمن السليمان وبقي في هذا المنصب سنين عدة ولما تحولت الصحف إلى مؤسسات لكل جريدة الشيخ عبد القدوس بمؤسسة لمجلة المنهل لثقة المرحوم فيصل بكل ما يكتب في المنهل موافق للشروط. ولقد بدأت بالكتابة في المنهل بمقالات عن رحلاتي من مصر إلى ليبيا للجزائر لتونس والمغرب ومنها للأندلس والرجوع من مصر وفي رحلتي الثانية للشام والعراق وتركية ثم لمصر، والثالثة من مصر إلى اليونان فيوغوسلافيا فالنمسا فألمانيا الشرقية والغربية والقسم الغربي من روسيا ثم إلى بلجيكا فبريطانية ففرنسا فسويسرا فإيطاليا فاليونان فمصر، هذا عدا بعض التراجم وبعض القصائد وكانت هذه المقالات تنشر تباعاً في مجلة المنهل. ولما اعتزم الأستاذ عبد القدوس طبع كتاب باليوبيل الفضي للمجلة نظمت قصيدة لمجلة المنهل وكنت بالقاهرة فبعثتها للأستاذ عبد القدوس فنشرت في كتاب (اليوبيل الفضي في خمس وعشرين سنة). أذكر مطلع القصيدة:

حيّ في المنهل الزلال رحيقاً   في جنى ورده رحيق المعاني
روضة العلوم ماءت فأوعت   فتعالت في قدرها والمكان

إلى أن أقول:

إيه عبد القدوس عمرك الله   ووقيت فتنة الحدثان
أنت شيخ الصحافة في العهد   السعودي واحد الخلان
هاك رمز الفخار في يوبيلك الفضي   تزهو على الأقران
فتقبل تحية من صديق   حافظ الود واحد الأخدان

هذه القصيدة نشرت في اليوبيل الفضي لمجلة المنهل لقد كنت متصلاً بالشيخ عبد القدوس بالمكاتبة بعد سفره لمكة وجدة وإذا ذهبت لجده أذهب لزيارته ولما يأتي المدينة بدوره يزورني وما زلت متصلاً وقد قلت له أن يرجع للمدينة ويقيم فيها فاعتذر لي بدراسة أولاد ابنه في جده ويصعب انتقالهم للمدينة وقال لي إن شاء الله إذا انتهوا من الدراسة وابتعثوا للخارج فسوف آتي مع والدتهم وأقيم بدعوة له أن يبلغه الله وبعمره لبعد اليوبيل الذهبي لمجلة المنهل.

ترجمة حياة عبد الرحمن رفه

ولد عبد الرحمن بالمدينة المنورة ووالده سليمان رفه العطار المشهور في زمانه، ولقب الرفه هو الرفاء حيث كان ماهراً في رفي السجاجيد وما أشبهها، واشترى المذكور أرضاً خارج باب قباء مستطيلة بمبلغ بسيط وكان يبيع منها مخازن بسندات عادية ولما توفي أوصى ولده عبد الرحمن المذكور وهو أكبر إخوانه الثلاثة بأن كل من أبرز سنداً مختوماً بختمه بشراء مخازن منه فعليهم أن يفرغوا له؛ فكان عبد الرحمن يعمل بوصاية أبيه وأعلن ذلك مراراً وتكراراً وأخيراً بقي لهم من الأرض المذكورة فأصبحوا يبيعونه بالسعر الحاضر للمخزن الواحد وفتح الله للأخوة رزقاً كبيراً من هذه الأراضي. ويزعم عبد الرحمن أنه شاعر بالطبيعة وأنه ألف ما يربو على ألوف الأبيات من قصائد وغيرها، وكنا طلبنا منه موافاتنا بقسم من شعره لإثباته في مقدمة ترجمته ويظهر أنه نسي أو تناسى الطلب وكنت كذلك طلبت منه برسمين صغيرين فلم يبعثهما لي، وعلى كل فهو عصامي ذو مروءة وشهامة وكريم الأخلاق والذوق. هذه إحدى قصائده المرموقة عثرنا عليها بجريدة المدينة وهي وصف للمدينة المنورة ومدح الرسول الكريم ﷺ:

يا خير أرض من البسيطة قد سمت مجداً وفضلاً ثابتاً وعلاء

وحوت وما حوت الرذيلة إنما حوت الرسول وصحبه النجباء

وحوت إماماً لم يزل محرابه   نوراً يشع وحكمة وسناء
كم من ربات قد حكت آثارها   مسكاً يفوح يعطر الأرجاء
كم من رياض تضوعت أرجاؤه   صوت السماء يبلغ الأنباء
يدعو إلى دين الإله وشرعه   سمحاء تُدْعَى عزة وإباء
حملت بمشعل دعوة قدسية   من غير أجر رمته وثناء
ورضيت بالرحمن رباً واحداً   يهب الجزيل ولم يثب من راء
وبنيت مجداً شيدت أركانه   أيدي شباب لم يزل بناء
وبعثت ألوية الجهاد لأمة   كفرت فصارت أعبداً وإماءَ
هبّي فلمّي شتاتاً قد طوى   مجد الجدود معربدٌ قد ساء
وعدونا في أرض الجدود نزعننا   كف وأخرى لم تزل حمراء
قد خضبتها بالدماء عداوة   وشعّت ثراها أدمعاً ودماء
القدس ولى وهو منا قطعة   يدعو ولكن لم يجد أصداء
يرجو ويشكو منصفاً في عالم   جحد الحقوق وناصر الغرباء
يا خير أرض قد كفانا ذلةً   وكفى العروبة فرقة وجفاء
هبي فنادي أمة حنفية   لم تبغ إلا عزيمة ومضاء
لم تبغ إلا قائداً ومعلماً   يهب الحياة وينصر الضعفاء

وله أبيات يقول فيها:

أتراك ليلى قد نسيت لقاءنا   في روضة مخضلة الأغصان
ولياليا مرت بنا في موكب   تنشا ومنها فرحة الجذلان
والبدر يحدو سيرنا بضيائه   فنرى الوجود وجودنا في آن
ونرى السماء فما نرى من كوكب   إلا كواكب صدرك الظمآن

فأمد كفي نحوه فتردها أنفاس صدر ناهد نشوان
عبثت به خمر الشباب ونشوةٌ قادت فؤادي نحوه بعنان
كل الكؤوس شربتها لكنها من كف ذات تَفَيءٌ وحنان
وعلو شأنه في الوجود ومحتد هيهات يبلغ شأؤه ذو شان
قالوا فلان قد سلاك وما دروا أن السلو تنكر الخلان
هيهات يسلو من أبى وجدانه وأبت عليه كرامة الإنسان
ذاتَ الصبابة وحرةً في خدرها عز الأباة على مدى الأزمان
ليلاي لا تخلي العذول يصدني فالعاذلون مصائد الشيطان
ليلاي لا تخلي الوشاة تخيفني فلقد علمتِ مكانهم ومكاني
ليلاي إني قد عرفتك حرة تأبين وصل ملطخ الأردان
فأنا أنا ذاك الذي عاصرته حلو الفؤاد وواثق بجناني
فلديَّ منك كما لديك مودة وعهود حر صادق الأَيمان
تاللهّ ثم اللهِ ليلى ما التوى جيدي لغيرك لحظة في شان
تالله ليلى واليمين معظم ما خنت عهدك أو رجعتُ لثاني
أو قلت قد هرم الزمان وأنت في وجه الزمان مثيرة الأحزان
ليلاي لا يكبو الجواد بساخط لم يغشَ يوماً ساحة الميدان
ليلاي ذكرى ما فقدت بخاطري هيهات يمحو ظلها الحلوان
ليلاي إن ألوى الزمان عنانه وعدا عليك بمخلبٍ وبنان
فلسوف يلقي بالمراء مصافحـ ـك من لمْ تزل في حرمة وأمان
من لم تزل ضراتها من خلفها يمشين خلف قناعها المنصان
صانته من عبث الشباب وطيشه وأبت تكون عباءة الأدران
ليلاي يا كل الوجود ومن لها يرنو الوجود بناظر هتّان

ما زلت في وجه الزمان مضيئة ... وعليك من نور السما نوران
تهفو القلوب إذا ذكرت لعاشق ... أغراه منك تلطف الوجدان
أغراه تاريخ كتبت حروفه ... بالنور نور عقيدة ويماني
فلديك ألفيت الكرامة كلها ... ولديك عشت موطد الأركان
ولديك تأبى أن تُطأطأَ هامتي ... لمنافق ومذبذب ومهان
ليلاي عاصرت الزمان جميعه ... وشهدت فيه تقلب الحدثان
وشهدت معركة الحياة قوية ... وحملت فيها راية الأيمان
فخرجت ناصعة الجبين أبيّة ... لقنت كل مغامر خوّان
ولبست درعاً كان عزمك صاغه ... ليكون درع وقاية وأمان
وصنعت للأجيال قادة أمة ... لم ينس فضل نضالها الملوان
أرضعتهم ثدي الإبا فتمرّدوا ... لا يركعون لقوة الطغيان
قولي لمن نسي الجهاد ولم يزل ... تعميه عنك خبيئة الأضغان
انظر تجدني في الكتاب لكن ترى ... ما في الكتاب هدية الرحمان
واستنشق الأرواح عند هبوبها ... يحلو الرواح براحة الأبدان
فلسوف تهديك الشذا من عطرها ... عطر العذارى باهظ الأثمان
أنا في سمائه كم بدا متألقاً ... نور الأمين وحكمة القرآن
أنا من أنا فلتسألوا تاريخكم ... سيقول إني أكرم الأوطان
أنا واحة في هضبها وجبالها ... هبط الأمين بأعظم التبيان
أنا جنة في خلدها ورياضها ... من الحبيب بأطهر الأكفان
ولرب مقترف ذنوباً خالها ... قد أوقفته على شفا النيران
جاء الغداة لروضة في ظلها ... رفع الأكف لساحة الديان
ومضى يناجي ربه متضرعاً ... بالدمع دمع المثقل الحيران

فـــارتـــد مـــلء فـــؤاده آمـــالـــه	بـالـعـفـو عـفـو الـواحـد الـمـنـان
أنا من صنعت لذا الورى تاريخه	وكـتـبـتـه بـفـصـاحـة وبـيـان
ومـلأت أسـمـاع الـدنـا قـرآنـه	فـانـقـاد نـحـو نـدائـه الـرنـان
أنـا مـن أقـامـت دولـة أركـانـهـا	هـذا الـكـتـاب وسـنـة الـديّـان
وبـنـت بـنـاءً شـامـخـاً فـي ظـلـه	عـاش الـورى فـي غـبـطـة وأمـان
أنا من طبعت على الزمان ببصمة	سـتـظـل فـوق جـبـيـنـه عـنـوان
ونظمت عقد فضائل في جيده	ونـسـجـت حـلـة مـجـده بـبـنـانـي
أنا من صنعت من الشباب جحافلا	نزلت بكسرى عن سما الأيوان
وبقيصر الروم العظيم وجيشه	فـي الـشـام بـيـن مـفـاوز وجـنـان
فـارتـد يـلـعـق مـن دمـاء جـراحـه	خلفَ الحدود محالف الأحزان
يـنـعـى بـلاداً لـم يـعـد أبـنـاؤهـا	يمشون خلف مواكب الصلبان
ويـمـد لـلأفـق الـبـعـيـد بـطـرفـه	فيرى السيوف على ذرى لبنان
ويرى الصواهل فوقها فرسانها	كـالأُسْـدِ تـزأر زأرة الـحـردان
تبغي الجهاد وفي الجهاد فخارها	حـيـث الـجـهـاد بـصـارم وسـنـان
وعـزيـمـة لا تـنـثـني في مـوقـف	فيه السيوف منابر الشجعان
أنـا يـا أُهَـيْـلـي لا أخـال مـنـاقـبـي	يـطـغـى عـلـيـهـا جـائـر الـنـسـيـان

هذه القصيدة بالأصل قيلت في الأستاذ الخطيب رحمه الله وقد نشرت في المدينة أو بعد أن شطرتها نشرت في المدينة والمنهل وقد دار حولها جدل كبير.

لمع اللجين وسال ذوب العسجد	وسط الصباح على الظلام الأسود
فانجاب عن صبح الحقيقة ليله	هي خلسة لاحت فدونك وازدد

والليل حولك والنهار فسلهما عمَّا استقلا من عتيٍّ معتد
وعن الحقيقة حيث لاحا سلهما هل يحفلان برائح أو مغتد
فاستسق قبل نضوب كأسك خمرها من ماء مزن لم يكن من موعد
واشرب إذا لاح المشيب بفاحم لم يبق غير صبابة وكأن قد
يا صاحب الحانوت حسبك ضجعة في ظل دنيا قد غدا كالمرود
هاتِ الكؤوس لكي نطيب بشربها وأجب نداء الطائر المتغرد
واسمع صرير الباب صاح مرحبا بالقادمين لنهلة من مورد
وانظر لمعتصر المدامة يحتفي بالشرب من مثنى لديه وموحد
يتهافتون عليه قبل رحيلهم مثل الفراش على ضياء الموقد
فقم الغداة لكي ترى أحمالهم فالقوم سفر والركاب بمرصد
عجباً لصرختك التي أرسلتها كان الصدى من رجعها المتردد
فدع الصراخ فإنه من حيرة بالأمس تصعق في الفضاء الأربد
متحفز قلق الوساد لنيّة كشفت حقيقة ناقم متعند
متطلع يبغي المسير بقفرة قذف تشق على القوي الأيّد
كم نأمة من وادع متمهل نال الوصال ولم يكن بمزود
تيه الحياة فكم لها من همسة أزرت بصبحٍ ساخط متبلّد
هيهات ليس الناس في أجداثهم إلا حطاماً من هياكل معبد
صنفان صنف في الجحيم وآخر تبرا يسيل من الحفائر في غد
والروح إن خمدت مضت وكأنها برق تناثر في الفضاء الأبعدِ
تنساب في روض الحياة مضيئةً ضوء الزبالة في السراج الموقد
ولَشدَّ ما استوحيت من أسرارها لمَّا استقرت في زوايا الموصد
غرتك أطياف المنى في طفرة فتمردت بك شرة المتمرد

من أمر ربك لست تعلم أمرها ... في كل حال لم تنل بالمرصد
هيهات ذاك وما أراك بمدرك ... أن تدنو من ملكوتها أو تبعد
كيف التفتّ وجدت حولك ظلمة ... بغرور نفسك لم تفز بالمنفد
فغدوت فيها حائراً متخبطاً ... فصببت سخطك كالآتيِّ المزبد
فذر التعمق لست تسبر غوره ... كالبحر عز على السبوح الجيد
واترك خفيا لست تدرك كنهه ... ولو استعنت بكل رأي محصد
كم مغلق هتكته لمحة ناظر ... وإشارة من عالم لم تفند
ومجاهل قد أدْركت في خطرة ... عرضت وفلّ عزيمة المتعمد
فاحطط رحالك بين وادٍ ممرع ... وإذا ارتحلت فلا تكن بالمبعد
فهناك روض لم يدم في حالة ... لبس الربيع وبين جدب الفدفد
وانزل فثمّ لديك من عطفيهما ... أمل الرضاء وفرحة المتوجد
لا شيء تخشى فالديار يزينها ... ملهى الخليج ووحدة المتعبد
فإذا بلغت فليس ثمت يُختشى ... ذل المسود ولاعتو السيد
صدق العراء فما يروعك عنده ... إلا حصاتك فلتكن كالجلمد
وإذا افتقدت الجلنار حسبته ... خجلان ذابل من غرور الهدهد
والنرجس المصفرّ في أكمامه ... جذلان يضحك من صباح الجدجد
فانثر على الأكمات من أكمامه ... ورداً يفوح بعطره المتبدد
وانظم لآلئك التي أفردتها ... نذر الحليَّ على صدور الخرد
وانشر عميم شذاه في أطرافها ... واسكب عصارة دمعك المتمرد
واترك مطاولة العظيم تأدباً ... واربأ بسيب يديه عن كز اليد
ودع القلائد في السماء لقبةٍ ... دكناء عزت عن مطاولة الردي
وانظر إليها وهي في لألائها ... زرقاء كم في جوفها من فرقد

تلك كما انكفأ الأناء تصوبت … منه الحقيقة لم تحد عن مقصد
حتى إذا بلغ النهاية بعثرت … منه النجوم كلؤلؤ متبدد
ولئن أظلّك فهو مثلك آية … تفنى ويفنى في بقاء السرمد
قد خُط بالأمر الذي قد شاءه … في اللوح من صنع اليدين مسدّد
تلك الرواية والمؤلف مخرج … من لوحة الدهر العظيم الأوحد
فانظر بعقلك فهو فيها ماثل … وملقن وممثل في المشهد
سقياً لموقف ساعة رأد الضحى … والشمس تبدو في الفضا المصعد
والليل يعثر في مروط عتوّه … والروض بين يديَّ مصقول ند
وقفت هنالك بانة وكأنها … وقفت لتزكي جمرة المتسهد
هيفاء تلعب بالعقول لأنها … حسناء تومىء بالغصون الميّد
وانساب نحو الكرم من خلل الثرى … ظمآن بات على اللظى المتوقد
يغشاه من علقت به أوهامه … عرق يحوم عليه كالدنف الصدي
يدنو ليسرق منه واكف قطره … فاذاد في فهلهوة لم تصعد
ويمد كفًّا قد تلاشى ظلها … لمسوّفٍ تحت اللحود موسد
تتدفق الأجيال يزحم بعضها … في بقعة عادت فروع أصولها للمحتد
متناكرين وقد يلاوم بعضهم … بعضاً عليه فلا يقر بمرقد
تنقضّ مطبقة فينكص مرغماً … حيث التراب نهاية المتمرد
فتراه مذ فقد السعادة حائراً … في القاع يهبط في الظلام السرمد
فسل المعالم أين شط قطينها … ولأي دار قد مضى أو فدفد
واسألها من بعد النوى عن حالها … وهل استراح من النكال الأنكد
وسل النسيم فإن سمعت تنهداً … من ذي فؤاد حائر متهدد
وشجاك من ذكرى الأحبة موقف … في الحي منه عشية فتنهد

هي أنةٌ فامنُنْ عليه بمثلها واحذر فديتك أنة المتبلد
واذكر لدى أطلاله من قد مضى فلقد تكون علالة من مسعد
وتفرقوا بطن الوهاد لحادث هل بعد لوعةٍ بيتكم من موعد
ملتم عن الإبريق بعد وفائكم وبُعيد عهد قد مضى للمنجد
أنضبتموه فعفتموه ولم يكن عكر الشراب ولم يكن بملدد
وسكبتموه على التراب فهل غدا من حق واردكم عقوق المورد
قد كان يطربكم ويطفىء وجدكم ساق يطوف ولم يكن بالأوغد
ويظل يسعى وسط نادي أنسكم بالراح بعد الراح غير مصرد
فتفقدوا أنساءكم فلعلّكم لا تفقدون سوى الذي لم يفقد
وتحسسوا خلل الديار لعلَّكم تجدون بعض السؤر للمتزود

* * *

يا ريم ما هذا الجفا أتظنني مما يقول عواذل انساكا
أهواك للخلق الرفيع وعفةٍ جعلتك عندي في الوداد ملاكا
دعني أذكرك الليالي فقبلها وعلى العقيق وكيف كان لقاكا
هل كنت إلا ناثراً لك أدمعي والدمع يجريه الجفا لولاكا
لولاك ما عشت المعذب بالوفا ولكنت دوماً ناصباً أشراكا
وغدوت في دنيا الهوى متقلباً لكن نفسي لم تزل تهواكا
يا ريم حسبك لا تكن متجنياً إن الجناية لم تكن برضاكا
أغراك عذال المودة بيننا بئس العذول وما به أغراكا
بل بئس واشٍ قد وشى ما بيننا ومشى بكل دنيئة تشناكا
قل لي بربك هل بدت لك زلة مني فتقضي عندها بجفاكا

أم رحت تنسى ما مضى من عهدنا ... وليالي (قربان) الذي رباكا
كم زورة لك زرتَّها متخطياً ... كل الصعاب ولم تخف رقباكا
قد كنتَ إن جن الظلام وجدتني ... أرعى النجوم وساعة ألقاكا
وأرى سويعات الفراق كأنها ... دهر طويل يا لها إذ ذاكا
فتقول حسبك إنني لك صاحب ... خل وفيٌّ لم يَمِلْ لسواكا
وتؤكد العهد الذي أعطيتني ... عهداً يؤكده الوفا بوفاكا
فعلام ملتَ إلى الجفا وأنا الذي ... ما كنت يوماً جاحداً لنداكا
ما زال في وادي العقيق مآثر ... تندى بطيب لقائنا ورضاكا
أغدو إليه وفي جفوني لهفة ... لترى ملاعب حبنا وصباكا
حتى إذا لاحت رباه نثرتها ... دمعاً غزيراً حارقاً كلظاكا
وأقبل الربوات حيث وطئتَها ... ومشت على أكنافها قدماكا



تالله أنك قد ملأت مسامعي ... دراً عليه قد انطوت أحشائي
زدني فزدني ثم زدني ولتكن ... منك الزيادة شافياً للداء
أمحمد الشرقين يا ظئر التي ... جلت الظلام بنورها الوضاء
يا من إذا نثر الحديث حسبته ... درًّا تساقط من بساط ذكاء
وإذا حكاه منظماً من سمطه ... خِلت النجوم عقوده بجلاء
واذكر بأني قد وعدتك صادقاً ... أني الوفيُّ لدرة العلماء
ثم الصلاة على النبي وآله ... ما لاح بدر في سماء علاء

فأجابني ـ رحمه الله ـ فوراً

شــنــفــت آذان الــورى بــلآلــىء   فــانــعــم فــإنــك ســيــد الأدبــاء

فأجبته فوراً

مـاذا الـذي قـد قـلـتـه يـا سـيـدي   هـل كـان مـنـك مـجـرد الأطـراء
أم هي الحقيقة قد أردت بيانها   فجعلتني متكرماً من جملة الأدباء

فأجابني أيضاً فوراَ

كــلا ولــكــن الــذي أهــديــتــنــي   در ثــمــيــن مــن أجــلّ عــطــاء
فلقد نظمتُ قصيدة قد خلتها   هبطت إليك بكوكب الزهراء
فتألف العقد الذي أهديتني   لـيـظـل عـنـدي درة الـشـعـراء

فأجبته فوراً

حسبي فتلك شهادة من عالم   فـذٌّ أديـب مـن بـنـي الـعـربـاء
مـلـك الـبـيـان ولـم يـزل تـبـيـانـه   نـوراً يـشـعّ عـلـى بـنـي الـغـبـراء

شعر الشباب

شـعـر الـشـبـاب حـمـاسـة وإبـاء   وكـذا انـطـلاقـة مـلـهـم ووفـاء
فتراه في أفق النضال مجلجلاً   كـالـرعـد حـيـن تـثـيـره الأنـواء
وتـراه فـي دنـيـا الـسـلام مـقـدِّراً   صنع الرجال يصوغه الإغراء
يحدو الفضيلة رافعاً أعلامها   وإذا تـحـدى كـان فـيـه مـضـاء
صـور مـن الأمـجـاد فـي آيـاتـه   وعـلـيـه إن عـز الـلـقـاء لـقـاء
يـتـأبـط الـتـاريـخ رائـد مُـجـده   وعـلـيـه يـبـنـي مـا بـنـى الآبـاء

لــلـــه جــيـــل أدركـــتـــه حـــوادث ... مـــا ذل فـــيـــهـــا أنـــفُـــه الأَبـــاء
يــرنــو إلــيــهــا فــي ســكــون هــادر ... كــالــبــحــر تــبــعــث مــوجــه الــهــوجــاء
فــدم الــشــبــاب ركــيــزة فــي نــظــمــه ... ودم الــشــبــاب الــمــلــهــم الــبــنــاء
لــم يــرض يــومــاً أن يــكــون مــعــاولاً ... لــلــهــدم حــيــث يــريــده الــســخــفــاء
أو يــرض يــومــاً أن يــكــون وســيــلــة ... يــغــضــي لــديــهــا طــرفــه ويــســاء
فــانــظــم إذا شــئــت الــقــريــض مــوقــداً ... شــعــراً يــكــون لــصــوتــه أصــداء
شــعــراً يــنــادي حــيــهــلا بــفــتــوة ... مــا ذلَّ يــومــاً أنــفَــهــا الأغــضــاء
شــعــراً إذا حــمــي الــوطــيــس وجــدتــه ... نــاراً يــكــون وقــودَهــا الــجــبــنــاء
أو كــان ســلــمــاً كــان نــوراً يــجــتــلــى ... يــســعــى ويــنــشــر ضــوءه الأمــنــاء
مــن كــل مــن حــمــل الــرســالــة مــؤمــنــاً ... أن الـــحـــقـــوق وديـــعـــة وأداء
فــدعِ الــتــمــلــق لا تــكــن مــتــزلــفــاً ... بــالــشــعــر ويــحــك فــالــحــيــاة حــيــاء
فــالــشــعــر طــوق فــي الــرقــاب إذا غــدا ... شــعــراً يــنــظــم عــقــده الأجــراء
مــن كــل مــن بــاع الــضــمــيــر ومــا رعــى ... حــقــاً عــلــيــه فــلا رعــاه ولاء
يــا صــاح حــســبــك أن تــكــون مــقــايــضــاً ... بــالــشــعــر قــومــاً كــلــهــم أكــفــاء
يــتــرفــعــون عــن الــســفــاســف لا يــرى ... فــيــهــم أجــيــر أهــبــل وغــبــاء
فــلــك الــتــحــيــة مــا حــيــيــت وإنــهــا ... مــنــي إلــيــك صــداقــة وأخــاء

طبيعة الغادات غدر

ألا يــا هــنــد هــل أحــظــى بــعــطــف ... كــمــا لــو كــنــت أيــام الــشــبــاب
وأيــام الــفــتــوة مــلء نــفــســي ... ومــهــدي حــضــن لــيــلــى والــربــاب
وأيــام الأمــانــي مــشــرقــات ... وكــأس مــن حــنــان الــغــيــد رابــي
وأيــام الــهــوى فــي عــنــفــوان ... مــن الــوجــد الــمــلــح إلــى الــتــصــابــي

فلم أهجر وكنت بكن براً ... عطوفاً عند نأي واقتراب
وكنت إذا أتيت الحي قالت ... فتاة الحي أهلاً في رحابي
ومرحى للذي قد جاء يبغي ... وصال الغيد مع رشف الرضاب
فأغدو بينكن ولي أمانٍ ... عراضٌ بين مدٍّ واجتذاب
أخاف لطول عهد أن تراني ... فتاتي قد سلخت من الشباب
فأرسلها دموعاً محرقات ... على الوجنات تجري في انسكاب
فيهدأ خاطري وتعود نفسي ... إلى همس رقيق في عتاب
ألم نوليك وصلاً دون هجرٍ ... ولم نتركك تشقى بالعذاب
كذا قد كنت يا ليلى فمالي ... أرى هنداً تصدّ عن الجواب
وتضرب صدرها بالكف خوفاً ... من الرقباء من خلف الحجاب
وكانت قبل لم تعبأ بشيء ... إذا ما لحت من فوق الروابي
وتنهض إذ تراني في ذراها ... تحييني بقبلات العتاب
فقالت وهي تنظر نحو وجهي ... إلى شيب يلوح كما السراب
يلوح لناظر ما كان يرنو ... لغير فتوتي بين الصحاب
رعاك الله قد ولّى زمان ... وعهد كنت مصقول الأهاب
وكنت لكل غانية منارا ... يضيء ظلامها دون احتجاب
فلولا عطفك الماضي لقلنا ... هواك الدهر عنها كالكتاب
فلم يا صاح دهرك إن تجنى ... ولا تعتب على صد الرباب
فتلك طبيعة الغادات غدر ... إذا ما الشّيب مال على الشباب

اللواء مصطفى بن إبراهيم مدني

ولد مصطفى بالمدينة المنورة سنة ١٣٤٢هـ والتحق بكتاب الشيخ محمد بن سالم لحفظ القرآن الكريم سنة ١٣٤٨هـ ولما توفي جده محمد توفيق شيخ الروضة المطهرة سنة ١٣٥١هـ ألحقه والده بالمدرسة الأميرية (الناصرية) ونال منها الشهادة الابتدائية ثم التحق بالمدرسة العسكرية بالطائف وتخرج فيها بتفوق سنة ١٣٦١هـ برتبة وكيل ضابط، وأخذ يتدرج في المجال العسكري حتى وصل إلى رتبة لواء، في ١٣٩٢/٦/٢٩ انتهت خدماته العسكرية وأحيل للتقاعد وتقلد الأعمال بما يلي:

عين رئيساً للشعبة العسكرية برئاسة مجلس الوزراء في المرتبة الخامسة عشرة في ١٣٩٢/٧/١هـ وإلى جانب عمله هذا قام بأعمال مدير مكتب صاحب السمو الملكي الأمير نواف بن عبد العزيز منذ تعيين سموه مستشاراً لجلالة الملك فيصل رحمه الله، ولقد كان طيلة حياته العسكرية مكان ثقة المسئولين وحبهم واحترامهم نظراً لأعماله المجيدة وخبراته الواسعة التي اكتسبها بإخلاصه وتفانيه وكثرة الدورات التي قام بها بداخل المملكة وخارجها، وقد نال وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الثانية من فخامة رئيس جمهورية سوريا الشقيقة، ونال نوطاً الواجب العسكري من الدرجة الأولى من فخامة رئيس جمهورية مصر

العربية وكان مكان ثقة رجالات المملكة وعلى رأسهم جلالة الملك المعظم بما يقوم به من أعمال.

هذا ما كتب عنه في كتاب اليوبيل الذهبي للمدرسة الناصرية من قبل مركز المعلومات الاحصائية والتوثيق التربوي لوزارة المعارف. أما ما أعرفه بدوري عن العزيز مصطفى فأولاً هو يمت بقرابة لنا، حيث أن أم أولادي تكون عمته من الرضاع ثم هو لما كان يدرس في المدرسة الابتدائية (الناصرية) كنت أنا معلماً بها ولي الشرف بتدريسه هو وعمه محمد توفيق القائد سابقاً، وكثيراً ما حضرنا على مائدة جده المرحوم شيخ الروضة وكان يودني وأم أولادي جداً. وكان والد مصطفى الضابط إبراهيم طلق والدة مصطفى وتزوج بأمرأة أخرى، ثم هو بعثه للطائف لينتظم في المدرسة العسكرية التي أنشأها المرحوم سمو الأمير منصور الذي كان يقوم بشئون الدفاع وظل هو يتدرج في المناصب العسكرية حتى وصل لرتبة لواء، والقليل من الشباب من يرقى لهذه الرتبة العسكرية، وتزوج مصطفى من كريمة المرحوم الشيخ محمود شويل فقد قدمها إليه كهدية مع أنها كانت صغيرة فربتها والدة مصطفى حتى دخل بها وانقطعت بعد ذهابه للطائف، ودار الزمان دورته وصدف أن رأيته قبل ثلاث سنوات في الرياض وكان جاء زائراً لدى عمته أم أولادي وفاءً منه لها فسلم عليّ فسررت به فقلت له لعلّك نسيتني يا ابني قال كيف أنسى أستاذي فلك الفضل عليّ فأنت باني أساس تعليمي وتعليم جيل كبير من شباب الجيل الماضي، فقدرت له هذا الاعتراف وشكرته فدعانا لوليمة في داره وأعلمني أنه أحيل للتقاعد براتب طيب والدارة التي يسكنها ملكه حفظه الله وحفظ له أولاده فقد أخبرني أن الكبار حازوا شهادات طيبة وما زالوا يدرسون.

الشيخ عبد المحسن أبو ذراع(*)

ولد الشيخ عبد المحسن بالمدينة سنة ١٣٣٠هـ ووالده هو محمد أبو ذراع من قبيلة الحوازم المشهورة، وكان مرجعاً لأفراد القبيلة في حل مشاكلهم، وكان والده متصلاً في عهد حكومة الأتراك والأشراف بأعيان أهل المدينة كآل المدني والصافي وذياب ناصر، ولما بلغ عبد المحسن السابعة أدخل الكتاب لحفظ القرآن الكريم فحفظه عن ظهر غيب ثم أخذ في طلب العلم علي مشائخ الحرم الشريف كالشيخ عبد الرؤوف المصري رحمه الله وقرأ علم الفرائض على الشيخ محمد العائش رحمه الله، ثم دخل مدرسة العلوم الشرعية وكنت بدوري مدرساً بها سنة ١٣٤٥هـ فدرس عليّ الجغرافيا والحساب والخط بصفة خاصة واستمر بها حتى نال الشهادة العلمية وكنت استقلت من المدرسة المذكورة إلى المدرسة الابتدائية، ومضت السنون تباعاً ولم أعلم عنه وسافرت لمصر للإقامة مع أولادي الذين كانوا يدرسون هناك بعد بلوغي لسن التقاعد فعنّ لي أن أكتب رسالة أذكر فيها بعض أساتذتي الذين قرأت عليهم وأكتب عن زملائي الذين عايشتهم وأكتب عن بعض تلامذتي الذين تشرفت بهم مثل الشيخ محمد عمر توفيق والشيخ محمد علي الحركان، والشيخ محمد الحافظ، والشيخ عبد الحميد عنبر رحمه الله وغيرهم وتذكرت الشيخ عبد المحسن أبو ذراع فكتبت عن المذكورين ما

(*) المدينة ـ غرة محرم سنة ١٣٩٨.

عرفته منهم. ولما رجعت من مصر علمت أن محمد علي الحركان أصبح قاضياً بجدة ومحمد عمر وزيراً للمواصلات والأوقاف والشيخ عبد المحسن عضواً بمحكمة المدينة، فذهبت يوماً لمراجعة بعض معاملة خاصة بي وكانت أحيلت عليه ولما دخلت بغرفته عرفني بدوره وقام واحتضني فقلت له أتعرفني؟ قال كيف ألست أنت أستاذي الشيخ عبد الحق نقشبندي! وسألني عن أحوالي فأخبرته بأني مريض بوجع المفاصل، وقلت له أحب أزورك في دارك قال أنا الذي أزوركم وبالفعل زارني ودعاني لداره فذهبت إليه فأكرمني فطلبت منه أن يطلع على ما كتبته عنه وطلبت منه أن ثبت ما صح ويزيد أو ينقص وبعدها بعث لي المقال وزاد في مقالي بأنه تعين سنة ١٣٨٠هـ قاضياً بخيبر ثم نقل للمدينة عضواً بمحكمة المدينة سنة ١٣٩٢هـ ثم نقل إلى قاضي للمحكمة المستعجلة وهو في طريقه للتقاعد والتفرغ للعمل في بستانه في العيون حيث خلف والده له بستاناً فيه، وطلب مني أن أذهب معه لمشاهدة البستان المذكور فذهبت معه في اليوم الثاني حيث جاءني للدار وأخذني معه في سيارته الخاصة به وكان ركب على بئرها ماكينة لسقي النخيل والبرسيم، وقال إنه سيبني عليها داره ليسكن فيها مع أولاده بقية عمره فقلت له إني قد عملت ما عملت فإن لي بستاناً بضاحية العوالي المشهور بالنصيري وكنت مؤجره أيام مرضي في السنين الماضية وقد تسلمته من المستأجر بعد انتهاء إجارته وغرست فيه فسائل نخل حيث أن العتيق اصبح يتساقط لكبره كما وغرست فيه أشجار العنب والرمان وماؤه عذب والحمد لله كما وزرعت فيه بعض الخضر وخاصة البرسيم أسأل الله أن يبارك لي ولك ويرزقنا حسن الختام في البلدة الطاهرة في البقيع الغرقد إن شاء الله وودعته.

الشيخ عبد المعين أبو ذراع

ولد الشيخ عبد المعين بالمدينة المنورة سنة ١٣٣١هـ ووالده هو المرحوم محمد أبو ذراع من قبيلة الحوازم من بني سالم من قبيلة حرب، وكانت لوالده شهرة في القبائل وكان مرجعاً في حل مشاكلهم كثيراً كأصدقاء، واتصل في العهد الهاشمي بأعيان أهل المدينة كالمرحوم ذياب ناصر وسعود وآل المدني والصافي وأسعد. وتوفي بالمدينة وترك ولده في السابعة من عمره فأدخل للكتّاب فختم القرآن الكريم ثم أخذ في طلب العلم على المشايخ الذين كانوا يدرسون بالحرم كالشيخ عبد الرؤوف المصري رحمه الله، وقرأ على الشيخ عبد الباقي في داره، وقرأ علم الفرائض على الشيخ محمد العائش رحمه الله وقرأ بمدرسة العلوم الشرعية يوم كنت مدرساً بها سنة ١٣٤٥هـ قراءة خاصة شملت الخط والحساب والإملاء والنحو والبلاغة وبعدها تركت مدرسة العلوم الشرعية إلى المدرسة الابتدائية، ومضت السنون الطوال لم أعلم عنه وأصبحت محامياً لمالية المدينة سنة ١٣٦٠هـ وعملت في المحاماة حتى أحلت للتقاعد سنة ١٣٧٢هـ وبقيت معتكفاً بالبيت وأصبت بأمراض مختلفة وكنت أسافر لسورية ومصر للعلاج وقضاء الصيف، ولما كنت في مصر سنة ١٣٩٦هـ عنّ لي أن أكتب مختصر ترجمة من عايشتهم من أساتذتي وزملائي وبعضاً ممن تشرفت بتدريسهم فتذكرت الشيخ عبد المعين الذي

تتلمذ علي بمدرسة العلوم الشرعية فكتبت عنه ما أعرفه عنه، ولما رجعت من مصر بعد قضاء الصيف علمت أن الشيخ عبد المعين هو قاضي المحكمة المستعجلة فذهبت إليه لأزوره وأتزود قسطاً من ترجمة حياته، ولما دخلت عليه عرفني فقلت له أعرفتني قال كيف أو لست أستاذي الشيخ عبد الحق؟ قلت صحيح وسألني عن صحتي حيث كنت مستضعفاً لكبر سني فطلبت أن أجتمع به في غير المحكمة فزارني في داري ودعاني بداره فذهبت إليه في اليوم الثاني فأكرمني فقلت له أني كتبت عنك ما أعرفه ولعلّ بعضه غير صحيح وأعطيته مسودة ما كتبته لتصحيح ما كنت كتبته من عندي بدون تحقيق وبعث إلى المقال صحيحاً على أن أضيف إليه عما أخبرني عن أعماله الماضية حيث قال إنه في سنة ١٣٨٠هـ تعين قاضياً في خيبر ومكث فيها قاضياً ست سنوات أي في سنة ١٣٨٦هـ نقل للمدينة عضواً بمحكمة المدينة في سنة ١٣٩٢هـ ثم نُقل لجدة نائب قاضي وبعدها نقل للمدينة قاضياً للمحكمة المستعجلة وأنه في طريقه للتقاعد والتفرغ لعمله.

السيد أحمد صقر(*)

ولد السيد أحمد صقر بمصر وجاء مع والده السيد مصطفى صقر للمدينة المنورة زمن حكومة الأتراك وينتمون إلى أشراف بني حسين من آل الشريف جماز الذي سافر من المدينة زمن حملة الوهابيين وبقي في بلدة قنا طيلة المدة الماضية يتناسلون ويكثرون، وكان السيد مصطفى من العلماء فدرس في الحرم الشريف وكان مقرباً من السيد الدندراوي شيخ الطريقة الدندراوية وكان السيد الدندراوي يعظمه ويحترمه لعلمه، ولما شبت الحرب العظمى سنة ١٣٣٣هـ سافر السيد مصطفى مع أولاده لقنا حتى وضعت الحرب أوزارها ورجع الحجاز تحت أمرة الشريف الحسين رجع السيد مصطفى وبقي بمكة المكرمة واشتغل ولده السيد أحمد بالتعليم بالمدارس الابتدائية التي أنشأها الشريف بمكة ثم رجع للمدينة ليكون مديراً للمدرسة العبدلية، وكان تعيين السيد أحمد صقر مديراً للمدرسة الابتدائية بدلاً من السيد الحمصي، ورغبني السيد أحمد بالرجوع لمعاونته بالمدرسة فقلت له على شرط أن أتي للمدرسة وأباشر ساعتين فقط ولا أترك شغلي في معمل النسيج فرضي بذلك وكنت أذهب يومياً أولاً للمدرسة ثم أرجع لعملي في إدارة المعمل، ثم سافر

(*) المدينة المنورة ـ غرة سنة ١٣٩٨.

إلى مصر حيث إن أم أولاده الأولى توفيت فتزوج بإحدى كرائم أشراف قنا وكنت أمثل نيابة عنه معتمدية المعارف حتى لما قدم كشافة العراق لزيارة المدينة وبعثة الجامعة المصرية كنت أذهب معهم للسلام على أمير المدينة عبد العزيز بن إبراهيم رحمه الله، فكان أولم للبعثتين في داره ثم رجع السيد أحمد صقر بزوجته الجديدة وتخليت عن المدرسة وبقيت في إدارة المعمل سنين عدة وطرأ على أم أولادي مرض أضطرني للسفر لعلاجها بمصر فذهبت معها، وفي هذه الأثناء توفي السيد أحمد صقر بعد أن أنجب من زوجته الجديدة ولداً اسماه عباس صقر رحمه الله رحمة واسعة وأفاض عليه من سحائب رحمته ورضوانه.

السيد محمد صقر بن حسين صقر(*)

ولد بالمدينة المنورة وحفظ القرآن على مشايخ في المسجد النبوي ودرس عليهم علوم الدين والعلوم العربية ونال شهادة التدريس من أساتذته ثم صار من المدرسين في المسجد النبوي حيث درس بعضاً من علوم الدين، ثم عين إماماً في المسجد النبوي ثم مدرساً بالمدرسة الناصرية سنة ١٣٤٥هـ حتى أحيل للتقاعد سنة ١٣٧٠هـ وتوفي سنة ١٣٧٢هـ وعمره ٨٨ سنة وعرف عنه الزهد والورع والتقوى وكان دائم التلاوة للقرآن الكريم حريصاً عليه وكان محبوباً من جميع طلابه في المسجد والمدرسة تغمده الله برحمته.. هذا ما كتب عنه من كتاب اليوبيل الذهبي للمدرسة الناصرية من مركز المعلومات الاحصائية والتوثيق التربوي بوزارة المعارف.

أما ما عرفته عن السيد محمد صقر فهو أستاذي المفضل وكان يودني ويحبني لأني كنت مثله حافظ القرآن وكنت أسمعه الدرس غيباً وكان يمزح معي أحياناً وكان السيد محمد صقر مدرساً بالمدرسة الناصرية الابتدائية وكان يديرها السيد أحمد صقر وكان قد تولى مديرية المعارف العامة المرحوم الشيخ محمد كامل القصاب فعين الشيخ عبد القادر

(*) المدينة المنورة ـ غرة الحجة سنة ١٣٩٨هـ.

الشلبي مراقباً لسابق معرفته به، وكان الشيخ عبد القادر يأتي للمدرسة من حين لآخر لمراقبة سير الدروس وزار المدرسة الشيخ عبد الله بن الحسن وكان في زيارة للمدينة وصدف أن كان الشيخ شلبي موجوداً فسأل ابن الحسن أحد التلامذة: هل التوسل بغير الله شرك كما كان مقرراً في الأصول الثلاثة. واصطدم الشيخ الشلبي مع ابن الحسن في جواز التوسل بغير الله، وتكلم ابن الحسن على الشيخ الشلبي بما لا يليق بأمثاله من العلماء ومن ثم استقال من المراقبة واعتكف في داره حتى توفي وبقي السيد محمد صقر مدرساً بالمدرسة وكان تزوج من المدينة وأنجب ولده الوحيد أديب وبنتين زوج إحداهما للسيد حسين طه والثانية لابن السيد أحمد صقر.

الشيخ عبد العليم الهندي

قدم المدينة سنة ١٣٢٧هـ بقصد الهجرة وكان عالماً ورعاً حافظاً للقرآن وسكن بمدرسة الكشميري المخصوصة لطلبة العلم واتخذ من باحة سفلية كتاباً لتحفيظ القرآن وكان في غرفته يلقي بعض الدروس العربية لبعض طلبة المدرسة المذكورة ودخلت أنا في كتابه مع بعض أبناء المدينة أذكر منهم زميلي السيد أحمد العربي والمرحوم محمد سعيد دفتردار ومالك الخجا والدكتور محمد القاشجي واتهم الشيخ عبد العليم بأنه وهابي المذهب جاء المدينة لينشر الوهابية وكانت الحكومة التركية تنقم على الوهابيين فخرج أكثر الأولاد من الكتّاب وأنا من جملتهم وبعد التحقيق مع الشيخ ظهر أنه سني حنفي المذهب متعلم في المدارس العربية بالهند فاستأجر الشيخ مكاناً سفلياً بكومة حشيفة وسكن في ركن منه واتخذ فيه كتاباً ورجع بعض الأولاد وأنا منهم لما علم آباؤهم أن الوهابية ألصقت بالشيخ ظلماً وعدواناً. وكان يدرس بعض العلوم الآلية والفقه والحديث على بعض طلبة المدنية أذكر منهم السيد محمد العقاد والسيد عثمان عطاس وغيرهما، وكان الشيخ يجلب كتب العلم المطبوعة بالهند ويتجر فيها بمكسب ضئيل فكان يتعيش بما ينفحه له أولياء الطلبة شهرياً وما ينكسب من بيع الكتب وكان متقشفاً في معيشته وحفظت لديه القرآن الكريم في سنتين وكان عمري اثني عشرة

سنة وكان ذلك سنة ١٣٣٢هـ وفي تلك السنة وقعت الحرب العامة فسافر الشيخ لجدة ومنها للهند وتوفي هناك رحمه الله رحمة الأبرار وأسكنه الجنة مع الأخيار.

العلامة الشيخ خليل أحمد

ولد الشيخ خليل أحمد بن محمد علي وينتهي نسبه إلى الأنصار في بلدة أنْبيته سنة ١٢٦٩هـ لدى أخواله في قرية نانوته وقرأ على خاله الشيخ يعقوب والشيخ محمد مظهر وغيرهما من علماء بدار العلوم بديوانية ثم في المدرسة العالية ببلدة سهارينود ثم انتقل إلى بلدة بوبال وسكندر أباد وإمارة بها ولبور وبريلي كمدرس في هذه البلدان إلى أن اختير مدرساً بدار العلوم بديوبند سنة ١٣٠٨هـ ومنها انتقل إلى مدرسة مظاهر العلوم وتولى بها رئاسة التدريس ومكث يدرس ما يقرب من ثلاثين سنة وفي سنة ١٣٣٥هـ تولى نظارة المدرسة وبفضل جهوده في التدريس أصبحت مدرسة مظاهر العلوم تضارع مدرسة دار العلوم، وأمّها الطلبة من جميع أنحاء الهند حتى سنة ١٣٤٤هـ وفي تلك السنة هاجر إلى المدينة المنورة وأكمل مؤلفه شرح عبيد أبي داؤد المسمى ببذل المجهود في الروضة المطهرة كما كان يتمنى فبلغ أمنيته وتوفي بالمدينة المنورة في البقيع الغرقد نور الله مرقده وطيب ثراه آمين.

لقد عرفت أستاذي الشيخ خليل يوم أتيت لمدرسة مظاهر العلوم مع الشيخ عاشق الهي الذي أتيت معه من جدة ولما علم برغبتي في الطلب أسلمني للشيخ خليل أحمد وكان الشيخ هو الناظر على المدرسة ففرح

بي وكلف أحد المدرسين وهو المولوي محمد اسعد الله ليختبرني في العلوم العربية وقد كنت أكملت الدراسة في المدرسة في المدينة فانتظمت في سلك الشعبة العالية وذلك سنة ١٣٤٢هـ وبعد سنتين أي في آخر سنة ١٣٤٤هـ نلت الشهادة العالمية وفي تلك السنة كانت هجرة الشيخ خليل للمدينة المنورة ولم يعقب الشيخ أولاداً بعد وفاته، وللشيخ خليل غير شرح أبي داؤد كتب أخرى وهي المهند على المفندر ومطرقة الكرامة على مرآة الإمامة وغيرها وقد كنت قرأت قبل سفره أوائل الأحاديث الستة والمسانيد المعبّرة وقرأ عليّ بدوره الأحاديث المسلسلة بالأولية ومسلسل حديث الماء والتمر وحديث المسلسل بالإجابة عند الملتزم وأجازني بكل ما هو مجاز به ـ والمذكور وإن لم ينجب أولاداً فقد ترك عشرات الألوف من العلماء الذين ساروا على نهجه وتعليمه وفي مقدمتهم تلميذه الوفي الذي كان ساعده الأيمن في تأليف مسنده المشهور الشيخ المحدث أستاذنا محمد زكريا الكاندلوي الذي ترأس بعد وفاته لمدرسة مظاهر العلوم نفعنا الله بعلومهم وأمدنا بروح منهم آمين.

المولوي محمد أسعد الله

ولد المولوي أسعد الله ببلدة مصطفى أباد بأمارة رامغور سنة ١٣١٤هـ ووالده مولانا رشيد الدين بن مولانا المفتي بشارة الله ابن مولانا اسعد الله رحمهم الله صاحب التآليف الكثيرة فقرأ المولوي اسعد الله القرآن على والدته وتعلم الفارسية في صباه ثم دخل بعض المعاهد العلمية ولما بلغ أربع عشرة سنة نقله عمه مولانا فضل الله الطيب سنة ١٣٢٩هـ من بلدة رامغور إلى تهان بهون من مضافاة بلده دهلي ودخلت زاوية حكيم الأمة المولوي أشرف على تهانوي فقرأت في مدرسته المسماة أمداد العلوم الدروس الابتدائية والدروس المتوسطة على مولانا عبد الله الجنجوهي، ولما وقع الارتداد في سنة ١٣٤١هـ في بعض البلاد الهندية بسعي سوامي دياتند وأعوانه جال المولوي اسعد الله لقمع الفتنة. وسعى سعياً حثيثاً بصفته رئيس لجنة هداية الرشيد وسافر المولوي اسعد الله إلى زككون بطلب الحاج داود سنة ١٣٤٨هـ فتعين مديراً للمدرسة المحمدية ثم رجع لها رنيور ثم سافر مرة أخرى سنة ١٣٥٤هـ إلى رنكون مديراً للمدرسة المحمدية وأقام سنة، وفي آخر تلك السنة جاء لمكة للحج ثم رجع لرنكون وجلس سنة ثم رجع سنة ١٣٥٥هـ إلى لهارنيور وما زال فيها حتى اليوم وتعين نائب ناظر المدرسة، وبعد وفاة المولوي عبد اللطيف تعين مديراً للمدرسة من بعده سنة ١٣٧٤هـ وظل

يشتغل بالدروس والتدريس بالمدرسة والمناظرة مع الآريين والنصارى والقاديانية، وقد كان تزوج بابنة عمه مولانا فضل الله وولد له منها تسعة أولاد ابنتين وسبعة أولاد أربعة منهم محمد الله وأحمد الله وأمجد الله وأجود الله وأكبرهم محمد الله مدرس بالمدرسة، هذا ما كتبه استاذنا أسعد الله عن مجمل تاريخ حياته وكنت تعرفت به سنة ١٣٤٢هـ لما ذهبت لهارنيور ودخلت المدرسة فقرأت عليه بعض الكتب من الفقه والبلاغة وأصول الفقه والمنطق وعايشته في بيته مع أولاده وسافرت معه حينما كان يسافر موفقاً لمناظرة الهندوس أحياه الله الحياة الطيبة، وكانت انقطعت أخباره عني بعد رجوعي للمدينة عام ١٣٤٥هـ ولما علمت أخيراً بحياته كتبت له أن يكتب لي مختصراً لترجمة حياته فكتب لي جواباً مطولاً أحتفظ به وله مؤلفات كثيرة طلبت منه أن يتبينها لي رحمه الله رحمة واسعة.

الأستاذ محمد حسين زيدان
مدير مجلة الدارة بالرياض

ولد محمد حسين زيدان بالمدينة المنورة في رجب سنة ١٣٢٥هـ وقد كتب في ترجمة حياته يقول: نشأت في بيت من الشعر في كنف جدتي لأمي لأن الأم قد ماتت وهو طفل لا يعرفها. وأدخل الكتاب في ينبع فحقق نجاحاً في المدرسة بعد الكتاب، ولما رجع للمدينة دخل بالمدرسة العبدلية سنة ١٣٣٣هـ الذي كان يديرها أستاذ الطرفين المرحوم السيد أحمد صقر إحدى المدارس الأربع التي أنشأها الأشراف بالمدينة، وكان الراعي بدوره بالمدرسة الفيصلية التي كان يديرها السيد حسين طه القباني، ولأسباب اقتصادية اتحدت المدارس الأربع في مدرسة واحدة ثم أنشئت المدرسة الراقية وكان يديرها السيد حسين طه المذكور، ويقول محمد زيدان إنه كان من أساتذتها السيد أحمد صقر، والسيد محمد صقر، والشيخ محمد بن سالم، والشيخ محمد سعيد مدرس، والشيخ محمد الكتامي، وأستاذ الرياضة محمد علي طه، وكان مدير المعارف هو الشيخ عبد القادر الشلبي ثم انضم لهذه المدرسة زميل وصديق الطرفين السيد ماجد عشقي.

ومن المفارقات أن السيد أحمد صقر كان تلميذاً بدار المعلمين التي

أسست بالمدينة بعد دخول الخط الحديدي الحجازي وكان السيد محمد صقر أيضاً تلميذاً بها وكان زميلاً لتلميذ مصري عبد الحميد بدوي باشا وكنا نذكر ذلك فلا يصدقنا بعض المكذبين، غير أنهم صدقوا حينما ضم عبد الحميد باشا المذكور إلى مجمع اللغة العربية فقدمه طه حسين بهذه العبارة لقد حققت بركة المدينة عبد الحميد بدوي فأول حرف تعلمه كان فيها، ثم يقول الأستاذ زيدان وتخرجت من المدرسة أنا وزملائي محمد أياس توفيق، ومحمد سالم الحجيلي، ومحمد نيازي ولم يتخرج في المدرسة طوال حياتها غيرنا نحن الأربعة فكثير كانوا فيها ثم خرجوا قبل نيل الشهادة الراقية، ولقد كان الداعي ضمن تلاميذ المدرسة الراقية حتى الصف الثالث ثم سافرت للهند لطلب العلوم العالية بمدرسة مظاهر العلوم.

ويقول الأستاذ زيدان في حديثه عن نفسه: وكنت مع دراستي المدرسية محفوفاً بعناية ومحبة الأستاذ السيد محمد صقر فقد أخذ بيدي إلى الدراسة بالمسجد النبوي، وقد درست مع الصديق عثمان حافظ على الشيخ عبد القادر الشلبي، وقد انتفعت طوال المدة التي كنت فيها خادماً للشيخ عبد القادر في بيته حيث ختم على والدي وهو في سعة من الرزق إلا أن أكون خادماً للشيخ لأتعلم، وكنت أبيت في مكتبة مدرسة الجواهرجي وكان ناظرها الشيخ عبد القادر فقرأت أكثر ما فيها من الكتب، ثم أولعت بالقراءة الدائمة فلعلي لم أترك كتاباً طبع إلا قرأته حتى أصبحت أستاذاً في المدرسة السعودية ثم في دار الأيتام ثم انتقلت إلى مكة المكرمة سكرتيراً لرئيس شيخ مشايخ الجاوه الشيخ عبد المنان رحمه الله ثم توظفت، وكان من الخطأ أن أتوظف ولعلي حين

أحلت للتقاعد قد كسبت الكثير من المعاني ولعلي لست آسفاً على خسارة المباني. وقد كان للصديق محمد عمر توفيق فضل إذ كأنه يسوقني إلى الصحافة لتحرير إدارة البلاد ثم رئيساً لتحريرها ثم رئيساً لتحرير جريدة الندوة، ثم رئيساً لتحرير مجلة الدارة ورئيساً مساعداً بقسم الأوراق الذي يرأسه السيد حسن فقي الأديب المعروف وسكرتير للمجلس المالي ثم رئيساً لقسم الحساب السيار المرافق لوزير المالية الشيخ عبد الله السليمان ـ رحمه الله ـ ثم رئيساً لمحاسبة اللوازمات ثم سكرتيراً لإدارة الحج ثم مديراً عاماً مساعداً. فمديراً لشئون الرياض، فمفتشاً عاماً للحج، فممثلاً عالياً مقعده البيت.. هذا ما كتبه الأستاذ زيدان وأراه قدم وأخر بعض الوظائف الأخيرة وكان لها أن تقدم قبل وظيفته بالإدارة وها أنا أكتب ما أعرفه عنه غير ما كتبه الأستاذ زيدان.

لقد زاملت زيدان لدى شيخنا عبد القادر الشلبي حينما كنت أنا وزميلي السيد عثمان وطاهر الطيب وأحمد عبيد ندرس لدى الشيخ عبد القادر في مدرسة الجواهرجي زمن عطلة الصيف، وكان محمد حسين زيدان يزاملنا في الدروس التي كنا نتلقاها وينظم لنا الشاي ونتغدى مع الشيخ ظهراً وبعد الصلاة يرجع كل منا لبيته، وقد صدق الأستاذ زيدان إن لم يكن والده في حاجة ليستخدمه لدى الشيخ عبد القادر وأنه أراد أن يصبح رجلاً عاملاً مثله فقد كان والده على ما أعلم يتاجر في الملح ومنها اكتسب ربحاً طيباً واشترى قطعة أرض وغرس بها نخلاً ولم يتوفى حتى أكل من ثمرة النخل وأنه لما جاء بالأخ زيدان وزيدان كان لابساً للعباءة البيدي فسلم على الشيخ الشلبي فقال زيدان للشيخ: لك اللحم يا شيخ ولي العظم. وقد بقي محمد حسين زيدان خادماً وفياً للشيخ عبد القادر، وكنت بدوري سافرت سنة ١٣٤٢هـ للهند لطلب العلم

بمدرسة مظاهر العلوم العالية ولما رجعت سنة ١٣٤٥هـ كنت متصلاً بالشيخ عبد القادر وكان يدعوني دائماً على مائدته وقد أجد الأخ محمد حسين زيدان عنده يباشر الضيوف وهكذا ترقى الأستاذ محمد حسين زيدان إلى المراتب العالية حتى مجلة الدارة وأديباً كبيراً يشار إليه بالبنان، وبقي (الواد) عبد الحق كاتباً صغيراً قال عنه محمد زيدان إنه في كتابته يضاهي أمين الريحاني أليس كذلك يا أستاذ؟

وفقنا الله لما يحبه ويرضاه وختم لنا بخاتمه الأيمان.

الشيخ محمد زكريا

ولد الشيخ محمد زكريا بالبلدة (كاندله) من مضافات بلدة (سهارينور) بالهند سنة ١٣١٥هـ ووالده هو المحدث الكبير محمد يحيى شيخ الحديث ببلدة كاندله. تعلّم الشيخ زكريا على والده مبادىء العلوم وحفظ القرآن الكريم وخاصة علم الحديث ثم جاء لبلده سهارينور سنة ١٣٢٨هـ ودرس على مدرسيه العلوم الإسلامية ونال الشهادة العالية وتعين مدرساً للحديث وكان الناظر على المدرسة وهي (مدرسة مظاهر العلوم العالية) هو الشيخ خليل أحمد، فلمح من تلميذه محمد زكريا آثار النجابة والذكاء وطلب منه أن يساعد في تحرير «بذل المجهود في شرح سنن أبي داؤد» فلبى طلبه، وكان الشيخ خليل أحمد يذهب مع الشيخ زكريا لمكتبة المدرسة ويجلسان في الكتابة حتى الضحى وبعدها يتناولان فطوراً خفيفاً ويذهب الشيخ زكريا إلى التدريس، وفي أواخر عام ١٣٤٤هـ عزم الشيخ خليل أحمد على الحج وأخذ منه الشيخ زكريا ومن تبعه من وكان على الشيخ خليل أن يتمم تأليفه في الحرم النبوي تجاه الروضة الشريفة قدم للمدينة بعد الحج بمساعدة تلميذه البار الشيخ زكريا ورجع الشيخ زكريا بإيعاز شيخه أن يرجع للتدريس بالمدرسة فرجع الشيخ زكريا وتولى مسند شيخ الحديث ومكث يعمل بجد وإخلاص حتى سنة ١٣٨٨هـ وأخذ يجيء ويروح للمدينة المنورة كلما

سنح له الزمان وينزل بمدرسة العلوم الشرعية ويدرس الحديث لمن يحضر من الطلبة أو يحرر على أجوبة الرسائل ومع الشيخ زكريا أربعة من تلامذته الذين يخدمونه، وقد اعتراه الشلل من ساقيه في العام الماضي لدى إقامته بالمدينة ولم يجدِ فيه العلاج، وذكر الشيخ أنه ينوي الرجوع إلى سهارينور ويأتي للحج وبعدها للمدينة ويتمنى الموت فيها، وللشيخ زكريا مؤلفات في الحديث وهي:

١ ـ الالماع إلى خصائص حجة الوداع.

٢ ـ معارف السنن.

٣ ـ الكوكب الدري حاشية على سنن الترمذي للشيخ رشيد أحمد.

٤ ـ لامع الدراري حاشية على شرح مسلم للمحدث الشيخ يحيى كاندلوي. وله مؤلفات منها: خصائص النبوة شرح الشمائل للترمذي، وحكايات الصحابة والاعتدال في مراتب الرجال، وفضائل الحج، وفضائل الصلاة، وفضائل الذكر، وفضائل الأمر بالمعروف.

يقول تلميذه محمد يوسف بن محمد زكريا البنوري عن كتاب معالم السنن إنه كله درر وكتب العلامة أبو الحسن علي الحسن في مقدمة المعالم وكتاب أوجز المسالك: ولما كان شيخنا العلامة محمد زكريا الكاندلوي من أحرص علماء عصره على خدمة الحديث والاشتغال به تعليماً وتأليفاً وشرحاً وتعليقاً ونشراً وإفاضة وكانت لذته وطيب عيشه وقرة عينه في أن يقضي ليله ونهاره في كل موضوع يتعلق بالحديث الشريف وبالسيرة النبوية نصيب إلى آخر ما حرره نفعنا الله بعلومهم وأفاض علينا من بركاتهم.

السيد عمر السقاف

ولد السيد عمر السقاف سنة ١٣٣٢هـ ووالده السيد عباس. وفي السابعة من عمره أدخل الكتاب حتى أكمل حفظ القرآن وكان يسكن المشهور في طريق المطار ولما استولى الملك عبد العزيز على المدينة سنة ١٣٤٤هـ دخل السيد عمر في المدرسة الابتدائية وكان يديرها المرحوم السيد أحمد صقر وكنت يومئذ مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية ثم استقلت منها سنة ١٣٤٧هـ وتعينت معلماً أول بالمدرسة الابتدائية فوجدت السيد عمر تلميذاً في السنة الثانية وانتقل الأستاذ محمد سالم الحجيلي للمالية فقمت مكانه في معاونة المدرسة المذكورة وكان علي أن أقوم بالدراسة قبيل الظهر وبعده أقوم برسم الجداول الأسبوعية وفي عطلة الظهر كان السيد عمر يأتيني في الإدارة يساعدني برسم الجداول وقد نتغدى سوية ثم بدت الأزمة الاقتصادية في المملكة وأصبح يصرف نصف الراتب والنصف على الجمرك وأصبح النصف لا يقوم بأود معيشتي وأولادي فسافرت بإجازة في العطلة سنة ١٣٥٠ إلى مكة المكرمة وحججت تلك السنة مع زميلي السيد أحمد العربي ثم قدر لي أن انتدبت مراسلاً لجريدة صوت الحجاز التي تأسست سنة ١٣٥١ برئاسة المرحوم صالح نصيف وتحريرها للسيد حسن فقي فسافرت بمساعدة المرحوم محمد سرور صبان مع هيئة اللاسلكي للرياض

وتشرفت بالسلام على المغفور له الملك عبد العزيز وأنشدت في مدحه قصيدة أجازني عليها ثم سافرت للأحساء ومنها لبغداد ومنها لدمشق وأمضيت الصيف بها ثم رجعت للمدينة أواخر سنة ١٣٥١هـ وعلمت بعد رجوعي أنه سافر لبيروت في الجامعة الأمريكية ونال دبلوم الاقتصاد في التجارة وتوظف في الخارجية ويمثل المملكة في الكثير من المؤتمرات التي يتطلب فيها مشاركة مندوب من المملكة وكان الأمير فيصل كوزير للخارجية يبعث المذكور وبعد وفاة والده جاء للمدينة فذهبت مع الشيخ عبد المجيد لتعزيته فقال له الشيخ هذا الشيخ عبد الحق فقال أتعرفني به وهو أستاذي وله الفضل علي وعلى جيل من الشباب الذين درسوا عليه فشكرته على تقديره ورجع هو إلى جدة لمزاولة أعماله حتى وافاه القدر المحتوم في نيويورك وكانت وفاته بأزمة قلبية فصدر الأمر بحمل جثمانه للمملكة تقديراً له ولخدماته رحمه الله رحمة واسعة وفاض عليه من شآبيب رحمته ورضوانه.

كتب الأستاذ عبد القدوس الأنصاري بمجلة المنهل بعنوان: الفارس الذي سقط في الميدان قائلاً: كان طالباً طموحاً منذ مطلع شبابه ذا وعي وإدراك وثبات منقطع النظير وحينما تخرج من المدرسة الابتدائية سنة ١٣٥٠هـ كان الكثير من زملائه يكتفون بالدراسة وينتظمون في سلك الوظائف، أما هو فإنه أقدم على الرغبة في إكمال دراسته تباعاً فانتظم في سلك مدرسة البعثات الثانوية بمكة فسافر إليها حتى تخرج منها ثم طلب الالتحاق بالجامعة الأميركية في بيروت وبعد تخرجه من الجامعة الأمريكية ونال دبلوم التجارة والاقتصاد التحق بوزارة الخارجية وتدرج في المناصب حتى وصل لقمتها واشترك في المؤتمر الآسيوي الإفريقي الذي عقد في الجزائر سنة ١٩٦٥ ورأس وفد المملكة في

بعض الدول الأوروبية والآسيوية والولايات المتحدة لشرح قضية فلسطين ورأس وفد المملكة إلى اجتماعات الممثلين الشخصيين للملوك والرؤساء العرب وزار عدة دول عربية وإسلامية وآسيوية وإفريقية وزار الأمريكتين وكان من أعظم الرجال الذين جابوا أقطار الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً على البر وفي الجو في أكثر الأحيان وليس ابن بطوطة وماجلان أمامه بالنسبة للرحلات العالمية إلا أقزاماً وإن اختلفت وسائط الرحلات فالعبرة بالكمية للدول التي وفد إليها حتى إن الدولة الكورية منحته الدكتوراه الفخرية الشرفية وقد انفردت مجلة المنهل بنشر ذلك مفصلاً من بين الصحف والمجلات وذلك في العدد السادس الذي نشر في رجب سنة ١٣٦٤ وكانت وفاته في نيويورك يوم الخميس الموافق ٣٠ شوال ١٣٩٤ بسبب جلطة في الدماغ بعد عمر حافل بالخدمات الجليلة لدينه ومليكه ووطنه وأمته. وقد نقل جثمانه بالطائرة من نيويورك إلى جدة فالمدينة ووري في البقيع الغرقد وهكذا سقط الفارس المعلم في الميدان الأرفع فامتلأت الجوانح بالأسى والحزن على فقيد مرموق ذي مكانة مرموقة في ظلال توجيهات قائدنا ورائدنا فيصل بن عبد العزيز وقد انهمرت برقيات التعازي من الملوك والرؤساء والزعماء من أنحاء العالم على الديوان الملكي تغمده الله برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جناته.

الفريق أسعد الزهير

ولد أسعد الزهير بالمدينة سنة ١٣٤٨هـ بالمدينة، ووالده عبد العزيز الزهير من آل الزهير الذين ارتحلوا للعراق منذ مئات السنين واتخذوا الزبير مقاماً لهم، ولما استولى الملك عبد العزيز على الحجاز سنة ١٣٤٣هـ طلب والد أسعد من الملك المجيىء للملكة والإقامة فيها فأذن جلالته وقدم عبد العزيز إلى مكة وبعد الحج اتصل بمدير الشرطة العام مهدي بك فوظفه هذا ضابط مركز في أجياد، ولما كان عبد العزيز عازباً تزوج بإحدى كرائم مكة ثم حبب القدوم للمدينة والإقامة بها نهائياً فساعده مهدي بك وعينه ضابط منطقة باب المجيدي وذلك سنة ١٣٥٠هـ وولد له ابنه اسعد هذا، وبعد خمس سنوات أو أكثر سكن والده أمام دارنا بالدرويشية وتعارفنا من يومها وتزاورنا معاً حقبة من الزمان تربو على سبع سنوات تقريباً وبعد أن كبر اسعد أدخله والده للمدرسة وكان ابني الأكبر العقيد عبد العزيز يزامله وصدف أن جاء الأمير منصور بن عبد العزيز فتفرس في كبار الطلبة وتكلم مع أوليائهم على أن يبعثهم لدراسة الفنون العسكرية فلم يكن جواب والد أسعد إلا الإذعان لأمر الأمير وسافر اسعد لجدة ومنها ذهب إلى لندن ومكث عدة سنوات حتى نجح وتخرج برتبة ملازم ثاني ورجع كضابط في قيادة الطائرات الحربية، وما زال يتدرج من الرتب العسكرية حتى أصبح لواءً

ولما تولى الملك الراحل فيصل رحمه الله أنعم عليه برتبة أركان حرب ثم برتبة فريق وقائد القوات الجوية السعودية. وقد انقطعت عني أخباره ولكن ابني عبد العزيز كان متصلاً في الرياض وبعد ثلاثين سنة أو أكثر كنت ذهبت للرياض لقضاء أيام عيد الأضحى في الرياض فأخبرتني إحدى بناتي أنها تعرفت بزوجته وهو يسكن قريباً من شقتها، فكلفتها أن تتصل وتخبره أني في شوق لرؤيته فكلمته فأجابها أنه هو الذي سيأتي لزيارتي وبالفعل جاء مع زوجته للدار فأنست به وأنس بي وأخبرني عن ماضي حياته وكيف تدرج في السلك العسكري حتى وصل لهذه الرتبة الكبيرة وعلمت منه أن له بنتاً كبيرة ولم يرزق بولد وقد منّ الله عليه بنعمة وافرة ومال وفير.

فضيلة الشيخ عبد المجيد حسن

ولد الشيخ عبد المجيد حسن ببلدة (جبرت) ووالده حسن الحضرمي النازحين من حضرموت إلى الحبشة من سالف الزمان وتزوج هناك وأنجب ولده الشيخ مجيد ولحروب قامت في الحبشة اضطر والده أن يرجع لحضرموت وتوفي فيها، فبقي الشيخ مجيد لدى والدته وكان تعلم من والده قراءة القرآن وتعاليم العبادات، وقرأ عليه الفقه الشافعي وبعد أن شب مجيد مع زميله عبد القادر أجبرا أن يأتيا للحجاز لطلب العلم ولما وصلا لجدة ذهب الشيخ مجيد لمكة وانتظم في سلك الحرم المكي، وجاء عبد القادر للمدينة ودخل بمدرسة العلوم الشرعية وكنت يومئذ سنة ١٣٤٥هـ مدرساً بالمدرسة المذكورة فقرأ علي بعض دروس الصرف والنحو والبلاغة، وقدم الشيخ مجيد من مكة وأنتظم في حلقة دروس الشيخ عبد الباقي الهندي، وبعد المغرب درس على الشيخ عبد الرؤوف المصري فقه الشافعي، وكان الشيخ عبد الباقي ضد السيد أحمد الفيض آبادي باني مدرسة العلوم الشرعية فظهر للشيخ مجيد بأن عبد الباقي متطاول على السيد أحمد فترك درسه ودخل لمدرسة العلوم الشرعية، وكنت قد استقلت من المدرسة وتوظفت بالمدرسة الناصرية ثم بدار الطباعة، ومع اشتغالي بدار الطباعة تعينت محامياً على شرط أن تأتيني المعاملة التي يلزم حضوري في المحكمة، وكان الشيخ مجيد قد

أكمل نصاب مدرسة العلوم الشرعية، ونال الشهادة العلمية وتوظف معلماً بدار الأيتام ثم انتدب مع بعض المعلمين لإدارة مدرسة شقرا ثم استقال منها ورجع إلى مكة المكرمة وتعين قاضياً لمحكمة رابغ فأتي إليها وعمل في هذه المحكمة ومكث سنتين أو ثلاث وولد له مولوده البكر أنور، وصدف أن توفي الشيخ عبد الحفيظ كردي نائب القاضي فتعين الشيخ مجيد مكانه وعمل كمساعد للشيخ عبد العزيز بن صالح وأنجب بعد ولده أنور أربعة أولاد وبنتاً واحدة وأول ما تعرفت عليه لما جاء للمدينة كأحد طلبة العلم ثم ازدادت معرفتي به عندما كنت أحضر جلسات المالية عنده، وزادت صداقتنا لما اشتريت وإياه قطعتي أرض في بستان بضاعة وبنينا عليها دارين للسكن وسكنا بهما متجاورين، وقد سافرنا معاً للاصطياف للقاهرة وكان أولادي يدرسون من قبل بالقاهرة على حسابي فحسنت للشيخ أن يبقي ولديه أنور وعبد الله يدرسان بمدرسة داخلية، وكنت دخلت ابني عبد السلام من مدرسة الدقي القريبة من شقة سكن إخوانه وبعد سنتين عن لنا أن نصطاف بسورية وتقدمني هو إلى الحبشة لزيارة والدته التي ما زالت في قيد الحياة فزارها ونفحها بما تيسر فسرت برؤيته ودعت له بالتوفيق، وجاء القاهرة بطريق السودان واستأجر شقة وكان أنور أتم الدراسة الابتدائية وبدا له أن يرجع بهما فيتما دراستهما في مدارس المدينة كما أخذت مع ابني سلامه أيضاً وذهبنا معاً إلى دمشق وكان معنا عبد العزيز الذي أتم دراسته في كلية الاقتصاد والتجارة من جامعة القاهرة، وبعد أن مكثنا في دمشق شهراً رجعنا بسلام للمدينة واعتراني مرض الاكتئاب فذهبت إلى لبنان مع أم الأولاد وزاد بي المرض حتى كدت أرمي نفسي من الفندق، فأتت لي بطبيب خاص وبعد معاينته وصف لي دواءً خف ما بي من المرض

فذهبنا لسورية وهناك تحركت لدي القرحة بالمعدة فأجريت لها عملية جراحية وشفيت بعدها ورجعت للمدينة وإذا بي أجد الشيخ مجيد باع دار سكناه المجاورة لداري واشترى قطعة أرض بالرومية وشرع في البناء عليها ليتخذ فيها شققاً يؤجرها ويسكن بالشقة العليا منها وتم بناؤها بعد سنتين وسكن الشيخ مع أولاده في الشقتين العليا كما ذكرت ثم بعدها اختير عضواً في هيئة التمييز بمكة أو الرياض فاختار أن يذهب للرياض وبقي عضواً حتى اختاره جلالة الملك عضواً بهيئة كبار العلماء وابتعث ابنه السيد أنور لأمريكا بعد تخرجه من كلية الاقتصاد بجامعة الرياض وأدخل عبد الله بكلية الطب فتخرج طبيباً وابتعثه والده ليتخصص في أمريكا، وسعد اكتفى وتزوج بابنة خاله في جدة والصغير أحمد في السنة الثانية من التوجيهي وزوج الشيخ ابنته الوحيدة لأحد الجامعيين من الباكستانيين المقيمين بالرياض، وفاتنا أن نذكر أنه باع عمارته التي بالمدينة بثمن طيب واشترى بقيمتها أرضين في الرياض بنى على القطعة الكبيرة داراً كبيرة وبسفلها معارض والقطعة الثانية شرع يبني عليها داراً لسكن أولاده حيث إن أعمالهم ستكون في الرياض مثل أولادنا وقال إنه إذا انتهى أولاده من الدراسة سيرجع للمدينة مع أم أولاده واشترى قطعة أرض بالمدينة وشرع يبني عليها داراً للسكن بها وسيقيم بها بعد بناء الدار إن شاء الله وفقنا الله وإياه لما يحبه ويرضاه.

الشيخ محمد عمر توفيق

ولد محمد عمر بالمدينة المنورة سنة ١٣٣٢هـ ووالده هو الشيخ عمر توفيق مدرس القرآن والتجويد بمدرسة العلوم الشرعية، ولما بلغ محمد عمر السابعة أدخله والده بمدرسة العلوم الشرعية في قسم حفاظ القرآن الكريم فحفظ القرآن مع جملة من زملائه أذكر منهم الشيخ محمد الحركان وعمر عسيلان وسامي إسماعيل ومحمد الحافظ ومحمد عبد القدير وغيرهم وبعدها انتظم مع زملائه المذكورين في قسم شعبة العلوم العربية فأتم دروسه الابتدائية، وانتقل لشعبة العلوم العالية حتى شهادتها العالية وبعدها رغب والده أن يتوظف مدرساً بمدرسة كمدرس مثله فأبى وذهب لمكة المكرمة وتوظف كاتباً بديوان النيابة محرراً وكان رئيس الديوان يومئذ إبراهيم السليمان فجعله أميناً له بيد أنه استقال ورغب أن يشتغل بالتجارة ففتح معرضاً لجمعيات التعاون به من المأكولات والمعلبات ما يحتاجه الموظف في معيشته وكان قد تزوج بأحد كرائم الأتراك وأنجب منها، وكان يكتب في أسبوع مقالة بعنوان (فكره) يهدف فيها للإصلاحات الضرورية، فكتب مقالته الأسبوعية (فكرة) وكان الملك سعود يومها بمكة فوشى به إليه بأنه يقصد ذات الملك بالنقد فحمل عليه الملك وأراد معاقبته فأوعز إليه بعض أصدقائه أن يهرب لجدة

فسافر لجدة ومنها إلى القاهرة واستقدم أهله إليها وأراد السكن بها ولم يظفر به الملك سعود وكنت بدوري بمصر أراقب أولادي الذين يدرسون على حسابي فيها فزرته يوماً في شقته فوجدت عنده إبراهيم السليمان فعرفه بي قائلاً هذا أستاذي الشيخ عبد الحق النقشبندي فعجب ابن السليمان أن أكون أستاذه فقال له محمد عمر إن الأستاذ يكبرني بسبع أو عشر سنوات، ومضت الأيام واتفقت معه أن ندرس اللغة الإنجليزية بمدارس فكس وانتسبنا إليها لمدة ثلاثة شهور فكنت أمر عليه بسيارتي وآخذه للمدرسة وندرس ساعة زمنية ثم أوصله لبيته وأذهب لبيتي ثم سمعنا بتشكيل الوزارة السعودية برئاسة الأمير فيصل ولي العهد فعين وزيراً للمواصلات وبلغ بالأمر السامي بواسطة السفير السعودي فسافر محمد عمر لمكة واستقدم أولاده. ولما قام جمال عبد الناصر بثورة الاشتراكية وانقطعت رواتب الموظفين السعوديين وكنت أتقاضى راتب التقاعد لأتصرف فيه مع أولادي، فاضطررت للرجوع للمدينة تاركاً أولادي مع أخيهم الأوسط محمد الذي كان يدرس هندسة البناء في جامعة القاهرة رجعت مع ابني الأصغر عبد السلام ووالدته ونزلت في دار صديقي الشيخ عبد المجيد حيث كنت أجرت دار سكنى من قبل، وبحلول شهر ذي الحجة اتفقت مع الشيخ مجيد على الحج فاستأجرت بدوري سيارة وركب هو وأولاده في سيارتهم وتوجهنا في اليوم السادس لجدة ومنها لمكة في الليلة السابعة وبعد الطواف والسعي يممنا إلى مزدلفة وبتنا فيها وعلى الصباح توجهنا إلى عرفات ونزلنا بمخيم الأوقاف وصلينا الظهر بمسجد نمرة ولدى الغروب نفرنا إلى المزدلفة ولقطنا الحجرات ونمنا بها ولدى الصباح توجهنا لمنى ورمينا الحجرات وكان عبد العزيز ابني قد أتى من الرياض مع زوجته لأداء فريضة الحج

فيممنا مخيم وزارة المواصلات لدى الشيخ محمد عمر فخصص لنا خيمة مناسبة فنزلنا بها وكان يؤتى لنا بالطعام من مطبخه وقضينا أيام التشريق ورجعت أنا والشيخ مجيد للمدينة ورجع عبد العزيز للرياض، وكنت كتبت لمحة من تاريخ حياة محمد عمر وصدف أن جاء قبل سنتين للمدينة في أواخر شهر رمضان فدفعت له الترجمة ليضيف فيها ما شاء أو ينقص ما شاء فأخذها وأعجب بها على أن يبعثها لي وسافر ولم يبعثها لي فكتب هو الترجمة الثانية راجياً أن تكون مناسبة إن شاء الله وكان تزوج من إحدى كريمات آل الفطاطري وأنجب منها وبعد استقالته رغب أن يقضي بقية حياته بالمدينة، وكان اشترى قطعة أرض من طريق قباء وبنى عليها داره للسكن فيها ثم سمعت أنه سافر وكنت ابتليت بوجع المفاصل ثم علمت من صديقه السيد حبيب أنه سيرجع عما قريب، وأخيراً اطلعت على مقالة له كتبها في بلدة ديزني لاند بولاية كاليفورنيا وكان موشكاً أن يغادرها إلى ولاية أوريغن في رحلة طويلة على ضفاف البحر والنهر وفوجىء بصوت ابنه فؤاد على الهاتف من باريس يقول له إن جلالة الملك خالد في جنيف في طريقه إلى مستشفى (كليفلاند) لإجراء عملية له في القلب بعد بضعة أيام، فسافر إلى كليفلاند وكان من جملة المستقبلين لجلالة الملك فأخذ يجلس مع المستقبلين وكان جلالته يبتسم للجميع وقد أجريت للملك عمليتان من قبل عام ونصف ولقد تألم محمد عمر بما يقاسيه جلالة الملك، ولقد فرح الناس يوم رجوعه للرياض سليماً معافاً ويدعون له بالشفاء التام وهو اليوم يقضي أياماً في البادية لتفقد أحوال البدو هناك مد الله في حياته. . وأخيراً إني لا أنسى فضل محمد عمر علي وعلى ابني عبد العزيز الذي مهد له الانتداب للولايات المتحدة لنيل درجة الماجستير في

الإدارة والمحاسبة جزاه الله أحسن الجزاء وهو وإن استقال من الوزارة فهو الوزير اليوم. كما قال الشاعر:

إن الوزير هو الذي يضحي وزيراً بعد عزله

إن زال سلطان الولاية لم يزل سلطان فضله

الشيخ عبد القادر الشلبي

ولد الشيخ عبد القادر الشلبي بطرابلس الشام وتعلم في مدارسها وعلى علمائها المشهورين، ونبغ في تحسين الخط العربي وبعد أن نال قسطاً من العلوم قدم المدينة المنورة وتصدر للتدريس بالحرم النبوي وهو ابن سبع عشرة سنة وسكن بمدرسة الكشميري، ويتعيش مما جاء معه من النقود وما يأتيه من حصة وقف جده عبد الحميد الشلبي. وقد تشرفت بمعرفته حينما كنت بكتاب الشيخ عبد العليم الهندي بمدرسة الكشميري وكان بالكتاب كثير من أبناء المدينة، فتصدى الشيخ عبد القادر للشيخ عبد العليم بأنه وهابي فخرج أكثر الأولاد لما سمع آباؤهم بذلك وأنا معهم ثم بعد التحقيق مع الشيخ عبد العليم ظهر أنه سني حنفي المذهب فأرجعني والدي لكتابه وحفظت القرآن الكريم عليه، وكان الشيخ عبد القادر خرج من مدرسة الكشميري وتزوج واتخذ داراً لسكناه وأنجب ولداً ثم طلق تلك المرأة وتزوج بأخرى من كرائم التونسيين، وتعين الشيخ ناظراً لمدرسة الجواهرجي فأخذ يدرس بعض طلاب هذه المدرسة مع تدريسه بالحرم النبوي وأنجب الشيخ ولدين وفي تلك الأثناء وقعت الحرب العامة سنة ١٣٣٣هـ وأخذ حاكم المدينة العسكري فخري باشا يجلي أهل المدينة للشام والأناضول خوفاً من انقطاع سكة حديد الحجاز وعدم ورود الأرزاق من الشام وكان يتوجس

الباشا من ثورة الشريف الحسين واتفاقه مع الحلفاء وخروجه على السلطان محمد رشاد، وبالفعل أعلن الثورة الشريف حسين سنة ١٣٣٤هـ فبعث الشيخ عبد القادر زوجته وولديه مع صديقه الشريف محمد العربي إلى الشام لدى سفر المذكور بأهله أيضاً وبقي هو مع ابن المرحوم حمزة صابرين على لواء المدينة بمدرسة الكشميري، ولما علم فخري باشا بوجود الشيخ بالمدرسة عينه إمام طابور الجنود العرب المقيمين بتبوك فسافر الشيخ مع أبيه حمزة وكان الترك انهزموا من فلسطين وتعقب الإنكليز الجيش العثماني لدمشق وصدر أمر الحسين بإرجاع أهالي المدينة الذين أجلاهم فخري باشا إليها فرجع الشريف محمد العربي بزوجته والشيخ وولديه للمدينة وتعين الشيخ عبد القادر مديراً للمعارف، وأنشأ الشريف الحسين أربع مدارس بها تيمناً بأسماء أولاده الأمراء وكنت بدوري بدمشق ورجعت للمدينة ودخلت المدرسة الفيصلية وتخرجت منها ثم جمع الشيخ عبد القادر المدارس الأربع في مكان واحد بالمدرسة الإعدادية وهو الذي أنشأ المدرسة الراقية وكنت بدوري أنا وزميلي السيد أحمد العربي والسيد محمد صقر من جملة طلبتها حتى سنة ١٣٥٢هـ ثم سافرت بدوري إلى الهند لطلب العلوم فدخلت مدرسة مظاهر العلوم العالية وسافر السيد أحمد لمصر مع الشيخ عمر حمدان وانتظم في طلبة الجامع الأزهر ولما أتممت دراستي في الهند رجعت للمدينة وعنّ لي أن أسافر لمصر لأجتمع بصديقي أحمد وغيرهم ممن كانوا يدرسون في الأزهر فذهبت واجتمعت بهم فعلمت أن السيد أحمد أكمل مدة الدراسة في الأزهر فبقيت شهوراً بمصر ثم رجعت للمدينة وتوظفت بمدرسة العلوم الشرعية وعلمت أن السيد أحمد انتظم في البعثة السعودية العلمية وبعد أن أتم دراسته بمدرسة دار العلوم

العليا ونال دبلومها العلمي وفي سنة ١٣٠٠هـ رجع للمدينة مكللاً بالنجاح وكان والده ما زال على قيد الحياة فزوجه والده من كريمة عبد القادر وعمل مدرساً للأدب بمدرسة العلوم الشرعية وكان شيخنا وأستاذنا الشيخ عبد القادر بعد دخول المدينة في حوزة الملك عبد العزيز بقي معتكفاً بالدار لا يخرج إلا يوم الجمعة للصلاة وهنا أذكر أن للشيخ فضل كبير علي وعلى زميلي السيد أحمد العربي فقد درسنا عليه زمن حكومة الأشراف بالمدرسة وفي بيته وهو الذي توسط بزواجي وزواج السيد أحمد العربي، وكان يحبنا ويكرمنا وقد كان الشيخ عبد القادر شاعراً كبيراً وعالماً جهيراً، وقد نظم قصائد عديدة وله ديوان شعر لم يطبع، وكنت أزمعت مع صديقي السيد أحمد طبع الديوان بعد وفاة الشيخ فاتصلت بابنه الأخ محمد سعيد فوعدني أن يبحث في مكتبة الشيخ والده وبعد مدة أخبرني أنه لم يجد الديوان المذكور وقال إن والده نظم ديوان شعر في مدح النبي ﷺ وطبع في الهند وبحث عنه أيضاً ولم يجد نسخة منه، هذا وإني أحفظ بعض القصائد التي نظمها أيام إدارته للمعارف وأكثرها كان في مدح الشريف الأمير للمدينة وخرج لاستقباله أعيان المدينة وكبار الموظفين وطلبة المدارس وكنت أنا والسيد أحمد العربي من طلبة المدرسة الفيصلية وألقى السيد أحمد في المهرجان قصيدة مطلعها:

أشموس يمن أم بيننا أنوار   أم ضوء مسك أم شذى أزهار
أم ذا وليّ العهد وافى مقبلاً   تحتاط فيه من الأسود ضواري

الشيخ حسن الشاعر

ولد الشيخ حسن في مصر وتلقى علم القرآن والتجويد على أشهر القراء ولما قارب الأربعين من عمره قدم المدينة مع أولاده وتقصد الهجرة وتصدر الحرم النبوي لتعليم التجويد والقراءات السبع على كل من يقصده من طلبة العلم المجاورين بالمدينة ومن الزوار والحاج، وقد سافر لبخارى بطلب من أميرها لصلاة التراويح في جامعها الكبير وصلى التراويح في شهر رمضان من تلك السنة ورجع مجبور الخاطر مما نفحه به الأمير وأفاض عليه من أعيان المصلين، وبعد رجوعه اشترى قطعة أرض بنى عليها داراً لسكناه وتعين كأحد المدرسين بالحرم الشريف لتعليم التجويد والقراءات السبع بمشاهرة معلومة كما توظف من لدن إدارة المعارف لتعليم طلبة المدارس الابتدائية علم التجويد وكنت في سنة ١٣٣١هـ بمدرسة باب الشامي التي كان مديرها المرحوم السيد ماجد عشقي فكان الشيخ حسن يأتينا كل خميس فتعلمت منه التجويد وكان ألّف رسالة في التجويد يوزعها على الطلبة. وقد وقعت الحرب العامة سنة ١٣٣٣هـ تلك السنة وبعد إجلاء فخري باشا لسكان المدينة خوفاً من انقطاع سكة حديد الحجاز التي كانت تأتي بالأرزاق سافر الشيخ ورجع للمدينة بعد استيلاء الشريف حسين على المدينة ورجع لوظيفته كمدرس بالحرم الشريف حتى زوال الحكومة الهاشمية ودخول

ابن السعود للمدينة، فبقي الشيخ حسن كأحد المدرسين وظل يلقي درس التجويد لمن يرغب حتى للنجديين منهم إمام المسجد النبوي الشيخ صالح الزعيبي رحمه الله ثم بعده المرحوم عبد الله التمكتي وبعد سفر الشيخ عبد الله تولى إمامة المسجد والخطابة الشيخ عبد العزيز بن صالح الإمام الحالي فقرأ على الشيخ حسن علم التجويد، وقرأ عليه عبد الله بن زاحم معاون رئيس المحكمة وقد بلغ الشيخ حسن من العمر عتياً وقد رأيته آخر مرة وأنا ذاهب لصلاة الجمعة فسلمت عليه وقبلت يده وقلت أعرفتني يا أستاذي؟ فقال ألست عبد الحق؟ قلت نعم وأنا تلميذك وقرأت عليك علم التجويد وأنا تلميذ في مدرسة باب الشامي سنة ١٣٣٢هـ وأذكر رسالتك لي ويومئذ كان عمري اثنتي عشرة سنة فدعا لي سلمه الله وأطال عمره وابنه هو الفريق علي الشاعر سفير المملكة في لبنان آنذاك.

الشيخ محمد الطيب الأنصاري

ولد الشيخ محمد الطيب ببلدة (السوق) من أعمال الجزائر ودرس في بلده العلوم العربية، وكان أجداده من الأنصار قدموا فيما مضى من الزمان إلى الغرب للجهاد ونشر الإسلام بين البربر كما هو مدون في التاريخ، ولما شب الشيخ الطيب هزّهُ الشوق لأداء فريضة الحج في أواخر الألف والثلاثمائة فقدم إلى مكة مع رفاقه وأولاده أذكر منهم المرحوم أبو بكر عبد الرحيم والمرحوم عبد الله، وبعد الحج جاء للمدينة وحبب له الإقامة في بلد آبائه من الأنصار وأقام في بعض الأربطة المخصصة للطلبة وشرع بالتدريس في الحرم الشريف لبعض رفاقه ومن شاء من طلبة أهل المدينة وكان ذلك آخر زمن الأتراك مجيء سكة حديد الحجاز سنة ١٣٢٧هـ وبقي الشيخ يدرس مجاناً لوجه الله تعالى مكتفياً بما يأتيه من المنح من بعض الزائرين والحجاج. ولما استولى الشريف الحسين بن علي على المدينة سنة ١٣٤٧هـ بقي الشيخ على تدريسه في الحرم النبوي فحضر لدرسه الكثير من شباب المدينة في مقدمتهم المرحوم السيد عبيد مدني والسيد علي وعثمان حافظ وإسماعيل حفظي ولما استولى الملك عبد العزيز على الحجاز سنة ١٣٤٣هـ توظف الشيخ الطيب سنة ١٣٤٥هـ معلماً للتوحيد في المدرسة الابتدائية وكنت بدوري مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية وكانت غرفة

دراستي بجانب غرفة تدريسه فقد كان من المدرسين بمدرسة العلوم الشرعية فكنت أستمع لدرسه وأشترك بالسماع لتقريره الذي كان باللغة العربية الفصحى، وكثيراً ما أشترك في حلقة الدرس وكنت أذهب لداره مع تلميذه زميلي وصديقي ضياء الدين رجب وأتناول بعض وجبات الغداء أو العشاء مع طلبته فقد كان كريماً بعد أن وسع الله عليه في الرزق فيصرف ما يأتيه من راتب المدرسين في إطعام طلبته ومع علو كعبه في العلوم العربية وخاصة في الشعر فلم يمتدح أميراً ولا ذا جاه أبداً وحسبك أنه نظم كتاب شذور الذهب أغنت عن ألفية ابن مالك، وكان الشيخ متزوجاً فتوفيت زوجته فتزوج بأخرى من كرائم أهل المدينة وأنجب منها ولدين، وفي أخريات أيامه أصيب بمرض في الكلى لم يشأ أن يتعالج آخذاً بالعزيمة وتوفي رحمه الله ولم يترك مالاً ولا عقاراً كغيره من علماء زمانه. وبعد وفاته تولت حرمه تربية ولديه وتعليمهما حتى أكمل ولده عبد الرحمن دراسته وابتُعث لأمريكا ونال الدكتوراه ورجع أستاذاً مرموقاً بكلية الآداب بجامعة الرياض فرحم الله الشيخ الطيب رحمة واسعة.

السيد حسين بن طه القباني

ولد السيد حسين بالمدينة المنورة سنة ١٣١١هـ وأُدْخِلَ الكُتّاب بعد السابعة، وبعد أن أتم دراسة القرآن أدخل بالمدرسة الابتدائية ولما شب بعثه والده مع أخيه المرحوم محمد علي طه لدمشق وأدخل بالمدرسة (المكتب السلطاني) ومكثا سنين حتى شبت الحرب العظمى فرجعا للمدينة بعد انتهاء الحرب ودخول الحجاز في حوزة الشريف الحسين، وتوظف السيد حسين مديراً للمدرسة الفيصلية إحدى المدارس الأربع التي أنشأها الشريف تيمناً بأسماء أولاده الأمراء علي وعبد الله وفيصل وزيد، وكان فخري باشا قد أجلى أهل المدينة لدى ثورة الشريف إلى دمشق، وبعد انكسار الترك وتعقب الجيش العثماني لدمشق صدر أمر الشريف برجوع أهل المدينة للمدينة وكنت بدوري بدمشق فرجعت للمدينة وانتظمت في المدرسة الفيصلية التي كان يديرها السيد حسين وانتظمت في السنة الثانية حتى نلت الشهادة التحضيرية وكان السيد حسين يودني حيث كنت مجتهداً ومتفوقاً ثم بعد اضطرار مدير المعارف المرحوم الشيخ عبد القادر الشلبي نظراً للحالة الاقتصادية جمع المدارس الأربع الفيصلية والعبدلية والعلوية والزيدية في المدرسة الإعدادية وأنشأ الصف الراقي حتى للسنة الثالثة ثم سافرت سنة ١٣٤٢هـ للهند لطلب العلم بمدارسها العربية العالية وبعد نيلي الشهادة رجعت سنة ١٣٤٥هـ

لأجد السيد حسين انتقل لمديرية الأوقاف بالمدينة، وبعد سنتين أقيل من مديرية الأوقاف واعتكف في البيت لمرض أصابه في قلبه وما لبث أن توفي مأسوفاً على شبابه حيث لما يبلغ الخمسين من عمره وكان قد تزوج من ابنة السيد محمد صقر وأنجب منها ولدين وبنتاً وطفقت زوجته مكبة على أولادها في تربيتهم وتعليمهم فتعلم طه حتى المتوسطة ثم توظف في رئاسة الدلاء بالمدينة وتعلم الثاني فن الطيران وتزوجت الثالثة من أديب محمد صقر رحم الله الفقيد رحمة واسعة وأفاض عليه من سجال رحمته ورضوانه.

الشيخ محمد علي الحركان

ولد محمد الحركان بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٥هـ ووالده المرحوم الشيخ علي الحركان من الذين قدموا من نجد زمن الحكومة التركية للإقامة بها وكان يتاجر في الأقمشة وعرف بالصلاح والتقوى، وتزوج من المدينة وأنجب ثلاثة أولاد: عبد الله وعبد الرحمن ومحمد وهو أصغرهم ولما بلغ محمد السابعة أدخله والده بمدرسة العلوم الشرعية سنة ١٣٤١هـ بشعبة حفظ القرآن لدى الشيخ عمر توفيق مع زملائه محمد عمر ومحمد عنبر ومحمد حافظ وعمر عسيلان وعبد القادر براده، ثم أنتقل بعد حفظ القرآن لشعبة العلوم العربية في القسم الابتدائي ثم للقسم العالي وكنت بدوري موظفاً بالمدرسة سنة ١٣٤٥هـ فقرأ علي المذكور بعض العلوم العربية وبعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٣٤٧هـ استقلت من المدرسة وتوظفت بالمدرسة الابتدائية الأميرية سنة ١٣٤٨هـ وكان محمد قد تخرج من المدرسة بعد نيل شهادتها وتصدر للتدريس بالحرم النبوي كأحد المدرسين، وقد زوجه والده من إحدى كرائم المدينة وتعين قاضياً لجدة فمكث في القضاء سنين عدة، ثم عرض عليه ليكون مديراً للجامعة الإسلامية بالمدينة فلم يوافق، ثم اختاره الملك فيصل وزيراً للعدل فقام بأعبائها خير قيام، وبعد وفاة الملك فيصل رحمه الله تولى الملك خالد أريكة العرش السعودي فاختاره ليكون أحد أعضاء هيئة كبار العلماء بالرياض.

السيد علي عامر

ولد السيد علي بالمدينة المنورة ووالده السيد حسين من أخلص عرب المدينة دخل الكتاب حتى عشر سنوات ولم يحفظ القرآن ودخل المدرسة الأميرية بعد بلوغه الثانية عشرة ومكث أربع سنوات حتى نال الشهادة الابتدائية التي هي بمثابة المدرسة المتوسطة وكان معه أربع أو خمس زملاء أذكر منهم أنور بصراوي، هاشم عشقي، حسن إسماعيل وصدف أن رجع المرحوم محمد سرور من الرياض بعد أن زالت الوشاية عنه فدعوته لحفلة شاي وجمعتهم بهؤلاء الطلبة وغيرهم كالأستاذ محمد زيدان وزميلي السيد عثمان والسيد علي فسرّ بهم وبعد أن نال الطلبة المذكورون الشهادة الابتدائية كانت الرغبة لموظفين يشغلون مكاتب الوزارات فسافر أربعة منهم لمكة وتوظف السيد علي عامر بوزارة المالية وعلي سعيد وبعضهم بقي بالمدينة منهم المرحوم عارف براده والبعض تعاطى مهنة والده في التجارة وفي عطلة الصيف جاء علي عامر وزميله علي سعيد زائرين أهليهم، فأولم والد كل منهم وليمة فاخرة ودعينا نحن معلميهم مع مدير المدرسة السيد أحمد صقر والسيد ماجد عشقي ثم رجعا لمكة بعد انقضاء العطلة وطفق علي عامر يرقى وظيفة موظفيه، ثم استقال السيد علي وأخذ يشتغل بالتجارة وأعمال أخرى، وكان صديقاً للسيد محمد عمر توفيق وزير الحج

والأوقاف يومئذ ولكنه لم يرفض الوظيفة واشتاق أن يزيد في معارفه فسافر لمصر وبدوري كنت بمصر وكان محمد عمر أيضاً بمصر فالتقينا الثلاثة وأشرت على محمد عمر بمصر ورجع هو لمكة وانقطعت صلة طويلة ثم لما رجعت بعد المرض الذي أصابني سألت عنه فعلمت أنه يشتغل بالتجارة فسألت عن عنوانه وتذكرت أنه أديب بالطبع وإذا أجدني يوماً أمام قصيدة له في عدد من جريدة المدينة بعنوان (دمعة ونداء) قصيدة طويلة أعجبت بها فسألت عن عنوانه بالضبط وكتبت له باطلاعي على القصيدة المذكورة وعن مختصر تاريخ حياته، فأجابني بأنه ليس بشاعر ولا يرغب أن تكون له حياة من تاريخه، فألححت عليه فأبى وكتب لي بعض قصائده ولكن علي أن يبعث لي برسمه فقبلت منه، وسأكتب له إن تنازل فأرسل لي برسمين صغيرين كرسمي الجوازات ومن جمله معاذيره أنه بلغ من العمر عتياً وسأحرر له تلك القصيدة التي بعنوان:

رضـــاء!!

ذوى مـــن عـــمـــري الأخـــضـــر ... فـــلـــم أشـــك ولـــم أضـــجـــر
فـــقـــد روضـــت مـــن صـــغـــري ... عـــلـــى الأربـــح أو الأخـــســـر
وإنـــمـــا فـــي مـــعـــادلـــتـــي ... أرى مـــا نـــلـــت مـــســـتـــكـــثـــر
عـــلـــى عـــبـــد يـــخـــاف الـــلـــه ... يـــخـــشـــى ســـاعـــة الـــمـــحـــشـــر
فـــيـــخـــفـــق قـــلـــبـــه ذعـــراً ... وهـــو مـــســـتـــغـــفـــر
وأشـــفـــق مـــن ســـويـــدائـــي ... عـــلـــى مـــن راح يـــســـتـــكـــثـــر
كـــأن الـــعـــمـــر فـــي يـــده ... وأن الـــدهـــر لا يـــدبـــر

وأن زخــــارف الـــدنـــيـــا ستــصــبــح فــي غــد أكــثــر
ويـــنـــســـى أنـــه بـــشـــر وأن حــيــاتــه مــعــبــر
ويــمــضــي فــي تــهــالــكــه فــلا يــرتــاح أو يــنــفــر
أعــيــذ الــنــاس مــن طــمــع إذا استــفــحــل أو استــنــسر
لــعــلــي لــم أقــل إفــكــا وحــســبــي مــا بــه أشــعــر

حيرة وأمل

أنــوء بــعــبء الــنَّــوى تــارةً وأرزح أخــرى عــلــى شــقــوتــي
أعــود وفــي الــقــلــب آفــة وأصحوا على الخفق من غفوتي
فلا راحــتــي الــيــوم مــن راحــتــي ولا مــنــقــذ الــيــوم مــن كــربــتــي
أســيــرُ أســيــراً بــلا غــايــة وأجــهــل بــعــد مــدى خــطــوتــي
شــقــيــت بــنــفــســي وآمــالــهــا وحــلــم يــعــز عــلــى حــيــلــتــي
وهــذا الــصــبــاح وآمــالــهــا يــنــاجــي الــشــبــاب فــواحــســرتــي
تــمــر الــســنــون وراء الــســنــيــن ويــنــطــلــق الــفــجــر مــن قــدرتــي
صــبــرت عــلــى غــصــص جــمــة ومــنــهــا انــطــوائــي عــلــى وحــدتــي
فــهــل بــعــد يــأســي يــلــوح لــي الــبــرؤ مــن عــلــتــي؟
وتــســكــن نــفــســي إلــى مــؤنــس يــبــرد مــا كــان مــن وحــشــتــي
ويــمــنــحــنــي قــبــســاً مــن حــيــاه ألــوذ إلــيــه فــي غــربــتــي
وأهــنــأ بــالــعــيــش فــي ظــلــه حــتــى أوســده فــي حــضــرتــي
فــلــيــس عــلــى خــالــقــي إذا شــاء أفــلــتــت مــن حــيــرتــي
وعــدت ســويــاً كــبــاقــي الأيــام وبــيــن يــدي جــنــى غــرســتــي
أشــم فــيــه عــبــيــر الــزهــور وأحــنــو عــلــيــه عــلــى خــلــوتــي

وأحـمـد ربـي عـلـى فـضـلـه وأطـمـع فـي الـعـفـو مـن زلـتـي
وقد عدت من بعد يأسي المرير سـعـيـداً بـصـحـبـى وأمـسـيـتـي
وعـاد إلـى الـنـفـس إشـراقـهـا سـاد الـوهـج مـن فـرحـتـي
وبـيـن الـجـوانـح رف الـفـؤاد وغـنـى مـلـيـاً عـلـى دوحـتـي
نـشـيـداً نـنـاغـم ألـحـانـه كطفل على المهد في قصتي

دمعة ونداء

وهي:

بين طيف الأسى وحلو الوعود وبكانا على الثرى المفقود
لـعـبـت دورهـا أمـس محمقات بحقنا المشهود
هي تلهو ونحن نمعن بالصبر ونصغي لرائعات الوعود
من خلال الأحلام وهي سراب يخلب اللب من وراء الحدود
وهوى النفس دائماً في عناق للأماني والرجاء السعيد
فهي عطشى لا ترتوي من معين حيث تهفو إلى مكان جديد
سنة الله من الخلاق طرا منذ راقت لهم حياة الجدود
تلك والله أرضنا وربانا ودمانا مخضبات الصعيد
في حرقة واشتياق يالعدنان والفحول الصيد
أين هم والسعير يكوى قوياً أين هم والعراة في كل بيد
أين هم والجناة عاثوا فساداً أين هم واليهود سكرى وعيد
أين هم والحقوق رنين عذر والضحايا من مبعد وشهيد
نبهوا الغافلين يا آل معد وانقذونا من الجحيم المبيد
وأعيدوا لطاهر الرحمن مجداً دنست قدسه علوج اليهود

واستروا أكرامه أهدرتها   عصبة الشر في النهار الشديد
حين صالت في جولة حسبتها   آخر العهد بالطباء البنود
وهلموا إلى الجهاد زحوفاً   لاتهاب الردى وقصف الرعود
وخذوا الثأر عنوة وجهاداً   لا يغرنكم سلام القيود
إنه الطعم لو نظرنا ملياً   نظر الملهم الذكي الرشيد
فلأنتم والمسلمون جميعاً   لو صدقتم غنى الزمان قصيدي

ترجمة عبد السلام حافظ

ولد عبد السلام ابن هاشم حافظ بالمدينة سنة ١٣٤٧هـ وتوفي والده وهو لم يتجاوز عامه الأول فنشأ لدى عمه السيد عبد القادر وتأثر بحياة عمه المذكور وأدخل الكتاب سنة ١٣٥٧هـ فتلقى فيه مبادىء القراءة والكتابة وحفظ قرابة نصف القرآن ثم انتقل للمدرسة التحضرية فالمدرسة الابتدائية الناصرية فحصل على شهادتها بتفوق ثم فوجىء بمرض القلب فتوقف عن الدراسة، فاتجه لإرضاء هوايته ـ للقراءة مشتغلاً بالأدب وأصبحت هذه الهواية مستولية عليه بأيمان وإخلاص شديدين ثم التحق بالعمل الحكومي كمحقق بشرطة المدينة سنة ١٣٧٤هـ وذلك بعد عامين أمضاهما أميناً لمكتبة مشروع التوسعة للحرم الشريف، وفي سنة ١٣٧٩هـ طالب بالتقاعد من عمله هذا بقصدين متلازمين أحدهما المحاولة للتفرغ لرسالته الأدبية والثانية للراحة التي تنشدها حالة قلبه المريض الذي أجريت له جراحة لتوسيع صمام القلب. وظهر له أول إنتاج مطبوع سنة ١٣٧٦هـ بديوان (مذبح الأشواق) ومن بعده توالت التآليف في مختلف الفنون الأدبية التي يعنى بها وفاز بحثه عن (الإمام ابن تيمية) سنة ١٣٨٥هـ بالجائزة الثانية كما فاز بحثه في التآليف عن السيرة النبوية بالجائزة الخامسة سنة ١٣٩٨هـ باسم (نبي الهدى والرحمة) ومُنِحَ المداليات الفنية قبل بضعة أعوام وبلغت مؤلفاته أكثر من

أربعين مؤلفاً ما بين مطبوع ومخطوط وما هو تحت الطبع وفي مقدمتها (المعلمة العربية للمذاهب العالمية) ومنذ سنة ١٣٩٥هـ يعمل مراقباً للمطبوعات بفرع وزارة الإعلام بالمدينة المنورة.

من قصيدة له بعنوان خلوة مع الفكر:

أحلى لياليّ أن أخلو مع الفكر   مع الكتاب يغذيني مدى عمري
أحيا لفنّي شعوراً لا يمزقه   هول الحياة ولا يشقيه في سفري
نَشّأتُ نفسي على حب الكتاب وهل   أبقى وأجملُ من تصحابه الأَثِر
لكن قلبي وقد أصغى لطفلته   محرابها الحسن بين الطهر والزهر
ألقى بروضتها أوهامه زمناً   غنّى بها راهباً في تنبيهه الخضرِ
ذاك الشباب وحب الفجر روعته   إن كنت أحببتُ كالأطفال في صغري
بالأمس كنت خيالياً (خرافته)   تزهو بلألائها فتانة النظر
كانت كحلم جميل لا يضيعه   كر الزمان ويبقى ناعم الطرر
ذاك الجمال ترانيم يلحّنها   قلبي لدنيا الهوى السامي على وتري
يمضي الحياة وتوقيع المنى سحراً   حتى الخريف وذوب الثلج في الشعر
تلك المشاعر آيات مبهرجة   غذّت خيالي وماجت في رحى عمري
أسلوبها في طريق لاجب عبرتْ   خطاي فيه على الأشواك والمدر

* * *

هذي خيالات فنانٍ يعذبه   حسُّ الجراح وهمس القلب بالقدر
يشتاق والسّلسل السامي ليعبره   كتائهٍ في الفلا يلتاع للمطر
أزكى كآبته أصراره أبداً   أن يبلغ المأمل الهاني على كبر
يزهو بهمته العلياء يحفزه   إيمان بالأدب الباقي على الدهر
رسالة العظماء الصيد حسبهمُو   عاشوا بناة حياة حلوة الصور

عثمان حافظ

ولد السيد عثمان حافظ بالمدينة سنة ١٣٢٨هـ وقد تعرفت بصديقي عثمان بالمدرسة الراقية التي أنشأها أستاذنا الشيخ عبد القادر شلبي سنة ١٣٣٩هـ فكنت أنا وصديق الطرفين أحمد العربي ومحمد صقر في المرحلة الأولى وبعد سنة خرج السيد عثمان ليدرس لدى الشيخ عبد القادر في البيت ومكثت أنا للصف الثالث الراقي ثم سافرت للهند سنة ١٣٤٢هـ وقبل سفري كنت أذهب في عطلة الصيف لأدرس مع السيد عثمان وطاهر الطيب ومحمد زيدان وأحمد عبيد لدى الشيخ عبد القادر بمدرسة الجواهرجي، وتوطدت بيني وبينه الصداقة ولما رجعت من الهند بعد نيل الشهادة كان السيد عثمان موظفاً بهيئة الأمر بالمعروف وكنت ذهبت لمصر سنة ١٣٤٦هـ وأتيت بالمطبعة الصغيرة بشراكة المرحوم السيد أحمد الفيض أبادي وبعد أن طبعت في تلك المطبعة رسالة (أزهار مدرسة العلوم الشرعية) لزم الأمر لتجديد حروفها وبعض أدواتها فساعدني السيد أحمد بجلبها ثم أرتأى السيد أحمد بيع حصته من المطبعة فحسنت لعثمان بشرائها فاشترى الحصة منه، وفتحنا محلاً بباب الرحمة وطفقنا نطبع عليها البطاقات والظروف والجوابات وتذاكر الدعوة بثمن زهيد وفتحنا مع المطبعة مكتبة وجلبنا الصحف والمجلات من مصر لبيعها، وكنا أول من أدخل الثقافة الصحفية والأدبية للمدينة

في أوائل العهد السعودي وكنت أعمل مدرساً بمدرسة العلوم الشرعية، ثم انتقلت معلم أول بالمدرسة الابتدائي التي كان يديرها المرحوم محمود الحمصي وفي تلك الأثناء بدت الأزمة الاقتصادية، وأصبح يصرف لنا نصف الراتب والنصف سندات على الجمرك، وأصبح هذا النصف لا يقوم بمعيشة أولادي فاضطررت لبيع النصف من المطبعة لعثمان وأستجزت من المعارف للسفر في العطلة وأنبت عني الزميل السيد عثمان في وظيفة التدريس حسب المتبع في ذلك العصر وحججت سنتها سنة ١٣٥٠هـ وبعدها سافرت كمراسل لجريدة صوت الحجاز، وبعد سبعة شهور رجعت خاوي الوفاض فوجدت أخي عثمان قد تأصل مكاني بالمدرسة لغيابي الطويل ثم أنه استقال من المدرسة ورجعت أنا مكاني، بيد أن الرواتب ما زالت تتأخر فطفقت أتطلب وظيفة أهلية فتعينت محاسباً لدار النسيج التي أنشأها أعيان حيدر آباد بواسطة معتمدهم المرحوم خواجه معين الدين، وبقيت فيه سنوات عدة وكنت متصلاً بالأخوين السيد عثمان والسيد علي حافظ وكانا قد أنشآ جريدة المدينة فكنت أكتب فيها الفينة بعد الفينة، ولما استقلت الهند ودخلت حيدر آباد في حوزة حكومة الهند تأخرت المساعدات التي كانت ترد لمعمل النسيج وكان المعمل به فرع للدراسات الابتدائية وأصبحت أنا مديراً بعد عشر سنوات، ثم لما وقفت المساعدات استقلت منه وفي مدة إدارة المعمل توظفت محامياً لمالية المدينة بأن أقوم بالحضور في المحكمة عن المالية ـ في القضايا التي تطلب المحكمة بعث محاميها وكنت دائم السفر في أشهر الصيف فسافرت سنة ١٩٥٢م إلى سورية ولبنان ومنها للقاهرة وكان ابني الأكبر عبد العزيز يدرس ضمن البعثة العسكرية السعودية والتقيت هناك بالصديق المرحوم السيد ولي الدين

أسعد وبعد انقضاء الصيف وأردت العودة حبب إليّ إبقاء أخيه عبد العزيز للدراسة بمصر وأيده عبد العزيز على أن يسكن معهم في شقة فاستأجرنا شقة وتركتهم ورجعت مع أم الأولاد وابني عبد السلام الصغير ـ وبعد إكمال مدة خدمتي في المحاماة أحلت للتقاعد فرجعت للقاهرة على أن أقيم مع الأولاد مكتفياً براتب التقاعد وراتب عبد العزيز من البعثة حتى قام عبد الناصر بنصرة الاشتراكية فانقطعت رواتب الموظفين السعوديين فاضطررت للرجوع تاركاً الأولاد حيث كانوا أتموا الدراسة المتوسطة والتوجيهي ودخلوا للجامعة فوجدت بالمالية وظيفة محامي وزارة المالية شاغرة فتعاقدت بها براتب طيب حتى تحسنت العلاقة بين المملكة ومصر رجعت مع أم الأولاد وابني عبد السلام ومكثت بمصر حتى أتم الأولاد من الجامعة فرجعنا للمملكة وانقطعت عن صديقي عثمان كما ابتليت بداء الاكتئاب فتعالجت بالكهرباء مرات عدة حتى منّ الله علي بالشفاء، وكان الأخوان السيد علي والسيد عثمان ذهبا لجدة واشتريا مطبعة كبيرة لجريدة المدينة وأصبحت تطبع هناك ودار الزمان دورته فسافرت سنة ١٣٩٦هـ لمصر وإذا بي يأتيني السيد عثمان بالشقة التي كنت ساكناً بها حيث علم بوجودي بمصر، هذا وقد زاملت أخي عثمان ما يقرب من نصف قرن وبعد رجوعي للمدينة اتصلت معه بالكتابة لجدة كما اتصلت مع أخيه السيد علي حافظ ولقد كتبت ما كتبت بعض ما عرفته عن الأخوين وقد رأيت في كتاب يوبيل المدرسة الناصرية التي طبع من مركز المعلومات الإحصائية بوزارة المعارف ترجمة السيد عثمان بطلب ترجمته كما حررها للمركز المذكور فيقول:

ولدت بالمدينة سنة ١٣٢٨هـ وحفظت القرآن في كتاب الطرود والعريف محمد بن سالم ودرست المنهج التحفيزي والابتدائي في

مدارس المدينة على المنهج القديم الذي هو في مستوى الثانوي في أكثر مواده وانتقلت إلى المسجد النبوي لاستكمال دراسة ونلت شهادة التدريس من أستاذي الشيخ عبد القادر الشلبي ومن أساتذتي بالمسجد النبوي الشيخ أحمد باطن وإبراهيم بري والسيد أحمد الفيض آبادي والشريف محمد العربي والشيخ محمد زاهد والسيد أحمد صقر والشيخ ماجد بري.

الأعمال: عين كاتباً أولاً في مديرية المعارف بالمدينة سنة ١٣٤٥هـ ثم عين عضوًّا بهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمدينة. اشترك مع زميله الشيخ عبد الحق النقشبندي في مطبعة طيبة الفيحاء ثم اشترى حصته فأصبحت خاصة به.

عين مدرساً بالمدرسة الابتدائية سنة ١٣٥٠هـ اشترك مع أخيه السيد علي حافظ في تأسيس مطبعة المدينة وإصدار جريدة المدينة وتولي إدارتها ورئيس تحريرها من عام ١٣٥٠هـ إلى ١٣٧١هـ ثم أسندت رئاسة التحرير لأخيه السيد علي حافظ وتولى الإدارة العامة للجريدة. أسس مع أخيه السيد علي حافظ مدرسة الصحراء بالمسيجيد على بعد ثمانين كيلوات من المدينة وهي أول مدرسة تؤسس في البادية لتعليم أبنائها وذلك في سنة ١٣٦٥هـ وفي سنة ١٣٨١هـ وبعد أن أدت المدرسة رسالتها العلمية سُلمت المدرسة لوزارة المعارف. عيّن معتمداً للمعارف بالمدينة سنة ١٣٦٢هـ. انتقل إلى ملاك وزارة المالية.

عين مديراً لإدارة الحج بالمدينة سنة ١٣٦٥هـ، وعيّن وكيلاً لجمعية الإسعاف منذ تأسيسها سنة ١٣٣٨هـ اختير عضواً بمؤسسة المدينة للصحافة ثم أنتخب نائباً لمدير عام المؤسسة. أنتخب رئيساً لتحرير جريدة المدينة من قبل الجمعية العمومية للمؤسسة.

أسس مع أخيه السيد علي حافظ شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة. أنتخب عضواً في بلدية المدينة كما اختير عضواً في الهيئات واللجان الثقافية والإدارية. هذا كتبه السيد عثمان عن نفسه وما ذكره عن أساتذته الذين تلقى عنهم العلوم، فقد كنت زميله معه ما عدى الشيخ أحمد بساطي وإبراهيم بري، وهكذا فقد زاملته وعايشته نصف قرن أو يزيد وبعد رجوعي من مصر إلى المدينة سألته عن أولاده وما يعملون فكتب لي بأن له خمسة أبناء ذكور: المأمون ويعمل في شركة للطباعة، ويعرب ويحمل شهادة جامعية من أمريكا، ويعمل مساعداً لمدير مكتب الخطوط السعودية بروما وتخرج من الهندسة، ومحمود يحمل شهادة ماجستير في هندسة البترول ويشتغل في أعمال حرة وله مكتب للاستشارات الهندسية وعبد القادر تخرج من كلية الهندسة بالقاهرة ويعمل بجدة في أعمال حرة، وجمال يدرس الهندسة بجامعة الملك عبد العزيز بجدة وأربع بنات متزوجات أحياء أمد الله في حياته وحفظ الله أولاده وأقر عينه وأرجعه الله هو وأخاه السيد علي للمدينة لقاعدتهم سالمين فقد طال اغترابهم بجدة.

السيد علي حافظ أحد مؤسسي جريدة المدينة

ولد السيد علي بالمدينة المنورة سنة ١٣٢٧هـ وتلقى مبادىء القراءة في الكتاب ولما شبت الحرب العظمى سنة ١٣٣٣هـ سافر مع والديه وأخواته لدمشق، وكان فخري باشا يجلي أهل المدينة لدمشق وغيرها تأميناً لمعيشتهم خوفاً من ثورة الشريف الحسين بن علي وبالفعل أعلن الشريف ثورته سنة ١٣٣٤هـ وكنت بدوري سافرت لدمشق لأن والدي لم يشأ أن يسافر عن المدينة، ولما رجعت للمدينة أدخلني الوالد للمدرسة الفيصلية إحدى المدارس الأربعة التي أنشأها الشريف تيمناً بأسماء أولاده الأمراء، ولما استولى الشريف على المدينة رجع السيد علي مع والديه وأخوته السيد عثمان وأبي السعود ودخلوا للمدرسة العبدلية، وبعد نيل السيد علي والسيد عثمان الشهادة التحضيرية ـ توظف السيد علي ملازماً بالمحكمة الشرعية وأخذ يدرس بالحرم الشريف على بعض مدرسيه على الشيخ إبراهيم بري والشيخ الخطيب والشيخ عبد القادر شلبي والشريف العربي، ثم في سنة ١٣٤٩هـ تعين رئيساً لكتّاب المحكمة وعمل فيها بأمانة وإخلاص ثم استقال منها وعرض عليه أن يكون قاضياً فأبى ثم تعين مديراً لفرع الزراعة ثم استقال منهما. وفي سنة ١٣٧٤هـ انصرف لأعماله الخاصة مع أخيه

السيد عثمان وانصرفا في تحرير جريدة المدينة وفي سنة ١٣٨٠هـ تعين رئيساً لبلدية المدينة فكان كذلك مثالاً للنزاهة والإخلاص في أعمال البلدية، وهو الذي اقترح فتح شارع العينية وإليه يعود الفضل فيه وهو الذي ساعدني في نيل شهادة المحاماة، وقد كنت متصلاً به وبأخيه السيد عثمان وكنت أزورهما في المطبعة أيام كانا يعملان فيها وكتبت مقالات بجريدة المدينة الفينة بعد الفينة، ثم سافر المذكوران لجدة لطبع ونشر الجريدة فيها حيث الطبع أرخص، وانقطعت عنهما وكنت أحلت للتقاعد ولزمت البيت بدوري فأصبت بالاكتئاب مدة طويلة وعولجت بمس الكهرباء وبعد شفائي ذهبت لمصر للعلاج من وجع المفاصل فعلمت من الشيخ عبد القدوس أن السيد علي جاء لمصر ومنها سافر لأوروبا لقضاء الصيف وبعدها جاءني السيد عثمان وزارني في الشقة فسررت به فأخبرني أنه علم من السيد علي أني جئت لمصر فقلت له وكيف علمت بالشقة قال أخبرني عنها صديق الطرفين السيد أحمد فقلت له إني عزمت على ترجمة كل من عايشتهم من أصدقائي ومن تتلمذت عليهم من المشائخ وفي مقدمة من عايشتهم من الأصدقاء أنت والسيد علي فقال أكتب ما شئت عن ترجمة حياتي فأنت أعلم بها مني، وكنت طلبت من السيد علي أن يقوم بطبع هذه التراجم في مطبعتهم بمؤسسة المدينة وطلبت منه ذكر أولاده السادة فقال هم شرف وهشام ومحمد وعبد الفتاح وإبراهيم وسعود ـ ونادية ومشكاة وهشام مدير عام عرب نيوز ومحمد رئيس تحريرها وعبد الفتاح رئيس قسم في شركة بترومين بجدة وإبراهيم وسعود يدرسان في الولايات المتحدة والبنات كلهن متزوجات ـ ثم عقب بأنه بعد رئاسة البلدية سنة ١٣٨٥ استقال وتفرغ لأعماله الخاصة واختير عضواً عن الوفود التي مثلت الحجاز لدى الملك

عبد العزيز وعمل في الهيئات واللجان الإدارية والثقافية وزار باكستان والعراق والهند وقام برحلات لمعظم البلاد العربية والأوروبية وساهم في كثير من المسائل الاجتماعية من منبر الصحافة وله مؤلفات (فصول في تاريخ المدينة) وتاريخ التوسعة السعودية للمسجد النبوي وكتاب تمور ونخيل المدينة وديوان شعر تحت الطبع، حيّا الله السيد علي العالم الشاعر اجتمعت فيه الكمالات ومؤرخ أنجب فأعجب حفظه الله وأقر عينه بأولاده وبلغه مناه كما يحب ويرضاه.

الشيخ عبد الحق رفاقت علي العثماني(*)

هو عبد الحق ابن الحكيم رفاقت علي بن نجابت علي طبيب مستشفى العسكري إبان حكومة الأتراك قبل قرن تقريباً جاء الحكيم مهاجراً من الهند للمدينة وتزوج بها وأنجب ولده البكر عبد الحق سنة ١٣٠٠هـ وأخوات ونشأ عبد الحق في كنف والده وتعلم عليه مبادىء القراءة وحفظ القرآن الكريم ولما يبلغ الحلم. وفي تلك الآونة توفي والده ولم يترك لأولاده إلا النذر من المال وبيت سكن صغير فاضطر المذكور للعمل فدخل المحكمة الشرعية كملازم على أمل أن يوظف في أول وظيفة تنحل وبالفعل انحلت الوظيفة وجرت مسابقة بينه وبين ملازم آخر وأجاب عبد الحق على الأسئلة كلها ولكن كانت النتيجة إسناد الوظيفة لمنافسه. كان المذكور يتلقى دروساً بالحرم الشريف على يد العلامة السيد حسين أحمد أول النهار وبعد العصر، وكان قد تزوج فلما يئس من المحكمة اضطر للبحث عن عمل آخر يعيل بها أهله وأخواته، أُشير عليه أن يسافر لمكة المكرمة ويتوظف بالمدرسة الصولتيه الأهلية، وبالفعل سافر لمكة وتوظف بها كمعلم براتب ضئيل يبعث نصفه لأهله

(*) المنهل ـ الجزء الرابع ـ السنة الثانية والأربعون ـ ربيع الثاني ١٣٩٦هـ الموافق إبريل ١٩٧٦م.

والنصف يتعيش به وكان ذلك أواخر سنة ١٣٤١هـ وكان الراتب الذي يتقاضاه من المدرسة لا يكفي لمتطلبات معيشته ومعيشة أهله ـ فأشار عليه بعض أصدقائه السفر للهند كما كان يسافر الكثيرون لطلب الرزق ولكن أنّى له أن يسافر والشريف الحسين حظر السفر لأهل المدينة لأن أحد المدنيين ندد في خطبته ـ بالحسين باعتباره باغياً على دولة الخلافة لأن الحسين اتفق مع الحلفاء وقام بثورته المعروفة ضد العثمانيين عام ١٣٣٤هـ وانفصل عن حكومة الأتراك. إن ذلك الرجل المديني ـ لم يرجع إلى المدينة خوفاً من الشريف لئلا ينكل به ولما دخل الملك عبد العزيز السعود للحجاز رجع المذكور في مستهل عام ١٣٤٤هـ للمدينة وبقي فيها حتى توفي رحمه الله.

وفي السنة نفسها كان محرر المقال حج فريضته ورغب السفر للهند بترغيب أستاذه ومربيه السيد أحمد الفيض آبادي باني مدرسة العلوم الشرعية فاستنجدت أنا وسميّ عبد الحق بالمنشى إحسان الله الكاتب في دار المعتمد البريطاني بجدة يومئذ فأعطانا جوازين لميتين من الحجاج وقال لنا أن نلبس لباس الحجاج الهنود لئلا يعرفنا مأمور الجوازات بالجمرك وحين مرورنا بقلم الجوازات عرفنا المأمور وكان من أهل المدينة فقال لنا مداعباً ـ ياميان صاحب فبسمنا له مطرقين وركبنا الباخرة وكانت من بواخر الحجاج الراجعين للهند وبعد عشرة أيام من مسيرنا وصلنا لبلدة كراجي فنزلت بها وكنت تعرفت بالباخرة على أحد علماء الهند مولانا عاشق إلهي وكانت وجهته لبلدة سهارنبور وكنت سمعت بالمدرسة العالية بها فذهبت معه فأسلمني لناظرها مولانا وأستاذنا فيما بعد المحدث الشيخ خليل أحمد مؤلف شرح أبي داود، ولما كنت

قد أكملت الدراسة الابتدائية والراقية بالمدينة أسلمني المذكور للجنة من مدرسي المدرسة لاختباري وبعد الاختبار وجوابي على الأسئلة باللغة العربية أشارت اللجنة للناظر بانتظامي في سلك القسم العالي فمكثت ثلاث سنوات ودرست التفسير والحديث والفقه والبلاغة والمنطق حتى أتممت النصاب المقرر في أواخر سنة ١٣٤٤هـ ورجعت للمدينة بعد أن نلت الشهادة العالية من المدرسة المذكورة؛ أما رفيقي الشيخ عبد الحق فذهب إلى بلدة ديونيد بلد آبائه وأجداده وكان أخبرني المذكور بأن أحد أجداده جاء للهند إما غازياً أو تاجراً واستوطن هذه البلدة وأن والده رفاقت علي هاجر من هذه البلدة للمدينة كما قدمنا، ولقي عبد الحق في ديونيد بأستاذه السيد حسين أحمد المدني فأشار عليه بالبقاء لديه وارتأى أن يزوجه بابنة شيخه محمود الحسن شيخ الهند فلم يمانع المذكور فابتنى بها ثم بعثه السيد حسين أحمد إلى بلدة مراد آباد ليدير بها المدرسة العربية فوصل إليها المذكور وكانت متصلة بالمسجد الجامع وأسندت إليه إمامة الجامع أيضاً، وسكن المذكور بأعلا المدرسة فيها وأخذ يدرس ما تعلمه سابقاً بالمدينة على أستاذه السيد حسين أحمد من التفسير والحديث والفقه الحنفي على تلامذة المدرسة المذكورة المتنظمين بها، ومع مشاغل التدريس كان لا يفتأ من نظم القصائد التي تشهد له بطول باعه في الأدب والشعر غير قصائد الغزل التي كان متهماً بها فقط وقد رزقه الله من زوجته هذه أولاداً مدة إقامته طيلة عشر سنوات وكان سابقاً لم يرزق بأولاد من زوجته المدنية وقد جاء المدينة زائراً بعد وفاة زوجته، وبقيت له أخت واحدة أسكنها بمنزله المذكور وكان يبعث لها راتباً من الهند ثم رجع للهند بإشارة أستاذه ومكث بعدها سنتين أو ثلاث توفي بعدها تاركاً أولاده هناك، وجاء من الهند

أستاذه السيد حسين أحمد للمدينة زائراً وكان أخواه السيد أحمد والسيد محمود أحمد طلبا منه أن يتصدر للتدريس بمدرسة العلوم الشرعية لكنه أبى ذلك وقال إنه يريد تكميل رسالة شيخه محمود الحسن شيخ الهند وأنه عضو في المؤتمر الهندي الذي يطالب باستقلال الهند وهو ليس من أنصار تقسيم الهند إلى هندستان وباكستان لأن خمس سكان الهند يقطنون في الهند وبالتقسيم سيضطر بعضهم للجلاء إذا تسيطر الهندوس على الهند، ورجع المذكور إلى ديونيد ـ ولما تحررت الهند وانقسمت إلى باكستان وهندوستان بقي هو وزملاؤه أعضاء المؤتمر يتقلدون الوزارة وفي مقدمتهم الشيخ أبو الكلام آزاد الذي أول ما تقلد وزارة المعارف وأدخل تعديلات هامة في التعليم وكان زميله في المؤتمر جواهر لال نهرو يعترف بفضله وعلمه وكان أنشأ المذكور جريدة (الجامعة الإسلامية) يكتب افتتاحيتها بنفسه ومن أقلام كبار الأدباء/ قال من قصيدة يشتاق للمدينة ويمدح الرسول الأعظم ﷺ:

أتخفي هوى سعدى ودمعك هطال ... وللشوق ما بين الجوانح إشعالُ
وتنسل عن ذكر الغواني كمن غدا ... له دون تذكار الصبابة إشغال
رويدك هل هاجتك ورقاء رامة ... لها في دجى الأسحار نوح وإعوال
أم الدار من سلمى وقد دلجوا بها ... أثارت لك الأشواق والبين قتّال
غداة لمحت المالكية فاختفت ... كما البدر غطته من السحب أذيال
وقد سلمت بالكف تومي فأبرزت ... لها معصماً لولا الأساور ينهال
فحاولتها كشف اللثام فأطرقت ... حياءً وقالت دون ذلك أهوالُ
وقالت يمين الله لست بنائلي ... وإن لم تزل خدريَ بذا اليوم تغتال
فقلت لها وعد وإن لم تف به ... أعلل نفسي والمواعيد آمال

فقالت نعم فاسلم ورح واسترح ... ولا تطل موقفاً عندي ففي الحيّ أغوالُ
وجاءت تهادى صبح ليلٍ كأنها ... غزال يناجي سربه فهو ميهال
وحيّت فما أدري أمن سحر لفظها ... سلبت النهى أم كان في التعثر جريال
فأيقنت أن الشمس تشرق في الدجى ... وأن الثريا صاغها قبله الآل
وباتت تعاطيني الحديث ولم أزل ... يعانقني منها هضيم وعسَّال
إلي دنا الأسفار والليل قد بدا ... له من خيوط الفجر ينسج سربال
تنحت وقالت والدموع سواكب ... وبعد تلاق والعشية ترحال
فودعتها استودع الله عهدها ... وأفرطت في سكب العقيق ولم آلُ
وسارت وقد شدوا المحامل فارتقت ... إلى هودج دون الهوادج يختال
فناديتها يا ربة الهودج التي ... نأت وهي حقاً في المخيم محلالُ
لئن غاب عن عينيّ شخصك لم يزل ... بمرآة فكري من خيالك تمثالُ
فديتك هل لي بعد ذا اليوم نظرة ... فقالت بذات الجيش إن تسعد الحال
فأيقنت أن المالكية تفتدي ... بوادي الشظى والجيش بالسفح ينهال
خليليّ إما أن وردنا على الشظى ... فلي دون جب المالكية إشغالُ
وإن صح في وادي العقيق مقيلها ... فيا حبذا سفح به نحن قيّال
وحيَّ الحيا وادي القناة وأهله ... وإن لم تكن إلا رسوم وأطلالُ
فتلك ربوع طالما كنت أجتني ... ثمار الأماني في حماها وأختال
ربوع سمت فضلاً بساكن طيبة ... نبيٌّ له من عالم السر إجلال
أتانا وديجور الضلالة حالك ... وللجهل رايات وللدين إهمالُ
فأبصر كل منهج الرشد واهتدى ... به وانجلى من ظلمة الجهل قِسطال
وقد خصه المولى بأعلا مكانةٍ ... من القرب إذ من دونها الوهم والحالُ

وقال مضمناً البيت المشهور:

كنت من كربتي أفر إليهم وهمو كربتي فأين الفرار

ولهذه القصيدة قصة فإن الأمير علي ابن الحسين كان أميراً للمدينة قلق ذات ليلة لأسباب لم تعلم وأخذ يردد هذا البيت وفي الصباح طلب من شاعره الشيخ عمر كردي أن يضمن له هذا البيت في قصيدة ولم يكن الكردي مستعداً لنظم قصيدة في يومها فاستنجد بشاعرنا عبد الحق فنظم هذه القصيدة وقدمها الكردي للأمير فأجازه عليها ومنح الكردي الجائزة وكانت دنانير ذهبية للشيخ عبد الحق وكانت القصيدة طبق هوى الأمير وهي:

ما لعينيكَ دمعها مدرار وبخديك لوعة وانزجارُ
هل يد البين جرعتك كؤساً من سليمى أم هل جفتك نوارُ
أم أثارت لك البلابل ورق في الحمى قد أهاجها الأدكارُ
روح النفس لا يروعك بين إنما البين ساعة وتدارُ
ودّع الهم فالنوائب يوماً تتجلى وللدجى أسفارُ
ليس صدع الفراق يورث هماً إذ بعيد الديار سوف يزارُ
إنما تصدع الفؤادُ خطوب ليس ترقى كلومهن جُبار
إنما الرزء أن يكلف حر خطة لا تطيقها الأحرار
إنما الرزء أن يسام كريم ذلة ويضام منه نجارُ
أنا من جرعته أيدي الرزايا أكؤساً ذوب مزجهن مرارُ
كان لي معشراً ألفت أخاهم لي عهود عليهمو وذمار
كنت أعددتهم لكل مهم راعني حيث عزت الأنصارُ

كنت أشكو لهم تحامل دهري فهمو اليوم سيفه البِّتارُ
كنت أعددتهم دروع حروبي وهمو اليوم للحروب أثاروا
كنت في الخطب ألتجي بحماهم فغدوا نكبتي فأين أجارُ
(كنت من كربتي أفّر إليهم وهمو كربتي فأين الفرارُ)
كنت في لوعتي أفرّ إليهم وهمو لوعتي فأين القرار
نبذوا عهد خلتي ظهريا وساؤا بي الظنون وعاروا
وطووا للصدود كشحاً وما لي عنهم اليوم في السلو اصطبارُ
لست أنسى الأخا وإن خفروا لي إذا الغدر بالكريم يعارُ
فالوفا بالجفا يقابل منهم ذلك الضيم إن علمت صغار
قسمة تلك في الحقيقة ضيزى وهي في الدهر للفتى عثيار
ليس في الدهر راحة ترتجيها إنما الدهر أهله غدارُ
فاحذر الدهر لا يغرك عيش صفو ذا العيش كله أكدارُ

وقال من قصيدة يشكو فيها الزمان والحال وهي:

إلى كم وأيدي الحادثات بنا تزري وحتام أسياف القضاء لنا تفري
تحكمت الأقدار فينا فأصبحت حياض المنايا منهل العبد والحر
وليس بأيدينا مغالبة القضا ولكن قضاء الله في خلقه يجري
فلله دهركم له من رزيةٍ بأهليه لا ينسى أذاها مدى الدهر

وقال من قصيدة يستنجد بها علماء المسلمين بما حل بالأمة الإسلامية:

بكم أيها الأعلام يستفتح البر بكم يزدهي النادي بكم يكمل البشرُ

بكم تكتسي شمس المعارف بهجةً وأنتم لأفلاك العلا الأنجم الزهرُ
بكم شيد ركن الدين بعد تضعضعٍ ولاح منار الهدى واستشرق النصرُ
تنفس صبح الشرع عن سنن الهدى وأدبر ليل الجهل إذ طلع الفجرُ
أزحتم شكوك الملحدين عن الهدى فلم يبق في العقبى لذي مرية عذرُ
وأيقظتم الأقوام من نوم غفلة وكانوا أميتوا ميتة ما لها نشرُ
نهضتم لدين الله آية نهضةٍ لها ذلّتِ الأعداء عمهمو الذعرُ
فأنتم بناة الدين صرتم على هدى حبتكم الآيات والسنن الغرُ
فما خفتموا في الله لومة لائم ولا راعكم حيف ولا صدكم زجرُ
فلا زلتمو تحمون دين محمد بأحياء أثار هي السنن الغرّ

وقال من قصيدة يمدح بها المرحوم أحمد أبو الكلام حينما تولى وزارة المعارف:

لمعاليك في الورى غوغاء وأياديك كلها بيضاءُ
لك في ركن الثقافة حظّ قصرت عنه قبلك النبلاءُ
لك في حلبة السياسة شأو لم تنله من قبلك الوزراء
لك في موقف الخطابة نطق لا تدانى في غباره البلغاء
قد كساك الإله حلة مجد وافتخار دانت لها العظماء
أنت أعلى من المديح فماذا تجتنيه لمدحك الشعراء
أنا لا أستطيع النظم عقداً من جمان كستها الجوزاء
بيد أني أجني زهور رياض عبقت من أريجها الأرجاء
باقة من رياض خلق كريم غرستها له يد بيضاءُ
وإذا أبو الكلام اجتباها فهي في جبهة الزمان ضياءُ

وها نحن نثبت لك بعضاً من تشاطيره وتخاميسه ومشجراته في شبان زمانه:

فمن أحلى تشطيره والأصل لأحمد شوقي:

صوني جمالك عنا إننا بشرٍ لم نسطع رشق ألحاظ بأعيانِ
وكيف يقوى فؤاد صنع من حمأ من التراب وهذا الحسن روحاني
قومي اقصدي فلكاً يأوي له ملك من عالم القدس محفوظاً برضوان
واستشرفي حور دار الخلد قانصة لا تنصبي شركاً للعالم الفاني

ومن تخميسه والأصل لا أعلم لمن؟

قطعت من المحصب كل واد فلم أعبأ بغيد بني جيادِ
ومذ ألوى بي الدهر المعادي نظرتك نظرة تركت فؤادي

صريعاً قد أصيب بفتنتين

قد استعذبت فيك زمان أنسي واخطأ غاية العشاق حدسي
فسقت هواك كأساً بعدَ كأسٍ ولما همت فيك وجدت نفسي

معلقة بصدّ أو ببين

ركبت جَواد بني أيادِ وصفتُ حشاشة من صخر عادِ
فأية هفوة أكبت جوادي وأي بليّة دهمت فؤادي

يعشق زينته إلي عيني

أقول له وفي قلبي وجيب ألا وصل لديك فلا يجيب
بليت وفي الهوى أمري عجيب ومما زاد بلواي رقيب

تداخل بين من أهوى وبيني

وله مخمس والأصل لأحمد شوقي وهذا التخميس غاية في الجودة:

بمرآك تزهو لي حدائق إيناسي   وريقك يُغني عن مناولة الطاس
عن الصَّهباء والورد والآس   تبسم وشعشع لي المدامة في الكاس

فثغرك في ليل الحوادث نبراسي

مدير الحميَّا أكؤس الراح عفتها   وحسبي سكابٍ من دموع ذرفتها
فعاطي الندامى أكؤساً قد صرفتها   ولا تلمس الكاس التي قد رشفتها

أخاف على كفيك من حر أنفاسي

كتمت الهوى دهراً فلا العين تدمع   ولا القلب من فرط الهوى يتوجعُ
ففي مَ وإني لم أكن قط أجزعُ   يقول لي الآسي فؤادك موجع

فمن أنبأ الآسي بفعلك يا قاسي

عصارة تفاح مخدود حفظتها   كؤوساً وقالوا: بنتُ كرم عصرتها
أم أصغي إلى اللاّحي وأكسر دنّها   وينصحني الإخوان به بالخمر أنّها

على أنها تُشفي من الألم الراسي

فلو كان ما في الكاس منضوج كرمةٍ   لما رمتها واللهِ يوماً برشفة
ومذ صح عندي أنها عصر وجنةٍ   فها أنا استشفي بها كل ليلةٍ

ألم تراني أتبع الكاس بالكاس

فأصل سقامي منه حمرة وجنةٍ   يصفحها في القلب مني بجمرةٍ
على أنني أشفي بها فرط لوعةٍ   وأعجب من نفسي ودائي ومهجتي

أعالجه بالخمر ترقى إلى رأسي

وله مشطراً:

في صدرها كوكبا در كأنهما حقان من ورق بالمسك مُختتم
والخال ينبيك أن الوجنتين هما ركنان لم يدنسا من لمس مستلم
صانتهما بشعور من غدائرها عن كف ملتمس أو ثغر ملتثم
حتى استحلا دم العشاق واعتصما فالناس في الحل والركنان في الحرم

وله مشطراً:

لما سألت حبيبتي معنى الهوى قالت جوى في أضلع المشتاق
فسألتها عما يبل أواره ألوت عليّ بضمة وعناق
وتنهدت وجوابها قد كان لي بتحرق فاضت له آماقي
وعلمت سر غرامها بمقالها هذا الهوى في مذهب العشاق

ومن مشجراته في شباب زمانه وقد توفي أكثرهم إلاّ القليل.

حما دين الغرام بناظريه وأتلفني بصارم مقلتيهِ
مليك شن بالألحاظ حرباً قِران قد سطا من حاجبيهِ
أباد جيوش صبري حين ولَّى يؤرقني بليل ذؤابتيهِ
دعوه يسلَّ في العشاق سيفاً لننظر من غداً يقضي عليهِ
يواري تحت ليل الشعر قتلي فتفشيه شقائق عارضيهِ
حوى جل المحاسن فاستعارت رياض الورد حمرة وجنتيه
وحوَلي في الجمال بكل معنى لأن الحسن مبذول لديه
كوى قلبي فأسبلتا عيوني لتطفي ناره حذراً عليه

يــحــدثــنــي فــأغــضــبــه لأنــي   إذا مــا اغــتــاظ ألــثــم راحــتــيــه

* * *

وهنا نكتفي بما أوردنا من قصائد وتشاطير وتخاميس وأحد المشجرات، رحم الله الشاعر ورحمنا إذا عدنا إليه...

السيد محمود أحمد
كاتب عدل المدينة المنورة

ولد السيد محمود بالهند ببلدة (تانده) من مضافاة بلدة فيض آباد، ووالده السيد حبيب الله هاجر للمدينة مع أولاده في أواخر الثلاثمائة وألف ومعه خمسة من أولاده صديق أحمد وسيد أحمد وحسين أحمد وجميل أحمد ومحمود أحمد، وأدخله والده للمدرسة الإعدادية وابتعث جميل أحمد في بعثة علمية لاستانبول ثم رجع مريضاً وتوفي وبعد تخرج السيد محمود من المدرسة الإعدادية توظف ملازماً كاتباً بالمحكمة الشرعية وكان غرض السيد حبيب الله أن يبني مدرسة بجوار بيت السكن حيث لما رجع من الهند ابتاع قطعة أرض خارج باب المجيدي واتخذها نصفاً للسكن والنصف كهيئة مدارس الأربطة ولكنه منع من اتخاذها كمدرسة فأمر ولديه الكبيرين السيد صديق أحمد والسيد حسين أحمد بإلقاء الدروس في الحرم الشريف فطفق الاثنان يدرسان فيه مختلف العلوم من الفقه والتفسير والحديث ثم توفي السيد صديق وبقي حسين أحمد، أما السيد أحمد فكان يعمل مع والده ويساعده في المعيشة وبعد أن عمل السيد محمود عدة سنين بالمحكمة تعين موظفاً رسمياً براتب فزوجه والده مع إحدى كريمات التونسيات. وفي سنة

١٣١٣هـ شبت الحرب العالمية الأولى وتحالف الترك مع الألمان وكان الترك يتوجسون أن يخلع الشريف الحسين وينضم لدول الحلفاء وأوجس الترك ذلك فبعثوا أحد قوادها المشهور (فخري باشا) حاكماً عسكرياً وأمدوه بجيش وأسلحة خفيفة وثقيلة وصح توجس الترك فقد قام الشريف الحسين بثورته سنة ١٣٣٥هـ وخاف الترك من قطع مواصلة سكة حديد الحجاز فأوعزوا لفخري باشا بإجلاء سكان المدينة للشام والأناضول لتأمين معيشتهم هناك وقبض على بعض أعيان أهالي المدينة لاشتباهه بميلهم للشريف ومساعدتهم له فسيق لدمشق كأسرى ومنهم السيد حبيب الله وولداه السيد أحمد والسيد محمد ومن دمشق أخذ السيد حبيب الله وولديه لأدرنه وبعد سنتين توفي بأدرنه السيد حبيب بسبب البرد القارس، هناك وفي آخر سنة ٣٧ انتهت الحرب بانكسار الترك وتعقب الإنجليز لهم، وأما السيد حسين أحمد وشيخه محمود الحسن اللذان جاءا المدينة فأخذا أسيرين لجزيرة (مالطه) لأنهما امتنعا من التوقيع على الاستفتاء المقدم لهما بإلحاد الاتحاديين الذين كان بيدهم زمام الدولة العثمانية. ثم رجع الأخوان السيد أحمد والسيد محمود بعد وفاة والدهما لدمشق ليتوجها مع من كان فيه من أهالي المدينة فجاءا للمدينة وتوظف السيد محمود بالمحكمة رئيس كتابها وشرعَ السيد أحمد في بناء مدرسة العلوم الشرعية لأيتام بلدة خير البرية فصادف معارضة من أولي الأمر وخاصة من شيخنا عبد القادر الشلبي الذي تولى إدارة المعارف ثم أذن للسيد أحمد بالاستمرار في تدريس الطلبة وخاصة اليتامى منهم ووجههم لحفظ القرآن الكريم وكان شكل لجنة للمشاورة في شؤون المدرسة بأربعة أعضاء عن إفريقية المرحوم الشيخ محمد السكني الأنصاري، وعن ما وراء النهر والصين المرحوم

السيد محي الدين البخاري، وعن روسية وبلاد قازاني المرحوم اسماعيل حفظي، وكانت مصارف المدرسة تجبي من الحجاج والزوّار. وكان السيد تقريباً العدل وقد سبق أن تتلمذت أنا وهو لتعلم اللغة الإنجليزية من الدكتور محمد حسين ساعة كل يوم، وبعد شهرين انقضيا كان السيد محمود يحصل على قسم فيها، ومرض السيد محمود العدل وعكف بالدار لتلاوة القرآن ومطالعة الكتب في الفقه والحديث وكتابة أجوبة الرسائل، ودرس السيد حبيب بمدرسة العلوم الشرعية التي أنشأها السيد أحمد وكان قد توفي المذكور فأنيطت إليّ إدارة المدرسة المذكورة وكان السيد محمود وكلني عنه أحد عماله وغيرهم من أصدقائه حيث كنت، والحمد لله الذي جنبني القضاء وكان السيد محمود موضع ثقة للكثير من الناس بخاصة الهنود الذين كانوا مجاورين في المدينة، وأنجب السيد محمود ولده الوحيد حبيب وثلاث بنات كما زوّج ابنه حبيب أولاً من ابنة عمه السيد أحمد، وبعد مدة توفيت فزوجه من أحد كرائم وأشراف البنات، وما زال السيد محمود أحمد معتكفاً بداره حتى وافته المنية ودفن بالبقيع، وكنت غائباً للعلاج فرثيته بقصيدة مبكية نشرت بالمنهل وللسيد محمود علي فضل كبير فهو الذي توسط بزواجي وهو الذي توسط بشراء قطعة أرض وبنى داراً للسكن وهو الذي مهد لي لأكون محامياً وهو الذي زوج ابني محمد من بنت ابنه الحبيب رحمه الله رحمة واسعة.

لمحة عن تاريخ ضياء الدين رجب(*)

ولد ضياء الدين رجب بالمدينة المنورة ووالده الشيخ حمزه رجب شيخ الشرشورة سابقاً (دار تجهيز الموتى اليوم) ولما بلغ السابعة أدخل الكتّاب لقراءة القرآن وحفظه حتى سن الشباب فأخذ يدرس على خاله الشيخ عبد الحفيظ كردي رحمه الله في داره بعد مغرب كل يوم، وفي النهار يدرس على الشيخ محمد الطيب التمكتي في الحرم الشريف، وتعرفت به في دار خاله المذكور فقد كنا أنا والخال على كابلي نسمر عنده في بعض الليالي. ثم دخل المدرسة الابتدائية ولدراسته في علوم القواعد والفقه والتوحيد انتظم في الصف الرابع، وأخذ يجهد نفسه في الحساب والتاريخ والجغرافيا وكنت بدوري معلم أول أدرس الأخلاق والمحفوظات والحساب والتاريخ والجغرافيا، وفي الاختبار الخصوصي بمحمود قد لمحت فيه الذكاء فكان ينظم الشعر وعثرت معه يوماً على صحيفة فيها بعض منظومه فنصحته أن لا ينظم في أوقات الدراسة، ونجح بدوره في الاختبار العام ونال الشهادة الابتدائية وأصبحت أتصل به بعدها تارة عندي وتارة عنده ونتجاذب أطراف الأدب في تناشد الأشعار، ثم حسّن لي بتعاطي مهنة المحاماة الشرعية فقلت له ليس

(*) حررت في ١/١/١٣٩٨هـ بالمدينة المنورة.

لدي الكفاءة اللازمة بتعاطيها حسب الشروط التي قررتها الحكومة قال لك الحق بتعاطيها بصفتك من العلماء ولديك الشهادة العالية التي نلتها من المدرسة العالية مظاهر العلوم، فاتصلت بصديقي السيد علي حافظ الذي رأس كتاب المحكمة الشرعية يومئذ فقال لي لا بد من إجراء اختبار لك لنيل الشهادة التي تخولك لتعاطي المحاماة، فاتصلت بالسيد محمود أحمد رحمه الله وذكرت له طلبي فقال لا بأس سأكلم لك قاضي المدينة السيد زكي لإجراء الاختبار، وعليه تعينت لجنة برئاسة القاضي ومعاونه الشيخ عبد الحفيظ كردي ومعاونه الشيخ صالح الزغيبي إمام الحرم وفضيلة الشيخ عبد الرؤوف عبد الباقي رحمهما الله وأمين سر المحكمة السيد علي حافظ، فاصطحبت معي شهاداتي الابتدائية والشهادة العالية.

في اليوم الثاني نظرت الهيئة للشهادات المذكورة ولم تجرِ لي الاختبار واكتفت بما قرأته في الشهادة وخاصة بعد أن علمت بأني مدرس بمدرسة العلوم الشرعية بتدريس التفسير والحديث والعلوم العربية وكتب لي السيد على الشهادة المطلوبة، وفور حصولي عليها أخبرت الأخ ضياء الدين فقال سآتي لك بأول وكالة، وكان أحد البدو من الأحامد يدرس معه لدى الشيخ الطيب وكانت عليه دعوى بالمحكمة ادعى عليه أحد البدو بحق له فتوكلت عنه وذهبت للمحكمة يوم الجلسة المقرر فجاء البدوي وقرأت عليه دعواه فأنكرت نيابة عن موكلي المذكور فطلبت البينة من المدعي فأجاب أنه سيحضرها في الجلسة الثانية وحضر في الجلسة الثانية ولم يأت بشهوده فوجهت اليمين على موكلي حسب القاعدة الشرعية البينة على المدعي واليمين على من أنكر، وطلبت المدعى عليه ليحلف يوم الجلسة الثانية

فجاء معي وحلف اليمين اللازمة وأخلي سبيل المدعى، عليه فسألت الأخ ضياء عن الأجرة، فقال لي إنه سيعطينا جملاً لأنه ليس لديه نقود: قلت وما نصنع بالجمل قال نبيعه قلت أرجوك أن يقوم هو ببيعه، وأعطينا ثمنه فكلمه وباع بدوره جمله واقتسمنا القيمة فكان أول أجرة تناولتها من مهنة المحاماة.

وكان ضياء الدين يأتيه البعض يحكم عليهم بالمحكمة ويطلبون استئناف الحكم ليحرروا اللائحة الاعتراضية فيأتون للشيخ ضياء فيكتب لهم اللائحة فكان يتحامل في اللائحة على القضاة وكان يكتب مسودة النقض ويكلفني بتبيضها، وكان رئيس كتاب رئاسة القضاة الشيخ عبد الله بن الحسن هو بكر حمدي فكان يتأثر من صورة النقض وعلم من بعض أصدقائي بأن تحرير النقض هو بقلمي فبعث إليّ أن امتنع من الكتابة وإلا سوف أعاقب ببعثي لأحد المحاكم الثانية عن المدينة وعمل على إبعاد الشيخ ضياء الدين بتكليفه بقضاء العُلا ـ ولم يكن بد من سفره إليها وعمل قاضياً فيها مدة سنة أو أقل ثم تشكى لجلالة الملك عبد العزيز بأنه مظلوم وأن ظالمه هو رئيس القضاة فطلب المحاكمة وجاء لمكة وكان الملك بمكة فأحال ظلامته لرئيس القضاة ثم سوّيت بينهما وتصالحا وأقيل من القضاة ورجع للمدينة وتعين مديراً لإحدى المدارس الابتدائية ثم استعفي من المدرسة وذهب لمكة وتعين معاوناً لمدير الأوقاف العام ثم استعفي منها وعيّن عضواً بمجلس الشورى ثم ـ استقال منها وسافر مع الشيخ محمد سرور الصبّان لمصر وعمل لديه مستشاراً كما قام عبد الناصر بنصرته الاشتراكية وتوقفت رواتب الموظفين السعوديين وكنت بدوري في مصر، وكنت أتزاور مع الأخ ضياء وتوقف

راتبي التقاعدي؛ فاضطررت للرجوع للمدينة وكان أولادي يدرسون بمصر فرجعت ورجع الشيخ محمد سرور ومعه الأخ ضياء وفتح مكتباً بجدة لتعاطي المحاماة وكمستشار أيضاً للشيخ محمد سرور، وأخيراً اجتمعت به في حفلة الأدباء القدامى التي نظمتها كلية الملك عبد العزيز وألقيت بها محاضرة عن الشاعر أحمد شوقي، فرأيت الأخ ضياء وكان ألقى محاضرة بدوره ثم علمت أنه سافر للمعالجة في الخارج وبعدها سمعت برجوعه لجدة وكان تأثر بعد وفاة ابنه حمزة في حادث اصطدامه في السيارة وبعدها سمعت بوفاته أسكنه الله فسيح جناته وأفاض عليه من رحمته ورضوانه.

الأستاذ محمد عبد العزيز الربيع

ولد عبد العزيز بالمدينة المنورة سنة ١٩٢٩م وتلقى تعليمه الابتدائي بالمدينة المنورة والثانوي بمكة. ابتعث إلى مصر حيث حصل على الليسانس في اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية من جامعة القاهرة وعلى الدبلوم العالي في التربية وعلم النفس من جامعة الإسكندرية، درس في المعهد العالي فن التمثيل العربي. عمل قبل ابتعاثه معلماً وبعد عودته سنة ١٣٧١هـ عمل مفتش المنطقة ـ المدينة والشمال. وفي سنة ١٣٧٣هـ أصبح أول مدير للتعليم بعد أن ضمتْ مدارس المدينة والشمال في منطقة واحدة وبعد أن تحولت مديرية المعارف العامة إلى وزارة، رأس نادي المدينة المنورة الذي أنشأه مع بعض الزملاء من رجال التعليم بعد دمج نادي المدينة ونادي العقيق في نادٍ واحد أطلق عليه نادي الأنصار، أنتخب رئيساً لهذا النادي سنة ١٣٨٥هـ. شارك في تأسيس الأسرة الأدبية المعروفة (أسرة الوادي المبارك) التي استمرت قرابة ربع قرن.

رأس نادي المدينة المنورة الأدبي منذ إنشائه حتى الآن وهو أحد مؤسسيه. رأس لجنة الجمعية التعاونية لموظفي الحكومة.

رأس اللجنة الرياضية التي كانت مسؤولة عن شؤون الرياضة في

المدينة قبل إنشاء الرئاسة العامة لرعاية الشباب.

يرأس المكتب الكشفي الإقليمي بالمدينة المنورة وهو المشرف العام على معسكرات الكشافة لخدمة الحجاج بالمدينة.

عضو اللجنة التمهيدية لبعث سوق عكاظ الأولى.

عضو مؤتمر المعلمين العرب بالإسكندرية ـ مصر.

رأس لجنة المملكة لمؤتمر الدراسات الاجتماعية الخاص (عمان ـ الأردن) شارك في مؤتمر الوزراء العرب للتربية والتخطيط (طرابلس ـ ليبيا) شارك في مؤتمر اليونسكو (باريس) سنة ١٩٧٤هـ. شارك في المؤتمر الثاني عشر للكشافة العرب (تونس) شارك في المؤتمر التحضيري لسوق عكاظ (الرياض).

شارك في المؤتمر الأول للأدباء السعوديين الذي نظمته ـ جامعة الملك عبد العزيز بجدَّة وفاز فيه من الجامعة على الميدالية الذهبية وعلى براءة الريادة في النقد الأدبي باعتباره رائداً من رواد الأدب في المملكة.

عضو لجنة تأسيس كلية التربية بالمدينة المنورة التابعة لجامعة الملك عبد العزيز، أسهم بعدد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية، له نشاط بارز في مجال النقد الأدبي.

مكتبته الخاصة تعد من أكبر المكتبات تحتوي على شتى فنون المعرفة، صدر له كتاب:

١ ـ (ذكريات طفل وديع).

٢ ـ دراسة مطولة عن ديوان قدر ورجل.

٣ ـ دراسة من ديوان همسات قلب.

مؤلفاته المخطوطة:

١ ـ رعاية الشباب في الإسلام.

٢ ـ بناء الفرد من وجهة التربية الإسلامية.

٣ ـ التربية عند العرب قبل الإسلام.

٤ ـ أبو لهب شخصية قلقة في المجتمع القرشي.

٥ ـ دراسة عن شعر أمجد الطرابلسي.

٦ ـ شوقيات وشوكيات.

٧ ـ مناوشات ومناقشات.

٨ ـ مع الجن والملائكة والشياطين.

٩ ـ صور وملامح.

١٠ ـ كتب ومؤلفون.

١١ ـ المدينة المنورة دراسة وصفة تاريخية.

١٢ ـ موسوعة المدينة المنورة المختصرة.

وهذه من قصيدة نظمها بعنوان «إلى شيوخ الشباب»:

قال الرفاق تقدم فالحفل حفل الشباب
حفل التكرم فذٌّ في قومه كالشباب
هو الكريم بحق ذو المنطق الخلاب
وأنت رب قريض حلو الجنَى كالرضاب
فقلت مرحى وأهلاً بسيدي وصحاب
لي في الزمان قريض سيبقى على الأحقاب

أهـــديـــــه وهـــــو شــعــــــور كـــالــشــمــس لــيــس بــغــاب
لـكـل مـن قـد حـبـا شـعـبـي وأمـــتـــــي بـــالـــصـــواب
ومـــن دعـــاهـــا لـــخــيـــر وصـــدهـــا مـــن عـــاب
ومـــن وقـــاهـــا ضـــلالاً ومـــن دعـــا لـــلـــثـــواب
ومـــن إلـــى الـعـلـم يـدعـو بـــهـــمـــةٍ ووثـــابِ
ومـــن تـــصـــدى لـــيـعـلـو بـــأمـــتـــي والـــشـــبـــاب
ومـــن يـضـحـي لـتـبـقـى شـعـبـاً رحـيـب الـجـنـاب
شـيـخ الـشـبـاب تـقـبـل تـــحـــيـــة الإعـــجـــاب
مـن شـاعـر لـيـس يـعـنـى إلاّ بـشـيـخ الـشـبـاب
أنـت الـكـريـم فـمـرحـى بـــوالـــد الإجـــاب
تـفـديـك نـفـسـي فـرحـتـهـا يـــداك غـيـــر مـحـــاب
نـــحـــن الـــذيـــن بـــنـــتـــهـــم يـــداك رغـــم الـــصـــعـــاب
نـــحـــن الـــذيـــن رعـــتـــهـــم عـــيـــنـــاك عـــيـــنـــا الـــعـــقـــاب
نـــحـــن الـــبـــذور تـــبـــدت كـــالـــزهـــر غـــضّ الإهـــاب
وســـوف نـــبـــقـــى قـــريـــبـــاً كـــنـــاطـــحـــات الـــســـحـــاب
طـــوقـــتـــنـــا بـــجـــمـــيـــل فـــي جـــيـــدنـــا والـــرقـــاب
وســـوف نـــذكـــر دومـــاً صـــنـــيـــع نـــدب مـــهـــاب
فـأهـنـأ بـنـا فـي الـمـعـالـي واخـــلـــد عـــلـــى الأحـــقـــاب
أنـــت الـــمـــعـــلـــم حـــقـــاً تـــســـعـــى وراء الـــلـــبـــاب
وقـد سـاء الـجـهـل يـعـلـو فـــي أمـــة الـــمـــحـــراب
وقـــد حـــزنـــت لـــقـــوم عـــاشـــوا كـــعـــيـــن الـــغـــراب
وقـــد غـــضـــبـــت لـــنـــشـــيء يـــعـــيـــش بـــيـــن الـــضـــبـــاب

فقمت تغزو بعلم   له ضياء الشهاب
وعزمه ليس يبقى   أمامها ليث غاب
نحن الشباب نعي   من كان حي الجناب
هذى الوجوه عليها   مظاهر الترحاب
فاهنأ وعد لبلاد   قد قدست في الكتاب
فيها النبي المفدى   وخيرة الأصحاب
فيها الحضارة قامت   في سهلها والرحاب
منها الضياء تبدى   من غيرها والهضاب
وفي الختام تنهل   تحية من شباب
لك التهاني وشكراً   مني ومن أصحابِ
ودمت للعلم ذخراً   يا طاهر الأحساب
في ظل خير مليك   الباسل المُهاب

وهذه من قصيدة له بعنوان: (تحية الجزائر في عيد الاستقلال) ألقاها في حفل الجزائر ونشرت على صفحات جريدة المدينة في العدد ١٠٧٧ الصادر بتاريخ ٨ صفر ١٣٨٢ الموافق ١٠ يوليو ١٩٦٢م.

حُييت يا شعب الجزائر   المجد في الدنيا لثائر
باع الحياة رخيصة   وشرى المعالي والمفاخر
وغدا كنور الحق يصدع   كل كافرةٍ وكافرْ
يمشي بعزمة مؤمن   بالله لا يخشى المخاطرْ
ليحرر الأوطان من   ذل الأراقم والأصاغر
حُييت يا شعب الجزائر   حُييت ياباني المآثر

حققت نصراً في الحياة   بلا شبيهٍ أو مناظر
وبنيت أمجاداً تعزّ على   الأوائل والأواخر
سبع من الأعوام خالدة   كأقمار زواهر
حفلت بكل عظيمة   حفلت على رغم المجازر
حُييت يا شعب الجزائر   حياك خالقنا المناصر
حياك من يسري النفوس   بجنة فيها البشائر
حياك يا من قد رفعت   لواء دينك بالبواتر
وسخرت بالأقزام   أقزام البطولة والمساخر
علمتهم معنى الفداء   وكيف يشمخ من يغامِر
ووقفت كالجبل الأشمُ   يرد عادية الأعاصر
وسموت والإسلام يدفع   أهله نحو المفاخر
لا يرتضي للمسلمين الذل   ويح الحر من قاسٍ وقاهر
العزة الكبرى لدين   الله ينصر من يؤازرْ
يا إخوة الإسلام   تربطنا بكم أقوى الأواصرْ

ونظم هذه القصيدة تحية الملك انتخبنا منها هذه الأبيات:

صوت الوفاء يزف من حسانِ   فاقبل تحيته مع الشكران
واسمع فديتك نفحة علوية   محفوفة بالورد والريحانِ
صيغت من الدر النظيم منضداً   لتحية الملك الرفيع الشانِ
حملت إليك ولاء شعبك عابقاً   بشذى الوداد وفرحة الولهانِ
والشعب حولك وحدة مرموقة   يفديك بالأرواح والأبدانِ
ويراك رمزاً للمفاخر عالياً   هيهات يدركه ذوو التيجان

الشعب شعبك ملء عيونه وشعوره والقلب والآذانِ
ملأت محبتك المشاعر كلها وتغلغلت في النفس والوجدان
أوضحت للشعب السبيل فسارعوا نحو العلا شيباً مع الشبانِ
ساروا جميعاً نحو قادة أمةٍ لهو منهمو كالعينِ للإنسانِ
الشعب نحوك يا مليك مهلل ومكبر يدعو بكل لسانِ
فرحوا بمقدمك العظيم وهللوا لما رأوك مكللاً بأمانِ
فرحوا بمقدمك العظيم وكبروا فالعيد من فرح اللقا عيدان
فليهنأ العيد السعيد تزينه بالمكرمات على مدى الأزمان
ولتهنأ مرفوع اللواء مؤيداً بقوى الاله المالكَ الرحمن
ذخراً لشعبك يفتديك بروحه يا حامي الحرمين والأوطانِ
يا صاحب التاج الرفيع تحية كالزهر فواحاً وكالعقيانِ
المسجد النبوي شدت بناءه بالفنّ والإصلاح والإتقانِ
والمسجد المكيّ صرح خالد باقٍ على الآباد والأزمانِ
والسكة الكبرى حديث ناطق يروي بأفصح لهجةٍ وبيان
عزم المليك العبقري وهمة عزت على كسرى أنوشران
والجامعات حديثها لا ينقضي تروي مآثر عبقري حَانِ
كانت خيالاً صار بعد حقيقة حققتهن وكن قبل أماني
عمرتها بالعلم فهي ركائز ومنائر لهداية الإنسانِ
أنشأت جامعة الرياض دعامة للعلم ثابتة على الأركانِ
وأقمت جامعة المدينة قوة للحق ضد الشك والبهتانِ
أنشأت جامعتين بعزيمةٍ عنها تقصر همة الشجعانِ
وبنيت جامعتين يا لك عاهلاً تبني الحياة ونعم أنت الباني

ورعيت طلاب العلوم فكلهم   سعدوا بعطفك في أعز مكانِ
يا عاهل العرب العظيم تحية   من كل قلب مخلص متفاني
يا حامي الحرمين دمت موفقاً   للعرب والإسلام والقرآنِ
فاسلم إمام المسلمين منعماً   بالعز والإقبال والإحسانِ

(من أجود قصائده قصيدة (تحية الجزائر يوم الاستقلال)).

اليوم يوم الانتصار   يوم المجادة والفخارِ
يوم يهز ركائز الدنيا   بروعة الاقتدارِ
يوم العروبة حييها   واخفض جبين الانكسارِ
لتحية الإسلام صانع   يعرب وبه فخاري
ما لي سواه أب إذا   افتخروا بقيس أو نزار
هو عدتي يوم المعاد   وفي الحياة فلا تمارِ
دين النبي المصطفى   هو من خيار من خيارِ
لولاه ظل الناس في   جهل وفي وحل وعارِ
هو منقذ الدنيا وكانت   في الطريق إلى البوارِ
حمل الضياء إلى النفوس   إلى الحواضر والبراري
فانجابت الظلماءُ   وانزاحت أعاصير الغبار
والنور عم الكون نور   الله يملأ كل دارِ
يا أيها الشعب المبارك   أنت في خير الديارِ
بجوارك المختار خير   الخلق بهوى كل سارِ
انظر ترى الأنوار   ساطعة كإشراق النهار
فهنا ينابيع الضياء   ومعقل الأسدِ الضواري

وهـنـا الـمـلائـك قـد مـشـت　　لـمـحـمـد مـشـي الـوقـار
فـي كـل شـبـر لـو أصـغـت　　الـسـمـع ألـسـنـة الـفـخـارِ
تـروى أحـاديـث الـبـطـولـة　　والـشـهـامـة والـنـجـار
مـن صـانـعـي الـتـاريـخ　　فـي الإسـلام والأمـل الـحـرارِ

الشيخ عمر بري

وبيضاء كالبلور شف أديمها ... يكاد يرى ما في حشاها من السر
تقول وقد جردتها من ثيابها ... وأبرزتها كالبدر من فلك الزر
وقبلتها ظهراً لبطن وتارة ... يكون لها صدري وشاحاً على الصدر
أأبصرت عيباً في جمالي يشينه ... وهل عاينت عيناك حسناً له وفر
فقلت معاذ الله أنت جمعت ما ... تفرق في الدنيا من الحسن والبشر
ولكن أرى ما بين جنبيك شاهداً ... يخبرني أن قد طبعت على الغدر

وقطعة أخرى له (خمرية):

ما للهموم سوى الصهباء من آسى ... فاجمع بها شمل أفراحي وإيناسي
وهاتها ذوب ياقوت مشعشعة ... في حامد الماء واسقيني وجلاسي
إن كنت لي راحماً قد حاكت علائله ... يد السحابة من ورد على آسي
كأنما الكأس والساقي ومجلسنا ... غصن يطوف على روحي بنبراسِ
كان تأثيرها بالعقل طلعة فن ... أهواه فاجأني في مجمع الناس
كأنها إذ صفت في كأسها صفى ... وأعتقها كرمي والذوق إحساسي

وللشيخ عمر بري مخمساً أبياتاً لجده عمر بن محمد الفتى البري:

الصبر من شأن أعجب ودأبه ... والفتك من طبع الحبيب بصبه

صبراً على حر الغرام وحربه   يا محرقاً بالنار خد محبِّه

مهلاً فإن مدامعي تطفيه

ماذا أقول وسيف لحظك جارحي   واعتق كلّ وما لذا من شارحي
النار أهون من جوى بجوانحي   أحرق بها جسدي وكل جوارحي

واحرص على قلبي فإنك فيه

وسأله الشيخ عبد الحق رفاقت على هذا السؤال:

إذا ظهر الصدود من المفدى   وشحَّ على المحب بريق فيه
أيتركه ويسلو عن هواه   وإلا يستقيم ويرتضيه

فأجابه:

إذا ظهر الصدود وقد فهمنا   بأن القصد منه فرط تيه
ولا يلوي به إتلاف نفس   وإرضاء مخاطر غادريه
فإن الصبر أولى علّ يوماً   سيرضي بالتنازل عاشقيه
وإلا فالسلو له دواء   ويستبدل خليلاً يرتضيه

هذه نتف بسيطة من شعر الشيخ عمر إبراهيم بري وقصائده الطويلة موجودة كما أسلفت في الصحف، ولو كان لدي من الوقت لبحثت عنها ولكن الوقت كما تعلم ضيق وأنا على جناح السفر إلى روما مع العائلة عند الابن يعرب، فمعذرة وهذه القصائد تعطيك لوناً جديداً عن شاعرية الأستاذ البري.

الشيخ محمد الحافظ(*)
(القاضي بمحكمة المدينة المنورة)

ولد الشيخ محمد الحافظ ببلدة رابغ ووالده الشيخ موسى محمد من أصول العرب المقيمين برابغ، تعلّم محمد الحافظ في كتاب رابغ ولما بلغ السابعة جاء به أبوه للمدينة ليدخله بالمدارس حيث لم يكن برابغ مدرسة، وانتظم في شعبة تحفيظ القرآن بمدرسة العلوم الشرعية بالمدينة المنورة فحفظ على يد الشيخ توفيق مدرس القرآن والتجويد وبعد حفظه للقرآن انتقل للقسم الابتدائي ثم لشعبة العلوم العربية وكنت بدوري مدرساً بالمدرسة وأذكر أنه قرأ عندي مع زملائه محمد عمر توفيق والشيخ محمد الحركان وغيرهم واستمر في الدراسة حتى أكمل نصاب المدرسة ونال الشهادة العلمية من المدرسة ولم يشأ أن يرحل لرابغ، وتزوج بعد نيله الشهادة بكريمة السيد عبد الرزاق الهندي وتوظف مدرساً بالمدرسة في حياة السيد أحمد الفيض آبادي مؤسس المدرسة ثم لخلاف طرأ بينه وبين زوجته المذكورة تزوج بابنة الشيخ حسين أبي العلا تاجر النفط، ولعدم التئامه معها طلقها ورجع لزوجته الشريفة آسية ـ وكانت

(*) المصدر «المنهل» ذي الحجة ١٣٩٨هـ.

أنجبت له الوليد الوحيد موسى الذي سماه باسم والده تيمناً باسم والده بعد وفاته تعلم ابنه بمدرسة العلوم الشرعية ثم انتقل للمدرسة الثانوية ثم ابتعث للجامعة وقد عمل الشيخ الحافظ بمدرسة العلوم الشرعية مدرساً في شعبتها للعلوم العربية عدة سنين وصادف أن شغر بالمحكمة الشرعية مكان قاضٍ فيها فعين الشيخ الحافظ قاضياً بها بمساعدة صديقه الشيخ عبد المجيد حسن وما زال في هذه الوظيفة حتى اليوم.. وفضيلة الشيخ محمد الحافظ يدير حركة المحكمة في غياب الرئيس فضيلة الشيخ عبد العزيز بن صالح وهو يكرمني وخاصة بعدما أصبت بوجع المفاصل والاعتماد على الرجل الثالثة في المشي وقد أجزته بإجازات الحديث من الصحاح الستة وغيرها من كتب الحديث المعتبرة أطال الله حياته وبلغه مناه وحفظ له ابنه السيد موسى.

السيد عبد القادر الجزائري(*)

ولد السيد عبد القادر بالمدينة المنورة عام ١٣١٠هـ ووالده السيد أحمد الجزائري الإمام المالكي بالمسجد النبوي الشريف. تلقى تعليمه الأول في كتاتيب المدينة المنورة وبعد حفظه للقرآن درس على والده وعلى العلماء المدرسين بالحرم النبوي، ولما تولى الشريف الحسين ملك الحجاز بعد خروج الحكومة العثمانية منه، تولى ابنه الأمير علي بن الحسين إمارة المدينة فبعث المترجم له كاتباً لمحكمة العلا فسافر إليها مع أهله ومكث في تلك الوظيفة سنين عديدة، وبعد تولى الملك عبد العزيز على الحجاز ولي عبد القادر الجزائري قضاء العلا، وظل قاضياً فيها حتى شغرت وظيفة قاضٍ بمحكمة المدينة فجيء به إليها، وظل في القضاء أكثر من عشر سنوات، ثم أحيل للتقاعد لبلوغه السبعين من العمر.

وبحكم وظيفتي، كمحامي وزارة المالية والاقتصاد الوطني بالمدينة، كنت أزوره في مكان قضائه، وكانت جل أحكامه ترجع مصدقة من هيئة التمييز وكان إذا وقف على الأماكن التي تحتاج إلى وقوفه عليها يضيف أعضاء الكشف في داره على سماطه، ولم يحصل فضيلته إلا على

(*) المصدر «المنهل» جمادى الثانية ١٣٩٦هـ.

الراتب المقرر بعد الإقالة، وبعد إقالته زيدت رواتب القضاة أضعافاً، وبعد الإقالة اعتكف فضيلته بداره ويزوره الكثير من أرباب القضايا، وأزوره بدوري في كثير من الأحيان.

ولفضيلته ولد واحد اسمه أحمد على اسم أبيه وهو متزوج ويقيم مع والده ليقوم بشؤونه.

هذا وقد خرج السيد عبد القادر الجزائري من المحكمة نظيف اليد ومثالاً للأخلاق الفاضلة أحياه الله الحياة الطيبة آمين.

علي بن السيد عبد القادر حافظ(*)

ولد السيد علي سنة ١٣٢٧هـ الموافق ١٩٠٨م في المدينة المنورة وحفظ القرآن الكريم وواصل دراسته في المسجد النبوي (الجامعة الإسلامية) آنذاك وحصل على إجازة التدريس. وأساتذته أصحاب الفضيلة الشيخ إبراهيم بري والشيخ محمد الطيب الأنصاري والشيخ عبد القادر الشلبي والسيد أحمد صقر والشيخ محمد زاهد والشريف محمد العربي رحمهم الله.

***

بدأ حياته العملية كاتباً بالمحكمة الشرعية سنة ١٣٤٤هـ وفي سنة ١٣٤٩هـ عين رئيساً لكتّاب المحكمة، ثم عيّن مديراً لفرع الزراعة في المدينة المنورة وذلك سنة ١٣٦٨هـ وفي سنة ١٣٧٤هـ انصرف لأعماله الخاصة في رئاسة تحرير جريدة المدينة المنورة ورأس المجلس البلدي عدة سنوات، وفي سنة ١٣٨٠هـ عين رئيساً لبلدية المدينة وظل حتى سنة ١٣٨٥هـ ثم تفرغ لأعماله الخاصة.

اختير عضواً في الوفود التي مثلت مدن الحجاز في عهد الملك عبد

(*) المصدر «المنهل» جمادى الثانية ١٣٩٨هـ.

العزيز رحمه الله وعمل كثيراً في الهيئات واللجان الإدارية والثقافية والقضائية وزار بدعوة رسمية باكستان والعراق والهند وقام برحلات لمعظم البلاد العربية والأوروبية والأميركية والإفريقية والشرق الأقصى.

أنشأ مع أخيه عثمان حافظ مطبعة وجريدة المدينة في المدينة سنة ١٣٥٦هـ وتولى رئاسة تحريرها من سنة ١٣٧١هـ إلى ١٣٨٢هـ ومارس الكتابة في الصحف والمجلات وساهم في معالجة كثير من المشكلات العامة على منبر الصحافة، وفي سنة ١٣٦٥هـ أسس مع أخيه عثمان حافظ مدرسة الصحراء بالمسيجيد وهي أول مدرسة في البادية.

وفي سنة ٨٣هـ أسس مع أخيه عثمان حافظ شركة المدينة للطباعة والنشر بجدة، متزوج وله تسعة أولاد منهم ثلاث بنات.

له من المؤلفات كتاب (فصول من تاريخ المدينة) وتاريخ التوسعة السعودية للمسجد النبوي ـ مخطوط، وكتاب تمور ونخيل المدينة ـ مخطوط، وديوان شعر تحت الطبع. (انتهى ما كتبه في آخر صفحة من كتابه فصول من تاريخ المدينة المنورة).

تبدأ صداقتي بالسيد علي عندما كنت وإياه نقرأ كتاب (تنوير الأبصار) بعد المغرب علي شيخنا الشيخ عبد القادر الشلبي رحمه الله ثم توطدت صداقتنا بالمحكمة الشرعية فقد كنت وكيلاً في قضية إخراج حجة تملك وكنت غير ملم بالقضايا فواجهته بالمحكمة وذكرت له عن قضيتي فلم يكن منه إلا أن حرر لي مسودة عريضة وإنهاء وقال لي: بيضهما. وكتبتهما بخطي فقدمها للقاضي يومئذ السيد زكي البرزنجي رحمه الله. وفي اليوم الثاني قررت لي جلسة لدى القاضي فطلب مني شاهدي الإثبات فأحضرتهما وبعد تعديلهما حرر لي صكاً بتملك موكلي.

ولما لم يكن لي حق تعاطي الوكالات إلا بإجازة رسمية عملت على تحصيل تلك الإجازة وقدمت عريضة بطلبها للمحكمة فعين السيد زكي، لجنة برئاسته وعضوية عالمين ومدرسين بالحرم وهما الشيخ عبد الرؤوف عبد الباقي المصري والشيخ صالح الزغيبي المدرس والإمام بالمسجد النبوي، فاجتمعت اللجنة في اليوم المقرر فحضرت وأحضرت معي شهاداتي المدرسية والشهادة العالمية التي نلتها من الهند وبعد فحص الشهادات المذكورة اكتفت اللجنة بها بدون فحص أو اختبار كما كان المنتظر منها، وطلبت من السيد علي باعتبار أنه رئيس كتاب المحكمة وعضو في اللجنة تحرير الشهادة فحررها السيد علي وطلب مني تبييضها بخط جميل فذهبت بها لشيخنا الشلبي فأمر ابنه محمد سعيد أن يكتبها وهي لدي اليوم بنفسها مختومة بإمضاء وختم قاضي المدينة ومعاونه الشيخ عبد الحفيظ كردي وختمي الشيخين صالح الزغيبي وعبد الرؤوف عبد الباقي وتوقيع السيد علي حافظ ثم رفعت الشهادة لرئيس هيئة التمييز رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن وختمت بأختام الرئيس واللجنة. هذا ولم يبق اليوم من لجنة المدينة وهيئة التمييز إلا الشيخ محمد نور كتبي والسيد علي وهما أصغر أعضاء الهيئتين سناً.

بعد إحالة السيد زكي للتقاعد وتأهيل الشيخ محمد نور في قضاء المحكمة جيء بالشيخ عبد الله بن زاحم رئيساً للمحكمة ومعه الشيخ عبد العزيز بن صالح وأربعة من الكتبة وصادف على ما أذكره وفاة الشيخ عبد الحفيظ كردي، وعرض على السيد علي، أن يعين قاضياً عضواً في قضاء المحكمة فأبى وانصرف سنة ١٣٧٤هـ ـ كما قال ـ لأعماله الخاصة وقلت له فيما بعد: لم يا سيد لم تقبل القضاء بعد عرضه عليك؟ قال: لا أحب أن يكون نصف الناس أعداء لي. قلت له

كيف؟ قال أفلا تذكر قول ابن الوردي في قصيدته الحكمية:

إن نصف الناس أعداء لمن ولي الأحكام هذا إن عدل

قلت: صحيح ولك العذر.

ولما أنشأ هو وأخوه عثمان جريدة المدينة سنة ١٣٥٦هـ كنت أزور السيد عثمان في المطبعة فأجد الأخوين يعملان بكد في تجهيز الجريدة، فكنت أكبر عملهما ومكثا طيلة أربع سنوات حتى سنة ١٣٦٠هـ فوقعت الحرب العالمية الثانية وتوقف ورود الورق وتوقفت الجريدة عن الصدور، ولما انتهت الحرب سنة ١٣٦٤هـ رجعت الجريدة للظهور وانصرف لأعماله الخاصة في الجريدة ثم ترأس المجلس البلدي عدة سنوات، وفي سنة ١٣٨٠هـ عين رئيساً لبلدية المدينة وظل فيها حتى سنة ١٣٨٥هـ ثم تفرغ لأعماله الخاصة.

هذا ولقد كان السيد علي في رئاسة البلدية مثالاً للموظف القدير فكان بابه مفتوحاً لكل طالب ويجيب كل طالب على طلبه هاشاً باسماً. وأذكر وإن لم يذكر هو في قائمة أعماله موضوع افتتاح شارع الساحة فله الفضل الأكبر فيه حيث أصبح الجائي من المناخة ينظر إلى المسجد النبوي وهذا ما كان أراده فخري باشا أيام ولايته على المدينة على أن يجعل الشارع العيني هو الذي يتصل من باب العنبرية إلى المسجد وأشار بالهدميات لهذا الغرض، كما كان يريد أن يكون اتساع ما بين المسجد والبيوت خمسمائة متر من الجهات الأربع.

كما لم يذكر السيد من أعماله الأخرى أمر توزيع المكنات على الفلاحين والمزارعين بالمدينة بدفع نصف القيمة مقدماً والباقي على قسطين.. إني كنت فلاحاً ببستاني النصَيِري الكائن بالعوالي وذهبت

للسيد علي في مكتب التوزيع وطلبت مكنة سحب صغيرة ودفعت نصف القيمة فلم يكن منه إلا أن سلمني المكنة في الحال وكانت ماركة (لستر) وركبتها على البئر في اليوم الثاني فاندفع الماء بقوة أضعاف ما كان قبلئذ.

إن السيد علي لم يذكر في قائمة أعماله بعض جلائل الأعمال التي قام بها مع أخيه عثمان وأهمها بل وفي مقدمتها اقتراح الجريدة توسعة الحرم النبوي الشريف لازدحامه زمن الموسم، وقدما الاقتراح لجلالة الملك عبد العزيز رحمه الله في الجريدة فأرجأ الطلب إلى ما بعد موسم الحج بعد موافقته عليه مبدئياً، وبعد الموسم صدر أمره الكريم للمعلم محمد بن لادن رحمه الله بعمل التوسعة المشار إليها فقام المعلم بذلك بمساعدة مدير المشروع الشيخ صالح قزاز وبدأ العمل من سنة ١٣٧٠هـ وانتهت العمارة والتوسعة عام ١٣٧٥هـ.

ومن أهم أعماله مع أخيه أيضاً إنشاء مدرسة الصحراء بالمسيجيد وهي أول مدرسة أقيمت في البادية في العهد السعودي، وعمل الأخوان في إدارتها حوالي خمس عشرة سنة حتى أسلماها للمعارف لإدارتها ضمن المدارس التي أنشأتها في البوادي وقد افتتحاها بـ ١١ طالباً وسلماها وفيها ٥٠٠ طالب.

قال في ترجمة حياته أن له تسعة أولاد: منهم ثلاث بنات وستة أولاد، وأكبرهم شرف وهشام ومحمد وعبد الفتاح وإبراهيم وسعود وأحد أبنائه محمد علي نال دبلوم الصحافة من مصر وهشام حافظ وعبد الفتاح وإبراهيم تخرجوا من كلية التجارة في الاقتصاد. ويكتب الأخوان محمد وهشام مقالات قيّمة في النقد والإصلاح الاجتماعي كما يكتب والدهما في الجريدة

أيضاً. وكم أنا معجب بالسيد محمد علي، لنقده الهادف، وأصغر أولاده سعود وهو وإبراهيم مبتعثان لأمريكا لنيل الماجستير.

وقد كنت تلقيت من السيد عثمان حافظ جواباً أحتفظ به ذكرني بالزمان الماضي الذي جمعتني به الأيام وصديق الطرفين السيد أحمد العربي، فأجبته بدوري بجواب أرق من جوابه.. ثم إني مرضت بداء القلق الذي اعتراني مدة طويلة قاسيت فيها آلاماً نفسية قاسية وقد شُفيت منه بحمد الله حيث قال لي الطبيب النفساني الذي كان يعالجني في بيروت: إن شفائي بيدي بأن أعمل بفكري وقلمي ولذا قمت الآن بعد السبعين بمزاولة الكتابة وإن كنت لا أنقطع من التحرير في مجلة المنهل، هذا كل ما أعلمه عن الصديق والسيد علي، وإن هي إلا لمحة من لمحات ترجمة حياته أحياه الله الحياة الطيبة.

وكان لما كتبه السيد علي من كلمة الإهداء لوالديه الحبيبين في كتابه فصول من تاريخ المدينة المنورة أثر في نفسي فلقد هزّ مشاعري ورقرق الدمع من عيني تلك الكلمة التي يخاطب بها والديه: إلى شجرة الفل التي لم تشبع من النظر إليها ولا من أريج طيبهما وإلى القمرين اللذين كنا نرى بضوئهما ونسير بنورهما الوهاج، إلى اللذين ترعرعنا في كنفهما وسعدنا بدعائهما، إليهما إلى أبويه الكريمين السيد عبد القادر والسيدة فاطمة صادق السعيد.

لقد كانت والدتهما المذكورة من فضليات ونساء عصرها وكانت محبوبة بين نساء جيلها وكانت صديقة لأخت أم أولادي خديجة بنت محمد رؤوف طاهر وأذكر فيما أذكر أن خديجة ذهبت إليها بقماش فستان الزفاف لتخيطه لها فلم يكن منها إلا أن خاطته بليل ووضعت

عليه نجوماً من الفضة إكراماً لصديقتها ولأختها الصغيرة. فقلت في نفسي لو كانت والدتي حية يومئذ لكتبت لها كلمة إهداء بدوري لكني قد عشت بعد موتها لدى جدتي لأمي، وأنا أذكر قبل وفاتها وكانت حبيبة إلى قلبي كاسمها (حبيبة). اللَّهُمَّ ارحم والدي أخوي، علي وعثمان ووالدي رحمة واسعة وأدخلهم جنة الخلد.

هذا ولم أعثر للسيد علي على شعر إلا ما أقرأ أحياناً في الصحف وما رأيته في مجلة المنهل لشهري المحرم وصفر سنة ١٣٩٦هـ يحيي فيها مجلة المنهل في شخص منشئها الأستاذ عبد القدوس الأنصاري حيث أكملت الأربعين سنة وعسى أن تبلغ الخمسين في حياة الأنصاري والقصيدة هي هذه:

يا فارس الحرف والآداب والقلم ... ومنهل العلم والأخلاق والحكم
بزت كل قرين في مسابقة ... وجزت كل مثيل سامق الهمم
تطور كل عام في مسيرته ... وقفزة كل شهر من على القمم
مجلة كلما مرت بها حقب ... تألقت في دنا العلياء والكلم
قلبتها فشممت العطر منبثقاً ... من حسنها، ورأيت النور للظلم
كأنها حين تجلى في غلائلها ... عروس فجر بدت في شكل محتشم
تمشي إلى نصف قرن وهي باسمة ... كأنها بنت عشرين بلا هرم
لا تعرف الضعف في خطواتها أبداً ... ولا الخنوع ولا التدقيق بالقلم
تمشي على قمم الأحداث شامخة ... كأنها طود مجد رافع العلم
العقل رائدها، والدين قائدها ... والحق كلمتها من ناقد فهم
أحاطها حارس قد شاب مفرقه ... في حبها وهواه جد مضطرم
رئيس تحريرها ينمى إلى فئة ... أنصار خير رسول جاء للأمم

وهذه القصيدة يمتدح فيها بلدة الرياض ومن فيها ونشرت في مجلة المنهل. في شهر ربيع الثاني سنة ١٣٩٠هـ.

حيّ الرياض وحيّ كل من فيها واهتف لأعلامها واهتف لحاميها
وحيّ أقوام صدق ما نزلت بهم إلاَّ وكنت عميد الدار راعيها
ترحيبهم ولقاهم لا نظير له يقدمون لك الدنيا وما فيها
تضيء بالمجد والتكريم أوجههم وبالندى والجدي والفضل أيديها
قحطان ضؤهم عدنان معدنهم حماية الدين والآداب تعليها
فيها الملز أخى يزهو بجامعة النور يسطع في شتى نواحيها
درعيّة المجد لم تحفل بقنبلةٍ من الطغام ولم تأبه لراميها
وقبّة النور والعرفان قد رسمت في أرضها وروابيها وواديها
رمز الفداء ورمز الصبّر مذ وجدت أكرم بتاريخِها أكرم بماضيها
فرسان دخنة والبطحاء يعرفهم فتح الرياض الذي أرسى مراسيها
وادي حنيفة حدث عن غطارفةٍ تخطر في حصبائه تيها
في السلم مثل حمام الأيك تلمحهم وفي الوغى كأسود الغاب تلفيها
وما المربع إلا قلعة سمقت بها البطولات تنمو في روابيها
وهل طويق سوى طوق يضيء لما في سفحه من معاني الخلد يرويها
مرابع ما رأت عيني لها شبهاً ولا مثيلاً ولا شيئاً يضاهيها
رواية النصر للتاريخ تسطرها وقصة الفتح والتخليد تحسيها
قد زرتها مع رفاقٍ قد فتنت بهم منذ الطفولة في أجلى معانيَها
أبو نبيهِ ضياء حافظ بهم طابت لقاءاتنا زانت نواديها
كم قد عمرنا بإحسان ومنقبةٍ يا ليتنَا برحيق الشكر نسقيها
لا نستطيع ثناءً إنّ صنعكمو كالغيث في الأرض يروي كل ما فيها
هي الرياض قلاع المجد ما برحت لفيصل الفذ راعيها وحاميَها

(وهذه قصيدة نظمها لميلاد ريم عبد القادر حافظ):

ريم على القاع من أهل ومن وطن قد حل في القلب والأحشاء من قدم
ما كان في الغيب كان اللَّه حافظه غذّاه مما اشتهى في باطن الرحم
ويسر اللَّه لمّا حان مولده فجاء باليسر والبشرى وبالنعم
حمداً لمولاي رب الناس كلهم ميسر العسر ذي الأنعام والنعم
يا ريم أمك بالأخلاق قد كملت وفي أبيك وثوب الليث من أجم
إذا افتقدت حناناً فأت نادية وابن عثمان صقر المجد والكلم
ما كنت أعلم أن الشمس تطلع من مرابع الصيد والقرطاس والقلم
حتى بدى وجه ريم باسماً مرحاً أنواره في الدنا تعلو على القمم
كأنها المورد في لون وفي أرجٍ فواحة العطر تشفي كل ذي ألم
سمّيتُ ريما وليتا لو يشبهها أن الغزال لها من أصغر الخدم
كبرتُ في أذنها فاعتلت يدها بالشكر للَّه منشي الخلق من عدم
بُنّيتي ريم أوصي بالصلاة بها سر النجاة وسر النجح في الأمم
فلا تفوتك يا ريماه في صبح ولا مساءٍ ولا ظهر ولا عتمِ

لندن ١٨ ذي الحجة ١٨هـ نوفمبر ١٩٧٨م ـ علي حافظ.

ونظم هذه القصيدة بمناسبة قدوم شهر ربيع الأول سنة ١٣٥٦هـ.

يا ربيع الوجود والأزمان وشفاء القلوب والأبدان
أنت في الدهر بسمة تتوالى كل عام في ثغر هذا الزمان
أنت رمز الخلود أنت خِضَمٌّ فيه سفن النجاة للإنسانِ
أنت ينبوع كل عدل وعلم أنت سر الإيمان والإحسانِ

يا ربيعاً أتى بمولد طه ... خيره عم سائر البلدانِ
بين تلك الزاد وغار حراء ... عند ثور وتلكم الوديانِ
في قريش وهاشم وقصيٍّ ... ولؤي وفي بني عدنانِ
سطع النور وانجلى المسك وانجا ... ب ضلال ملوث الأردانِ
وتداعت معالم الشرك والظلم ... وكل الأصنام والأوثانِ
ذاك كسرى يضيق ذرعاً ... خائر العزم فاقد الأعوانِ
وهرقل يرنو إلى الحق ذكره ... عنه تثنيه طغمة الشطانِ
لم تصنهم قلاعهم وحصون ... وجيوش وعدّة لطعانِ
حطمتهم طلائع الحق بالعدل ... وجيش السلام والإيمانِ
وحد اللَّه في البسيطة قوم ... وحدتهم مبادىء القرآنِ
اقتفوا الصادق الأمين فعادوا ... دار عزٍّ مدعم الأركانِ
كل ما كان من وئام وعدل ... وهناءٍ ورفعة وأمانِ
وجهاد وعزة وفتوحٍ ... وعلوم تجوب كل مكانِ
فبهدي الرسول خير نبيّ ... زف للخلق أكمل الأديانِ
من يحدْ عن هداه ظلّ عن الرشد ... زيغاً إلى مقرّ الهوانِ
يا حماة السلام في الشرق والغرب ... وأهل التوحيد والعرفانِ
خيراً يقيكم وثبة البغي والبطر ... وشر الطغاة والعدوان
أن تؤبوا الهدى أحمد حقًّا ... ناصر الحق قامع الطغيانِ
صلوات الإله والناس طرًّا ... تتوالى عليه في كل آنِ

ومن أراد المزيد من شعر السيد علي حافظ فليطلبه من ديوانه الشعري الذي نوه السيد بأنه تحت الطبع في هذه السنة.

وقد عثرنا أخيراً بقصيدة للسيد علي جواباً لتحية عبد الله بالخير وهي كتحية وشكر له:

لقول الحق تنتسب انتسابا ... وتطرق للحجى والمجد بابا
وبالخير الذي حزت المعالي ... على كفيه تنساب انتسابا
عصامي شجاع عبقري ... له المذياع لبّى فاستجابا
تسنم ذروة الإعلام لما ... غدى يتحسس النهج الصوابا
وأول من تولى في بلادي ... وزارته وجاز بها الصوابا
وكان نجاحه يدوي دوياً ... ويقتحم الهضابا

جلالة الملك

تحدث حيث كنا في ندى ... لملك عزّ أصلا واستطابا
سعودي المروءة مستهام ... بفعل الخير أجراً واحتسابا
حبيب الشعب يسعد ويبني ... من الأمجاد والنعمى قبابا
حبيب الشعب قد سعدت قلوب ... رأت في عدلك الأمل المجابا
وقد أبدى وليّ العهد حقاً ... رضاءً كالسناء سما وطابا
وفهد في ذرى الأحداث يمضي ... كمثل الليث يقدم لهن يهابا
وعند المعضلات ترى حكيماً ... رزيناً عند شدتها مهابا

جزيت الخير شكراً

فغالبنا الحياة فما استطعنا   لصنع صنيع بالخير جوابا
وقد أهدى لنا الغرر الغوالي   بأطباق القصد وما أسترابا
وما كنا عهدنا من أناس   كمثل حديثه قولاً أصابا
أبا الخير الثناء يزف عنا   ويكشف عن مخبئنا النقابا
جزيت الخير شكراً من على   ومن سما ينسكب اسكابا
وصوت هشام يشدو كل خير   ولحن محمد رفع الحجابا
وليس الشكر يكفينا وإنا   لنعجز أن نوفيك الحسابا
لقد أسديت معروفاً لدينا   فلن ننساه شيباً أو شبابا

وله من قصيدة ترانيم العودة في رحاب الرسول الأكرم ﷺ:

آب الغريب إلى مرابعهِ   ومنتجع الجوانح والأملْ
إلى نداء الروح حيّ   على الصلاة على الكفاح على العملْ
فهنا امتزجت بأرض أجدادي   ودين نبّينا أسمى الرسلْ
في النور امرغ ناظري وغذيت   شهداً لفن من نبع الأزلْ

ومن قصيدة له بعنوان أشواق المدينة المنورة بعنوان فيا لهفي لطيبة واشتياقي نظمها سنة ١٣٨٧:

سقاك اللّه يا تلك المغاني   بطيبتنا فما أحلى رباها
وباكرك النسيم بكل عطر   يفوح شذى وينبع من رواهَا
فيا طيب المدينة كل شبر   يضيء بها ويرفل في سباها
ويا طيب المدينة كل نفس   تود لو أنها نالت رضاها

ويا طيب المدينة كل قلب يحن لها ويخفق في لقاها
ويا طيب المقيل بسطح سلع ويا طيب التنقل في رباها
وكم لي بالمناخة من لقاءٍ تألق بالأحبة في سماها
خذوني للعوالي ثم عوجوا بقربانٍ وما أشهى قباها
إلى ذاك النشير تشير نفسي وفي الربعى لم ننسى بهاها
وكم بسوالة بتنا جميعاً وديوان الصفية قد تلاها
وما تلك الطيوف سوى عيونٍ بها تجري بنفسي في ثراها
ويا أحد الحلي وقتك نفسي فقد آويت عند الهول طه
وفي أم الفواعي كم سمرنا بندوتها تحن إلى فتاها
وتجمعنا الأصائل كل يوم بربوتها لننعم في هواها
فيا لهفي لطيبة واشتياقي نشأت بها وعذا لي في لقاها
دعوني أمرغ الخدين فيها فما فيها سوى طر حواها
دعوني ألثم الترب احتراماً لما في الترب من نبل تناها
من الإيمان تربتها وفيها محمد بالهدى والدين باها
هي البلد الذي آوى رسولاً من المولى المهيمن في حماها
هي البلد الذي ضحى بنفسٍ ومال حين ضنّ بهم سواها
هي البلد الذي من رام خيراً وهدى اللَّه أوغل في هداها
بها الأنصار أبطال أباة حماة الدار إنْ عات أتاها
يريقون الدماء بلا دموع إذا ما الحرب قد دارت رحاها
وجادوا بالنفوس بدون منّ بخٍ لهمُو فقد بلغوا مناها
سبيل اللَّه دربهمو دواماً وجهاد لا يجاري أو يضاها
أطاعوا أحمد الهادي وساروا بإيمان على سنن مشاها

فلو وُزِنُوا بأهل الأرض طرًّا   لكانوا الراجحين بنصر طه
فطوبى للمدينة ثم طوبى   لمن نالوا الجوار بها وجاها
فهم بجوارهم شرفوا وزانوا   وهم بجوارهم كانوا شذاها

عمر بن عبد العزيز

هيهات أن يأتي الزمان بمثله   إن الـزمـان بـمـثـلـه لـبـخـيـل

مثل رفيع جاءت به العرب وعجزت أمم الأرض أن تجيء بمثله.

قال الحافظ أبو نعيم الأصفهاني في (حلية الأوليان) حين تقديمه ترجمة عمر بن عبد العزيز: (كان واحداً في الفضل ونجيب عشيرته في العدل جمع زهداً وعفافاً وورعاً كفافاً فأشغله آجل العيش عن عاجله وألهاه إقامة العدل عن عاذله كان للرعية أمنا وأماناً وعلى من خالفه حجة وبرهاناً كان مفوهاً عليماً ومفهماً حكيماً). وقال الإمام النووي في (تهذيب الأسماء) خلال حديثه عن عمر بن عبد العزيز: (وأجمعوا على جلالته وفضله ووفور علمه وصلاحه وزهده وعفافه وورعه وعدله وشفقته على المسلمين وحسن سيرته فيهم وبذل جهده في الاجتهاد في طاعة الله وحرصه على اتباع آثار رسول الله ﷺ والاقتداء بسنته وسنة الخلفاء الراشدين وهو خامسهم) وقد أظهر عمر في خلافته الاعتصام بالكتاب والسنة وجاهد في حمل الناس عليهما وأخذهم بهما وهو يصور لنا شعور سياسته في إحدى خطبه إذ يقول: أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي وليس بعد كتاب الله الذي أنزل كتاب فما أحل الله لكم على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة وما حرمه على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة إلا أنني لست بقاض ولكني منفذ ولست مبتدع ولكني متبع.

كان عمر بن عبد العزيز قبل ولايته الخلافة يتألم لانصراف بعض قادة الأمة والولاة إلى نزعات الهوى فيقول: (الوليد بالشام والحجاج بن يوسف بالعراق ومحمد بن يوسف أخو الحجاج باليمن وعثمان بن حيان بالحجاز وقرة بن شريك بمصر ويزيد بن أبي مسلم بالمغرب امتلأت الأرض والله ظلماً وجوراً) واشتهر هؤلاء بالظلم والبغي في ولايتهم وناهيك بالحجاج الظالم الغشوم.

فلما آلت إليه الخلافة بعد سليمان بن عبد الملك كان أول ما بدأ بعد دفن سليمان المبادرة إلى إصلاح القيادة فدعا بدواة وقرطاس وكتب ثلاثة كتب؛ الأول لمسلمة بن عبد الملك يأمره بالعودة بالمسلمين وفك الحصار عن (القسطنطينية) وكان مسلمة قد خُدِعَ من الروم بطلبهم الهدنة حتى أحرز المحاصرون طعامهم وشرابهم ثم أغلقوها دونه فغضب الخليفة سليمان وحلف أن لا يعيده فاشتد على المجاهدين المقام هناك من الجهد والجوع فلما تولى عمر رأى أن لا يؤخرهم يوماً واحداً.

والكتاب الثاني كان بعزل أسامة بن زيد عن ولايته لمصر وكان ظالماً غاشماً.

والكتاب الثالث كان بعزل يزيد بن أبي مسلم عن المغرب وكان جباراً يعذب القوم بين يديه أشد العذاب بلا شفقة ولا رحمة، وبعد كتابته للثلاثة الكتب قربت له ركائب الخلافة فقال: (نحّوها عني ما لي وما لها قربوا لي دابتي). وقال لمزاحم، غلامه: «ضمها إلى بيت مال المسلمين» ولم يشأ أن يقيم في دار الخلافة التي تسمى (الخضراء) وعدل عنها إلى دار صغيرة ثم بدأ برد المظالم إلى أهلها. وأول ما بدأ بنفسه والخروج من ماله فخرق سجلات مزارعه حتى انتهى إلى مزرعة

خيبر فسأل عنها من أين كانت لأبيه؟ فقيل له كانت في نخل رسول الله ﷺ فتركها الرسول فيئاً للمسلمين، ثم صارت إلى مروان، فأعطاها أباك. فخرق عمر سجلها أيضاً وقال: (أتركها حيث تركها رسول الله ﷺ) ولم يبق إلا مزرعة (السويداء) فإنها كانت أرضاً براحاً أصلحها عمر من صلب عطائه وكان الوليد بن عبد الملك قد أقطع ابنه روحاً حوانيت بحمص فلما ولي عمر جاءه نفر من أهلها يطالبون روحاً بها وأقاموا البينة لدى عمر فقال لروح: (خل لهم حوانيتهم) فقال روح: هي معي بسجل الوليد بن عبد الملك! فقال عمر: (وما يغني عنك سجل الوليد والحوانيت لهم قد قامت البينة عليها) فلما خرج روح توعد أحدهم فراح الحمصي إلى عمر قائلاً: هو يتوعدني فقال عمر لرئيس حرسه: (أخرج إليه فأسلم الحوانيت لهم فإن لم يفعل فأتني برأسه).

* * *

وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر قبل وفاته بعشرين ألف دينار لعتبة بن سعيد بن العاص، فدارت الورقة في الدواوين حتى وصلت لديوان الختم فتوفي سليمان ولم يختمها وكان عنبسة صديقاً لعمر قبل خلافته فلما جاء يراجعه في ما أمر به سليمان قائلاً:

(وأمير المؤمنين أولى بإتمام الصنيعة، وما بيني وبينه أعظم مما كان بيني وبين سليمان) فقال عمر: وكم ذاك؟ قال عنبسة: عشرون ألف دينار. قال عمر: «إنها تغني أربعة آلاف بيت من المسلمين فكيف أدفعها لرجل واحد؟ ما لي إلى ذلك من سبيل) فخرج عنبسة من عنده، وأعلم بني أمية بخبره وقال لهم: •يا بني أمية زوجتم صاحبكم بنت عمر بن الخطاب فجاءكم بعمر ملفوفاً في ثيابه).

وما زال عمر سائراً في عدله وورعه. قيل أتاه رجل بتفاحات كهدية فأبى أن يقبلها فقيل له: كان الرسول يقبل الهدية فقال: «هي لرسول الله هدية ولنا رشوة» ودخل عليه ابن أبي زكريا فقال: يا أمير المؤمنين أريد أن أكلمك بشيء قال: قل. قال إنك ترزق العامل من عمالك ثلاثمائة دينار؟ قال: نعم، قال: ولم ذلك وهي كثير؟ قال عمر: أردت أن أغنيهم من الخيانة. فقال فأنت يا أمير المؤمنين أولى بذلك. فأخرج عمر ذراعه وقال: «يا بن أبي زكريا.. إن هذا نبت من الفيء ولست أعيد منه شيئاً. وقال لزوجته فاطمة بنت عبد الملك: «قد علمت حال هذه الجواهر التي عندك وما صنع أبوك ومن أين أصابها فهل لك أن أجعله في تابوت ثم أطبع عليه وأجعله في أقصى بيت مال المسلمين فإن احتجت إليه أنفقته في مصالح المسلمين وإن مت قبل ذلك فلعمري سيرد إليك. فقالت له: افعل ما شئت. ومات عمر ولم يصل إليه فرده عليها أخوها يزيد بن عبد الملك فامتنعت عن أخذه فقسمه بين نسائه وأقاربه.

* * *

نحن في عصرنا هذا نفاخر بإعطاء الموظفين اختصاصهم وعدم تركيز المسؤولية والسلطة في يد واحدة، وقد أخذ عمر بن عبد العزيز بهذا النظام فكتب لعروة والي اليمن يقول: (أما بعد فإني أكتب إليك آمرك بكذا، وكذا فتراجعني وأنت تعرف بعد ما بيني وبينك ولا تعرف آخذات الموت حتى لو كتبت لك: رد على كل مسلم مظلمته لكتب إلي، أردها عفراء أو سوداء انظر إن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعني.

وكتب إلى عامله بالمدينة في المظالم فراجعه فكتب إليه: (إنه يخيل إلي، إني لو كتبت لك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت أصغيرة أم كبيرة ولو كتبت لك بأحدهما لكتبت أضائنة أم معزى فإذا كتبت لك بعد هذا فنفذه ولا ترد علي والسلام).

والدولة اليوم ترى من واجبها أن تتحمل تبعات طلبة العلم، ولقد كتب عمر إلى عماله يأمرهم أن يجروا عليهم الرزق ويفرغوهم للطلب وكتب لوالي حمص يقول: (انظر إلى الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المساجد عن طلب الدنيا فأعط كل رجل منهم مائة دينار).

وكان يرى رحمه الله أن الدولة مسؤولة عن إصلاح أي فساد لا يستطيع الفرد دفعه، وجاءه رجل فقال: (إن لي مزرعة بها زروع خربة خربها الجند من جيش الشام فأفسدوها) وبعد أن تبين لعمر صدق مقاله عوضه بعشرة آلاف درهم.

* * *

والدولة اليوم ترى أنها تتكفل بحماية أموال رعاياها من الفقراء، فهذه امرأة من مصر تسمى (فرتونة) فقيرة سوداء لها بيت صغير تهدم بعض جوانبه ولها دجاجات تستعين بهن على معيشتها، واللصوص يعتدون على دجاجها فسمعت بعدل عمر وحبه للخير فكتبت تشكو حالها وترجوه أن يحصن بيتها، فلما وصل إليه الخطاب كتب لواليه بمصر يقول: (إن فرتونة مولاة ذي الأصبع تذكر قصر حائطها ويسرق منه دجاجها فاركب أنت بنفسك وحصنه لها).. وهذا مثل رفيع من أمثلة الرفق بالضعفاء والمساكين وتعطيل المحسوبية واستغلال النفوذ من أدواء

الحكم وعيوب الدولة، والحاكم الذي يفتح بابه للاستغلال أمام أقاربه ومحاسيبه يفتح البلاء على الناس. وعمر بن عبد العزيز حارب هذه المحسوبية بكل ما استطاع فاستخلص حقوق الأمة من أيدي الظلمة في صرامة وشدة.

وقد كان رفيقاً بالحيوان أيضاً، بلغه أن بمصر نقالات يحمل عليها ألف رطل فكتب لعامله يأمره أن لا يزيد حمل البعير أكثر من ستمائة رطل.

وكان أعرف بمقدار الرجال لا يبخسهم حقوقهم حتى لو انصرف الناس عنهم، دخل عليه ابن مورق وهو يعطي العطاء فسأله عمر (من أنت؟) قال: من قريش. قال عمر: (من أي قريش؟) قال الرجل: من بني هاشم فقال عمر: (من أي بني هاشم؟) فسكت ابن مورق ولم يجب وخاف أن يحرمه العطاء فأعاد عمر عليه المسالة، فهمس ابن مورق قائلاً مولى علي بن أبي طالب وكان أنصار علي مكروهين من بني أمية فوضع عمر يده على صدر ابن مورق قائلاً: (يا مولى علي ابن أبي طالب) حدثني غير واحد أنهم سمعوا النبي ﷺ يقول: (من كنت مولاه فعلي مولاه) ثم قال لمولاه مزاحم: كم تعطي أمثال هذا؟ قال مزاحم: (مائتي درهم) قال عمر: اجعلها خمسين ديناراً لولايته علي بن أبي طالب.

وكان عمر لا يرى للشعراء حقاً أو سهماً في بيت المال لأنهم ليسوا من الأصناف التي نص عليها القرآن في مصارف المال.. قيل دخل عليه عون بن عبد الله الهذلي بعد توليه الخلافة قائلاً لعمر: إن الشعراء واقفون بالباب. فيقول له عمر: خبرني عنهم.. فيقول عون: ابن عمك عمر بن أبي ربيعة، فيثور عمر ويقول: ذلك الفاسق لا قرب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل:

ألا ليت إني يوم حانت منيتي شممت الذي ما بين عينيك والفم
وليت طهوري كان ريقك كله وليت حنوطي من مشاشك والدم

فليته تمنى لقاءها في الدنيا على حل وعمل صالح. من بالباب سواه؟ فيقول عون: الأخطل التغلبي. فيقول عمر: عليه اللعنة أليس هو القائل:

فلست بصائم رمضان عمري ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائم كالعير أدعو قبيل الصبح حي على الفلاح
ولكني سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

والله لا يطأ بساطي هذا الكافر، فمن غيره؟ قال عون: جرير بن عطية الخطفي، فقال عمر الذي يقول:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا وقت الزيارة فارجعي بسلام

فإن كان لا بد فهذا، وأمر بدخوله وأنشد قصيدته التي مطلعها:

إن الذي بعث النبي محمداً جعل الخلافة في الإمام العادل
وسع الخلافة عدله ووفاؤه حتى ارعووا وأقام ميل المائل

فقال له عمر: يا جرير اتق الله ولا تقل إلا حقاً.. تذكر يا جرير أن الله سائلك عما قلت، واتق الله يا ابن الخطفى، لا أرى لك فيما عندنا شيئاً، فيقول جرير: أنا منقطع وابن سبيل. فيقول له عمر: لك ما لأبناء السبيل زاد ونفقة حتى تبلغ محلك. فيأمر مزاحماً مولاه فيعطيه مائة درهم كانت معه.

* * *

وانقطع عمر أيام خلافته عن الطيبات واكتفى بأكل العدس والثوم واكتفى باللباس الواحد.. دخل عليه مسلمة بن عبد الملك وهو على فراش الموت متسخ الثياب فقال لزوجة عمر فاطمة: ألا تغسلون ثيابه؟ فقالت: والله ما له غير هذا القميص.

قيل إن بني أمية دسوا له السم البطيء في طعامه ليتخلصوا منه وأدرك عمر ذلك.

وكانت وفاته سنة ١٠١هـ ومدة خلافته سنتان ونصف السنة تقريباً، ودفن بدير سمعان ولم يترك ميراثاً لأهله وأولاده سوى واحد وعشرين ديناراً..

وهذا غيض من فيض أوجزناه في مقالنا هذا، فلقد حكم عمر بن عبد العزيز العرب والمسلمين عامة حكماً راشداً قاصداً قائماً على الكتاب والسنة والعدالة والمساواة والإخاء.. وإنا نأمل من كل حاكم مسلم في كل إقليم من أقاليم العروبة والإسلام أن ينهجوا منهج عمر ويتخذوا من سيرته مثلاً وقدوة حسنة، وأنى لنا أن ندرك شأوه ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله وبالله التوفيق.

محمد حافظ بك إبراهيم

هو الشاعر الكبير محمد حافظ بن إبراهيم أفندي فهمي المولود سنة ١٢٨٨هـ والمتوفى ١٩٣٢م ولقب بشاعر النيل ولد بالقرب من ديروط ومات بالقاهرة. كان أبوه مهندساً وأمه سيدة تركية مات أبوه وهو في الرابعة فقضى حياةً مضطربة في كفالة خاله ولم يتلق تعليماً منتظماً ثم دخل المدرسة الحربية وعين ضابطاً في السودان، واشترك مع بعض زملائه في حركة تمرد على القواد الإنجليز فأحيل للاستيداع وعاد للقاهرة وبقي فترة طويلة بدون عمل وكان الجو الوطني حافلاً بالأحداث فاتصل بكثيرين من الزعماء وبخاصة الشيخ محمد عبده، وشارك مشاركة قوية في الأحداث السياسية معبراً عن مشاعر الطبقات الشعبية ثم عين في وظيفة بدار الكتب المصرية، وكان الاستعمار الإنجليزي يحرم على موظفي الدولة الاشتراك في السياسة فظل حافظ حذراً وقل إنتاجه وقد غلب عليه الطابع السياسي والاجتماعي، وأسلوبه فخم جزل دون تقيد أو مبالغة في المعاني فكانت له طريقة خاصة في إلقاء شعره في المحافل طبع ديوانه في ثلاثة أجزاء صغيرة سنة ١٩٢١هـ ثم طبع بعد وفاته شاملاً لكثير من شعره الذي لم ينشر في الطبعة الأولى وله روايات نثرية ـ ليالي سطيح على أسلوب المقامات، ورواية البؤساء المشهورة مترجمة عن الفرنسية حيث كان يجيد الفرنسية من المدرسة

الحربية، لم يتنعم حافظ برغد المعيشة، وكان أكثر طعامه وهو في الكتبخانه سندويشات تناولها كفطور حتى يخرج إلى بيته يتناول ما تيسر من الطبيخ وهكذا قضى حياته بائساً محروماً من عطف والده الذي تركه يتيماً في كفالة أمه وخاله، ولم يترك مالاً ولا عقاراً ولم ينجب أولاداً يحيى ذكره إلا قصائده التي سارت في البلاد العربية تحيى ذكراه بعد موته، وقد رثاه صديقه وزميله أحمد شوقي بقصيدة مؤثرة فقد كان يظن أنه سيموت قبله ويرثيه حافظ ولكنه مات في حياته والقصيدة مثبتة في ديوان شوقي في باب المراثي ومطلعها:

قد كنت أؤثر أن تقول رثائي ... يا منصف الموتى من الأحياء
لكن سبقت وكل طول سلامةٍ ... قدر وكل منيةٍ بقضاء
الحق نادى فاستجبت ولم تزل ... بالحق تحفل عند كل نداء

ومنها:

وودت لو أني فداك من الردى ... والكاذبون المرجفون فدائي
وانظر فأنت كأمس شأنك باذخ ... في الشرق واسمك أرفع الأسماء
بالأمس قد حليتني بقصيدة ... غراء تحفظ كاليد البيضاء
غيظ الحسود لها وقمت بشكرها ... وكما علمت مودتي ووفائي
خلفت في الدنيا بياناً خالداً ... وتركت أجيالاً من الأبناء
وغداً سيذكرك الزمان ولم يزل ... للدهر إنصاف وحسن جزاء

وأراد شوقي بقوله بالأمس قد حليتني بقصيدة حافظ التي قالها في حفل تكريم شوقي في المهرجان العظيم الذي أقيم بالقاهرة وحضرت

إليه وفود الأقطار العربية فظل سبعة أيام تكريماً لمبايعة شوقي بأمارة الشعر ومطلع القصيدة:

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً   وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

وفيها قال أحمد شوقي قصيدته المشهورة يصف ذلك المهرجان:

يا عكاظاً تألَّق الشرق فيه   من فلسطين إلى بغدانه
قد فقدنا الحجاز فيه فلم نعثر   على قسه ولا سبحانه

وكانت أجمل هدية مهداة لشوقي هي شمامة من اللؤلؤ المنضد من وفد شباب البحرين وهذه الشمامة بقيت بعد وفاته في متحفه في داره وكان يعتز بها رحم الله الشاعرين وهيهات أن يأتي الزمان بمثلهم فالشعراء كثر اليوم ولكن أين مثل شوقي وحافظ ومطران، لم تهتم الحكومة المصرية لموت حافظ ولم يبن له قبر ودفن في مقابر الإمام الشافعي شأنه شأن سائر الناس ويوم كنت بمصر صليت أحد الجمع في مسجد الإمام الشافعي وبعد الصلاة سألت عن قبر حافظ فلم يدلني عليه فقرأت الفاتحة على روحه وعسى الله أن يعوضه في جنان خلده بما يستحقه من مكرمات وحسنات. ومن شعره هذه الأبيات:

كم ذا يكابد عاشق ويلاقي   في حب مصر كثيرة العشاق
إني لأحمل في هواك صبابةً   يا مصر قد خرجت عن الأطواق
لهفي عليك متى أراك طليقةً   يحمي كريم حماك شعب راقٍ
كلف بمحمود الخلال متيم   بالبذل بين يديك والإنفاق
إني لتطربني الخلال كريمة   طرب الغريب بأوبة وتلاق
ويهزني ذكر المروءة والندى   بين الشمائل هزة المشتاق
ما البابلية في صفاء مزاجها   والشرب بين تنافس وسباق

والشمس تبدو في الكؤوس وتختفي والبدر يشرق من جبين الساق
بألذ من خلق كريم طاهر قد مازجته سلامة الأذواق
فإذا رزقت خليقة محمودة فقد اصطفاك مقسم الأرزاق
فالناس هذا حظه مال وذا علم وذاك مكارم الأخلاق
والمال إن لم تدخره محصناً بالعلم كان نهاية الإملاق
والعلم إن لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الإخفاق
لا تحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه بخلاق
من لي بتربية النساء فإنها في الشرق علة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق
الأم روض إن تعهده الحيا بالريّ أورق أيما إيراق
الأم أستاذ الأساتذة الأولى شغلت مآثرهم مدى الآفاق
أنا لا أقول دعوا النساء سوافر بين الرجال يجلن في الأسواق
يفعلن أفعال الرجال لواهيا عن واجبات نواعس الأحداق
يدرجن حيث أردن لا من وازع يخدرن رقبته ولا من واق
في دورهن شئونهن كثيرة كشؤون رب السيف والمزراق
كلا ولا أدعوكمو أن تسرفوا في الحجب والتضييق والإرهاق
ليست نساؤكمو حلاً وجواهرا خوف الضياع تصان في الأحقاق
ليست نساؤكمو أثاثاً يُقتنى في الدور بين مخادع وطباق
تتشكل الأزمان في أدوارها دولاً وهن على الجمود بواق
فتوسطوا في الحالتين وانصفوا فالشر في التقييد والإطلاق
ربّوا البنات على الفضيلة إنها في الموقفين لهن خير وثاق
وعليكمو أن تسبين نساؤكم نور الهدى وعلى الحياء الباقي

ومن قصيدة يهنىء أبناء وطنه بالعام الهجري:

أهلاً بنابغة البلاد ومرحبا جددتمو العهد الذي قد أخفقا
لا تيأسوا إن تستردوا مجدكم فلرب مغلوب هوى ثم ارتقا
مدت له الآمال في أفلاكها خيط الرجاء إلى العلا فتسلقا
فتجشموا للمجد كل عظيمة إني رأيت المجد صعب المرتقى
من رام وصل الشمس حاك خيوطها سبباً إلى آماله وتعلقا
عار على ابن النيل سباق الورى مهما تغلب دهره أن يسبقا
أو كلما قالوا تجمع شمله لعب الخلاف بجمعنا فتفرقا
فتدفقوا حججاً وخوضوا نيلكم فلكم أفاض عليكم وتدفقا
حملوا علينا بالزمان وصرفه فتأنقوا في سلبنا وتأنقا
فتعلموا فالعلم مفتاح العلا لم يبق باباً للسعادة مغلقا
ثم استمدوا منه كل قواكمو إن القوى بكل أرض متقا
وابنوا حوالي حوضكم من يقظة سوراً وخطوا من حذار خندقا
وزنوا الكلام وسددوه فإنهم خبأوا لهم في كل حرف مزلقا
وامشوا على حذر فإن طريقكم وعراً أطاف به الهلاك وحلقا
نصبوا لكم فيه الفخاخ وارصدوا للسالكين بكل فج موبقا
الموت في غشيانه وطروقه والموت كل الموت أن لا يطرقا
فتحينوا فرصُ الحياةِ كثيرة وتعجلوها بالعزائم والرقى
أو فاخلقوها قادرين فإنما فرص الحياة خليقة أن تخلقا

وقال من قصيدة في شكوى الزمان:

سعيت إلى أن كدت انتعل الدما فأبت وما أعقبت إلا التندما

سلام على الدنيا سلام مودع رأى في ظلام القبر أنساً ومغنما
تبلغ بالصبر الجميل وبالأسى زماناً وجادته المنى فتأدّما
أسرت بها الأولى فهام بأختها وإن ساءت الأخرى فويلاه منهما
فهيّى رياح الموت نكباء وأطفىء سراج حياتي قبل أن يتحطما
فما عصمتني من زماني فضائلي ولكن رأيت الموت للحر عظما
فيا قلب لا تجزع إذا عضك الأسى فإنك بعد اليوم لن تتألما
ويا عين قد آن الجمود لمدمعي فلا سيل دمع تسكبين ولا دما
ويا يد ما كلفتك البسط مرة لذي منة أولى الجميل وأنعما
فللَّه ما أحلاك في أنل البلى وإن كنت أحلى في الطروس وأكرما
ويا قدمي ما سرتِ بي لمذلَّةٍ ولم ترتق إلاَّ إلى المجد سلّما
فلا تبطئي سيراً إلى الموت واعلمي بأن كريم القوم من مات مكرما

في هذه القصيدة يصوّر حافظ حالة الأديب الذي لم تعصمه فضائله التي يتحلى بها ويرى الموت للأحرار هو أولى من حياة الذل والهوان، وهو يريد نفسه أنه لم يبسط يده لصاحب منة وأحرى بأنامله أن تُبلى على فقره وإن كانت أكرم في السطور كما يقول أن قدمه ما سارت إلى مذلة ولم ترتق قدمه إلاَّ إلى المعالي وفي هذا المعنى قال المرحوم عبد الجليل برادة:

دنيا يعظمها أناس وهي في عيني تقل
إن لم تصل أيدي لها فلرفضها رجلي تصل

وقال بمثله:

أمطري جبال سرنديب لؤلؤاً وفيض أبار تكرور تبرَا
أنا إن عشت لست أُعدم قوتاً وإذا مت لست أُعدم قبرا
شيمتي شيمة الملوك ونفسي نفس حرّ ترى المذلة كفرا

ولله در القاضي عبد العزيز الجرجاني إذ يقول في هذا المعنى أيضاً:

وما زلت منحازاً بعرضَي جانباً   من الذم اعتبر الصيانة مغنما
إذا قيل هذا منهل قلت فداري   ولكن نفس الحر تحتمّل الظما
واقبض خطوي عن أمور كثيرة   إذا لم أنلها وافر العرض مكرما
ولم تبذل في خدمة العلم مهجتي   لأخدم من لاقيت لكن لأخدما
أأشقى به غرساً وأجنيه دلةً   إذاً فاتباعُ الجهل قد كان أحزما

ومن قصيدة له يمدح فيها المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية:

رأيتك والأبصار حولك خشع   فقلت أبو حفص ببرديك أم علي
وخفضت من حزني على مجدامة   تداركتها والخطب للخطب يعتلي
طلعت بها باليمن من خير مطلع   وكنت لها في الفوز قدح ابن مقبل
وجردت للفتيا حسام عزيمة   بحديه آيات الكتاب المنزّلِ
محوت به في الدين كل ضلالة   وأثبتَّ ما أثبتّ غير مضلّل
لئن ظفر الأفتاء منك بفاصل   لقد ظفر الإسلام فيك بأفضل

وقال من قصيدة يصف بها شعر فيكتور هوجو شاعر فرنسا لمرور مائة سنة على وفاته:

ما ثغور الزهر في أكمامها   ضاحكاتٍ من بكاء السحب
نظم لو سمى فيها لؤلؤاً   كثنايا الغيد أو كالحبب
عند من يقضي بأبها منظرٍ   من معانيه التي تلعب لحب
بسَمتْ للذهن فاستهوت نهى   مغرم الفضل وصب الأدب

وكان حافظ ملماً باللغة الإنجليزية ولم يصف شعر هوجو إلا لأدبه وشعره لا لدينه ومذهبه كما وأن أحمد شوقي رثا الكثيرين من شعراء وأدباء الغرب لعلمهم وأدبهم وفنهم وفي باب المراثي، من ديوانه الكثير من هذه القصائد.

ومن قصيدة يمدح فيها أحمد شوقي لما قدم من الأندلس:

ورد الكنانة عبقري زمانه   فتنظري يا مصر سحر بيانه
واذكر لنا الحمراء كيف رأيتها   والقصر ماذا كان من بنيانه
ماذا تحطم من ذراه وما الذي   أبقت صروف الدهر من أركانه
ولعلّ نكبته هناك تفرق   وتعدد قد كان في تيجانِه
عبرٌ رأيناها على أيامنا   قد خففت ما نابه من آنِه
وحوادث في الكون إثر حوادث   جاءت بهدم كيانِه

هذه القصيدة قالها حافظ لما رجع شوقي من رحلته للأندلس ونظم القصائد الرنانة في عظمة ما خلفه العرب من الآثار في العلم والصناعة والأدب ونعني تلك الآثار في قصيدته في قرطبة وغرناطة وخاصة في قصر الحمراء متأثراً من قصيدة البحتري في وصف إيوان كسرى بقوله:

وعظ البحتري إيوان كسرى   وشفني القصور من عبد شمس

وفي نعيه لقصر الحمراء يقول:

مشت الحادثات في غرف الحمراء   مشى النعي في دار عرس
وإذا الدار ما بها من أنيسٍ   وإذا القوم ما لهم من محس

ومن قصيدته عن اللغة العربية تنعي حظها بين أهلها:

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ... وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجذع لقول عُداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي ... رجالاً وأكفاءً وأدت بناتي
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة ... وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي
وسعت كتاب اللَّه لفظاً وغاية ... وما ضقت من آي به وعظات
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً ... فيا ليتكم تأتون بالكلمات
أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادي بوأدي في ربيع حياتي
سقى اللَّه في بطن الجزيرة أعظماً ... يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظنه ... لهن بقلب دائم الحسرات
وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق ... حياءً بتلك الأعظم النخرات
أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً ... من القبر يدنيني بغير أناة
واسمع للكتاب في مصر ضجةً ... فأعلم أن الصائحين نعاتي

ومن قصيدة يحيّي بها جمعية المرأة الجديدة ويخاطب مؤسسوها:

إليكن يهدي النيل ألف تحيةٍ ... معطرةٍ في أسطرٍ عطرات
ويثني على أعمالكنّ موكلّي ... بأطراءِ أهلِ البر والحسنات
أقمتن بالأمس الأساس مباركاً ... وجئتن يوم الفتح مغتبطاتِ
صنعتن ما يعيي الرجال صنيعه ... ففزتنَّ في الخيراتِ والبركاتِ
يقولونَ نصف الناسِ في الشرقِ عاطل ... نساءٌ قضينَ العَمر في الحجراتِ
وهذي بناتُ النيل يعملن للنهي ... ويغرسْنَ غرساً داني الثمراتِ

إلى أن يقول:

صفيةُ قادتكن للمجد والعلا كما كان سعد قائد السروات
عرفنا لها في مجد سعد نصيبها من الحزم والإقدام في الأزمات

يريد بذكر صفية صفية هانم زغلول زوجة الزعيم الخالد سعد زغلول باشا وهي قادت نساء الجمعية في مظاهرة ضد المستعمر ولم تخش ولم يخشين من كان معها من نساء وبهذا الصنيع أصبحت من النساء الخالدات رحمها الله.

إلى هنا نكتفي بعيون القصائد التي أوردنا لحافظ إبراهيم وكلها تشهد له بعروبته وإسلاميته ووطنيته رحمة الله تعالى، ونختم محاضرتنا بشيء من دعاباته فقد كان مداعباً لطيفاً وصاحب نكات لاذعة وكانت بعض مداعباته مع أحمد شوقي وإمام العبد فمرة أتاهم أمام العبد وكان زنجياً يتصبب عرقاً وطلب من حافظ منديلاً ليمسح وجهه فأعطاه حافظ المنديل ولما أراد إمام أن يعيد إليه المنديل قال له حافظ يمكنك أن تحتفظ به باستعماله بعدك يسود الوجه، فضحكوا من هذه النكتة، ومرة ذهب حافظ مع زميله الشاعر مطران إلى لبنان وأقيمت على شرفهما عدة حفلات وكان في إحدى الحفلات أحد المطارنة وهو أديب يتذوق الشعر فتقدم من حافظ وخليل مطران وقبلا جبينه وما أن خرج الاثنان من الحفلة إلا أن سيادة المطران خص حافظ بقبلة وقبله على جبينه وقال حافظ المطران قبلني وأنا أقبل مطران وبذلك أصبحنا متعادلين، وفي الزمن السابق كانت الياقة تشتبك مع القميص بزر خاص لأنها كانت منفصلة عنه وكان حافظ يرتدي ثيابه للذهاب لإحدى الحفلات ولم يعثر على زر ياقته فأهداه صديق له زرٌّ من عنده ولما خرجا من الحفلة تقدم

حافظ من أقرب دكان واشترى زرًّا وقدمه للصديق فاستغرب الصديق وسأله ما الذي دفعه لشراء زرّ وإعطائه له فأجاب حافظ لا أريد أن يكون جميلك في عنقي.

وأصيب حافظ بنظره وكان شاعراً معروفاً وصديقاً لحافظ وكان أُحيل للتقاعد وخصص له راتباً بسبب إصابته في بطنه وكان مرة يسير مع حافظ متأبطاً ذراعه فصادفهما متسول ومد يده مستعطياً وهو يقول للضرير حسنة لله الله ينوّر بصرك فزجره حافظ قائلاً هل تريد قطع رزقه يريد بقوله إذا رجع بصره رجع لوظيفته.

وكان حافظ في وليمة لدى أحد الأطباء وكانت الفاكهة من البرتقال على أنها برتقال ماوردي الرائحة ولما قشرها حافظ وجدها عادية فقال حافظ للطبيب أسرع يا دكتور هذه البرتقالة مصابة بفقر الدم.

ومرة كان حافظ يسير في الطريق فصادفه شاعر يعرفه ورأى وجهه ملفوف بالضمادات فقال له حافظ ما أصابك هل قرأت أشعاري على أحد.

وكان بين شوقي وحافظ كثير من الدعابات حتى القاسية منها فقيل إنهما كانا في أحد المجالس وضايق حافظ شوقي بدعاباته وقال:

يقولون إن الشوق نار ولوعة فما لي أرى شوقي به اليوم باردا

فرد عليه شوقي ارتجالاً مخاطباً أحد الجلساء وقال:

وأودعت إنساناً وكلباً أمانةً فضيعها الإنسان والكلب حافظ

وكانا مرة في وليمة يجلس أحدهما أمام الآخر وضع على المائدة طبق فيه عدد من البفتيك على عدد الموجودين على المائدة وأخذ كل واحد قطعته وبقيت قطعتين إحداها كبيرة والأخرى صغيرة فمد حافظ

بشوكته قبل شوقي وأخذ الكبيرة فنظر إليه شوقي مؤنباً وقال له تعلم يا حافظ أنك ارتكبت خطأ اجتماعياً فقد أخذت الكبيرة وتركت لي الصغيرة وهذا يتنافى مع أدب المائدة فأجابه حافظ لو فرضنا أنك مددت يدك قبلي فأي قطعة كنت تأخذ؟ فقال شوقي من اللياقة أن آخذ الصغيرة فقال له حافظ:

ما الداعي إذاً لغضبك وقد وصلك حقك يعني بذلك القطعة الصغيرة، وبين الحشرات خنفس أسود يسمى الجعل يكره الرائحة الطيبة فإذا شمها يموت حتى قيل في المثل (إن طيب المسك مؤذٍ بالجعِل) وكان شوقي وحافظ يعرفان هذا المثل فكانا مرة في السوق فدخل شوقي دكانا ليشتري زجاجة عطر فتبعه حافظ فقال له شوقي لا تدخل أخشى عليك الخطر فرد عليه حافظ قائلاً ما دمت معي فإذا أصبت بمكروه أنتعش بك يريد ذلك.

ونمي مرةً لحافظ بأن إمام العبد يقرظه ويدعى أنه يساعده في نظم الشعر حتى قال أنا الذي خلقته فاحتاج مرة أمام العبد أن يستدين من صاحبه حافظ ولما فاتحه بالأمر قال له حافظ: آسف فأنا ربي كما خلقتني.

ودعى مرة حافظ إلى وليمة قدم فيها طعام من الخضار المسلوق بمناسبة الصوم الكبير لدى الأقباط وكان حافظ يمني نفسه بطعام دسم ولحم سمين فقال له صاحب الدعوة معتذراً لم نستطع أن نقدم لكم لحماً يظهر على المائدة وبين المدعوين كما رأيتم عدد من رجال الدين، فقال حافظ وما كان يمنعكم لو جعلتم اللحم ملفوفاً بالبرشام، وسأله صاحب الدعوة هل تريد كوباً من الماء فقال له حافظ وهل طعامك يحتاج للشرب.

ومرة كان حافظ زائراً بأحد المدن فأتاه ثقيل يدعي الشعر وطلب من حفظه أن يسمعه بعض قصائده فسمع له حافظ وكان شعره سمج أثقل منه وأخيراً سأله الزائر كيف وجدت بلدتنا أجاب حافظ كلهم ممتازون فقال الثقيل ولكن بالبلد عدداً من الذين ينبغي أن يرحلوا عنها فأجابه حافظ: كن أنت قدوتهم وشجعهم يا أستاذ، ومرة كان الحديث يدور عن بعض السخفاء وتصرفاتهم فتضايق أحد الحاضرين وقال لحافظ ما لي أراكم تجعلون سمركم مقتصراً على السخفاء ليس لديكم موضوعاً آخر فأجابه حافظ لماذا؟

فنحن لا نقصدك بالذات فالبلد ملأى بالسخفاء.

ومن المعروف عن حافظ أنه لم يكن موسراً وبيته دائماً خالٍ من المآكل الدسمة وذات مرة كان في زيارة أحد الأثرياء في منزله ولما حان موعد العشاء أمر الثري بإعداد المائدة ولما جلسوا عليها وجدها حافظ لا تحوي إلاَّ على المآكل البسيطة الرخيصة وكان يمني نفسه بأكلة دسمة ولما فرغوا من الأكل قال له صاحب الدعوة أرجو إن كنت مسروراً بهذا الطعام فأجابه حافظ كنت أشعر كأني في بيتي يريد بأنه كان مثل طعامه في بيته خال من اللحم والدسم.

وشكا مرة إلى طبيب من أصحابه ألماً في الناحية اليسرى من بطنه وبطنه المصران الأعور والمصران الأعور لا يكون إلا في الناحية اليسرى من البطن ولكن حافظ رغم ألمه ضحك وقال للدكتور:

ربما يكون مصراني أعور من العين اليسرى.

وإلى هنا انتهينا من إيراد بعض دعاباته ونكاته والمؤسف حقاً أن يعيش هذا الشاعر كما قدمنا في الترجمة وحيداً مقتراً عليه في الرزق

ويموت منسياً كآحاد الناس في مقابر الإمام الشافعي وكان حظ زميله وقرينه شوقي أوفر حظاً فقد اهتمت به الجمهورية وجعلت من بيته متحفاً يزوره الأدباء والشعراء وبذلك أحيت ذكره حيًّا وميتاً رحمهما الله رحمة واسعة والسلام عليكم.

وإليكم بعض ما كتبه الأستاذ حسن الزيات إذ قال في كلمته التحليلية التي ألقاها بمهرجان حافظ المنعقدة في ٢٥ يوليو سنة ١٩٥٧ بالإسكندرية برعاية المجلس الأعلى للفنون والآداب ما نصه:

ترى لو أن حافظ رحمه الله تأخر به الزمن سبعين سنة فظهر في أواسط هذا القرن الماضي أكان ذكره يرتفع هذا الارتفاع وذكراه يحتفل بها هذا الاحتفال؟ أغلب الظن أن حافظاً لو نشأ في هذا الجيل لكان له أمر غير هذا الأمر وتاريخ غير هذا التاريخ ذلك أن العبقري ابن إقليمه وبيئته وزمانه وظروفه وأحواله فهي تعده وتكيفه وتوجهه وتتيح له الفرص لينجح وتهيىء أسباب الأسباب ليمتاز وتركز عليه الضوء ليظهر على حسب عواملها المختلفة الأثر وحافظ لو تأخر إلى هذا الجيل لاختلف فيما كان عليه في نمط حياته ونوع ثقافته ولون تفكيره ـ وطبيعة قلمه ومدى نبوغه، كان لا يشتهر مثلاً بابتكار النكت وجمع الأحاديث وحفظ الأشعار فلا مجالس للسهر في قصور الملوك ولا محافل للأدب إلى أن يقول: ولعلّ حافظ كان اقرب إلى عواطف الناس من زميليه شوقي ومطران لأن نشأته المعيشية كانت أشد التصاقاً بطوائف الشعب العاملة فهو من يوم رأى النور إلى حين لفظ أنفاسه لم يبرح مع الجمهور العام في مراحه ومغداه، وكانت طفولة حافظ الأدبية مجهولة حتى كشف عنها اللثام المؤرخ الكبير عبد الوهاب النجار في مقال نشره

بالعدد الخاص بذكرى حافظ من مجلة أبولو سنة ١٩٣٣م حيث قال في صحيفة ١٣٢٢: في صيف ١٣٠٥هـ كنت طالباً في الجامع الأحمدي بطنطا وقد سافرت أيام العطلة إلى بلدنا القرشية ثم عدت في أواخر شعبان من تلك السنة إلى طنطا فإذا بإخواني وأصدقائي يلوذون بفتى غض الإهاب جديد الشباب وأسرعوا بتقديمي إليه وتقديمه إليّ باسم الأديب الشاعر محمد حافظ إبراهيم ولم تمر إلا عشية وضحاها ـ حتى أحسست من نفسي ميلاً إليه يجاذب الأدب الذي كابدنهم نفسي حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف مجاورة، وكان دأبنا في رمضان تلك السنة تصلي المغرب والعشاء والتراويح معاً ثم نلبث في سهر ممتع ومطارحة الشعر ومذاكرة دواوين الأدب إلى أن يأتي وقت السحور ثم نعود بعد السحور إلى ما كنا فيه إلى انبثاق الفجر فنؤدي الصلاة ثم نخرج إلى خارج المدينة ونعود وقد آذنت الشمس المغيب ثم نعود إلى مثل ذلك حتى إذا جنّ الليل ومما حصل لحافظ في ذلك العهد أن خاله أغلظ له القول في شأن من الشؤون وزجره فكتب لخاله يقول:

ثقلتْ عليك مؤونتي إنّي أراها واهية
فافرحْ فأنّي ذاهبٌ متوجهٌ في داهية

إلى أن قال الأستاذ النجار: لم يتلق حافظ دراسة أدبية منظمة وكان يحضر دروس النحو والصرف في حلقات المعهد الأحمدي بطنطا ثم خلص إلى قراءة كتب الأدب القديم كالكامل والعقد الفريد غير أن كتاب الأغاني استبد بوقفه وعاطفته فعكف على مراجعة قصائده واستظهار قلائده وإليه يرجع كل محفوظه، وكان ذا حافظة قوية وقريحة

ممتازة حتى في يده كتاب الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفي وفيه غير مباحثه العلمية مختارات من عيون الشعر كمختارات البارودي الذي جمع فيه أحسن أشعار الشعر الأقدمين، رحم الله حافظ وعوضه خلد جنانه وهذا مما لخصناه من مقالة محمد رجب البيومي المنشور في مجلة المنهل بصفحة ٦٠٠ لشهري محرم وصفر سنة ١٣٩٦ المدينة المنورة.

محمود سامي باشا البارودي

ولد محمود سامي باشا في ١٢٥٥/٧/٢٧هـ الموافق ١٨١٨م لأبوين من الجراكسة وكان أبوه حسن حسني بك البارودي من أمراء المدفعية في الجيش المصري ثم صار مدير البربر ودنقله في عهد محمد علي باشا جد الأسرة الخديوية وكان عبد الله بك الجركسي جده لأبيه أما لقب البارودي فنسبة إلى بلدة ايتاي البارود إحدى بلاد مريرية البحيرة الذين كانا أجداده مراد البارودي ملتزماً لها وكان ملتزم في ذلك العهد بنسب إلى التزامه.

وكان أحد أجداد البارودي يرقون بنسبهم إلى حكام مصر المماليك وكان محمود سامي يعتز بهذا النسب في شعره وكل أعماله فكان له فيه أثر قوي في جميع أدوار حياته وفي المصير الذي انتهى إليه.

وقد حُرم البارودي العطف الأبوي منذ نعومة أظفاره فقد مات أبوه بدنقله وهو في السابعة من عمره فكفله بعض أهله وضموه إليهم وتلقى في بيتهم دراسة الأولى إلى الثانية عشرة ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة والترك أبناء الطبقة الحاكمة فقد كانت الجندية مظهر السيادة والعزة فكان لزاماً على أبناء هذه الطبقة أن يتعلمو فنونها لينهضوا

بالمناصب الرئيسية في الدولة، وخرج البارودي من المدرسة الحربية مع أمثاله في أخريات سنة ١٢٧١هـ الموافق ١٨٥٤م وهو في السادسة عشر ولسوء حظه وحسن حظ الأدب كانت ولاية مصر آلت إلى عباس الأول ثم إلى سعيد وكان عباس قد عدل عن الخطة التي بدأها محمد علي حين رأى الدولة العثمانية تنظر إلى جيش مصر بعين الريبة والقلق وبدأ يخيم على مصر جو من الركود وأطل عهد سعيد وخرج الباشا شاويش محمود سامي من المدرسة الحربية في هذا الجو الراكد تستجد في حناياه أسباب اليقظة والقلق ترى ما يصنع؟

لقد سُرح الجيش واقفرت ميادين القتال من ألوية مصر أما محمود سامي الذي لم يمضِ بعد غمار الحياة والذي يجري في عروقه الإمارة والمجد فقد أحس بأن ثورة الشباب تهزه هزاً عنيفاً تطلع إلى الماضي القريب وتذكر مسيرة الأعلام المصرية إلى بلاد العرب وسورية والأناضول فتمنى لو أنه ينعم بنعيم أولئك الغزاة ومشاركتهم في سرائهم وضرائهم، وتطلع إلى ما قبل هذا الماضي فارتسمت أمامه صورة أجداد والمماليك الذين كانوا يحكمون على ضفاف الوادي فحنّ إلى عهدهم وتمنى لوكان معهم. فكيف يتسنى لهذا الشاب عن هذا الألم ألا سبيل إلى ميادين يخلقها وحروب يخوض غمارها مع الخائفين. إن العرب أجداد الأولين والعربي جد لكل من تكلم بالعربية قد سجلوا في شعرهم وقائع الحروب فليرجع الشاب إلى ديوان الحماسة، اندفع الشاب يقرأ الشعر العربي فتختزن ذاكرته القوية كل ما طاب، وألقى البارودي في هذا الشعر روعة وجمالاً يأخذان باللب ويحركان اللسان إلى القول، وذلك الشعر لا يقف عند الحروب والميادين بل يتناول الحياة كلها

جدها وهزلها حلوها ومرها ففيه النزل والوصف بالحكمة وكل ما يطمع الإنسان أن يجد فيه. وتحركت نفس الشاب لقول الشعر بعد أن توفر على مطالعته واستظهاره أليس هو البارودي سليل المماليك الطموح إلى المجد والفخر بماض مؤثل، هذه النزعة في شعر البارودي بدت منذ شبابه ومنذ بدأ فريضة يستقر لتحفظ الأجيال في سنى ١٢٧٩هـ سافر إسماعيل باشا بعد أن تولى أريكة مصر يرفع إلى السلطان في الآستانة الشكر على ولايته والحق سامي البارودي بالحاشية التي صحبته أثناء مقامه بدار الخلافة، فتوسم فيه إسماعيل النجابة والطموح فعاد به إلى مصر من تلك السنة وعاد البارودي وقد بلغ الرابعة والعشرين من سنة، ورقى في رتبته وعين على قيادة فرقتين من الفرسان، ففتح فيه آفاقاً من الحياة أمامه ولم يلبث في منصبه إلا قليلاً حتى أوفد إلى فرنسا مع جماعة من الضباط حيث شهدوا مناورة الجيش الفرنسي السنوية، ومن فرنسا سافروا للندن فشهدوا من الأعمال العسكرية ما زادهم بها علماً وعادوا لمصر، فإذا الحظ يلقى البارودي فيرقى إلى رتبة قائم مقام في فرسان الحرس الخاص ولما شبت الثورة في جزيرة كريت على الدولة العثمانية أرسل اسماعيل مجاملة للسطان ببعث جند يعاون قوات السلطان على قمع تلك الثورة، وكان البارودي رئيس ياورحرب في ذلك الجند وما كان به سعده من يوم لقد شعر سامي بسيفه يهتز في قرابه وبيده مقبض هذا السيف ليضرب الثائرين، وأحسن سامي البلاء في ذلك الحرب فأنعم عليه السلطان بالوسام العثماني من الدرجة الرابعة من يومها أخذت الأنظار تطلع عليه بإعجاب واكبار، فلقد ترنم هذا الشاب بأنغام من الشعر لم يألفها أهل زمانه فما هو الجديد الذي استرعى

الأسماع في شعره؟ الذي استرعى الأسماع هو نزوعه إلى تصوير الواقع كما هو في بساطة وسلامة قوة وفي شعره ظاهرة لم يفطن لها أحد فهو اعتمد في تصويره للواقع على حاسة النظر، فإذا قرأت قصيدته التي قالها في حرب كريت ترى فيها تصوير المرئيات واضحاً كل الوضوح وسوف نقرؤها في عيون قصائده، ولما كانت سنة ١٢٩٤هـ أعلنت روسيا الحرب على تركيا وأرسل اسماعيل باشا جيشاً لمساعدة تركيا سافر البارودي مع الجيش واشترك في الحرب وكوفىء على موقفه البطولي بإنعام السلطان عليه برتبة أمير لواء وبنيشان الشرف من الدرجة الثالثة، وعاد البارودي من تلك الحرب وقد أدرك الأربعين من عمره وبلغ من الرتب العسكرية أسماها فعين مديراً للشرقية فمحافظاً للعاصمة، وبينما هو في هذا المنصب ترك إسماعيل حكم مصر بعد تدخل الدول الأجنبية وكان طبيعياً أن تثير هذه الحوادث عواطف الشعب المصري على التدخل الأجنبي وأن تلهب في النفوس شرارة القومية وتدفقها للتثبت بالشورى والحكم النيابي وزاد ارتقاء توفيق عرش مصر رجاء الشعب في بلوغ هذه المطالب، لكن توفيق لم يلبث حين آل إليه الأمر أن أعاد المراقبة الثنائية وأصدر قانون التصفية وعارض الحكم النيابي وأعاد السلطة المطلقة، وفعل هذا ضعفاً منه أمام التدخل الأجنبي لقد آذن هذا العمل من توفيق بإثارة مشكلة جديدة لم تكن بادية في عهد إسماعيل، تلك حركة المصريين في الجيش فقد كان الرؤساء عن الجيش من الجراكسة، ولم يكن يرقى من المصريين إلى الصفوف الأولى من المصريين، أحد، وكان رؤساء الجيش للمصريين والتدخل الأجنبي كان هو السبب في تحريكها وكانت الشكوى أولاً مقصورة على طلب العدل

ورفع الظلم لذلك كان محمود سامي وهو جركسي محبوباً من المصريين وموضع رجاء العسكريين في رفع الحيف النازل بهم فلما ثار المصريون بناظر الحربية عمان رفقي واستقال أسند توفيق هذه الوزراة لسامي البارودي فوقف موقف الحيرة ليظل على ولائه لصاحب العرش أم على وفائه للشعب، ورأى رياض باشا رئيس الوزارة يومئذ إيثار البارودي للشعب فدس عليه جند توفيق فاضطره للاستقالة ودفعه إلى اعتزال السياسة والعيش بعيداً عن جو القلق والاضطراب، ورأى توفيق حركة الجيش تقوى وتكبر فنحى رياض من الوزارة وأسندها إلى شريف باشا فألف البارودي الوزارة وأسندها إلى شريف باشا ودعا البارودي بالعودة للحكم واستقال شريف باشا فألف البارودي الوزارة بعد أن أصبح زمام الأمر في مصر إلى الضباط الذين يعتبرون الشراكسة أجانب كغيرهم، فأراد البارودي أن يتلافى هذا والحركة ويصل بحسن رأيه لإقامة العدل والإصلاح؛ لكن الأمور ساءت على غير هواه، وفكر الضباط في خلع توفيق ونازعته نفسه إلى مكان المجد وتحركت فيه أسباب الامتداد بمكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر، وحاول أن يتخلص الاعتزال في مزارعه بعد أن نصح الضباط المرابيين وصارحهم برأيه ولكن إندفاعه في حركة الضباط حال بينه وبين المخلص منهم فلم يكن له بد من أن يسير معهم ويربط حظه بحظهم، فلما اضطرمت نيران الثورة أرغمه زعماؤها على اصطلاء نارها فخب فيها ووضع وحكم عليه بعد انقضائها بالنفي إلى جزين سيلان حتى عمى ثم شفع فيه فأذن له بالقدوم لمصر بعد مضي سبعة عشر عاماً من منفاه وبقي في منزله ليشتغل بالأدب إلى أن مات سنة ١٣٢٢هـ الموافق ١٩٠٤م رحمه الله تعالى.

وما زال حقد الضباط المصريين سائداً يخلفه الآباء للأبناء منذ سبعين سنة حتى قام جمال عبد الناصر مع رفاقه أعضاء الثورة لخلع فاروق ملك مصر وإجباره على التنازل عن العرش على يد أكبر أعضاء الثورة سناً ورتبة اللواء نجيب ونصحه أن ينجو بنفسه وإلا فالويل له فاستكان للأمر الواقع وذهب مع أولاده لجزيرة «بريوني» في ايطاليا حتى وافاه الأجل المحتوم وكان طلب أن يدفن في مصر في مقبرة والده فؤاد فأجيب لطلبه فجيء بنعشه ودفن ليلاً ولم تجر له مراسم التأبين ولم يعلم به الشعب وبموته انقرضت سلالة محمد علي باشا التي لم تدم غير سنة، ولولا نبرة جمال بالإشتراكية لخلد في أبطال الرجال وذهب هو بدوره بعد أن أصلح ما بينه وبين الدول العربية وخلفه آخر عضو في الثورة الرئيس أنور السادات وقل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء.

لقد أوردنا فذلكة من مقدمة الدكتور محمد حسين هيكل باشا الذي قدمها لديوان البارودي في طبعته الثانية معبراً ما يكنه من تقدير وإكبار للديوان المذكور ونبدأ بملخص مقدمة البارودي الذي افتتح به ديوانه فقال: اللهم إني أحمدك وأشكرك على جزيل ما سويت واحمدك على ما أسبغت من النعم وأعوذ بك من عثرات اللسان وغفلات الجنان وأشهد محمداً رسولك الأمين وعلى آله وأصحابه آمين وبعد:

فإن للشعر لمعة خيالية يتألق وميضها في سماء الفكر، فتبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألائها نوراً يتصل خيطه بأسلة اللسان، فيبعث بألوان من الحكمة وخير الكلام ما أئتلفت ألفاظه وانتقلت معانيه، وكان قريب المأخذ بعيد المرمى سليماً من وصمة التكلف فمن آتاه الله

منه حظاً فقد ملك أعنة القلوب، ونال مودة النفوس ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكفى وأنك لترى الأمم على اختلاف ألسنتهم وتعدد مشاربهم لهجين به عاكفين عليه، لا يخلو منه جيل دون جيل، ولقد سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قول زهير: فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار أو جلاء فجعل يعجب بمعرفته بمقاطع الحكمة، وللشعر رتبه لا يجهلها إلا من جفا طبعه ونبا عن قبول الحكمة سمعه، وقد كنت في ريعان الفتوة واندفاع القريحة ألهج به لهج الحمام بهديله، وآنس به انس العديل بعديله لاتذرعاً إلى وجه أنتويه ولا تطلعا إلى غنم أحتويه، وإنما هي أغراض حركتني وإباء جمح بي فلم أتمالك أن أهبت فحركت جرسي وهتفت فسريت به عن نفسي كما قلت:

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت　　به عادة الإنسان أن يتكلما

وإنما الشعر لب المرء يعرضه　　على المجالس إن كيساً وإن حمقا

وإن أشعر بيت أنت قائله　　بيت يقال إذا أنشدته صدقا

فعزمت على الاقصار تفادياً من خطأ ولا غرور فالإنسان مفتون بشعره وولوع ببنات فكره ولولا ذلك لما دوّن الناس أشعارهم ولا اتخذوا الأدب شعارهم، وبقاء الذكر حياة الأبد وبقاء الخلود، ولله در القائل

على المرء أن يسعى　　وليس عليه إدراك المرام

والله اسأل أن يلهمني الصواب ولا يحرمني الثواب، وإذا كان لنا أن نبدأ بذكر اقتباسات من قصائده وأشعاره فنذكر أولاً القصيدة التي قالها

في حرب اليونان لمّا ذهب على مقدمة الجيش المصري لمساعدة السلطان لقمع حركة الطغيان وقد أوردنا أكثرها وهي طويلة مذكورة في ديوانه.

أخذ الكرى بمعاقد الأجفان ... وهفا السرى بأعنة الفرسانِ
والليل مشوار الذوائب ضارب ... فوق المتالع والربى بجرانِ
لا تستبين العين في ظلماته ... إلا إلتماع أسنة المران
تسري به ما بين لجة فتنةٍ ... تسمو غواربها على الطوفانِ
في كل مربأةٍ وكل ثنيةٍ ... تهدار سامرة وعزف قيانِ
فتشنّ عادية ويصهل جرد ... وتصيح أجراس ويهتف عان
قوم أبى الشيطان إلا خسرهم ... فتسللوا من طاعة السلطان
ملأوا الفضاء فما يبين لناظر ... غير إلتماع البيض والخرسان
فالبدر أكدر والسماء مريضة ... والبحر أشكل والرماح دوان
والخيل واقفة على أرسانها ... لطراد يوم كريهةٍ وطعانِ
وضعوا السلاح إلى الصباح واقبلوا ... يتكلمون بألسن النيرانِ
حتى إذا ما الصبح أسفر وارتمت ... عيناي بين ربى وبين مجان
فإذا الجبال أسنة وإذا الوهاد ... أعنة والماء أحمر قانِ
فتوجست فرط الركاب ولم تكن ... لتهاب فامتنعت على الأرسانِ
نزعت فرجعت الحنين وأنما ... تحناتها شجن من الأشجانِ
ذكرت مواردها بمصر وأين من ... ماء بمصر منازل الرومانِ

ومن قصيدة النسيب:

صلةُ الخيال على البعادِ لقاءُ لو كان يملك عينيَ الأغفاءُ
يا هاجري من غير ذنب في الهوى مهلاً فهجرك والمنون سواءُ
أغريت لحظك بالفؤاد فشفهُ ومن العيون على النفوس بلاءُ
هي نظرة فامنن علي بأختها فالخمر من ألم الخمارِ شفاءُ
رقت لي الورقاء في غدواتها وبكت علي بدمعها الأنباءُ
فبقلب كل فتىً غرام كامنٌ وبعطف كل مليحةٍ خيلاءُ
فدع التكهن يا طبيب فأنما دائى الهوى ولكل نفس داءُ
ألم الصبابة لذة تحيا به نفسي ودائي لو علمت دواءُ
وبمهجتي رشئية من دونها أسد لها قصب الرماح أباءُ
جودى عليّ ولو بوعد كاذب فالوعد فيه تعله ورجاءُ
زعموك شمساً لا تلوح بظلمةٍ ولقولهم عندي يد بيضاء
لا ترهبي قول الوشاة فأنهم قد أحسنوا في القول حين أساؤوا
فعلام تخشين الزيارة بعدما (أمن ازديارك في الدجى الرقباء)

وقال في قصيدة:

سواي بتحنان الأغاريد يطرب وغيري باللذات يلهو ويلعب
وما أنا من تأسر الخمر لبه ويملك سمعيه اليراع المثقب
ولكن أخوهم إذا ما تأرجحت به سورة نحو العلا راح يدأب
ومن تكن العلياء همة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبب
إذا أنا لم أعط المكارم حقها فلا عزّني خال ولا ضمي أبُ
خلقت عيوفا لا أرى لابن حرة لدي يداً أغضي لها حين يغضب

وبحر من الهيجاء خضت عبابه ولا عاصم الا الصفيح المشطب
توسطته والخيل بالخيل تلتقي وبيض الظبا في الهام تبدو وتقربُ
فما زلت حتى بين الكر موقفي لدى ساعة فيها العقول تغيبُ
كذلك دأبي في المراس وأنني لأمرح في غيي التصابى وألعبُ
يوماً لفتى ما لا يكون طماعةً ولم يدر أن الدهر بالناس قلب
ولكنها الأقدار تجري بحكمها علينا وأمر الغيب سرٌ محجبُ

وقال وهو بسرنديب وقد سمع باكية تبكي:

وباكية شجت قلبي بلحنٍ تهيج لها المسامع والقلوبُ
سألت فقيل قد فقدت حبيباً وهل يبقى على الدنيا حبيبُ
بكيت لها ولم أفهم صداها وقد يبكي من الطرب الغريب

وقال:

ليس ابن آدم ذا جهل بمصرعه لكنه يتأسى الجدَّ باللعب
تراه يلهو ولا ينفك ذا حذرٍ وراحة النفس لا تخلو من التعبِ

وقال من قصيدة في حرب الروس يذكر شوقه للوطن:

هنيئاً لريّا ما تضم الجوانح وإن طوّحت بي في هواها الطوائح
فتاة لها في منصب الحسن سورة نقصر عنها الغيد وهي رواجح
أحاط على مثل الكثيب إزارها ودارت على مثل الفتاة الوشائح
ففي الغصن منها إن ثنت مشابهة وفي البدر منها إن تجلت ملامحُ
كأن اهتزاز القرط في صفح جيدها سنا كوكب في مطلع الفجر لائح

عجبت لعيني كيف تظمأ دونها وأنسانها في لجة الماء سابح
أحن لها شوقاً ودون مزارها مسالك يأويها الردى ومنادحُ
يكافحني شوقي إذا الليل جنني واغدو على جمع العدى فأكافحُ

وقال في الفخر على رؤى المتنبي:

رضيت من الدنيا بما لا أوده وأي امرىء يقوى على الدهر زنده
أحاول وصلاً والصدور خصيمة وأبغي وفاءً والطبيعة ضدهُ
حسبت الهوى سهلاً ولم أدر أنه أخو غدرات يتبع الهزل جده
ومن عجبٍ أن الفتى وهو عاقل يطيع الهوى فيما ينافيه رشده
وما الحب إلا حاكم غير عادل إذا رام أمراً لم يجد من يصده
فأي فؤاد لا تذوب حصاته غراماً وطرف ليس يقذيه سهده
بلوت الهوى حتى اعترفت بكل ما جهلت فلا يغررك فالصاب شهده
لعمرك قد ولى الشباب وجل بي من الشيب قطب لا يطاق مردهُ
فأي نعيم في الزمان أروقه وأي خليل للوفاءِ وأعدُّهُ
فإمّا حياة مثل ما تشتهي العلا وإمّا ردى يشفى من الداء وفدهُ

وقال من قصيدة:

تغنى الحمام ونمَّ الشذى ولاح الصباح فيا حبذا
وما زال يرضع طفل النبات ثدي الغمامة حتى اغتدى
فقم نغتنم صفو أيامها وندفع بالراح عنا الأذى
فما بعد عصر الصبا لذةٌ ولا مثل صفو الحميا غذا
تذود عن القلب أحزانه وتفضي عن العين شوب القذى
وتجلو الظلام بلألائها كأن بأيدي السقاة الجذا

إذا ما احتساها كريم هدا   وإن عب فيها لئيم هذى
فدع ما تولى وخذ ما أتى   فلن يصلح العيش إلا كذا

وقال من قصيدة يصف أيام الربيع ويذكر مواسم اللهو في عصر الشباب:

رمت بخيوط النور كهربة الفجر   ونمت بأسرار الندى شقة الزهر
وسارت بأنفاس الخمائل نسمة   بليلة مهوى الذيل عاطرة النشر
فقم نغتنم صفو البكور فإنها   غداة ربيع زهرها باسم الثغر
ففي الجو هتان يسيل وفي الثرى   سيول ترامى بين أودية غُزرِ
كأن الندى فوق الشقيق مدامع   تجول نجداً أو جمان على تبرِ
وقد شاقني والصبح في خدر أمة   حنين حمامات تجاوبن في وكر
هتفن فأطربن القلوب كأنما   تعلمن ألحان الصبابة من شعري
لعمرك ما في الدهر أطيب لذة   من اللهو في ظل الشبيبة واليسر

وقال من قصيدة يرثى ولده:

بكيت علياً إذ مضى لسبيله   بعين تكاد الروح في دمعها تجري
وإني لأدري أن حزني لا يفي   برزئي ولكن لا سبيل إلى الصبر
وكيف أذود القلب عن حسراته   وأهون ما ألقاه يصدع في الصخر
يلومني أني تجاوزت في البكا   وهل لأمري لم يبك في الحزن من عذر
إذا المرء لم يفرح ويحزن لنعمة   وبؤس فلا يرجى لنفع ولا ضر
وما كنت لولا قسمة الله في الورى   لأصبر لكنَّا إلى غاية نسرِ
لقد خفف البلوى وإن هي أشرقت   على النفس ما أرجوه من موعد الحشرِ

وقال من قصيدة يقرظ ديوان حافظ بك إبراهيم:

هيهات ليس لحافظٍ من مشبهٍ   في القول غير سميه الشيرازي
جاراه في حسن البيان وفاقه   في المنطق العربي بلا حجاز
لبق بتصريف الكلام يسوقه   ما شاء بين سهولة وعزاز
فإذا تغزل فالنفوس نوازع   وإذا تحمس فالقلوب نوازي
كالصارم البتار في إفرنده   وصقاله والمارن الهزهاز
حاك القريض بلهجةٍ عربية   أغنت عن الإسهاب والإيجاز
قد كان جيد القول عطلاً قبله   فحباه وأحسن حليةٍ وطرازِ
ملكت مودته القلوب فأصبحت   تلقاه بالتوقير والإعزازِ
لا زال يبلغ شأو كل فضيلةٍ   بمضاء صمصامٍ وصولة بازِ

وقال من قصيدة يصف روضة المقياس بالروضة بمصر ويشتاق لها:

هل في الخلاعة والصبا من بأس   بين الخليج وروضة المقياس
أرض كساها النيل من إبداعه   ولباسه الموشّى أي لباسِ
فكأنما هوت المجرة بينها   فتشكلت في جملة الأغراسِ
يتلهب النوار في أطرافها   فتخاله قبساً من الأقباسِ
تصبو العيون إلى سناه فترتمي   مهوى الفراشة لا مع النبراس
لو شام بهجتها وحسن روائها   فيما أظن لحار عقلُ إياسِ
يا ساقيّ تنبها فلقد بدا   فلق الصباحِ ولات حين نعاسِ
طوفي عليّ بها فقد نم الصبّا   أثناء روحته بسر الآسِ
ما كل ما طلب الفتى هو مدرك   إن الأمور بحكمة وقياسِ

وقال في بيتين:

أملتُ رجائي في غد فانتظرته   فما جاء حتى طال حزني على أمسي
وقلبت أمري فيك حتى إذا انقضت   وسائل ما آتى بكيت على نفسي

وقال من قصيدة وهو بسرنديب:

متى ترد الهيم الخوامس منهلاً   تبلّ به الأكباد وهي عطاش
أرى الغيث عم الأرض من كل جانب   وموضع رحلي لم يصبه رشاش
فهل نهلة من جدول النيل ترتوي   بها كبدٌ ظمآنة وحشاش
وهل من مقيلٍ تحت أفنان سدرةٍ   لها من زرابّى النباتِ فراش

وقال من قصيدة في الحكمة:

بادر الفرصة واحذر فوتها   فبلوغ العز في نيل الفرص
واغتنم عمرك إبان الصبا   فهو إن زاد مع الشيب نقص
إنما الدنيا خيال عارض   قلّما يبقى وأخبار تقص
فابتدر مسعاك واعلم أن من   بادر الصيد مع الفجر قنص
لن ينال المرء بالعجز المنى   إنما الفوز لمن هَمّ قنص
ميز الأشياء تعرف قدرها   ليست الفرةُ من جنس البرص
إنما الجاهل في العين قذى   حيثما كان وفي الصدر غصض
واحذر النمام تأمن كيده   فهو كالبرغوث إن ربَّ قرص
هذه حكمة كهل خابرٍ   فاقتنصها فهي نعم المقتنصُ

وقال مفتخراً:

لعمرك ما خفت حصاني لنازلة ولا ارتعد الفريضُ
وما قصرتُ في طلب المعالي ولكن ربما خاب الخريصُ

وقال من قصيدة في الغزل:

أين ليالينا بوادي الغضى ذلك عهد ليته ما انقضى
كنت به من عيشتي راضياً حتى إذا وليّ عدمت الرضا
أيام لهو وصبا كلمات ذكرتها ضاق عليّ الغضا

وقال من قصيدة بروض قوله للشعر:

ورب يوم طويل العمر قصَّرهُ جريُ السوابق والوخادة النشطُ
كأنما الوحش من تلهاب جمرته مبدداً تحت أشجار الغضى خبطُ
ترى القوم صرعى لا حراك لهم كأنهم من عتيق الخمر قد سقطوا
وليلة ذاتِ تهتان وأنديةٍ كأنما البرق فيها صارم سلط
لف الغمام أقاصيها ببردته وانهل في حجرتها وابل سبطُ
مزقتُ جلبابها بالخيل طائعةً مثل الحمائم في أجيادها الغلط
وقد تخلل خيط النور ظلمتها كأنما تخلل شعر اللمةُ الوخطُ
كأنما القطر درٌ في جوانبه يكاد من صرف الأزهار يلتقطُ
يوم من الدهر أهوى ما بذلت له ما شاء في مثله لو كان يشترطُ

وقال من الحكمة:

تمهل ولا تعجل إذا رمت حاجة فقد يلحق الخسران من يتورطُ
فذو الحزم يرعى القصد في كل حالة وذو الجهل إما مفرِط ومفرِّطُ

وقال من قصيدة في الغزل:

سكرت بخمر حديثك الألفاظُ وتكلمت بضميرك الألحاظُ
يا دمية لولا التقية لاستوت في حبها الفتاك والوعاظُ
ما لي منحتك خلتي وجزيتني نار لها بين الضلوع شواظ
هلا مننت إذا امتلكت فطالما منَّ الكريم وقلبه مغتاظُ
فلقد هجرت إليك كل عشيرتي فقلوبهم أبداً عليَّ غلاظُ
ونفيت عن عيني المنام فمالها غير المدامع والسهاد لماظ
فصلي محباً ما أصاب خطيئة في دين حبك والغرام حفاظِ
تأبى المضاجع لا تزور جفونه سنة الكرى وأولو الهوى أيقاظ

وقال من قصيدة:

متى أنت من أحموقة الغيّ نازع وفي النفس للشيب الأبية وازعُ
ألا أن في تسع وتسعين حجة لكل أخي لهو عن اللهو رادعُ
فحتام تصبيك الغواني بدلَّها وتهفو بليتيك الحمام السواجع
أما لك في الماضين قبلك زاجر يكفُّكَ عن هذا بلى أنت طامع
فلا تحسبن الدهر لعبة هازل فما هو إلا صرفه والفجائع
يود الفتى أن يجمع الأرض كلها إليه ولم يدر ما الله صالح

وقال من قصيدة في الغزل:

من لي بظبية خدر كلما وعدتْ بزورة أعقبت للوعد أخلافاً
تحكى الغزالة ألحاظاً إذا نظرت والورد خدّ وغصن البان عطافاً
تاهت بنقطةِ خال فوق وجنتها زيدت بها عثرات الحسن أضعافاً

وقال أيضاً:

حياتي في الهوى تلف وأمري فيه مختلف
أبيت الليل مكتئباً وقلبي في الحشا يجف
فنومي كله سهرٌ وعيشي كله أسفُ
وما أخفيه من وجدي وحزني فوق ما أصف
فهل من صاحب يرثى لما ألقى فينعطف
أيقتلني الهوى ظلُماً وما في الناس لي خلفٌ
أليس العشق سلطاناً له الألوان ترتجفُ
إذا كان الهوى خصمي فقل لي كيف انتصفُ

وقال في الغزل أيضاً:

أي قلب على صدودك يبقى أو لم يكف أنني ذبت شوقاً
لم تدع مني الصبابة إلاّ شبحاً شفهُ السقام فدقا
ودموعاً أسالها الوجد حتى غلبت أدمع الغمامة سبقا
فتصدق بنظرةٍ منك تشفى داء قلبٍ من الغرام مُلقى

وقال في الغزل أيضاً:

غلب الوجد عليه فبكى وتولى الصبر عنه فشكا
وتمنّى نظرة يشفي بها علة الشوق فكانت مهلكا
يا لها من نظرة ما قاربت مهبط الحكمة حتى انتهكا
نظرة ضم عليها هدبه ثم أغراها فكانت شركا
غرست في القلب مني حبه وسقته أدمعي حتى زكا

آه مــن بُــرح الــهــوى أن لــه بـيـن جـنـبـي مـن الـنـار ذكـا
كـان أبـقـى الـوجـد مـنـي رمـقـاً فـاحـتـوى الـبـيـن عـلـى مـا تـركـا
إن طـرفـي غـرّ قـلـبـي فـمـضـى في سبـيـل الـشـوق حـتـى هـلـكـا
قـد تـولـى إثـر غـزلان الـنـقـا لـيـت شـعـري أيّ وادٍ سـلـكـا

وإلى هنا أوردنا المختار من بعض قصائده وأشعاره ونختم هذه القصائد بالقصيدة التي قالها بعد وصوله لسيلان والمختارات التي أوردنا هي من الجزء الأول والثاني من ديوانه المطبوع إلى حرف الكاف فقط ولعل الجزء الثالث قد طبع ولم يكن عندي والقصيدة هي:

محا البين ما أبقت عيون المها مني فشبت ولم أقض اللبانة من سني
عـنـاءٌ ويـأسٌ واشـتـيـاق وغـربـة ألا شدَّ ما ألقاه في الدهر من غبنِ
فـأن أك فـارقـت الـديـار فـلـي بـهـا فؤاد أصقلته عيونُ المهى عنيِّ
بعثت به يوم النوى إثر لحظةٍ فأوقعه المقدار في شرك الحسنِ
فهل من فتى في الدهر يجمع بيننا فليس كلانا عن أخيه بمستغنِ
ولـمـا وقـفـنـا لـلـوداع وأسـبـلـتْ مدامعنا فوق الترائب كالمُزنِ
أهبت بصبري أن يعود فبزنى وناديت حلمي أن يثوبَ فلم يضنِ
ومـا هـي إلاَّ خـطـرةٌ ثـم أقـلـعـت بنا عن شُطوطِ الحيّ أجنحة السُّفنِ
ولـولا بُـنـيَّـاتُ وشـيـبٌ عـواطـل لما قرعتْ نفسي علي فائتٍ سنّي
يَـرىَ بـصـري مـن لا أود لـقـاءهُ وتسمع أذني ما تعاف من اللحن
تحملت خوض المنّ كل رزيّة وحمل رزايا الدهر أحلى من المنِّ

لم أجد فيما قرأت من رثى البارودي بعد موته بمصر سنة ١٣٢٢هـ وهكذا توفي البارودي مأسوفاً عليه بعد أن قضى السنين الطويلة في

منفاه بسيلان حتى عمى فعفا عنه الخديوي عباس حلمي ورد إليه مزارعه وترك بعد وفاته أولاداً من زوجته الثانية التي تزوجها في سيلان رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه جنان الفردوس مع الشهداء والصالحين آمين.

الإسلام في شعر أحمد شوقي

سادتي الأماثل:

إن موضوع مقالي هو (شوقي) ـ وأبدأ بنبذة من ترجمة حياته فأقول:

أحمد بن شوقي بن علي أمير الشعراء وشاعر الأمراء في زمانه، واسمه لم يزل أنشودة حلوة النغم وعطر يفوح على الدوام، توفيت والدته وهو صغير فكفلته جدته لأمه وكانت مربية أو وصيفة في بيت الخديوي إسماعيل وكان شوقي وهو صغير به حول في عينيه ينظر إلى أعلا، فمر يوماً إسماعيل وهو بتلك الحالة فقال لجدته، ما له هكذا يحول بعينيه؟ أجابت يا مولاي هكذا خلق، فأخرج إسماعيل من خزانته عدداً من الدنانير الذهبية ورمى بها أمامه فجعل شوقي يتطلع للأرض ويعبث بها فقال لها إسماعيل كيف ترينه الآن، قالت يا مولاي هذا الدواء لا يوجد إلا في صيدلية مولاي؛ ومن يومها كان إسماعيل يعطف عليه وعلى والده الذي كان أيضاً موظفاً في السراي، ولما أجلي إسماعيل لخارج مصر بعد أن أثقل كاهل مصر بالديون الفاحشة تولى بعده ابنه توفيق، فعاش شوقي في كنفه، وبعد دراسته الأولية ظهرت نجابته فجعل ينظم الشعر وهو لم يدرك الحلم فجعل يتابع دراسته فبعثه توفيق إلى أوروبا ليدرس الحقوق، وبعد أن نال بغيته رجع لمصر وتقلب في وظائف متعددة، وحين تولى عباس حلمي أريكة عرش مصر

التحق به شوقي وكان من أخص ندمائه وصاحب كلمته، وكان عباس ميالاً للاتحاديين ومعاكساً للإنجليز، فلما شبت الحرب العالمية الأولى كان عباس باستنبول دار الخلافة، ولعلم الإنجليز بميوله من الأتراك خلعوه عن مصر وجعلوا مكانه السلطان حسين كامل وأوحوا إليه بإجلاء شوقي عن مصر للخارج فأُوحى لشوقي أن يقلب ظهر المجن لبيت إسماعيل فأبت كرامته وأنشد قصيدته التي يقول من ضمنها:

أأخونُ إسماعيلَ في أبنائه ... ولقد وُلدتُ ببابِ إسماعيلا

واختار شوقي الذهاب إلى إسبانيا والإقامة في الأندلس لما يعلم من تاريخ مجد العرب أيام عزهم ومجدهم ودولتهم فيها، ذهب بزوجته وأولاده ومكث خمس سنوات يعاني آلام الغربة ويسجل فيها غرر قصائده وموشحاته التي تنم عن عبرة وأسى لمجد الإسلام الضائع بسبب الخلافات القبلية وتعدد ملوك الطوائف وخذلان بعضهم البعض لانهماكهم في الملذات وتركهم للجهاد واتخاذهم ألقاب الخلافة حتى في أصغر أمارة. ويقول المرحوم حافظ إبراهيم من قصيدة ترحيبية بعد رجوع شوقي لمصر بهذا المعنى ومطلع القصيدة:

ورد الكنانة عبقري زمانه ... فتنظري يا مصر سحر بيانه

منها:

واذكر لنا الحمراء كيف رأيتها ... والقصر ماذا كان من بنيانه

ماذا تحطم من ذراه وما الذي ... أبقت صروف الدهر من أركانه

ولعلّ نكبته هناك تفرق ... وتعدد قد كان في تيجانه

عِبَرٌ رأيناها على أيامنا ... قد خففت ما نابه من آنه

يقول المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل من فذلكة مقدمته التي قدم بها ديوان الشوقيات: إن شوقي وإن كان شاعراً لمصر والعرب والمسلمين كان فيه ازدواج في روحه بين حب الحياة ومتعها وبالإيمان ونعيم الآخرة، وقد أتيحت له المتع وبلهنية العيش لدى بيت إسماعيل وله ذاتيته التي لا تخفى، فهو شاعر الحكمة وشاعر اللغة العربية السليمة، وإنك لتعجب أكثر الأحيان حين ترى عنوان قصيدته فلا تجد غير أبيات معدودة من موضوع العنوان فقط وحكمة شوقي وما يصدر عنه من وصف أو مدح أو غزل يبدو وكأنه شرقي غربي بيد أنه لا يتأثر بالحياة الغربية إلا بمقدار لأنه شاعر العرب والإسلام وما دام يجد في الحضارة الشرقية ما يغنيه عن استعارة لبوس المدنية الغربية إلا بمقدار ما تحتاجه أمم الشرق في حياتها الحاضرة، ونراه يغلو في شرقيته وغربيته أحياناً كما نراه يتعمد ذلك في ألفاظها ومعانيها وسببه ما يراه من ضرورة النزعة القائمة في نفوس الكثيرين تصبو إلى نسيان ما خلف السلف للخلف من تراث والأخذ بكل ما ينبع به الحاضر من وراء الغرب. ويصفه السيد أحمد الهاشمي في ترجمة الشعراء في كتابه (جواهر الأدب) فيقول: هو شاعر النيل وأشعر شعراء العرب وأقدرهم على التصورات البديعة ينظم بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم وينظم ما شاء متى شاء لا يجهد فكره ولا يكبد خاطره في معنى أو مبنى، فأما المعنى فيأتيه على مرامه وأبعد من مرامه لأنه يستخلصه من عقل فوار الذكاء ومعارف جامعة من ـ أفانين الآداب من لغات الإفرنج والإعراب، فمن فلسفة بحقوق وحقائق التاريخ وغرائب السير التي حفظ منها إلى مشاركة علمية وتنبيهات فنية استقاها من مطالعاته في أنواع الكتب وجولاته وملاحظاته بين الشرق والغرب، وأما المبنى فله فيه

ذوق متعدد بتعدد مقام القول فنرى فيه من نسيج البحتري وصياغة أبي تمام ووثبات المتنبي ومفاجآت الرضي ومسلسلات مهيار إلى سلامة شعر البارودي. وفي سنة ١٩٢٤ أقيم حفل تكريمي جمع من وفود الأدباء بالجزيرة وأعيانهم وقدمت له فيه الهدايا وأثمن هدية كانت فيها هدية أمارة البحرين (شمامة منضدة باللؤلؤ الثمين) وقيلت فيه القصائد التكريمية وأكبرها كانت قصيدة زميله الشاعر الكبير المرحوم حافظ إبراهيم الذي بايعه على إمارة الشعر قائلاً من قصيدته المشهورة:

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً   وهذي وفود الشرق قد بايعت معي

ثم قام أخيراً شوقي وألقى قصيدة شكر لما لاقاه من الحفاوة وتقليده أمارة الشعر وكان افتقد في الحاضرين وفد الحجاز فتحسر أن لم يجد أحداً منهم فقال ضمن تلك القصيدة:

يا عكاظاً تألق الشرق فيه   من فلسطينه إلى بغدانه
قد فقدنا الحجاز فيه فلم   نعثر على قسّه ولا سحبانه

مع العلم أنه كان بالحجاز شعراء نابهون في بداية النهضة السعودية أمثال المرحوم محمد سرور الصبّان والشاعر الكبير محمد حسن عواد والأديب الممتاز السيد محمد سعيد العامودي والأستاذ الفاضل عبد الوهاب آشي وغيرهم لا أذكر أسماءهم، وأكبر ظني أن لم تبلغهم الدعوة وفيما بعد رد على قصيدة شوقي المرحوم الشاعر فؤاد شاكر ولكن بعد فوات الأوان. ولعلّنا نتساءل ماذا بقي من كرمة ابن هانىء بعد وفاة شوقي؟ وأجيبكم يا سادة أن وزارة الثقافة بمصر بعد مرور السنين الطوال تنبهت للاحتفاظ بما بقي فيه من أثاث وبناء فاشترته من

ورثته وحولته إلى متحف خاص ولم يبق في ذلك البيت الواقع على نهر النيل سوى بضع أثاث وبعض الكتب والأوسمة التي أهديت له من المؤتمرات والأمراء وكان حائزاً على البكوية وطامعاً في الباشوية فلم يحظ بها ولبى نداء ربه عام ١٩٣٢م بعد أن ترك من تراثه ديوان شعره وأرجوزة تاريخ الإسلام والعرب ومسرحياته التي لم يسبقه أحد بمثلها وقصائده التي تحتوي على مدائحه ومراثيه لكبار الزعماء من عرب ومسلمين ومراثيه المؤثرة لكبار العلماء والأدباء والمفكرين وأراجيزه التاريخية وموشحاته الأندلسية وغزله وخمرياته ولهوه ومجونه. وأصبح المتحف متحفاً خاصاً لعشاق الأدب وخاصة عشاق أحمد شوقي الراغبين في دراسة آثاره طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه.

ولنعد ثانية بعد هذه النبذة من تاريخ حياة شوقي لندلل على موضوع مقالنا الإسلام في شعر شوقي فأقول لكم لو لم يكن لشوقي غير قصيدته الهمزية وقصيدة نهج البردة، وقصيدة عرفات، لكن كافيات على الاستدلال لموضوع مقالنا، ولولا أن الوقت قصير لدللت لكم من تلكم القصائد وباقي قصائده المختارة الدليل الكافي الشافي، إلا أني سأذكر لكم بعض الأبيات من كل قصيدة اخترت منها أبياتاً سواء من المدائح النبوية أو مراثيه المؤثرة أو نبذ من تاريخه أو من موشحاته الأندلسية أو خمرياته أو تغزله. يقول في بدء همزيته:

ولد الهدى فالكائنات ضياء   وفم الزمان تبسم وثناء
يوم يتيه على الزمان صباحه   ومساؤه بمحمد وضاء
دين يشيد آية في آية   لبناته السورات والأضواء
بنيت على التوحيد وهي حقيقة   نادى بها سقراط والقدماء

ومن نهج البردة قوله:

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم   إلا على صنم قد هام في صنم
سرت بشائر بالهادي ومولده   في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم
أسرى بك الله ليلاً إذ ملائكه   والرسل في المسجد الأقصى على قدم
صلى وراءك منهم كل ذي خطر   ومن يفز بحبيب الله يأتمم
وقيل كل نبي عند رتبته   ويا محمد هذا العرش فاستلم

ويقول في قصيدة (عرفات):

إلى عرفات الله يا خير زائر   عليك سلام الله في عرفات
ترى الناس أصنافاً ومن كل بقعة   إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا فلا أنساب فيها تفاوت   لديك ولا الأقدار مختلفات

وباقي قصائده من كل ألوان الشعر لا تخلو من التمسك بالدين والأخلاق وبالوطنية الصادقة والإخلاص لخدمة العرب والمسلمين.

وهأنا أذكر لكم أبياتاً من مراثيه لبعض زعماء الأمة وأبدأ بمرثيته لزعيم الشباب وخادم الوطن وشهيد الأمة مصطفى كامل باشا:

المشرقان عليك ينتحبان   قاصيهما في مأتم والداني
يا خادم الإسلام أجر مجاهد   في الله من خلد ومن رضوان
لما مشيت إلى الحجاز مشى الأسى   في الزائرين وروع الحرمان
يا ليت مكة والمدينة فازتا   في المحفلين بصوتك الرنان
ليرى الأواخر يوم ذاك ويسمعوا   ما غاب عن قس وعن سحبان
المجد والشرف الرفيع صحيفة   جعلت لها الأخلاق كالبنيان
في ذمة الله الكريم وبره   ما ضم من عرف ومن إحسان

ومن المرثية الثانية رثاء الشهيد المعمر عمر المختار:

ركزوا رفاتك في الرمال لواء   يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم نصبوا مناراً من دم   توحي إلى جيل الغد البغضاء
ما ضرَّ لو جعلوا العلاقة في غير   بين الشعوب مودة وإخاء
في ذمة الله الكريم وحفظه   جسد ببرقة وسد الصحراء
لم تبق منه رحى الوقائع أعظما   تبلى ولم تبق الرماح دماء

المرثية الثالثة في الحسين بن علي رحمه الله وبالرغم من كراهته لانضمام الشريف لدول الأحلاف وخلع طوق الخلافة العثمانية قال:

لك في الأرض والسماء مآتم   قام فيها أبو الملائك هاشم
قعد لآل للفرْاءِ وقامت   باكيات على الحسين الفواطم
ويا أبا العلية البهاليل سل آباءك   الزهر هل من الموت عاصم
المناحات في ممالك أبنائك   بدرية العزاء قوائم
تلك بغداد في الدموع وعمان   وراء السواد والشام واجم
قد بنى الله بيتهم فهو باق   ما بنى الله ما له من هادم

ولننتقل إلى بعض أبيات في غزله وحسبك أن كانت من لحن عبد الوهاب. كقصيدة:

يا جارة الوادي طربت وعادني   ما يشبه الأحلام من ذكراك
مثلت في الذكرى هواك وفي الكرى   والذكريات صدى السنين الحاكي
ولقد مررت على الرياض بربوة   غناء كنت حيالها ألقاك
لم أدر ما طيب العناق على الهوى   حتى ترفق ساعدي فطواك
ودخلت في ليلين فرعك والدجى   ولثمت كالصبح المنور فاك
لا أمس من يوم الزمان ولا غد   جمع الزمان فكان يوم لقاك

وهناك أغانٍ خفيفة تأليف شوقي غناها وغيرها عبد الوهاب.

يا شراعاً وراء دجلة يجري في دموعي تجنبتك العوادي
وعلموه كيف يجفو فجفا ظالم لاقيت منه ما كفى

وله في الخمريات قوله:

رمضان ولّى هاتها يا ساقي مشتاقة تسعى إلى مشتاق
ما كان أكثره على ألا فيها وأقله في طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها إن كان ثم من الذنوب بواقي
بالأمس قد كنا سجيني طاعةٍ واليوم منَّ العيد بالإطلاق

حتى في خمرياته يشم منها رائحة الدين والاعتراف بالذنب وطلب المغفرة من الله.

وقال مؤرخاً ديوان شوقياته:

وجنان من الأشعار فيها جنى للمجتني من كل ذوق
تأمل كم تمنوها وأرخ لشوقيات أحمد أي شوق

وقال في فضل العلم والتعليم وواجب المعلم:

قم للمعلم وفه التبجيلا كاد المعلم أن يكون رسولا
أعلمت أشرف أو أجلّ من الذي يبني وينشىء أنفساً وعقولا
سبحانك اللَّهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
ربوا على الإنصاف فتيان الحمى تجدوهم كهف الحقوق كهولا
وإذا المعلم لم يكن عدلاً مشى روح العدالة في الشباب ضئيلا
وإذا المعلم ساء لخط بصيرة جاءت على يده البصائر حولا

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلا
وإذا النساء نشأن في أمية رضع الرجال جهالة وخمولا

سادتي:

بعد عرض هذه النماذج من قصائد شوقي الغر أقدم لكم نموذجاً من موشحاته الأندلسية ولم أجد أحسن من موشحته في صقر قريش (عبد الرحمن الداخل) ومطلع الموشح هو:

من لنضو يتنزى ألما برح الشوق به في الغلس
حن للبان وناجى العلما أين شرق الأرض من أندلس

هذه الموشحة الفريدة عارضها كثير من الشعراء، بيد أنها كانت المفضلة عليهم لما حوته من بلاغة التعبير والانسجام وأمثال الحكم وإثارة الهمم، وبدأها شوقي على لسان بلبل شريد عن عشه وجنانه وأهله وأوطانه وهو بهذا الوصف يصف نفسه النازح عن وطنه بغير ذنب جناه أو إثم اقترفه وإنما هو تحكم من الطغاة المحتلين واستمعوا لآخر مقال البلبل في هذا المخمس إن هو إلا حقيقة وعبرة لكل شريد وطريد:

قلت لليل ولليل عواد من أخو البث فقال أين فراق
قلت ما واديه قال الشجو واد ليس فيه من حجاز أو عراق
قلت لكن دمعةٌ غير جواد قال شر الدمع ما ليس يراق
نغبط الطير وما نعلم ما هي فيه من عذاب بئيس
فدع الطير وخطاً قسماً صير الأيك كدور الإنس

واستمعوا إليه يخاطب الشباب:

يا شباب الشرق عنوان الشباب ثمرات الحسب الزاكي النمير
حسبكم في الكرم المحصن اللباب سيرة تبقى بقاء ابني سمير
في كتاب الفخر للداخل باب لم يلجه من بني الملك أمير
في الشموس الزهر بالشام أنتمي ونما الأقمار بالأندلس
قعد الشرق عليهم مأتما وانثنى الغرب بهم في عرس

بعد هذا المخمس اللطيف أخذ يصف مآثر الداخل وسبب طياح عرش بني أمية بالشام وظهور داعية بني العباس أبو مسلم الخراساني وانهيار ملكهم على يده وانتقال الملك إلى بني العباس في شخص عبد الله السفاح الذي نكل ببني أمية وتتبع كل فرد منهم بالقتل ولم يرحم أحداً جزاء ما فعلوا بالبيت العباسي كل نفس بما كسبت رهينة فيحيي أمل البائسين واليائسين في مخمسه:

أيها اليائس مت قبل الممات أو إذا شئت حياة فالرجا
لا يضق ذرعك عند الأزمات إن هي اشتدت وأمل فرجا
ذلك الداخل لاقى مظلمات لم يكن يأمل منها مخرجا
قد تولى عزه وانصرما فمضى من غده ولم ييأس
رام بالغرب ملكاً فرمى أبعد الغمر وأقصى اليبس

ويقول في هذا المخمس من الحكم البليغة:

خذ من الدنيا بليغ العظة قد تجلت في بليغ الكلم
طرفاها جمعا في لفظة فتأمل طرفيها تعلم
الأماني حلم في يقظةٍ والمنايا يقظة من حلم

كل ذي سقطين في الجو سما واقع يوماً وإن لم يرمس
وسيلقي حينه نسر السما يوم تطوى كالكتاب الدرس

بعد كل ما ذكرنا ينبهنا الشاعر لمصير كل حي فيقول عن قصر المنية الذي بناه الداخل في قرطبة ودفن في قصره وقد هدم القصر ونُبش القبر ولم يبق ما يدل عليه إلا مكانه. أشار علينا قائدنا في قرطبة إبان زيارتي للأندلس من فوق القنطرة فلم أملك ورفيقي غير البكاء على مجد العرب الزائل وذكرت قول ابن خلدون:

لا تقوم للعرب قائمة إلا بالدين أيْ بتمسك دينهم وجهادهم في سبيل الله.

قصرك المنية في قرطبة فيه واروك ولله المصير
صدف خُطً على جوهرة بيد أن الدهر نباش بصير
لم يدع ظلاً لقصر المنية وكذا عصر الأماني قصير
فاتخذ قبرك من ذكر فما تبن من محموده لا يطمس
إن تسل أين قبور العظما فعلى الأفواه أو في الأنفس

وإلى هنا أختم مقالي يا سادة راجياً أن أكون برهنت على الإسلام في شعر أحمد شوقي، فقد لمحتم في كل تلك النماذج روحه العربية وإخوته الوطنية ونخوته الإسلامية ورحم الله شوقي ومن سار على نهجه من شعراء العربية وهيهات أن يأتي الزمان بمثله وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.